

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اختصار مقدمة المفسر رحمه الله

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد ، وافتتح خلقه واختتمه بالحمد ، فله الحمد في الأولى والآخرة في جميع ما خلق وما هو خالق .

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿ مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ وختمهم بالنبي الأمي مرسلًا إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة . قال الله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ وقال تعالى :

﴿ أنذركم به ومن بلغ ﴾ فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم وأسود وأحمر وإنس وجان فهو نذير له . كما قال تعالى : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ وحث الله عباده على فهم كتابه فقال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وقال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ وقال سبحانه : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفلها ﴾ .

فالواجب على العلماء : الكشف عن معاني كلام الله وتفسيره ، وطلبه من مظانه وتعلم ذلك وتعليمه . كما قال تعالى : ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبهوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

فقد ذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا ، بإعراضهم عن كتاب الله المتزل عليهم ولاشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله . فعلينا أيها المسلمون أن نتبهي عما ذمهم الله تعالى من أجله ، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المتزل إلينا وتعليمه ، وتفهمه وتفهمه . قال الله تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق .

ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . إعلموا أن الله يحبي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون . ﴿ وفي ذلك تنبيه على أنه تعالى كما يحبي الأرض بعد موتها ، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها ، والله نسأل أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم .

أحسن طرق التفسير :

ان أصح طرق التفسير : أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجملَ في مكان ، فإنه بُسِطَ في موضعٍ آخر . وإن أعياك ذلك ، فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن . قال الشافعي رحمه الله : كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو مما فهمه من القرآن : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ١ [ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه] يعني السنة فإن لم تجد تفسير القرآن بالسنة ، فارجع في ذلك لأقوال الصحابة رضي الله عنهم فإنهم أدري بذلك ، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح .

قال الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن ، والعمل بهن ، وهكذا فقد كانوا رضي الله عنهم لا ينتقلون إلى آية قبل أن يفهموا التي قبلها ، ويعملوا بها .

ومنه ترحمان القرآن : عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ابن عم رسول الله ﷺ فقد دعا له رسول الله ﷺ حيث قال : ٢ [اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل] ، وإذا لم تجد تفسير القرآن في القرآن ، ولا في السنة ، ولا في أقوال الصحابة ، فالتمس التفسير في أقوال التابعين : كمجاهد بن جبر ، وسعيد ابن جبیر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيب وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ؛ فإذا أجمعوا فيكون تفسيرهم حجة . وإن اختلفوا فلا يكون قولهم حجة على قول بعض .

أما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام . لما رواه محمد بن جرير بسنده عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ٣ [من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ]

مقعه من النار] وأخرجه الترمذي والنسائي عن سفيان الثوري به ورواه أبو داود مرفوعاً وقال الترمذي هذا حديث حسن .

لهذا فقد تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، كما روى شعبة بسنده عن أبي بكر الصديق أنه قال : « أي أرض تفلتي ، وأي سماء تظلتي إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

وأما من تكلم بما يعلم من كتاب الله لغةً وشرعاً فلا حرج عليه . وإن تخرج السلف عن التفسير ، محمول على الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه . وقد قال أبو عبيد بسنده عن مسروق قال : إتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله . وأكثر السلف قالوا هذا .

وقد روي عن السلف كثير من التفاسير ، وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ، فكذلك يجب أن يجيب على ما سئل عنه مما يعلمه لقوله جل وعلا : ﴿ لتبيننَّ للناس ولا تكتُمونه ﴾ ولما جاء في الحديث الذي روي من طرق :
٤ [من سئل عن علم فكتمه أجلم يوم القيامة بإجم من نار]

أوجه التفسير :

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : التفسير على أربعة أوجه :

١ : وجه تعرفه العرب من كلامها

٢ : وتفسير لا يعذر أحد بجهالته

٣ : وتفسير يعلمه العلماء

٤ : وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله

أما التفسير الذي تعرفه العرب من كلامها فهو باعتبار الكلمات اللغوية . والتفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته ، هو الحلال والحرام ، والتفسير الذي يعلمه العلماء هو : ما يستنبطونه من تفسير القرآن بالقرآن والحديث ، وما ينطوي عليه من معان لا يهتدى إليها إلا بعد علم قويم^(١) . وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله فهو المتشابه ، ومن ادعى علم المتشابه أحد سوى الله ، فهو كاذب .

(١) ولا يجوز أن يخالف التفسير - على أي حال - ظاهر القرآن .

٤ المقدمة : — السور المدنية والمكية — ليس في القرآن من الأعجمية إلا ما توافقت فيه اللغات

قال الله تعالى :

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلاّ الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا وما يتذكّر إلاّ أولو الألباب ﴾ .

السور المدنية والمكية :

عن قتادة قال : نزل في المدينة من القرآن : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم إلى رأس العشر . وإذا زلزلت وإذا جاء نصر الله . وسائر السور نزلت بمكة .

فصل : نفى القرطبي أن يكون في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية سوى بعض أسماء الأنبياء وأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالوا : وقع فيه مما يوافق الأعجمية مما توافقت فيه اللغات



(١) سُورَةُ الْفَاتِحَةِ
مَكِّيَّةٌ وَأَوَّلُهَا تَسْبِيحٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾



نزلت بعد سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أسماء الفاتحة :

فاتحة الكتاب ، أي فاتحة الكتاب خطأ ، وبها تفتح القراءة في الصلوات .
وأم الكتاب ، وأم القرآن . لأن معاني القرآن ترجع إلى ما تضمنته . والسبع المثاني
والقرآن العظيم ، وقد ثبت في الصحيح عند الترمذي وصححه ، عن أبي هريرة
قال : قال رسول الله ﷺ : ٥ [الحمد لله رب العالمين : أم القرآن وأم الكتاب
والسبع المثاني والقرآن العظيم] ويقال لها : الحمد ، والصلاة ، لقوله ﷺ عن ربه :
٦ [قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله :
حمدني عبدي ، الحديث . فسميت : الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها

ويقال لها الشفاء . لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعاً : ٧ [فاتحة الكتاب شفاء
من كل سُم] ويقال لها : الرقية . لحديث أبي سعيد الخدري حين رقي بها الرجل السليم
فقال له رسول الله ﷺ : ٨ [وما يدريك أنها رقية] ويقال لها : أساس القرآن . لما رواه
الشعبي عن ابن عباس أنه سماها أساس القرآن . قال : وأساسها بسم الله الرحمن الرحيم
وسمّاها سفيان بن عيينة الواقية وسمّاها يحيى بن أبي كثير الكافية لما جاء في بعض
الأحاديث المرسلة : ٩ [أم القرآن عوض من غيرها وليس من غيرها عوض منها] ويقال
لها : سورة الصلاة والكثر . ذكرهما الزنجشيري في كشافه .

نزولها :

نزلت سورة الفاتحة بمكة . قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية . فهي إذاً سورة مكّية

وقيل مدينة . وقيل نزلت مرتين بمكة ثم بالمدينة .^(١)

فضلها :

روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ١٠ [خرج رسول الله ﷺ على أبي بن كعب وهو يصلي فقال « يا أبي » فالتفت ، ثم لم يجبه ، ثم قال : « يا أبي » فخفض أبي ، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال : السلام عليك أي رسول الله فقال « وعليك السلام ، ما منعك أي أبي إذ دعوتك أن تجيبني ؟ » فقال أي رسول الله : إني كنت في الصلاة . قال (أولست تجدد فيما أوحى الله تعالى إليّ) استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴿ قال بلى يا رسول الله ، لا أعود . قال : « أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ؟ » قلت : نعم أي رسول الله . قال رسول الله ﷺ : « إني لأرجو أن لا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها » قال : فأخذ رسول الله بيدي ، يحدثني وأنا أتباطأ مخافة أن يبلغ قبل أن يقضي الحديث فلما دنونا من الباب ، قلت : أي رسول الله : ما السورة التي وعدتني ؟ قال : « ما تقرأ في الصلاة ... ؟ » قال : فقرأت عليه أم القرآن ، قال : [والذي نفسي بيده ، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان ، مثلها إنها السبع المثاني] ورواه الترمذي فذكره ... وعنده : ١١ [إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيه] ثم قال : هذا حديث حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده : عن أبي سعيد بن الملقى رضي الله عنه قال : ١٢ [كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ، حتى صليت ، قال فأتيت . فقال : « ما منعك أن تأتيني ؟ » قال : قلت : يا رسول الله لفي كنت أصلي قال : « ألم يقل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ » ثم قال : « لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد » قال فأخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج من المسجد ، قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قال : « نعم ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » [وهكذا رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق .

(١) والأصح : أنها نزلت في مكة لقوله تعالى : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني « أي لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة . وعليه ولما فرض الله الصلاة وكان ذلك بمكة تبين الحق واضحاً بأنها نزلت بمكة بدليل أن الفاتحة تقرأ في كل ركعة من الصلاة منذ أن فرضت الصلاة وبدليل الحديث . (قسمت الصلاة ...) وهي سبع آيات بلا خلاف إنما الاختلاف بالبسلة ... هل إنها آية من الفاتحة أم لا .

• حديث آخر :

وروى مسلم في صحيحه والنسائي في سننه بالسند عن ابن عباس قال ١٣ [بينا رسول الله ﷺ الله وعنده جبرائيل إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فتزل منه ملك فأثنى النبي ﷺ فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفاً منه إلا أوتيته] وهذا لفظ النسائي ولمسلم نحوه .

• حديث آخر :

وروى مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ١٤ [« من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج - ثلاثا - غير تمام » فقبل لأبي هريرة : إنا نكون خلف الإمام فقال إقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله : أثنى علي عبدي فإذا قال ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال الله سبحانه عبدي ، أو قال مرة : فوض إلي عبدي فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل ، فإذا قال ﴿ إلهنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال الله هذا لعبدي ولعبي ما سأل » [وهكذا رواه النسائي ...

« حكم قراءة الفاتحة في الصلاة »

فيه ثلاثة أقوال :

١ - تجب القراءة أي قراءة الفاتحة للإمام والمأموم والمنفرد لعموم الأحاديث الواردة في هذا الباب ١٥ [لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب] و ١٦ [من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج] أي غير تمام و ١٧ [لا تجزي صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن] وهذا ما عليه الشافعي رحمه الله .

٢ - لا تجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولا غيرها لاني الصلاة الجهرية ولا السرية ، لما رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال : ١٨

[من كان له ، امام فقراءة الإمام له قراءة] ولكن في سنده ضعف ورواه مالك عن وهب ابن كيسان عن جابر من كلامه . وقد روي هذا الحديث من طرق لا يصح شيء منها عن النبي ﷺ ، والله أعلم .

٣ إنه تجب القراءة على المأموم في السرية، ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ ١٩ : [إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنتصتوا ...] وذكر بقية الحديث ... وهكذا رواه أهل السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال ٢٠ [وإذا قرأ فأنتصتوا] وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً فدلّ هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي رحمه الله تعالى (١) .

(تفسير الاستعاذة واحكامها)

قال الله تعالى : ﴿ وإما يترغّبك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه سميع عليم . ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به شركون . ﴾ أي برهم قالت طائفة : من القراء وغيرهم : يتعوذ بعد القراءة . واعتمدوا على ظاهر سياق الآية . ولدفع الإعجاب عن النفس بعد فراغ العبادة ، واستغرب ذلك أبو بكر بن العربي . وقيل قول آخر : إن الاستعاذة تكون أول القراءة وبعدها . والمشهور الذي عليه الجمهور ، إنما الاستعاذة تكون قبل القراءة لدفع الموسوس عنها، ومعنى الآية عندهم : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ أي إذا أردت القراءة كقوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ﴾ الآية : أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة والدليل على ذلك : الأحاديث عن رسول الله ﷺ . روى أحمد بن حنبل رحمه الله عن أبي سعيد الخدري قال ٢١ : [كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبّر قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ولا إله غيرك » ثم يقول : « لا إله إلا الله (ثلاثاً) » ثم يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » ، من همزه (٢) ونفخه ونفثه] . وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان عن علي بن علي

(١) راجع الصفحة ١٩/ فيها متعلق بالبحث ...

(٢) الهزة : الموة وهي الحق . والنفخ : الكبّر . النفث : الشعر .

الرفاعي الشكري . وقال الترمذي : وهو أشهر شيء في هذا الباب . وقال أبو حنيفة رحمه الله ومحمد : الاستعاذة إنما هي للتلاوة وقال أبو يوسف بل للصلاة .

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للقم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطيب له . وهي لتلاوة كلام الله ، وهي استعاذة بالله ، واعتراف له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه ولا يقبل مصانعة ، ولا يدارى بالإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان . ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ، ولا يراه الشيطان . ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أي : استجير بجناب الله من الشيطان الرجيم ألا يضرني في ديني أو دنيائي أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه ، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ، لذلك أمر الله بالاستعاذة به من الشيطان .

وجمهور العلماء : أن الاستعاذة مستحبة ليست بمحتمة يأثم تاركها . قال ابن سيرين : إذا تعوذ مرة واحدة في عمره ، فقد كفى في إسقاط الوجوب ^(١) وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم واطب عايبها . وأنها تدرأ الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وأن الجهر بالاستعاذة أو الإسرار واحد قاله الشافعي - بالمعنى -

والشيطان مشتق من (شَطَنَ) إذا بَعُدَ . فهو بعيد بطبعه وبفسقه عن كل خير . والرجيم : أي أنه مرجوم أي مطرود من الخير كله . ^(٢)

« بسم الله الرحمن الرحيم »

روى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾) واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة « النمل » ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة ، أم أنها في الفاتحة دون غيرها ، أو أنها للفصل بين السور والأرجح أنها للفصل بين السور ، كما سبق من قول ابن عباس الذي رواه أبو داود أنفاً ومن قال أنها آية من

(١) و(٢) قلت : وحاصله : إذا قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : أي التحيي إلى الله واحتمى به من شر الشيطان المطرود من رحمة الله ومن كل خير من أن يضرني في ديني أو دنيائي أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه إلا الله تعالى .

الفاتحة ، فقد رأى الجهر بها في الصلاة ، والذين لم يروا ذلك فقد أسروا بها . ولكل من أصحاب القولين جماعة من الصحابة رأوا ما رأوا... والذي ثبت عن الخلفاء الأربعة أنهم كانوا يُسَرُّون بالبسملة ، وكذلك طوائف من سلف التابعين والخلف وهو أيضاً مذهب أبي حنيفة والثوري وابن حنبل وعند الإمام مالك : انه لا يقرأ البسملة لا جهرًا ولا سرًا وخلاصة القول : روي عن رسول الله ﷺ والأئمة أجمعوا على صحة من جهر ومن أسر .

- فضلها -

روى الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رحمه الله في تفسيره بسنده عن عثمان ابن عفان ٢٢ [سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فقال « هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين الاسم الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب »] .

وروى وكيع بسنده عن ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيهِ الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فيجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد . ذكره ابن عطية والقرطبي ووجهه ابن عطية رخصه بحديث ٢٣ : [لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكا يبتدرونها لقول الرجل : ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه] من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفاً .

ومن حديث بشر بن عمارة عن الضحاك عن ابن عباس قال : [إن أول ما نزل به جبريل على محمد ﷺ قال ٢٤ (يا محمد قل أستعذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال : قل : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾] وروى النسائي في اليوم والليلة وابن مردويه في تفسيره من حديث خالد الحذاء عن الهجيمي عن أبي مليح بن أسامة بن عمير عن أبيه قال ٢٥ : (كنت رديف النبي ﷺ عثر بالنبي ﷺ فقلت : تعس الشيطان فقال النبي ﷺ « لا تقل هكذا فإنه يتعظم حتى يكون كالبيت ولكن قل : بسم الله فإنه يصغر حتى يكون كالذباب »] فهذا من تأثير بركة بسم الله .

وتستحب البسملة عند دخول الخلاء ، وعند أول الوضوء ، وعند الأكل وعند الذبيحة وبعضهم أوجبها عند الذبيحة ، وتستحب عند الجماع لما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ٢٦ : (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً]

﴿ الله ﴾ علم على الرب أي اسم للرب تبارك وتعالى ، ويقال إنه الاسم الأعظم . لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يستبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٢٧ (إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة) (١) ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة . ﴿ الرحمن ﴾ أشد مبالغة من الرحيم . والرحمن مشتق بخلاف من زعم أنه غير مشتق وسيأتي تفصيل ذلك في تفسير ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ عند تفسير سورة الفاتحة إن شاء الله تعالى وبه التوفيق وعليه التكلان .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١ ﴾

﴿ الحمد لله ﴾ الشكر له خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصوها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد من غير استحقاق منهم ذلك عليه . فلو ربنا الحمد على ذلك أولاً وآخراً .

والألف واللام في الحمد ، لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى ، كما جاء في الحديث : ٢٨ [اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وببذك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ...] الحديث .

﴿ رب العالمين ﴾ الرب : هو المالك المتصرف . ولا يقال « الرب » معرباً بالألف واللام إلا لله تعالى . ولا يجوز استعمال كلمة الرب لغير الله إلا بالإضافة ... فنقول : رب الدار ، ورب السيف ، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل .

(١) قلت : . ومعنى أحصاها . : أي فهم معناها حق الفهم وعمل بحقها . وحققها أن يكون موحداً بها توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية من كل جوارحه . وفي قرارة نفسه ، ثم مات على ذلك من التوحيد الخالص دون أن يخل بأي معنى من معانيها . وله من العمل ما لا ينافيها لا قولاً ولا اعتقاداً دخل الجنة . أما فهم معنى الإحصاء بالحفظ غيباً . ، فإن كثيراً من الناس من يحفظها ويفيها عن ظهر قلب ويرددها بسرعة دون تفهم لمعانيها وله من العمل ما ينافيها فهذه المناقاة نقض للقول !! ومثل هذا ... لا يكون قد أحصاها إذ ليس المقصود من الإحصاء إلا الفهم والإخلاص لما فهم . والعمل بما فهم . على وجه مطابق لمراد الله تعالى . ولما بلغ رسول الله (ص) .

﴿ العالمين ﴾ جمع عالم . وهو كل موجود سوى الله جل وعلا والعالم جمع لا واحد له من لفظه . والعوالم أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر فالإنس عالم ، والجن عالم ، والملائكة عالم... وهكذا قال بشر بن عمار بسنده عن ابن عباس: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ الحمد لله الذي له الخلق كله في السموات والأرض وما فيهن وما بينهن مما نعلم ومما لا نعلم .

(الرحمن الرحيم) ٢

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ إسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، والرحمن أشدُّ مبالغة من الرحيم . والرحمن مشتق بخلاف من قال وزعم أنه غير مشتق ودليل ذلك ما أخرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ٢٩ : [قال الله تعالى : أنا الرحمن خلقتُ الرحيمُ وشَقَّقتُ لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته] قال هذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق .

روى ابن جرير بسنده عن العزرمي يقول : ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الرحمن لجميع الخلق ^(١) الرحيم قال بالمؤمنين . قالوا ولهذا قال ﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾ وقال : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فذكر الاستواء باسمه الرحمن ، ليعم جميع خلقه برحمته . وقال : ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ فخصَّتهم باسمه الرحيم . قالوا : فدلَّ على أن الرحمن أشدُّ مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين ^(٢) .

(١) قلت: (الرحمن) أي يرحم أهل الدنيا والآخرة و (الرحيم) خاص بالمؤمنين يوم القيامة . إن الله يرحم المؤمنين والكافرين في الدنيا على السواء وذلك من نواحي أمورهم المعاشية ، وأسباب حياتهم ، وما يكفل لهم حياتهم الدنيا . فرحمته هنا عامة وإذا لم تكن الرحمة هذه عامة ، لا تتكامل أسباب التكليف من الإنعام عليهم بنعمة العقل الذي بواسطته يعرفون الحق من الباطل ، ونعمة تسخير ما في الكون ليستفيد منها أهل الأرض من الإنس والجن «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً» فتكامل أسباب التكليف في الدنيا سيكون عليه في الآخرة مدار الحساب .

(٢) قلت: . وأما ما جاء في الدعاء المأثور: .: ٣٠ (يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها) . فقوله رحيماً محمول على معنى أنه يرحم المؤمنين في الدنيا فيما أطاعوه من الإيمان به ، وتنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيهِ وتسهيل سبل ذلك لهم . ويرحمهم في الآخرة بإدخالهم الجنة جزاء ما أسلفوا من إيمان وطاعة ؛ فطاعتهم له في الدنيا رحمة منه تعالى ، وجزاؤهم بالجنة ، رحمة منه تعالى وهذا معنى قوله : ورحيمهما والله أعلم .

وقال القرطبي : إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين ، ليكون من باب الترغيب بعد التهيب . فالرحمن الرحيم فيه ترغيب جاء من بعده رب العالمين ، الذي فيه تهيب وذلك مطابقة للآية : ﴿ نبيء عبادي أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٣١ [لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد] ﴿ الرحمن ﴾ اسم ليس للناس أن يتحلوه ، ولا يجوز أن يسمى أحد من الناس به . فهو خاص به تعالى ، ولما تجهرم مسيلم الكذاب ، وتسمى بـ / رحمن اليمامة / كساه الله جلاباب الكذب وشهر به ، فلا يقال إلا : (مسيلم الكذاب) وصار يضرب به المثل بين أهل الحضرة والبادية فيقال : (أكذب من مسيلم) .

(مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٣)

قرأ بعض القراء : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وقرأ آخرون ﴿ مَالِكِ ﴾ وكلا القراءتين صحيح متواتر في السبع . ويقال ﴿ مَلِكِ ﴾ بكسر اللام وإسكانها . وليس تخصيص المَلِكِ بيوم الدين خاصاً بيوم الدين من غير الدنيا ، فهو مالك يومتي الدنيا والدين لأنه تقدم الإخبار بأنه رب العالمين . وذلك عام في الدنيا والآخرة ؛ إنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي هنالك أحد شيئاً غيره ولا يتكلم أحد إلا بإذنه كما قال تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿ مالك يوم الدين ﴾ يقول لا يملك من أحد في ذلك اليوم كملكهم في الدنيا أن يقول أحد - تجوزاً - هذا ملكي ... هذا مالي . . أما هناك أي في يوم القيامة ليس لأحد ملك ولا مال .

﴿ يوم الدين ﴾ يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . إلا من عفا عنه . اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفُ عنا .

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٤)

﴿ إِيَّاكَ ﴾ مفعول قدّم للحصر ، ليحصر مراد المتكلم فيما يريد أن يفصح عنه ، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة . والعبادة في اللغة من الذلة ، يقال طريق معبد ، وبعبير معبد ، أي مذلل . وفي الشرع عبارة عما

يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن وسرها - أي سر الفاتحة - هذه الكلمة : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فالأول أي : ﴿إياك نعبد﴾ تبرؤ من الشرك . والثاني أي : ﴿وإياك نستعين﴾ تبرؤ من الحول والطول والقوة . والتفويض إلى الله عز وجل .

وفي هذه الآية : تحوّل الكلام من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطب بكاف الخطاب بقوله ﴿إياك﴾ وذلك مناسب ، لأن العبد لما حمد الله وأثنى عليه ومجّده وتبرأ من عبادة غيره ، ومن الاستعانة بسواه فكأنه اقترب من الله عز وجل ، وأصبح حاضراً بين يديه تعالى ، فناسب أن يخاطبه بكاف الخطاب بقوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿إياك نعبد﴾ يعني إياك نوحّد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ﴿وإياك نستعين﴾ أي على طاعتك ، وعلى أمورنا كلها وإنما قدم ﴿إياك نعبد﴾ على ﴿وإياك نستعين﴾ ، لأن العبادة هي الغاية ، والاستعانة هي الوسيلة إليها .

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

لما تقدّم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال :

٣٢ [فنصفها لعبدي ولعبدي ما سأل] وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته ، وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وفي هذا دليل على الحُضُّ على التوسّل بالصفات العلى وبالأعمال الصالحة ، فقد حمد الله وأثنى عليه ومجّده بصفاته ، رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، ثم افرده بالعبادة والاستعانة . فبعد أن قدم بين يدي ربه هذه الأعمال الصالحة تقدم منه سائلاً حاجته وهي أن يهديه وإخوانه المؤمنين صراطه المستقيم الذي هو الإسلام الصحيح الخالي من الزيادة والنقصان ، النقي من كل بدعة وخرافة ، هذا الصراط الذي هو أقرب الطرق للوصول إلى ما يحب الله ويرضى طبق ما أمر ، وبلغ رسوله ﷺ . وإذا أمعن المسلم في آيات القرآن فإنه يرى جميع آيات الدعاء ، لا بد أن يسبقها توسل إليه تعالى ، إمّا بذات الله ، أو بأسمائه الحسنى ، أو صفاته العلى ، أو بالأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلى ربه ، أو أن يتوسل إليه بدعاء إخوانه المؤمنين له أو بدعائه لهم .

قال الله تعالى : على لسان ذي النون عليه السلام ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فإن ذا النون لما ابتلعه الحوت لم يجد من التوسل إلى الله أقرب من توحيدته تعالى

وتتزيه ، والإقرار والاعتراف بذنبه الذي ظلم به نفسه . فهذا الإقرار بالذنب ، والمصحوب بالندامة على ما فرط هو بمثابة التوبة إليه تعالى ، والتوبة ولا شك من أمهات الأعمال الصالحة التي يتقبلها الله وسيلةً إليه للمغفرة . وشواهد القرآن كثيرة من هذا القبيل ومن ذلك قوله تعالى على لسان أبونا آدم وحواء : ﴿لما اقترفا الخطيئة﴾ ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وتلك هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتأب عليه . وكذلك قوله تعالى: ﴿ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا﴾ ولا شك أن الإيمان بالله ورسول الله ﷺ رأس الأعمال الصالحة فبعد أن قدموا بين يدي الله من هذا العمل الصالح وهو الإيمان به ﷺ بادروا الى ذكر حاجتهم بطلب الغفران فقالوا : ﴿... ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾ وهذا تعليم منه تعالى كيف نتوسل إليه ... (١)

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۚ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧)

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ مفسّر للصراط المستقيم . والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال الله تعالى ﴿ومن يقطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾ . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا ﴿وقال الضحّاك عن ابن عباس : صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين وذلك نظير ما قال ربنا تعالى ﴿ومن يقطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ . وقوله تعالى : ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ أي غير صراط المغضوب عليهم . المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه وغير صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم هائمون في الضلالة ، لا يهتدون إلى الحق وأكد الكلام بـ ﴿لا﴾ ليدل أن تمّ مسلكين فاسدين وهما : طريقة اليهود وطريقة النصارى .

وإن طريقة أهل الإيمان مشتملةٌ على العلم بالحق والعمل به واليهود فقدوا العلم والنصارى فقدوا العلم ، ولهذا كان الغضب لليهود ، والضلال للنصارى . لأن من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم . والنصارى كما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إليه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابهِ وهو اتباع الحق ... ضلّوا ... وكل من اليهود والنصارى ضالّ مغضوب عليه . لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى : ﴿قد ضلوا من قبل

وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل» روى حماد بن سلمة عن عدي بن حاتم قال : ٣٣ [سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : «غير المغضوب عليهم» قال : اليهود «ولا الضالين» قال النصارى هم الضالون .] وهكذا رواه سفيان بن عيينة بسنده عن عدي ابن حاتم . وروى ابن مردويه عن أبي ذر قال : ٣٤ [سألت رسول الله ﷺ عن «المغضوب عليهم» قال : اليهود . قلت و «الضالين» قال : النصارى .]

والخلاصة :

قد اشتملت هذه السورة الكريمة - وهي سبع آيات - على حمد الله ، وتمجيده ، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلى وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين وعلى إرشاد عباده إلى سؤاله والتضرع إليه ، والتبرؤ من حولهم وقوتهم وإلى اخلاص العبادة له وتوحيده توحيد الألوهية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل . وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه حتى يقضي لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة ، المفضي إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، وعلى الترهيب والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون .

وما أحسن ما جاء في إسناد الإنعام إليه سبحانه في قوله تعالى : «صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم» وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى «غير المغضوب عليهم» وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة . كما قال تعالى : «من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً» وقال : «ومن يضل فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون» إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المتفرد بالهداية والإضلال . لا كما تقول الفرقة القدريّة ومن هذا حذوهم : إن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ويمتحنون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم وهذا حال أهل الضلال والغي ، وقد ورد في الحديث الصحيح ٣٥ [إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم] يعني الذين وصفهم الله في قوله تعالى : «فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» فليس بحمد الله لمبتدع في القرآن حجة . لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل ، مفرقاً بين الهدى والضلال ،

وليس فيه تناقض ولا اختلاف ، لأنه من عند الله تنزيل من حكيم حميد . (١)

ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها : آمين ، ومعناه : اللهم استجب . والصحيح : أنه يستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ؛ ويتأكد في حق المصلي سواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً وفي جميع الأحوال . لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : ٣٦ (إذا آمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) ولمسلم : أن رسول الله ﷺ قال : ٣٧ (إذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه) . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ ٣٨ (أعطيت « آمين » في الصلاة وعند الدعاء لم يعط أحد قبلي إلا أن يكون موسى ، كان موسى يدعو وهارون يؤمن فاختموا الدعاء بـ « آمين » فإن الله يستجيبه لكم .]

ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة وهي قوله :

﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا لبضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾

(١) قلت . : لا شك ولا ريب أن الهداية والإضلال من الله تعالى . ولكن ليس هناك من شيء إلا وله سبب . فلما كان العناد والكفر حاصلين من قبل المشركين والكفار بعد بيان الحجة وقياسها عليهم ... كان من المناسب أن يعاقبهم الله على عنادهم وكفرهم من جنس العمل . فمأقبهم بأن مدمهم في الضلال كما في قوله تعالى . : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وقوله سبحانه « وأما من يحل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » فكان جزاء وفاقاً .

أما المؤمنون فإنهم لما أصبوا إلى الحق وأخلصوا النية بالفهم والتعقل وآمنوا كان من المناسب أن يكافئهم من جنس العمل فيسر لهم طريق الهداية ومدمهم بزيادة من الفهم والعقل والإيمان ... كما في قوله تعالى . : « وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » فكان ذلك جزاء وفاقاً .

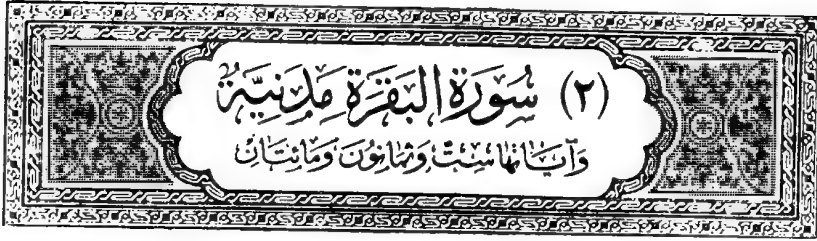
ومما هو معلوم أن الهداية والإضلال من الله خلق . فهو الذي هدى المؤمنين بسبب استجابتهم للإيمان ، وأضل الكافرين بسبب عنادهم وإعراضهم . فكان كما قلنا جزاء وفاقاً وهذا هو الذي روى إليه المؤلف « ابن كثير » رحمه الله بقوله : (لا كما تقول الفرقة القدريّة ومن هذا جذوهم أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه) أي الضلال والهدى لأن الهادي والمضل هو الله تعالى ولكن العباد يهتدون الأسباب وهذه الأسباب هي التفهم والعمل من المؤمنين . والعناد والاعراض من الكافرين . وهذه أفعال اختيارية محضة والاختيار عليه مدار الثواب والعقاب أما الهداية نفسها ، والإضلال نفسه . فهما قطعاً من الله تعالى ولو أن الهداية من نفس المؤمن واختار فيها ... لما طلبها منه تعالى بقوله . : « اهدنا الصراط المستقيم » وقوله « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ... » والله سبحانه وتعالى أعام وهو الموفق للصواب .

فذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون آمنَ فنزل منزلة من دعا، لقوله تعالى: ﴿قد أجيب دعوتكما﴾ فدل ذلك على أن من آمنَ على دعاء فكأنما قاله . فلهذا قال من قال أن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها . فدل هذا المنزاع ايضاً على ان المأموم لا قراءة عليه في الجهرية والله أعلم .^(١)

«

(١) قلت : وهذا هو الحق الموافق لما جاء في القرآن من قوله تعالى : « وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » فالاستماع والانصات أمر من الله تعالى حتى نرحم . فإذا استمعنا وأنصتنا تفرغ القلب للفهم . وإذا فهمنا مراده تعالى ، علمنا بمقتضاه ، فیرحمنا الله جزاء ما علمنا بما فهمنا . أما إذا قرأ الإمام جهراً ونحن قرأنا معه فلا نستطيع في آن واحد فهم ما نقرأ وفهم ما نسمع . وإذا لم يحصل الفهم لا يحصل العمل . وإذا لم يحصل العمل فلا نرحم . وكذلك فإنه موافق لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ٣٩ : (إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا ...) الحديث . هذا في الصلاة الجهرية أما في الصلاة السرية فتجب قراءة الفاتحة وراء الإمام وهذا يأتي دور الحديث ٤٠ : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) والله تعالى أعلم

بسم الله الرحمن الرحيم



وهي أول سورة نزلت في المدينة بعد سورة المطففين التي نزلت آخر سورة في مكة قبل الهجرة.

فضلها :

روى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي من حديث سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ٤١ [لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان] وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ٤٢ : [بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال : « ما معك يا فلان فقال معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال « أمعك سورة البقرة ؟ » قال : نعم ، قال : « إذهب فأت أميرهم » فقال رجل من أشرافهم والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا أني خشيت أن لا أقوم بها فقال رسول الله ﷺ : « تعلموا القرآن واقرءوه فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به ، كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه في كل مكان ، ومثل من تعلمه فتركه وهو في جوفه كمثل جراب أوكني على مسك] . حديث حسن . وروى البخاري عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال ٤٣ : [بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس . فسكت ، فسكنت . فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكنت . ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحكي قريباً منها ، فأشفق أن تصيبه ، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال : « إقرأ يا ابن حضير » قال قد أشفقت يا رسول الله على يحيى ، وكان منها قريباً ، فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها قال « وتدرى ما ذاك » قال لا ، قال « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم » [قال بعض العلماء إنها - أى سورة البقرة - مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهي .

ما ورد في فضل سورة البقرة مع سورة آل عمران :

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قرأ بسورتي البقرة وآل عمران في ركعة واحدة .
 روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال : ٤٤ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : [اقرأوا القرآن فانه شافع لأهله يوم القيامة إقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف ، يحاجّان عن أهلها يوم القيامة] ثم قال : « اقرأوا البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة [وقد رواه مسلم . الزهراوان - المنبرتان . والغياية - ما أظلك من فوقك . والفرق - القطعة من الشيء . والصواف - المصطفة المتضامّة . والبطلة - السحرة .

ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها ، وقيل لا تستطيع النفوذ في قارئها والله أعلم .

نزلوها :

سورة البقرة : جميعها نزلت في المدينة . وهي أول ما نزل من السور فيها لكن قوله فيها : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ... الآية ﴾ يقال إنها آخر ما نزل من القرآن ، وكذلك آيات الرّبا من آخر ما نزل .

قال ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وزيد بن ثابت : نزلت بالمدينة سورة البقرة وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آلم)

التفسير :

﴿ آلم ﴾ وجميع فواتح السور اختلف المفسرون في تفسيرها .

١ - : فمن قائل : هي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه بها والله أعلم بمراده منها .

٢ - : ومن قائل أنها أسماء الله تعالى .

٣ - : ومن قائل إنّ لها معاني ، ولم ينزلها الله عبثاً ولا سدى بخلاف من قال من الجهلة إنّ في القرآن ما هو تعبّد لا معنى له بالكلية ، فقد أخطأ خطأ كبيراً . وعليه فإن فواتح السور لها معنى ولا شك . فإن صحّ لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به ، وإلا وقفنا

حيث وقفنا وقلنا: ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ أما الحكمة من إيراد هذه الحروف، فقد قال بعضهم :

٤ - : لتنبية المشركين حتى يسمعوا كلام الله. وهذا ضعيف جداً لعدم وجود الأحرف المقطعة في كل السور. ثم إن هذه السورة سورة البقرة والتي تليها «آل عمران» نزلتا في المدينة وليس فيها مشركون (١).

٥ - ومن قائل أن فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته وإلى هذا ذهب كثير من المحققين، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية ودليل ذلك أن جميع الأحرف المقطعة الواردة في القرآن، يأتي بعدها ذكر القرآن وتنزيله عن رب العالمين . مثال ذلك ﴿ألم . ذلك الكتاب﴾ . ﴿حم ... والكتاب المبين﴾ ، ﴿ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب﴾ ﴿الر . كتاب أنزلناه إليك ...﴾ .

﴿ذَلِكَ أَلِكِتْبُ لَا رَبِّبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

﴿ذلك﴾ معناه : هذا . وكثير مثل ذلك في لغة العرب. والقرآن الذي هو المثل الوحيد للغة العرب أتى بهذا الأسلوب . قال تعالى :

﴿لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك﴾ وقال تعالى : ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم﴾ وقال تعالى ﴿ذلكم الله ربكم﴾ .

﴿الكتاب﴾ فسر بالتوراة والإنجيل ، وهذا بعيد جداً وتكلف ما لا علم لهم به . والحق أنه القرآن .

﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه . ومنهم من قرأ : ﴿ذلك الكتاب لا ريب﴾ فوقف. ثم قرأ : ﴿فيه هدى للمؤمنين﴾ ولكن الوقوف على ﴿لا ريب فيه﴾ ثم متابعة قراءة : ﴿هدى للمؤمنين﴾ أولى ؛ باعتبار أن الهدى صفة له جميعاً وذلك أبلغ من كون فيه هدى ... أي فيه هدى وفيه غير ذلك .

﴿هدى للمؤمنين﴾ أي نوراً للمؤمنين أي المؤمنين الذين يتقون الشرك بالله ويوحّدونه

(١) قلت: : وما يزيد في ضعف هذا القول ... أن الاحتجاج بما في القرآن قد يكون في وسط السورة أو آخرها حسب المناسبة والاستشهاد، وهناك ليس من أحرف مقطعة أيضاً حتى يقرأها لينبها المشركين إلى ما سيقول من الحق .

ويعملون بطاعته ، ويخافون عذابه ، ويرجون رحمته ، ويتقون حرماته . وهذا موافق للمعنى في الآية التي بعدها ، والتي فيها صفات المؤمنين المتقين الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

« الإيمان » هو التصديق قولاً وعملاً واعتقاداً . يزيد بالطاعات ، وينقص بالعصيان . والإيمان بالوصف المتقدم ، يولد الخشية لله تعالى ، فلا يعمل المؤمن ذو الخشية من الله أعمالاً أو يعتقد عقائد ، أو يقول قولاً يخالف أمر الله .

والإيمان ﴿ بالغيب ﴾ هو إيمانك بالشيء دون أن تراه . وإيمانك هو تصديق ، بل شدة تصديق للذي بلغك . والإيمان بالغيب في مفهوم الشرع : هو الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وبالبعث بعد الموت وبالجنة والنار ، فهذا غيب كله . ﴿ ويقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ الصلاة في الأصل الدعاء ثم استعملت في الشرع في العبادة ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة ، في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة ، وصفاتها وأنواعها المشهورة التي فرضها الله على عباده خمس مرات في اليوم والليلة وهي الركن الثاني من أركان الإسلام .

وإقامتها : أي المحافظة عليها في مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها وإتمام قيامها وركوعها واعتدالها وسجودها وتلاوة القرآن فيها ، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ فهذه إقامتها .

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ كانت النفقة ، نفقة الرجل على أهله قبل أن تنزل الزكاة . والمراد هنا النفقة من الصدقة والزكاة . وأولى الناس بذلك القربات والأهلون والمماليك ثم الأجانب . والنفقة تكون ولا شك لوجه الله وطاعة له . لا طمعاً في ثواب أحد من المخلوقين أو خوفاً من عقابهم ... إنما طمعاً في ثواب الله ورضاه ، وخوفاً من سخطه وعقابه وحده لا شريك له وكل نفقة - نفلاً - كانت أو فرضاً - داخلة في قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ٤٥ [بُنِيَ الإسلام على خمس . شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت] . وسيأتي الكلام مفصلاً عن الزكاة إن شاء الله .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾
﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ أي الذين يصدقون بهذا القرآن الذي أنزل إليك
من ربك .

﴿وما أنزل من قبلك﴾ أي يصدقون بما جاء به الرسل من قبلك من التوراة والإنجيل
والزبور والصحف الأخرى ولا يفرقون بين الرسل ولا يجحدون ما جاءهم به من ربهم .
﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ اليقين ضد الشك لا يخامرهم أدنى شك بالآخرة أي البعث
والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان . والآخرة إنما سميت آخرة لأنها بعد الدنيا .

وهؤلاء هم المؤمنون عامة من العرب وأهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول ﷺ وكل
من آمن به وصدق به من الإنس والجن وكان متحققاً بمعنى ما سبق من أوصاف المؤمنين في
الآيات المتقدمة إلى يوم القيامة ، أولئك ﴿على هدى من ربهم﴾ أي على نور وبيان
وبصيرة من الله تعالى ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الناجحون بما طلبوا من الله بأعمالهم
وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب والخلود في الجنات ، والنجاة مما أعد الله
لأعدائه من العقاب والعذاب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿إن الذين كفروا﴾ أي الذين غطوا الحق وستره ، وكفروا بما أنزل على محمد ﷺ
علم الله منهم أنهم سيكفرون عندما تأتيهم الآيات ، فقدّر ذلك عليهم وكتبه ، فهؤلاء
لن يؤمنوا ، فسواء عليهم أأنذرتهم يا محمد أم لم تنذرهم فإنهم استحبوا الكفر على الإيمان
وجحدوا ما آتاهم الرسول من البينات عن ربه . وكان هذه الآية تسليّة للرسول صلى الله
عليه وسلم وتعزية له . لأنه كان يحرص على أن يؤمن الناس جميعهم ويتابعوه على الهدى
فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلاّ من سبق علم الله بهم أنهم سيؤمنون بالرسول صلى الله عليه
وسلم ، وسبقت لهم من الله السعادة والحسنى ولا يضل إلا من علم الله منهم أنهم سيكفرون ،
وسبقت لهم من الله الشقاوة والعياذ بالله تعالى . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وبلغهم
الرسالة ﴿فلما عليك البلاغ وعلينا الحساب . إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ .

﴿ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧ ﴾

قال قتادة في هذه الآية : إستحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فحتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون . يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقوله ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ وشبه ذلك في القرآن كثير ... وفيه دلالة على أن الله تعالى حتم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً ، على تماديهم بالباطل وتركهم الحق ، وهذا عدل منه تعالى .

وفي الحديث : ٤٦ [يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك] وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٧ [إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه . فإن تاب ونزع واستعتب ، صقل قلبه وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الرآن الذي قال الله تعالى : ﴿ كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾] وهكذا فقد ذكر الله تعالى في الآيات الأولى : حال المؤمنين ، ثم ذكر في هاتين الآيتين حال الكافرين ، ثم شرع تعالى في بيان حال المنافقين ، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ولما كان أمرهم يشبه على كثير من الناس ، أطلب الله في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق . قال الله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا لَيْتُمْ أَلَاخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٨ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٩ ﴾

« النفاق » هو إظهار الخير وإسرار الشر . وهو نوعان :

اعتقادي : وهو الذي يخلد صاحبه في النار أبداً

وعلمي : وهو من أكبر الذنوب ، وقد نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ، لأن مكة لم يكن فيها نفاق ، بل كان خلافه ؛ فمن الناس من كان يظهر الكفر مستكراً وهو في الباطن مؤمن ، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ، وكان فيها الانتصار من الأوس والخزرج ، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب ؛ وفيها

اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم وكانوا ثلاث قبائل :

١ - بنو قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، ٢ - وبنو النضير . ٣ - وبنو قريظة حلفاء الأوس فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، أسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقل من أسلم من اليهود مثل « عبدالله بن سلام » رضي الله عنه ولم يكن يومذاك نفاقاً أيضاً ، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تُخاف ، بل كان النبي عليه الصلاة والسلام وادع اليهود ، وقبائل كثيرة من أحياء العرب حول المدينة . فلما كانت وقعة بدر العظمى ، وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبي بن سلول - وكان رأساً في المدينة - وهو من الخزرج . وكان سيد الطائفتين في الجاهلية . وكانوا قد عزموا على أن يُمَلِّكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه ، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر قال : هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل وطوائف ممن هم على طريقته ونخلته . وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد منافقاً لأنهم لم يهاجروا مكرهين من قومهم بل يهاجر الواحد منهم مختاراً ويترك ماله ، وولده ، وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة .

إذن فالمنافقون هم من قبيلتي الأوس والخزرج واليهود . ولذا فقد نبّه الله سبحانه على المنافقين لثلاث يغترّ المؤمنون بظاهر أمرهم ، ويقع فساد عريض من اعتقاد إيمانهم وهم في الحقيقة كفار .

ولهذا فمن المحذور أن يُظنَّ جزمًا بأهل الضُجُور خيرٌ فقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله ﴾ أي إنما يقولون ذلك بأفواههم وقد كذبهم الله في آخر الآية ، فقال ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ وبقوله ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ وقوله تعالى ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ أي يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بقولهم : ﴿ آمنا ﴾ ظانين أن ذلك نافعهم عنده ... وأنه يروّج عليه كما قد يروّج على بعض المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ أي إذا كان خداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك خادع . لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها ، أنه يعطيها أمنيّتها ، ويسقيها كأس سرورها وهو موردّها حياض عطيها ، ومجرّعها كأس عذابها ، وموقعها في غضب الله وأليم عقابه ما لا

قَبِيلَ لَهَا بَ ، فَذَلِكَ خَدِيعَةُ الْمُنَافِقِ نَفْسَهُ ، ظَنّاً مِنْهُ أَنَّهُ مُحْسِنٌ إِلَيْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ قَبِيلُ شَكٍّ وَقَبِيلُ رِيَاءٍ ، وَقَبِيلُ رَجَسٍ ، وَالصَّحِيحُ جَمِيعُهَا . أَيْ أَنَّ الْمَرَضَ الَّذِي فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ هُوَ شَكٌّ وَرِيَاءٌ وَرَجَسٌ . إِنَّهُ شَكٌّ ، لِأَنَّهُمْ شَاكُونَ فِي رَسُولَاتِهِ ﷺ ، وَرِيَاءٌ ، لِأَنَّهُمْ يُظَاهِرُونَ الْإِيمَانَ وَهُمْ كَافِرُونَ . وَرَجَسٌ لِأَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ . وَالْكَفَرُ وَلَا شَكَّ رَجَسٌ ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ أَيْ شَكًّا وَرِيَاءً وَرَجَسًا . وَهَكَذَا فَالْخِزَاءُ مِنْ نَوْعِ الْعَمَلِ ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِمْ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ أَيْ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِمُخَادَعَتِهِمْ . وَقَوْلُهُمْ : ﴿ آمَنَّا ﴾ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ أَعْلَمَ اللَّهُ رَسُولُهُ قَسَمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَاسْتَأْثَرَ بِمَعْرِفَتِهِ بِالْبَاقِينَ ، فَلَمْ يُعْلِمْنَهُ بِهِمْ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ : لَمْ يَلْمِ يَقْتُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُنَافِقِينَ مَعَ عِلْمِهِ بِقِسْمِ مِنْهُمْ ؟ فَجَوَابُ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ٤٨ [أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ] وَمَعْنَى هَذَا خَشْيَةُ أَنْ يَبْقَعَ تَغْيِيرٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَعْرَابِ عَنْ دُخُولِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّ الْعَرَبَ لَا يَعْلَمُونَ نِفَاقَ هَؤُلَاءِ ، فَيُظَنُّونَ أَنَّهُ يَقْتُلُهُمْ رَغْمَ إِيمَانِهِمْ بِهِ ، فَيَقُولُونَ : مُحَمَّدٌ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ . وَقَالَ مَالِكٌ : « إِنَّمَا كَفَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْمُنَافِقِينَ لِيَبَيِّنَ لَأُمَّتِهِ أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَحْكُمُ بَعْلَمَهُ ^(١) » .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : إِنَّمَا مَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ قَتْلِ الْمُنَافِقِينَ مَا كَانُوا يَظْهَرُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ مَعَ الْعِلْمِ بِنِفَاقِهِمْ لِأَنَّ مَا يَظْهَرُونَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ حَدِيثٌ : ٤٩ (أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُواهَا ^(٢) ..) الْحَدِيثُ ... هَذَا مُتَعَلِّقٌ بِشَأْنِ

(١) قُلْتُ فِي هَذَا الْكَلَامِ نَظَرٌ ... لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَنْطَاقُ عَنِ الْهَوَى . ، بِخِلَافِ الْحَاكِمِ الَّذِي هُوَ غَيْرُ نَبِيٍّ فَلَا يُوَحِّيْ إِلَيْهِ وَلِمَاذَا نَعْدَلُ عَنْ جَوَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . : (أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) ؟ أَمَا أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَحْكُمُ بِعِلْمِهِ فَهَذَا بِحَقِّ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ إِذَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ إِنَّمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ اللَّهِ ، وَأَمْرُ اللَّهِ يَجِبُ تَنْفِيذُهُ .

(٢) قُلْتُ . : إِنْ مِنْ طَبِيعِ الْمُنَافِقِ أَنْ يَقُولَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) إِنَّمَا يَجْعَلُهَا قَلْبُهُ ، وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِقَتْلِهِمْ ، لَمَا تَوَقَّفَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ قَتْلِهِمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ . : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مَا دَامَ قَدْ ثَبَتَ مِنْهُمْ نَقْضُهَا . ، وَثَبَتَ كُفْرُهُمْ وَتَفَاقَهُمْ . وَلِمَاذَا نَعْدَلُ عَنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . : (أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) ؟ .

من يعلم أعيانهم وأسماءهم وأن الذين لم يعلم الله رسوله بنفاقهم فقد قال فيهم سبحانه وتعالى : ﴿لَنْ يَنْتَهِيَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَارُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدَاوْا وَقَتِّلُوا تَقْتِيلًا ۖ﴾ . ففيها دليل على أنه لم يُغَرَّبْهم ولم يُدْرَكْ أعيانهم وإنما كان تُذَكَّرُ له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَاهُمْ وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ۚ﴾ ١٢

الفساد هنا : هو الكفر والنفاق والمعصية فقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بالكفر والنفاق والمعصية في الأرض ، لأن من عصى الله أو أمر بمعصية فقد أفسد في الأرض ، لأن الإصلاح إنما يكون بالطاعة . والمنافقون ظنوا أنهم بدعواهم بالإيمان يتخدعون المؤمنين ، ولكن الله فضح أمرهم ، كيلا يغتر بهم المؤمنون ، فيتخذوهم أولياء من دون المؤمنين ، بينما هم في الحقيقة منافقون . فاتخاذهم أولياء من قبل المؤمنين في الوقت الذي هم من أعدى أعداء المؤمنين ، هو الفساد الكبير في الأرض . ولما كان ظاهرهم الإيمان ، لشعبه أمرهم على المؤمنين فكان الفساد من جهة المنافق حاصلًا لأنه هو الذي غرَّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له ، ووالى الكافرين على المؤمنين ولهذا قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين والكافرين من المشركين وأهل الكتاب . لكن الله المطلع على ضمائرهم وما تخفي صدورهم ، كذبهم بقوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي إن هذا الذي يعتمدونه ، ويزعمون أنه إصلاح ، إنما هو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا . (اللهم ثبتنا على دينك وطاعتك واجعلنا من المؤمنين الذين لا يخالف ظاهرهم باطنهم) .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ﴾ ١٣

يقول تعالى : وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس ، أي كإيمان الناس بالله وملائكته

وكتبه ورسله والبث والجنة والنار وغير ذلك ، إيماناً حقيقياً . وأطيعوا الله ورسوله بامثال الأوامر وترك النواهي قالوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يقصدون بالسفهاء أصحاب الرسول ﷺ ويقولون : أنصبح وهؤلاء ... في منزلة واحدة وهم سفهاء ؟ !! وقد تولى الله سبحانه جوابهم فقال : ﴿ أَلَا لَهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون حالهم الدالة على ضلالهم وجهلهم . وإن عدم علمهم هو أردى لهم ، وأبلغ لهم في العمى ، والبعد عن طريق الهدى ، حتى يزداد طغيانهم فيزداد غضب الله وعذابه عليهم ، فيكون الجزاء من نوع العمل ، ولا يظلم ربك أحداً .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ١٤ ﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥

يقول الله تعالى : وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا لهم الإيمان والمولاة والمصافاة غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعةً وتقيةً لبشركوهم فيما أصاب المؤمنون من خير ومغرم ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ يعني وإذا مضوا إلى رؤسائهم وسادتهم وكبرائهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي نحن معكم على مثل ما أنتم عليه من الكفر والشرك ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴾ أي إنما نحن مستهزئون بأصحاب محمد ﷺ فقال تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي إن الله يستهزيء بهم ، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة أموالهم ودمائهم بإظهارهم الإيمان ، وقولهم لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خلاف الذي لهم عنده في الآخرة من العذاب والنكال ، هذا هو اختيار ابن جرير وذلك : لأن المكر والخداع والسخرية ، على وجه اللعب والعبث ، منتف عن الله عز وجل بالإجماع . وأما على وجه الانتقام ، والمقابلة بالعدل والمجازاة ، فلا يمتنع ذلك ؛ ويؤيده قول الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ قال : يسخر بهم للنقمة منهم . وقوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فقد روي عن ابن عباس وابن مسعود عن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ : يمددهم أي يسلي لهم . وقال مجاهد يزيدهم . وقال بعضهم كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة وهي في الحقيقة نقمة كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا

وتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون . ففقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴿ . قال ابن جرير : والصواب : نزيدهم على وجه الإملاء والترك في عتوهم وتمردهم كما قال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ والعمه : الضلال ، والعمى : يكون في العين ، والعمه : في القلب وقد يستعمل العمى في القلب .

﴿ أولئك الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

أي أخذ أولئك المنافقون الكفر والضلال وتركوا الإيمان والهدى واستحبوا فعلهم هذا . ويشبهه في المعنى قوله تعالى : ﴿ فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ وهكذا فلنهم اعتاضوا عن الهدى بالضلال ، وبذلوا الإيمان ثمناً واشتروا به الكفر ولهذا قال تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، ولم يكونوا راشدين في صنيعهم ذلك ، ولأنهم خرجوا من الهدى إلى الضلال ومن الجماعة إلى الفرق ، ومن الأمن إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَاتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يُبْصِرُونَ ١٧ صُمُّ بَكْمٌ تُعْمِي فَعُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٨ ﴾

إن المنافقين باشرائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى : مثلهم كمن استوقد ناراً أي طلب الاستنارة بالنار ليرى ما حوله ، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وأنس بهاءبينما هو كذلك إذ طفت النار وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، ومع هذا فهو أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى ولو كان ضياءً لما أبصر ... فلماذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك وهكذا ، هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغي على الرشد، كانوا موضع مضرب المثل في الغي والضلالة والعمى . وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في قوله : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ والتشبيه هنا في غاية النصح لأن المنافقين لما آمنوا بادىء ذي بدء اكتسبوا نوراً ثم أبطلوا ذلك بالنفاق فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين .

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَّجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ١٩ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠ ﴾

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنوع آخر من المنافقين ، وهم قوم يظهر الحق لهم تارةً ويشكّون به تارةً أخرى. فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم .. ﴿ كَصَيْبٍ ﴾ والصيب المطر نزل في حال ﴿ ظلمات ﴾ وهي الشكوك والكفر والنفاق ﴿ ورعد ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع ، كما قال تعالى ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ ﴿ والبرق ﴾ هو ما يلمع في قلوب هذا النوع من المنافقين أحياناً من نور الإيمان . ولهذا قال ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ أي لا ينفع حذرهم شيئاً لأن الله محيط بهم بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته ثم قال ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ أي لشدة وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان وعن ابن عباس يقول : يكاد يحكم القرآن يداً على عورات المنافقين ، ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ يقول ابن عباس : أي يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين وكذا روي عن الصحابة ، وهو أظهر وأصح ما قيل في تفسير هذه الآية ، وهكذا يكونون يوم القيامة ، عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم فمنهم من يُعطى من النور ما يضيء له مسيرة فرسخ ، وأكثر من ذلك وأقل ، ومنهم من يطفأ نوره تارةً ويضيء أخرى ، ومنهم من يمشي على الصراط تارة ، ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية ، وهم الخُلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾ وقال في المؤمنين : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية ... وقال تعالى ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أئتم لنا نورنا واغفر لنا ﴾ على كل شيء قدير ﴿ وقوله تعالى :

﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ قال ابن

عباس : أي بسبب ما تركوا من الحق بعد معرفته ﴿ أن الله على كل شيء قدير ﴾ قال ابن عباس : أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة أو عفو قدير ، وقال ابن جرير : إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأنه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب سمعهم وأبصارهم قدير ، ومعنى ﴿ قدير ﴾ قادر

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٢ ﴾

قال محمد بن اسحق بالسند عن ابن عباس : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ خطاب للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين أي وحثوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ، وفي هذه الآية شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشاً أي مهداً كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشاخات . ﴿ والسماء بناء ﴾ وهو السقف كما قال في الآية : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ ﴿ وانزل من السماء ماء ... ﴾ المراد به السحاب ها هنا في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم ولأنعامهم ، وهو الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم . فهذا يستحق أن يُعبد وحده لا شريك له . لهذا قال : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب يرزقكم غيره . وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : ٥٠ (قلت : يا رسول الله : أي الذنب أعظم عند الله قال : [أن تجعل لله نداً وهو خلقك] وكذا حديث معاذ ٥١ [أتدري ما حق الله على عباده ؟] أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً] وفي الحديث الآخر : ٥٢ [لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ولكن ليقول ما شاء الله ثم شاء فلان] وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ قال : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، ويقول لولا كلبة هذا لأنانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأنني اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان ...

(٢ - البقرة - ج ١) : رَبُّ الْعَالَمِينَ يَتَحَدَّى الثَّقَلَيْنِ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلَ هَذَا الْقُرْآنِ ٣٣

هذا كله به شرك وفي الحديث : ٥٣ [إن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : ما شاء الله وشئت قال : أجمعلني لله نداء] وفي الحديث الآخر : ٥٤ [نعم القوم أنتم لولا أنكم تتدّون تقولون: ما شاء الله وشاء فلان .]

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون أنه لا ربّ لكم يرزقكم غيره . والآية دالة على توحيده بالعبادة وحده لا شريك له ، وقد استدللّ كثير من المفسّر ين على وجود الصانع ، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى . فإنه من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطبائعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها بحكمة ، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه ، وعظيم سلطانه . كما قال بعض الأعراب : وقد سئل ما الدليل على وجود الله تعالى ... قال : يا سبحان الله !!! إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير...؟

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٣ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٢٤﴾

بعد أن قرر الله تعالى أنه لا إله إلا هو ، وذلك في الآيات السابقة شرع سبحانه في تقرير النبوة لعبده ورسوله محمد ﷺ فقال مخاطباً للكافرين : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي محمد ﷺ فأتوا بسورة من مثل ما جاء به ، إن زعمتم أنه من عند غير الله . فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك إن شقتم من دون الله بآلهتكم وبلغائكم وفصحائكم ، وحكام فصحاءكم وبمن تشاءون جميعاً إن كنتم صادقين في زعمكم . وفي هذا تحدّي من الله لهم ، وقد تحداهم في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقال في سورة سبحان : ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ وقال في سورة هود : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُتَّبِعَاتٍ وَادْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقال في سورة يونس : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

وكل ما تقدم فآياتٌ مكية . ثم نحدداهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ يعني محمداً ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ يعني فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن . وقد تحدى الله الجميع ، متفرقين ومجتمعين ، سواء في ذلك أميؤهم وكتابتهم ، وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدى أحادهم الأميين من لا يكتب ولا يعاني شيئاً من العلوم ، فالتحدي كان عاماً لهم في مكة والمدينة مرات عديدة ، مع شدة عداوة المشركين والمنافقين للنبي ﷺ وبعضهم لدينه . ومع هذا عجزوا عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ﴾ أي فإذا لم تستطيعوا ولن تستطيعوا ذلك أبداً وهنا معجزة يتحدى بها الكافرين عامة — بسورة من مثله — إلى يوم القيامة ، وهذه المعجزة هي أنهم لن يستطيعوا ذلك أبد الآبدين . ودهر الداهرين ، وكذلك قد وقع الأمر ، فلم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا وإلى الأبد . لأن القرآن كلام الله ، وكلام الله لا يشبه كلام المخلوقين لفظاً ولا معنى . ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ .

يقول تعالى لهم : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ إلى الأبد مجازاة القرآن والإتيان بمثله فما عليكم إلا أن تسلموا بعد عجزكم ، بأنه كلام الله تعالى وتؤمنوا وتعملوا بأحكامه ، فتقوا بذلك النار التي أعدت للكافرين .

قال الله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ والاتقاء : التجنب . أي تجنبوا النار التي سيكون وقودها يوم القيامة الناس أي الكافرون بهذا القرآن . والحجارة أي تلك الحجارة التي يعبدها الكافرون من دون الله . قال الله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ﴾ ولا مانع أن يكون المعنى أيضاً أنها حجارة من كبريت بالإضافة إلى الأصنام تسعّر بها النار فتلهب وتشتد ليكون ذلك أشدّ عذاباً لأهلها . كما ذكر ذلك عن ابن مسعود وناس من الصحابة . وقوله تعالى : ﴿ أعدت للكافرين ﴾ أي هيئت وأرصدت للكافرين الذين هم كانوا على ما أنتم عليه من الكفر ، واستدل كثير من الأئمة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن . لقوله تعالى ﴿ أعدت للكافرين ﴾ أي أرصدت وهيئت . وقال رسول الله ﷺ : ٥٥ [تحاجت الجنة والنار] فتحاجتهما دليل على وجودهما . وهناك أحاديث صحيحة أخرى تدل على ذلك . وهكذا فإن الله تحدى الكافرين ، أن يأتوا بسورة من القرآن وأخبر أنهم لن يأتوا بمثله لا قليلاً ولا كثيراً ، أي لا سورة طويلة ولا قصيرة لأن كل سورة من القرآن ، معجزة للعالمين أن

يأتوا بمثلها ، وقد روي أن عمرو بن العاص وقد قبل إيمانه على مسيلمة الكذاب ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم بمكة ، في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد نزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال : وما هي فقال ﴿ والعصر ٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بالصَّبْرِ ﴾ ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أنزل عليّ مثلها فقال : وما هو ؟ فقال مسيلمة : يا وَبَرُّ يا وَبَرُّ ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرَكَ حَقَرٌ ففتر . ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم إنني لأعلم أنك تكذب .

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

لما ذكر الله تعالى ما أعدّه لأعدائه المنافقين والكافرين من العذاب والنكال ، ناسب أن يذكر بالمقابل حال المؤمنين وما أعدّه لهم من النعيم المقيم . الذين صدّقوا بإيمانهم بأعمالهم الصالحة . وقد جرى القرآن على هذا الأسلوب من الترغيب والترهيب . وهذا معنى تسمية القرآن بالثاني على أصح الأقوال عند العلماء لأنه لا يذكر حال المؤمنين وما أعدّه لهم من النعيم إلاّ ويذكر مباشرة أحوال الكافرين وما أعدّه لهم من النكال والعذاب ولهذا قال : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ فوصف الجنات التي تجري من تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها وغرفها وقد جاء في الحديث : أن أنهارها تجري في غير أخذود وجاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف ولا منافاة بينهما فطينها المسك الأزفر وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر ، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لدخولها بفضلِهِ ورحمته وقوله تعالى : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ﴾ . قال جمع من الصحابة فيما روى السدي بالسند عنهم أنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا ، وقيل التشابه حاصل بين أثمارها نفسها بعضها ببعض . ولكن اللون واحد والطعم مختلف وقوله تعالى : ﴿ وهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ أي أزواج مطهرة من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد . وقوله : ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ هذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم ، في مقام أمين من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء . بل في نعيم سرمدى ، أبدي على الدوام والله المسؤول أن يحشرنا في زمرة من آمن بالله جواد كريم .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ يَهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ٢٦ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

قال السدي في تفسيره بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ وقوله ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ قال المنافقون : الله أعلا وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل هذه الآية : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ﴾ إلى قوله : ﴿ ... هم الخاسرون ﴾ وقد أخبر تعالى ، أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر، مثل البعوضة . فكما أنه لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها . كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في غير موضع من القرآن .

ومعنى ﴿ لا يستحي ﴾ لا يستنكف وقيل لا يخشى أن يضرب مثلاً ما بأي شيء صغيراً كان أو كبيراً و ﴿ ما ﴾ هنا للتقليل كما تقول : لأضربن ضرباً ما ، فيصدق بأدنى شيء ﴿ فما فوقها ﴾ بمعنى أي فما دونها في الصغر والحقارة كما إذا وُصِفَ لك رجل بالثوم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك أي من الشح والبخل . وهذا قول الكسائي وأبي عبيد، قاله الرازي وأكثر المحققين. ﴿ فأما الذين آمنوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي إن الذين آمنوا يؤمنون بما يضرب الله من الأمثال صغيرها وكبيرها ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها لأنه كلام الرحمن .

﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ مستصغرين هذه الأمثال ضلالاً منهم كما قال في سورة المدثر : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون . ويقولون الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً . كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ وكذلك قال ها هنا : ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ فعن السدي أنه قال ، في تفسيره عن أبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : أن المقصود من

﴿ يضل به كثيراً ﴾ أي المنافقين ، ﴿ ويهدي به كثيراً ﴾ أي المؤمنين فيزيد المنافقين ضلالاً لتكذيبهم بما علموه حقاً و يقيناً من المثل الذي ضربه الله ، وأنه لما ضرب له موافق . فذلك لإضلال الله إياهم به ويهدي به كثيراً من أهل الإيمان والتصديق فيزيدهم إيماناً وهدى إلى هداهم ، لتصديقهم بما قد علموه حقاً و يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به وذلك هداية من الله لهم ﴿ وما يضلّ به إلا الفاسقين ﴾ الفاسق في اللغة : هو الخارج عن الطاعة وتقول العرب فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ولكن الفسق في الكافر أشد وأفحش والمراد من الآية بالفاسق الكافر والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون . ﴾ وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين وقوله : ﴿ عهد الله ﴾ هو ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه . ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ أي كل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ أي يفسدون بكفرهم بعدم تمسكهم بما أمر الله فيحلون المحرمات ويحرمون المحلات ويشيعون الشرك والكفر بين الناس ، ويزينونه لهم بأنه هو الصواب والحق ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ في الآخرة قال الضحاك عن ابن عباس : كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر فإنما يعني به الكفر وما نسبته إلى أهل الإسلام . فإنما يعني به الذنب . والخاسرون جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم من رحمة الله بمعصيتهم إياه . وفي قوله الخاسرون أي الخاسرون في الآخرة ، دليل على الصفات المتقدمة مقصود بها صفات الكفار لأنهم خسروا الآخرة ولا يخسرها إلا الكافرون .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨ ﴾

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته ، وأنه الخالق المتصرف في عباده ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ أي كيف تمجدون وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف ، أو تشركون به فتعبدون سواه . ﴿ وكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ ويفسر هذا قوله تعالى كما قال ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال كنتم تراباً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة . ثم أحياكم فخلقكم ، فهذه حياة . ثم يميتكم فترجعون إلى القبور ، فهذه ميتة أخرى . ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى . فهذه ميتتان وحياتان . وهو تفسير قوله ﴿ كيف تكفرون ... ﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٢٩

لما ذكر الله دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ..﴾ قال مجاهد وخلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان - بإذن الله - فذلك حين يقول ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي قصد إلى السماء . والاستواء ها هنا ، مضمّن معنى القصد والإقبال لأنه عدّي إلى ﴿فسواهن سبع سموات﴾ أي فخلق السماء سبعاً . يوجد خلاف بين المفسرين من حيث خلق الأرض قبل السماء أو السماء قبل الأرض . ولكل من الطرفين حجة إلا أن حجة القائلين بابتداء خلق الأرض ثم السماء أقوى لقوله تعالى : ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء﴾ فقوله ثم يفيد الترتيب أي أن الله خلق الأرض وما فيها ، ثم من بعد ذلك قصد السماء فسواهن سبعاً . وحجة القائلين بابتداء خلق السموات ثم الأرض قوله تعالى : ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، واغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحّاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبّال أرساها﴾ . نقل هذا ابن جرير عن قتاده ولكن هذا القول أي تقدم السماء على الأرض ليس صحيحاً . والصحيح بخلافه أي تقدم الأرض على السماء . ففي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب : بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء . وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى : ﴿والأرض بعد ذلك دحّاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبّال أرساها﴾ . ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها من المياه فنبت النباتات على اختلاف أنواعها وصفاتها وأصنافها وألوانها وأشكالها .

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٣٠

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملائكة على قبل إيجادهم ؛ فقال تعالى : ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ أي : أقصص يا محمد على قومك ذلك : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، كما قال تعالى :

﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ وهذا هو الصواب في تفسير ﴿ خليفة ﴾ لا قول من يقول أن آدم خليفة الله في الأرض مستنداً بقوله تعالى : إني جاعل في الأرض خليفة^(١)

(١) قلت : إن معنى الخليفة يستلزم قطعاً غياب المخلوف ، كلياً كان ذلك أو جزئياً . أعني إما بموت أو ارحال أو عزل أو اعتزال . أو أي أسباب أخرى تحول دون متابعة المخلوف مزاوله عمله ؛ كقوئك مثلاً : أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أي بعد موته . أو كقوئك : استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً على المدينة ، أي حال غيابه صلى الله عليه وسلم عنها في إحدى غزواته . فإذا انتصح هذا وحصلت به القناعة ، أدرك المقتنع حالاً خطأ قول القائل أن آدم عليه السلام جملة الله خليفة عنه في الأرض وذلك للأسباب الآتية :

١- . يستحيل غياب الله سبحانه عن ملكه كلياً أو جزئياً . فهو قيوم السموات والأرض ، ولا تعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إذاً خليفة ولا لوكيل ولا ل نائب ولا لمن يليه ، وهو الغني عن العالمين .

٢- . من أجل أن يكون آدم أو النوع الإنساني صالحاً للخلافة عن الله . يستلزم أن تكون له صفات ماثلة لصفات الله تعالى وتقدس . ولما كان الإنسان - ككل مخلوق - لا يحمل صفات ماثلة لصفات الله . بل هو ناقص في جميع صفاته والله سبحانه كامل في جميع صفاته صار تباين كلي ... فكيف تجوز خلافة الناقص للكامل ... ؟ تعالى الله عن المثل والنظير « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير » .

٣- . ثبت أن الانسان لا يصلح أن يكون خليفة لله ولا وكيلا عنه . بل العكس هو الصواب فانه سبحانه هو الوكيل والخليفة . وإليك قوله تعالى : « حسبنا الله ونعم الوكيل » و « والله على كل شيء وكيل » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » و « وكفى بالله وكيلا » وقوله صلى الله عليه وسلم : في دعاء السفر : ٥٦ « اللهم أنت الرقيق في السفر والخليفة في الأهل » .

٤ - ليس في الكتاب ولا في السنة أي دليل ظاهر أو خفي أو مستنتج ... بأن الإنسان خليفة الله في الأرض ، لأنه قال « إني جاعل في الأرض خليفة » ولا يفهم من هذا القول أن آدم عليه الصلاة والسلام خليفة الله في الأرض لأنه قال : « إني جاعل في الأرض خليفة » نعم . قال هذا ... إنما لم يقل : إني جاعل لي في الأرض خليفة ، أو : إني جاعل في الأرض خليفة لي . أو خليفتي . فمن أين استنتجنا أن آدم عليه السلام أو النوع الانساني خليفة الله في الأرض ... ؟ ألا إن شأن الله لأجل وأعظم من ذلك ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . على أن أكثر المفسرين قالوا : أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل أو على قول من قال : خلائف لمن قبلهم من الجن أو المخلوقين الآخرين الذين يحتمل أنهم كانوا على ظهر الأرض قبل أن يكون النوع الانساني على ظهرها . والتفسير الأول أظهر ومؤيد بالكتاب والسنة . أما من قال : أن المقصود بالخلافة هي الخلافة فقط بالأحكام ... فهذا قول ليس مسلماً به . لأن الحكم المعتبر المأخوذ من الوحيين الذي حكم به ، ليس حكمه ... إنما هو حكم الله ... وهو تعبد لله ، وشأن ما بين العباد وبين النيابة والخلافة . وهكذا يتضح أن الذي حكم إنما حكم بحكم الله لا نيابة عنه .

على أن القائلين بهذه الخلافة (خلافة الله في الحكم) ليس لهم أي دليل من الكتاب والسنة على ذلك . وكما اتضح أن الدليل بخلاف قولهم ، فلم يبق إلا اجتهدات الرجال ، واحتمالاتهم ومعلوم أن الاجتهاد والاحتمال شيء ... وقوله الله ورسوله شيء آخر ؛ إذ لا اجتهداد في مورد النص . وإذا طرأ الاحتمال بطل الاستدلال . لا سيما كهذه القضية التي لا تثبت إلا بنجر عن الله أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . والله الموفق للصواب .

وقال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ كأن الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق ، أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فذلك حين ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فقول الملائكة هذا ، ليس على وجه الاعتراض على الله كما قد يتوهم : لأن الملائكة وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه .

قال ابن جريج : إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ قال ابن جرير : وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت ... لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم : أن ذلك كائن من بني آدم ، فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك . وهو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة . فقال تعالى مجيباً لهم : ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفساد التي ذكرتوها ، ما لا تعلمون أنتم . لأنني سأجعل فيهم الأنبياء والرسل والصالحين والأولياء . وسيأتي إن شاء الله عن ابن مسعود وابن عباس وبعض الصحابة والتابعين أقوال في حكمة قوله تعالى ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣١ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣

هذا مقام ذكر الله فيه آدم وشرّفه على الملائكة ، لأن الله تعالى علّمه ما لم يُعلّم الملائكة فقد قال : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ أي أسماء جميع المخلوقات جليلها ودقيقها ويؤيد هذا ما جاء في حديث الشفاعة العظمى قوله ﷺ : ٥٧ [« ... فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس ، خلقتك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء »] من حديث صحيح البخاري فدل هذا على أنه علّمه أسماء المخلوقات ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ يعني المسميات وقوله : ﴿ عَرَضَهُمْ ﴾ بصيغة من يعقل للتغليب فيدخل معهم غير العاقل كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ... الْآيَةَ ﴾ قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن

مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة﴾ أي عرض الخلق على الملائكة. ﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ أي أنبئوني بأسماء من عرضتهم عليكم من المخلوقات وكانت الملائكة تظن أن الله لا يخلق خلقاً إلاّ ويكونون هم أعلم منهم ، فإن كنتم صادقين بأنكم أعلم من كل خلقي الذي منهم آدم ، فأنبئوني بأسماء الخلق الذين عرضتهم عليكم . قاله الحسن وقتادة . وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود عن ناس من الصحابة : ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن كل بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء .

قال ابن جرير عن ابن عباس بمعناه : أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا أم منا ؟ فنحن نسيح بحمدك ونقدس لك أي أنهم ظنوا أنهم جميعاً سيسفكون الدماء ، وفسدون في الأرض ، ولم يعلموا أنه سيكون منهم أنبياء وأولياء صالحون . ولذلك قال الله لهم ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾ إعجازاً لهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في قولكم أنهم سيسفكون ويسفدون في الأرض . فإن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم ، وأنتم تشاهدونهم ، فأنتم بالأمور الكاثرة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالين بها .

﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك ، وفي تعاليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء لك الحكمة في ذلك والعدل التام . وسبحان الله : تنزيه الله نفسه عن سوء . وقال عمر لعلي : لا إله الا الله قد عرفناها ، فما سبحان الله ؟ فقال علي : كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال . وسأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله فقال : اسم يُعظّم الله به ، ويُحاشى به عن الله . وأوكلوا العلم بذلك له سبحانه لأنه هو العليم الحكيم . فقال الله : ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبلون وما كنتم تكتمون﴾ .

قال زيد بن أسلم قال أنت جبرائيل ، أنت ميكائيل ، أنت أصفير حتى عدد الأسماء كلها . وقال مجاهد : إسم كل شيء وروي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك ... فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عاينهم السلام في نزده ما علمه الله تعالى من الأسماء قال الله تعالى للملائكة ، ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبلون وما كنتم تكتمون﴾ قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس وهشوان المعنى من قوله تعالى ﴿وأعلم ما تبلون﴾ أي قولهم : ﴿أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ والذي كانوا يكتمون : ما كان منظوياً عليه لإبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٣٥ فَازَلَّهَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ٣٦﴾

يقول الله تعالى لإخباراً عما أكرم به آدم ، أنه أمر الملائكة بالسجود فسجدوا إلا إبليس ، ولأنه أباح له الجنة يسكن فيها حيث يشاء ، ويأكل منها حيث يشاء ما شاء ، رغداً أي هنيئاً واسعاً طيباً ، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ٦٠ [قلت يا رسول الله أرايت آدم ... أنبيأ كان ؟ قال : « نعم نبياً رسولاً يكلمه الله قبيلاً »] - يعني عياناً - فقال : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ وقد اختلف في الجنة التي أسكنها الله آدم ، أهى في السماء أم في الأرض فالأكثر على أنها في السماء ، وقال المعتزلة والقدرية بأنها في الأرض ، وسيأتي بيان ذلك في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى . وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة ، كما صرح بذلك محمد بن اسحق . وقيل أن خلق حواء كان بعد دخول آدم الجنة كما صرح بذلك السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ما خلاصته : إن آدم كان يمشي وحيداً في الجنة ليس له زوج فنام فاستيقظ وعند رأسه امرأة خلقها الله من ضلعه ، فسألها من أنت ؟ قالت : امرأة قال ولم خلقت ؟ قالت : لتسكن إليّ فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه : ما أسمها يا آدم ؟ قال : حواء ، قالوا ولم حواء ؟ قال لأنها خلقت من شيء حي .

وأما قوله : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ فهو إخبار من الله تعالى ، وامتحان آدم وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي ؟ فمن قائل أنها الكرم ، وقائل أنها الحنطة ، وقائل أنها التينة وقائل أنها السنبلة وقائل أنها النخلة .

والصواب : إنها شجرة ما ... في الجنة ، ولم يعين الكتاب ولا السنة نوعها ، ومعرفة نوعها لا ينفع والجهل به لا يضر . هذا ما ذكره ابن جرير ملخصاً وكذلك رجح الرازي الإيهام في تفسيره .

وقوله تعالى : ﴿ فازلحمها الشيطان عنها ﴾ أي بسبب أكلهما منها فتحاهما ، ووقعا في

٤٤ (٢ - البقرة - ج ١) : أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ بِغَاوِيَةِ الشَّيْطَانِ ، فَأَهْبَطَ الْجَمِيعَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا

الزَّلَّالَ وَالْخَطِيئَةَ ، وَمَعْصِيَةَ أَمْرِ اللَّهِ ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ مِنَ اللِّبَاسِ وَالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ ، وَالرَّاحَةِ وَالنَّعِيمِ .

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَيُّ قَرَارٍ وَأَرْزَاقٍ وَأَجَالٍ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إِلَىٰ وَقْتٍ مُّعَيَّنٍ ، ثُمَّ تَقُومُ الْقِيَامَةُ ؛ وَقَدْ اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ فِي مَحَلِّ هَبُوطِ آدَمَ ، وَحَوَاءِ وَالشَّيْطَانِ ؛ فَقِيلَ أَنَّ آدَمَ نَزَلَ فِي الْهِنْدِ ، وَنَزَلَ مَعَهُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ ، وَحَوَاءُ بِجَدَّةَ ، وَابْلِيسُ بِلَدِ سَتَمِيسَانَ بِالقُرْبِ مِنَ الْبَصْرَةِ . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ : قَالَ مَعْمَرٌ : أَخْبَرَنِي عَوْفٌ وَسَاقُ السِّنْدِ إِلَىٰ أَبِي مُوسَى قَالَ : أَنَّ اللَّهَ حِينَ أَهْبَطَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ عَلَّمَهُ صَنْعَةَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَزَوَّدَهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ ، فَتَمَارَكُمُ هَذِهِ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ تَتَغَيَّرُ ، وَتِلْكَ لَا تَتَغَيَّرُ . وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : [خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ . فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا .] وَقَالَ الرَّازِيُّ : لَعَلَّمَ أَنَّ فِي هَذِهِ آيَةً تَهْدِيْدًا عَنْ كُلِّ الْمَعَاصِي .

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ ٣٧﴾

قِيلَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مَفْسَّرَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ رَوَى ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَمُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرْظِيَّ وَخَالِدَ بْنَ مَعْدَانَ وَعَطَاءَ الْخِرَاسَانِيَّ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ . قَالَ سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رَفِيعٍ : أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ مِنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عَمِيرٍ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ آدَمُ : يَا رَبِّ خَطِئْتِي الَّتِي أَخْطَأْتُ شَيْءٌ كَتَبْتَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ تَخْلُقَنِي أَوْ شَيْءٌ ابْتَدَعْتُهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِي ؟ قَالَ : بَلْ شَيْءٌ كَتَبْتُهُ عَلَيْكَ قَبْلَ أَنْ أُخْلُقَكَ . قَالَ فَكَمَا كَتَبْتَهُ عَلَيَّ فَاغْفِرْ لِي ، قَالَ : فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : قَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ ؟ قِيلَ لَهُ بَلَى ، وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ ؟ قِيلَ لَهُ بَلَى ، وَكَتَبْتَ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَ هَذَا . قِيلَ لَهُ بَلَى ؟ قَالَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ تَبَتُّ هَلْ أَنْتَ رَاجِعِي إِلَى الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . وَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ ، وَسَعِيدُ بْنُ مَعْبُدٍ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ حَدِيثًا مَرْفُوعًا شَبِيهًا بِهَذَا وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : الْكَلِمَاتُ : اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ رَبِّي إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي إِنَّكَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ . اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ

إلا أنت سبحانك وبحمدك ربني إني ظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم^(١)

(١) قلت: كل ما تقدم يؤيده قوله تعالى: «قالاربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» ومعنى ذلك أن آدم وسواه إعترافاً بذنبيهما وجعلاً هذا الاعتراف الذي هو مضمون ما علمهما الله سبحانه من التوبل وهو: (الاعتراف بالذنب) ثم طلبا المغفرة متوسلين إليه تعالى بتوبتيهما إليه أن يغفر لهما ذنبيهما؛ فتأب عليهما إنه هو التواب الرحيم.

وأما ما رواه البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» عن عمر بن الخطاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لي فقال الله تعالى: يا آدم كيف عرفت محمدًا ولم أخلقه. قال يا رب إنك لما خلقتني رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فعلمت أنك لم تُضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك فقال الله تعالى صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك». رواه الحاكم وصححه. في هذا الحديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم وإن تصحيح الحاكم له خطأ لأنه هو الذي طعن بمبدى الرحمن بن زيد بن أسلم في كتابه: (الضعفاء) فكيف يصححه وفيه من طعن هو به...؟؟؟) أجل إن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي قوله تعالى «قالاربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين». ولا عبرة لما خالف ذلك لأن الحجة بما يثبت عن الصحابة وعن سلف الأمة وأئمتها، ولا يجوز تفسير القرآن بأقوال شاذة أو موضوعة لا تثبت عند أهل العلم، والحديث وأئمة التصحيح والترجيح. كما ينسب أيضاً حكاية إلى مالك رضي الله عنه مع أبي جعفر المنصور وفيها أنه أي أبو جعفر سأل مالكا فقال: يا أبا عبد الله: أأستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة. بل استقبله واستشفع به. هذا ما رواه ابن حميد عن مالك. وقد رَوَّه الحفاظ على ابن حميد هذه الحكاية وذكروا أن أسنادها مظلم منقطع مشتمل على من يتهم بالكذب. أما من جهة الكذب فهناك أقوال الأئمة قالوا: ابن حميد هذا تكلم فيه غير واحد من الأئمة ونسبه بعضهم إلى الكذب فقال يعقوب بن أبي شيبة السدوسي: محمد بن حميد الرازي كثير المناكير. وقال البخاري: حديثه فيه نظر. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال الجوزجاني: رديء المذهب غير ثقة. قال فضلك الرازي: عندي عنه خمسون ألف حديث لا أحدث عنه بحرف. وقال أبو العباس أحمد بن محمد الأزهرى سمعت إسحق بن منصور يقول: أشهد على محمد بن حميد الرازي وعبيد بن اسحق المطار بن يدي الله أنهما كذابان. وتكلم فيه غير هؤلاء من الحفاظ. وقال صالح بن محمد الحفاظ: كل شيء كان يحدثنا به ابن حميد، كنا ننتهم فيه.

وأما من جهة الانقطاع، فيقول ابن تيمية رحمه الله: قلت: وهذه الحكاية منقطعة، فإن محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكا، لا سيما في زمن أبي جعفر المنصور، فإن أبا جعفر توفي بمكة سنة ١٥٨ وتوفي مالك سنة ١٧٩. وتوفي محمد بن حميد الرازي ٢٤٨. ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم، إلا وهو كبير مع أبيه وهو مع ذلك ضعيف عند أكثر أهل الحديث، كذبه أبو زرعة وابن وارة، وقال صالح بن محمد الأسدي: ما رأيت أحداً أجراً على الله منه، وأحق بالكذب منه. وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب وتوفي سنة ٢٤٢ وآخر من روى عن مالك على الإطلاق هو أبو حذيفة أحمد بن اسماعيل السهمي توفي سنة ٢٥٩ وفي الإسناد من لا تعرف حاله لا سيما وإن مذهب مالك يناقض هذه الحكاية، فالمرء من مذهب مالك وغيره من الأئمة وسائر السلف: أن الداعي إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم استقبل القبر ودعا له، أما إذا دعا لنفسه فيستقبل القبلة ويدعو.

وقوله تعالى : « انه هو التواب الرحيم » أي انه يتوب على من تاب اليه وأتاب . وهذا من رحمته بعبده .

﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣٩ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته ، وإبليس حين أهبطهم من الجنة والمراد ذرية الجميع ، أنه سينزل الكتب ، ويبعث الرسل ، والبينات والبيان ﴿ فمن تبع هداي ﴾ أي من أقبل على ما أنزلت من الكتب ، وأرسلت به الرسل ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونهم من أمر الآخرة . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا ، كما قال تعالى في سورة طه :

= وهكذا فإنه يؤخذ من هذا البحث المتقدم، أن الوسيلة التي علمها الله لآدم، ليغفر له ذنبه وخطيئته، هي: إعرافه بظلم نفسه ، وتوبته من هذا الظلم ، متوسلاً، إلى الله تعالى بهذا الاعتراف ، وهذه التوبة . قال الله تعالى : « قالاً ربنا ظللنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . ويؤخذ أيضاً عما تقدم ... أن الأحاديث التي وردت بتوسل آدم عليه السلام بنبينا عليه الصلاة والسلام موضوعة، فلا يحتج بها قطعاً . وإن التوسل إليه تعالى لا يكون إلا بما شرع سبحانه من التوسل إليه بذاته وأسمائه وصفاته ، أو بالأحوال الصالحة التي هي من عمل المتوسل نفسه . لأن الله تعالى يقول: « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » فعمل غيرك لا ينفعك ولا يصح أن تتوسل به ، لأنه ليس لك منه نصيب فلا ينفعك إلا ما عملته من الصالحات . مثال ذلك: توسل أصحاب الغار كل بعمله هو . أو التوسل بدعاء أخيك المؤمن لك ، فدعاء المؤمن لأخيه المؤمن جائز ، وهو من قبيل: « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وشال التوسل بدعاء المؤمن لأخيه المؤمن. كدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعمى الذي استجاب الله فيه دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم فرد عليه بصره . واستسقاء المؤمنين بالعباس أي بدعاء العباس الذي دعا وقتئذ بناء على طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي قال: اللهم كُنَّا نتوسل بنبيك فتسقينا وإن نبيك قد قبضته إليك، فما إننا نتوسل بعمه العباس. أدع يا عباس . فرفع العباس يديه وقال: اللهم إننا نعلم أنك لا تنزل عقاباً إلا بذنوب. ولا ترفعه إلا بتوبة، فما قد تبنا إليك اللهم استنا الفيت ولا تجعلنا من القانطين . فأرخت السماء . ومن هنا يتبين أنه لو كان قصد أمير المؤمنين ذات الرسول صلى الله عليه وسلم لقال: اللهم اننا نتوسل اليك بنبيك . إنما لما قال: « وأن نبيك قد قبضته إليك أي أن نبيك كان يدعو لنا حال حياته ، أما الآن فقد قبضته إليك. ، فلم يعد يدعو . لذلك نتوسل بعمه العباس أي بدعاء عمه العباس لأنه حي ويستطيع أن يدعو فدعا العباس كما تقدم بعد أن قال له عمر: ادع. ، واختار عمر العباس للدعاء لأنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما التوسل بذوات المخلوقين، هذا مما ليس عليه دليل من الكتاب والسنة. ، فلا يصح أبداً. وكل ما جاء من الأحاديث بجواز ذلك فهي موضوعة ومكذوبة والله الموفق . وإن شئت المزيد فراجع كتابنا: التوصل إلى حقيقة التوسل

(٢ - البقرة - ج ١) : أخبر الله أنه سيبعث الأنبياء وينزل الكتب فمن أتبع الحق نجا . ٤٧

﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوٌ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي مخلدون فيها لا يحيد لهم عنها ولا يحيص .

أورد ابن جرير ههنا حديثاً بالسند المتصل إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٢ [أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم فماتتهم إمامةٌ حتى إذا صاروا فحماً ، أذن في الشفاعة .] وقد رواه مسلم من حديث شعبه عن أبي سلمة به .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ٤٠ وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيَّائِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ٤١ ﴾

يذكر الله تعالى بني إسرائيل بمناداته لهم بهذا النداء .. يا بني إسرائيل «أي يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم في طاعته لله ، ومتابعته الحق ، كما تقول مثلاً : يا ابن الكريم كن كأبيك كريماً . وحاصله يا بني إسرائيل آمنوا بمحمد ﷺ وكونوا متبعين للحق الذي جاءكم به . وإسرائيل : هو يعقوب عليه السلام . ﴿ أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ أي نعمة الله التي نجاكم بها من عبودية فرعون ، وفجر الحجر ، وأنزل المن والسلوى ، وجعل منكم الأنبياء والرسل . ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ أي أوفوا بعهدي الذي أخذته عليكم في التوراة ، أن تتبعوا محمداً ﷺ فإن فعلتم ، أوف بعهدكم ، بوضع ما كان عليكم من الذنوب التي أحدثتموها ، وأدخلكم الجنة .

﴿ وإيائي فارهبون ﴾ أي فأخشوني وحدي . وقد انتقل من الرغبة إلى الترهيب بما نزل بمن كان قبلهم من آبائهم ، من النعمات التي عرفوها فدعاهم بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق ويتبعون محمداً ﷺ . ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي فيه الإيمان بالله ورسوله كما في الذي معكم من التوراة التي تجدون فيها محمداً ﷺ مكتوباً وأمورون أن تؤمنوا به وتنصروه وتتبعوا القرآن الذي أنزل عليه ﴿ فلا تكونوا أول كافر به ﴾ يعني أول من كفر به من بني إسرائيل في ذلك الزمن أي يهود المدينة الذين هم أول من بلغوا بالقرآن من اليهود وليس الأولية إطلاقاً لأن مشركي العرب هم أول من كفر به : إنما المقصود يهود المدينة ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ . أي لا تعاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي

٤٨ (٢-البقرة-ج ١) : يذكر الله بني إسرائيل بنعمه وألا يلبسوا الحق بالباطل ، وألا يقولوا ما لا يفعلون

بالدنيا وشهواتها ، فلها قليلة فانية. كما قال عبد الله بن المبارك عن قوله تعالى : ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ قال الثمن القليل الدنيا بخذافيرها أي تستبدلوا ما في القرآن من إيمان وعمل به بما في الدنيا من مباحج خلافة موقته وعرض فان ﴿ وإياي فاتقون ﴾ التقوى : العمل بطاعة الله رجاء رحمته على نور من الله وإن تترك المعاصي على نور من الله وخوف عقاب الله. والمعنى : إن الله يتوعدهم فيما يتعمدون سن كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول ﷺ .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤٢ ﴾
﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ٤٣ ﴾

نهي الله سبحانه وتعالى عن شيئين هامين . وهما تمويه الحق ، وكتمانه ، وأمرهم بأن لا يخلطوا الحق بالباطل ، وأن يظهروا الحق جلياً . أي لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن اليهودية والنصرانية إنما طورتموها إلى بدعة. والإسلام هو دين الله الحق . وروى ابن عباس : إن كتمان الحق هنا ، أي كتمان ما عند اليهود من معرفتهم بمحمد ﷺ وبما جاء به ، بينما يجلونه مكتوباً عندهم في التوراه التي بين أيديهم . ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي أمرهم بالصلاة وذلك بعد إيمانهم بما جاء به رسول الله عن ربه من البينات لأن الصلاة لا تصح بدون إيمان . وكذلك الزكاة والصوم والحج . فالإيمان برسالة محمد ﷺ أساس كل عمل ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ وأمرهم بالزكاة ، يدفعونها للنبي ﷺ ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ أي كونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم وأكملها وهي الصلاة . والصلاة هنا تفيد الجماعة أي صلوا مع الجماعة . وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب صلاة الجماعة .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٤٤ ﴾
الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٤٤

يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم ، فلا تأمرون بما تأمرون به الناس ؟ وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون .. ؟ ! ما أنتم صانعون بأنفسكم فتتنبها من رقدتكم وتبصروا من عمايتكم . وهكذا فقد ذم الله تعالى أهل الكتاب في هذه الآية ﴿ تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ لأنهم كانوا يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه فاستحقوا من الله الذم .

وليس المراد ذمهم على أمرهم بالمعروف مع تركهم له ، بل على تركهم له . فإن الامر بالمعروف معروف ، وهو واجب على العالم . ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ، ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

وليس معنى ما تقدم ، أن العالم إذا كان يعمل منكراً مثلاً ، يجب أن لا ينهى عن المنكر الذي يرتكبه... قال مالك عن ربيعة : سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ... ما أمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر . وقال مالك : وصدق ، من ذا الذي ليس فيه شيء ... ؟ قلت - يعني ابن كثير - لكنه والحالة هذه .. مذموم على ترك الطاعة ، وفعله المعصية ، لعلمه به ومخالفته على بصيرة . فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ولهذا جاءت الأحاديث على ذلك في الوعيد .

روى الامام أحمد في مسنده : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٣ [مررت ليلة أسري بي على قوم تفرض شفاههم بمقاريض من نار قال : قلت : من هؤلاء .. ؟ قالوا خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرؤن الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون] .

وروى الإمام أحمد - بالسند - عن أبي وائل قال : قيل لأسامة وأنا رديفه : ألا تكلم عثمان ... ؟ فقال : إنكم ترون أنني لا أكلمه إلاّ أسمعكم ... ؟ إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتح أمراً أحب أن أكون أول من افتتحه ، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان عليّ أميراً بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول : قالوا وما سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول : ٦٤ [يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيلدور بها في النار كما يلدر الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك .. ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية .] ورواه البخاري ومسلم .

وقال تعالى ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ وروى ابن عساكر في ترجمة الوليد بن عقبة عن النبي ﷺ قال : ٦٥ [إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلاّ بما تعلمنا منكم فيقولون : كنّا نقول ولا نفعل]

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ٤﴾
 الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى أمراً عبده فيما يؤملون من خير الدنيا بالاستعانة بالصبر والصلاة ، قال ابن أبي حاتم بسنده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الصبر صبران ، صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله . وقال ابن المبارك بسنده عن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وأما قوله : ﴿والصلاة﴾ فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر وعن حذيفة ابن اليمان ٦٦ [كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة] وعن علي رضي الله عنه قال ٦٧ [رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح] وروى ابن جرير بسنده إلى عبيدة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس نعي إليه أخوه / قثم / وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فضلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته ، وهو يقول : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ وقال ابن جرير معنى الآية : واستعينوا أيها الأخبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة لرضاء الله ، العظيمة أقامتها إلا على الخاشعين أي المتواضعين المستكينين لطاعته من مخافته . ١ هـ

والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص ، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿الذين يظنون أنهم ملأوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ . هذا من تمام الكلام الذي قبله أي إن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملأوا ربهم أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة ، معروضون عليه وأنهم إليه راجعون. أي أمورهم راجعة إلى مشيئة الله يحكم فيها ما يشاء بعدله . فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات . فأما قوله : ﴿ يظنون أنهم ملأوا ربهم ﴾ قال ابن جرير عن مجاهد : كل ظن في القرآن يقين وفي رواية فهو علم .

قال ابن كثير : وفي الصحيح إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ٦٨ [ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذكرك ترأس وترقع ، فيقول : بلى ، فيقول الله

تعالى : أظننت انك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : اليوم أنساك كما نسيتني [.
وسياقي مبسوطة عند قوله تعالى : ﴿ نسوا الله فأنسيهم ﴾ إن شاء الله .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي
فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

يذكرهم الله بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وما كان فضلهم به من إرسال الرسل
منهم ، وإزالة الكتب عليهم ، وعلى سائر الامم من أهل زمانهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد
اخترناهم على علم على العالمين ﴾ قال أبو العالية : قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب
على عالم زمانهم فإن لكل زمان عالماً وروي عن مجاهد وغيره : ويجب الحمل على هذا ،
لأن هذه الأمة أي الأمة الاسلامية أفضل منهم ، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة : ﴿ كنتم
خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب
لكان خيراً لهم ﴾ ولا يجوز صرف المعنى إلى تفضيلهم على العالمين أي على من قبلهم ومن
بعدهم . فإبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قبلهم وهو أفضل من كافة أنبيائهم . ومحمد ﷺ
بعدهم ، وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه
وبركاته عليه .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ
مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

لما ذكرهم الله تعالى بنعمه أولاً ... عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم
القيامة فقال : ﴿ واتقوا يوماً ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ أي
لا يغني أحد عن أحد كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد
عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ فهذا أبلغ المقامات . إن كلاً من الوالد وولده لا
يغني أحدهما عن الآخر شيئاً ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ يعني من الكافرين كما قال ﴿ فما
تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أي فدية . كما قال تعالى :
﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾
ويفسره قوله تعالى : ﴿ فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي
مولاكم ﴾ فأخبر تعالى أنهم لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه الله به ، ووافوا الله يوم
القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه ولا يقبل منها فداء

ولو بملء الأرض ذهباً . ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قيل له : ٦٩ [يا رسول الله : ما العدل ؟ قال : « العدل الفدية . »] ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله . وقال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ يعني لأنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرثى والشفاعات ، وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم للجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة أمثالها وأضعافها . وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون مالكم لا تنصرون بل هم اليوم مستسلمون ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٤٩ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٠ ﴾

يقول تعالى أذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ خلصتكم من آل فرعون ، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه الصلاة والسلام وقد كانوا يذيقونكم أشد العذاب ، وذلك إن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته ... ! رأى ناراً خرجت من بيت المقدس ، فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل . مضمونها أن زوال ملكه على يد رجل من بني إسرائيل ويقال بعد تحدث ستماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة . وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه ... إن شاء الله . لذا فقد أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل ، وترك البنات ، واستعمل بني إسرائيل في أشق الأعمال وأرذلها وسيأتي تفسير ذلك مفصلاً في سورة القصص ، إن شاء الله .

ومعنى ﴿ يسومونكم ﴾ أي يديمون عذابكم وإنما قال ها هنا : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم بقوله آنفاً : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ بمعنى أن فرعون وآله كانوا يسومونهم سوء العذاب ، فيذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم . فيذكروهم الله بنعمته إذ نجاهم من ذلك بعد البلاء الشديد . وفرعون علم على كل ملك من ملوك مصر الكافرين في ذلك الزمن ويقال أنه من

العمالقة واسمه « الوليد بن مصعب بن الريان » وقيل مصعب بن الريان وأياً من كان عليه لعنة الله. ^(١)

وقوله تعالى : ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك . وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره كمجاهد وأبي العالية وأبي مالك والسدي وغيرهم وأصل البلاء : الاختبار . وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى : ﴿ وتبلوهم بالشر والخير فتنة ﴾ وقال ابن جرير : وأكثر ما يقال في الشر بلوته أبلوه بلاء وفي الخير : أبلية لبلاء وبلاء . ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم ﴾ أي بعد أن أنقذناكم من آل فرعون ، وخرجتم مع موسى عليه السلام ، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر أي أوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فلما ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم . ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون في طريقهم ، حتى إذا تناشأ فيه ، أطبقه الله عليهم : فلذلك قال الله تعالى : ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ وكذلك قال غير واحد من السلف . وقد ورد أن هذا اليوم أي يوم غرق فرعون ونجاة بني إسرائيل كان يوم عاشوراء أي العاشر من المحرم كما روى أحمد بن حنبل عن ابن عباس قال : ٧٠ [قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال : (ما هذا اليوم الذي تصومون ؟) قالوا هذا يوم صالح . هذا يوم نجى

(١) قلت : فرعون هذا ، كان يقول أنا ربكم الأعلى ... فرعون هذا ، إدعى الربوبية ، وعذب المؤمنين من بني إسرائيل ... فليس في المسلمين من لا يشهد بكفر فرعون وكونه خالداً في نار جهنم أبداً لا يخفف عنه العذاب . وهذا ما تشهد له الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة ولكن برغم هذا كله فإن هناك فرقة زعمت إنها من المسلمين !!! يقولون بنجاة فرعون من النار وأنه سيدخل الجنة وأنه آمن وما إلى ذلك من الكلام المخالف لصريح القرآن وصحيح السنة . أما ما يستندون إليه في إيمانه هو قوله أثناء غرقه وحين الزرع ، وحين أن بلغت روحه الحبشة الخلقوم ، ورأى ما كان يكفر به حاضراً أمام عينيه ؛ إذ رأى مقعده من النار - رآمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل - وفي هذه الحالة معلوم من نص القرآن أنه لا يقبل إيمان نفس لم تكن آمنت من قبل . وأنه لما قال : « آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل قال الله له « الآن ... ؟ يعني الآن ... ؟ وبعد ما فات الأوان ... ؟ لأن الذي كان مكلفاً أن يؤمن به بظهر الغيب ، رآه شهادة وكان يكفر به قبل ذلك . فرويته شهادة وإيمانه به بعد هذه المشاهدة ، لا يقدم القضية ولا مثقال ذرة لأن الإيمان بالشيء المشاهد ، يؤمن به كل إنسان ، ولا يكفر به أحد ، لأنه مشاهد . ولكن الإيمان الحقيقي هو الإيمان بالغيب ، أي أن تؤمن بالشيء الذي لا تراه كأنك تراه تماماً ، وفي ذلك يكون شدة تصديق بالمبلغ عليه الصلاة والسلام عندك . وعلى كل نحن نسأل الله تعالى أن يهدي هؤلاء الذين يؤمنون بنجاة فرعون إلى الحق والصواب فيشهدوا بكفره . وإذا أبوا ... فنسأل الله أن يحشرهم مع فرعون حيث كان . ألا لعنة الله على فرعون ، وآل فرعون الأولين ... (والآخرين ... !!!) أعاذنا الله من الكفر والخذلان وسوء المنقلب .

الله عز وجل بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام فقال رسول الله ﷺ :
(أنا أحق بموسى منكم) فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه [البخاري ومسلم والنسائي
وابن ماجه من طرق عن أيوب السخيتاني .

﴿ وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن
بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٢
وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٣ ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى
عليه السلام لميقات ربّه عند أنقضاء أمد الموعدة وكانت أربعين يوماً وهي المذكورة في سورة
الأعراف في قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ قيل إنها ذو القعدة
بكماله وعشر من ذي الحجة وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر . وقوله
تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة . ﴿ وَالْفُرْقَانَ ﴾ وهو ما يفرق بين الحق
والباطل والهدى والضلالة . وقيل إن الواو هنا زائدة وهذا غريب . وقيل عطف عليه وإن كان
المعنى واحداً كما في قول الشاعر :

وقدّمتُ الأديم لراقشيهِه فألفني قولها كذباً ومينا
وقول الآخر : ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد
فالكذب هو المين ، والنأي هو البعد .

﴿ لعلكم تهتدون ﴾ بالتوراة التي هي الفرقان بين الهدى والضلالة . وكانت الموعدة بعد
خروجهم من البحر . كما دلّ على ذلك سياق الكلام في سورة الأعراف . ولقوله تعالى : ﴿ ولقد
آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ... ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ
الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ
بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٤ ﴾

في هذه الآية صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل في غياب موسى عليه

(٢ - البقرة - ج ١) توبتهم : أن قتل بعضهم بعضاً فكشِفَ عن سبعين ألف قتيل . ٥٥

الصلاة والسلام في مواعدة ربّه وقد شعروا بعظم الجريمة العظمى التي اقترفوها ... ! ومسي الشريك بالله سبحانه ورأوا أنهم قد ضلّوا قالوا : ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا ... الآية ﴾ فقال موسى : ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم ﴾ ^(١) وفي قوله هنا : ﴿ إلى بارئكم ﴾ تنبيه على عظم جرمهم أي فتوبوا إلى الله الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره .

وقد روى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث يزيد بن هارون بالسند إلى ابن عباس قال : فقال الله تعالى : إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف . ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن فتأب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما أطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول .

قال ابن جرير : أخبرني القاسم بن أبي برة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان في قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ قالوا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضاً لا يخنو رجل على قريب ولا بعيد حتى ألقى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عمن سبعين ألف قتيل . وإن الله أوحى إلى موسى أن : حسبي فقد أكتفيت . فذلك حين ألقى موسى بثوبه . ^(٢)

وروى ابن جرير بإسناد جيد عن الزهري قال فيما قاله بشأن هذا الأمر ... وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى . ما يحزنك أما من قتل منهم فحيّ عندي يرزقون وأما من بقي فقد قبلت توبته . فسُرَّ بذلك موسى وبنو إسرائيل فذلك قوله : ﴿ فتأب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦ ﴾

يقول تعالى : أذكروا يا بني إسرائيل نعمني عليكم بعد الصعق إذ بعثتكم بعد أن سألتكم رؤيتي جهرة عياناً لما لا يستطيع لكم ، ولا لأمثالكم . قال ابن عباس في هذه الآية : ﴿ وإذ

(١) قلت : إن عبادة العجل شرك بالله تعالى . والشرك أعظم الظلم عند الله ، ولذا قال موسى لهم : ﴿ ظلمتم أنفسكم ﴾ وما راعيت حق الذي خلقكم وأنعم عليكم بإنجائكم من فرعون والغرق ، فكيف تبدون سواء ؟ فالذي خلق وأنعم ونجى وحده هو الذي يستحق العبادة وحده وهو الله تعالى وتقدس لا شريك له له الملك وله الحمد .

(٢) اكتفاء يليق بجلاله لا كاكْتفاء المخلوقين فإن الله غني عن العالمين .

قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴿ قال علانية . وعن الربيع بن أنس هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه قال فسمعوا كلاماً فقالوا ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴿ قال فسمعوا صوتاً فصعقوا . قال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة : الصاعقة صيحة من السماء ، وقال السدي في قوله تعالى : « فأخذتكم الصاعقة » نار^(١) ، وقال عروة بن رويم في قوله : « وأنتم تنظرون » قال صعق بعضهم وبعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء^(٢) قال السدي : « فأخذتكم الصاعقة » فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : ربي ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴿ فأوحى الله إلى موسى إن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجالاً رجالاً ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون^(٣) ويقول السدي في ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴿ قال الربيع بن أنس كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد موت (العقوبة) ليستوفوا أجالهم وقد ذهب البعض إلى أن رؤية بني إسرائيل لهذه النعم وهذه المعجزات المتقدمة أسقطت عنهم التكليف لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق وقد قال آخرون : هذا قول مردود لأن معاينتهم للأمر الفطرية لا تمنع تكليفهم لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظيماً من حوارق العادات وهم في ذلك مكلفون وقد أورد القولين الماوردي ووافقه القرطبي على الثاني وهو الأصح لثلاثاً يخلو عاقل من التكليف والله أعلم^(٤) .

(١) قلت : ويمكن الجمع بين قولي مروان والسدي : بأن الصاعقة لها صوت ، ولها نار ومصدر هامن السماء والله أعلم .

(٢) قلت : وهذا بعيد لأن المفهوم أن الصعق كان مرة واحدة للجميع ولعل قول السدي هو الأصح والله أعلم .

(٣) قلت : فذلك قوله تعالى : « وأنتم تنظرون » وهذا أقرب من قول عروة بن رويم والله أعلم .

(٤) قلت : وثمة دليل آخر على تأييد القول الثاني . وهو : أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام

هل علم حقيقي تام بمعاينتهم أموراً أعظم مما عاينها بنو إسرائيل بكثير ، كروية جبريل وإخبارهم بأنهم رسل الله إلى الناس وإنزال الوحي عليهم ، وتأيد الله لهم ، ورؤية أشياء من عالم الغيب ، كأنها شهادة ، كما حصل لنبينا عليه الصلاة والسلام من مواجهة الأنبياء ليلة الاسراء وإمامته فيهم ، ورؤية السموات العلل سماء فضاء ورؤية من فيهن وما فيهن ، والجنة والنار والصراف ، ورؤية بعض أشخاص في الجنة أو في النار والتحدث بذلك لصحابته وتكليم الله له ليلة المعراج بلا واسطة - دونما رؤية - ثم عودته إلى الأرض إلى مكة قبل أن ينصدع الفجر وسوى ذلك من المعجزات كل ذلك كان موجباً لاسقاط التكليف - فيما لو صح القول الأول - ولكن مع كل هذا لم تسقط التكليف عن أحد منهم .

حتى لما قيل له قد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر فلم لإجهاد النفس في العبادة؟ وكانت قد تورعت قدماء من طول القيام - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٧١ (أفلا يكون عبداً شكوراً) . وقوله تعالى « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » أما معاينتهم تلك تازمهم بالتصديق فهذا مؤكده والله أعلم .

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ٥٧

لما ذكر الله تعالى ما دفعه عنهم من النقم ، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم فقال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ وهو جمع غمامة لأنه يغم السماء أي يسترها وهو السحاب الأبيض ظلّوا به في التّيه ليقبهم حرّ الشمس . قال ابن جرير وآخرون : غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو ليس من نوع السحاب المعروف عندنا . وقد قال ابن أبي حاتم بالسند عن مجاهد قال : ليس بالسحاب . هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة و لم يكن إلاّ لهم . وهكذا رواه ابن جرير والثوري عن ابن عباس وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر وقال ابن عباس : وكان معهم في التّيه وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴾ اختلف المفسّرون في المنّ ما هو ... ؟ فمن قال إنه كالطلّ ويشبهه الربّ الغاليظ ^(١) ومنهم من قال : إنه كان ينزل مثل الثلج أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منه قدر ما يكفيه يومه ذلك فإذا تعدّى ذلك فسد ولم يبق حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه يوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء . والظاهر والله أعلم انه كل ما أمّن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس فيه عمل ولا كدّ ، فالمنّ المشهور إن أكل وحده ، كان طعاماً وحلاوة ، وإن مزج مع الماء ، صار شراباً طيباً ، وإن ركّب مع غيره صار نوعاً آخر ، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده . والدليل على ذلك ما رواه البخاري عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ ٧٢ : [الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين] ورواه أحمد والجماعة في كتبهم إلا أبا داود ^(٢)

وأما السّلوى : فقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : السّلوى طائر يشبهُ بالسّماني كانوا يأكلون منه . وقال ابن أبي حاتم بالسند إلى ابن عباس قال : السّلوى هو السّماني وكذا قال مجاهد والشّعبي والضّحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله وقال قتادة : السّلوى كان من طير أقرب إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب . وكان الرجل يذبح منها بقدر

(١) أي ما نسيه اليوم بالربى وهو نوع من الحلوى .

(٢) قلت : من قوله (الكمأة من المن ...) يدل على أن المن ليس نوعاً واحداً إنما هو أنواع ومن أنواع الكمأة ... والله تعالى أعلم .

ما يكفيه يومه ذلك فلا إذا كان يوم جمعة أخذهُ وليوم سبته لأن السبت يوم عبادة لا يشخص فيه شيء ولا يطلبهُ . ﴿ كلُّوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أي كلوا من هذه الطيبات التي رزقناكم ، وهو أمر لإباحة وإرشاد وامتنان وقوله تعالى : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا . كما قال ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾ وشكر الله عبادته كما أمر فخالقوا وكفروا فظلموا أنفسهم بأخذهم الكفر وتفضيلهم له على الإيمان رغم ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات فاستحقوا من الله عذاب النار فذلك قوله : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ومن ها هنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ رضي الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته ، منها عام تبوك في ذلك القبط والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق العادة ، ولا إيجاد أمر ، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ إلا سؤالهم له تكثير الطعام لما أجهدهم الجوع ، وكذلك لما احتاجوا إلى الماء ، فسأل الله ودعاه فزاد الأكل حتى ملأوا كل وعاء .

وسأل الله من أجل الماء ، فجاءتهم سحابة ، فأمطرتهم فشرَبوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم . فهذا هو الأكل في اتباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ٥٩ ﴾

يقول الله تعالى على نكولهم عن الجهاد ، ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه الصلاة والسلام فأمرُوا بدخول الأرض المقدسة التي كانت ميراثاً لهم عن أبيهم إسرائيل عليه الصلاة والسلام . وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا فرماهم الله في التيه عقوبة لهم .

وقد اختلف المفسرون في تعيين اسم لهذه القرية ؛ فمن قائل : إنها أريحا فلسطين ومن قائل إنها مصر ، ولكن أصح الأقوال أنها بيت المقدس بدليل ما قاله الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام في سورة المائدة : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ هذا ولما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة ، مع يوشع بن نون عليه السلام ، وفتحها الله عليهم عشية جمعة ولما فتحوها أمرهم الله : ﴿ وادخلوا

الباب سجداً ﴿ أي باب بيت المقدس سجداً أي ركعاً وذلك شكراً لله تعالى على نعمة الفتح والنصر وانقاذهم من التيه والضلال ، وأمرهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وقولوا حطة ﴾ أي مغفرة يا رب عما صدر منا من الذنوب اللهم فحط عنا خطايانا ^(١)

ولكن بني إسرائيل عوضاً عن أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً أي ركعاً شاكرين لله ، دخلوه زحفاً على أستاذهم مستهزئين ، وعوضاً عن أن يقولوا ﴿ حطة ﴾ أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزأوا وقالوا : / حبة في شعرة / .

فقد روى عبد الرزاق عن أبي هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : ٧٣ [قال الله لبني إسرائيل : ﴿ أدخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾ . فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا : حبة في شعرة] وهذا حديث صحيح رواه البخاري عن إسحق بن نصر ومسلم : عن محمد بن رافع والترمذي عن عبد الرحمن بن حميد كلهم عن عبد الرزاق به . ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ أي بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فاستهزأوا ... !!! وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاداة ولهذا أنزل بأسه وعذابه بفسقهم ، وهو خروجه عن طاعته فقال : ﴿ فأثرلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب . والرجز أيضاً الطاعون لما قال ابن أبي حاتم بالسند المتصل إلى سعد بن مالك ، وأسامة بن زيد ، وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم قالوا : قال رسول الله ﷺ : ٧٤ [الطاعون رجز ، عذاب عذب به من كان قبلكم]

﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ ٦٠ ﴾

يذكر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم بإجابة موسى عليه الصلاة والسلام حين استقى لهم فيسر الله الماء . وأخرجه سبحانه لهم من الحجر وفجر لهم منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط من أسباطهم عين قد عرفوها . وقال لهم : ﴿ كلوا واشربوا ﴾ أي كلوا من المسن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبى الله بلا سعي منكم ولا كد ، واعبدوا الله الذي سخر لكم ذلك ﴿ ولا تعتوا في الأرض مفسدين ﴾ أي ولا تقابلوا النعم بالعصيان ، فتسلبوها

(١) قلت : وفيه دليل على التوصل بالأعمال الصالحة إلى الله سبحانه وذلك بأن الله تعالى طلب إليهم أن يعترفوا بذنوبهم حتى يكون هذا الاعتراف وسيلة لمغفرة الذنب .

وقد اختلف في نوع الحجر الذي انفجرت منه العيون اثنتا عشرة هل هو حجر معين أو هو حجر ما من الأحجار فقليل وقيل يقال الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال: وهذا أظهر للمعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه ثم يضربه فيميس . وهو أقرب للصواب والله أعلم .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۖ ﴾

يُذَكِّرُ الله بني إسرائيل بنعمته في إنزاله عليهم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً ويذكّرهم بضجرهم من هذا الرزق الهنيء السهل، وسؤالهم موسى عليه السلام إستبداله ، بقولهم له : ﴿ يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . ﴾ فإنهم لم يصبروا على طعام واحد وهو المن والسلوى دون أن يتبدل أو يتغير ، فملّوه وكرهوه وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه قبل التيه وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل ، فأرادوا تنويع ما كلهم مما تنبت الأرض من هذه الأشياء التي كانوا يزرعونها . فأما البقل والقثاء والعدس والبصل فكلها معروفة . وأما الفوم فقد اختلف السلف في معناه . فمن قال : الفوم هو الثوم كما وقع في قراءة ابن مسعود : ﴿ وثومها ﴾ بالثاء . وكذا فسّره مجاهد والربيع بن أنس فإن كان ذلك صحيحاً فإنه أي حرف الفاء من الحروف المبدلة في أثافي : أثافي . وأشباه ذلك مما تقلب فيه الفاء ثاءً والفاء فاءً لتقارب مخرجيهما والله أعلم .

وقال آخرون : إن للفوم : الحنطة . كما قال ابن عباس : إن الفوم الحنطة بلسان بني هاشم . وقال آخرون : إن الفوم هو ، كل ما يختبز منه . قال البخاري : وقال بعضهم : الحبوب التي تؤكل كلها فوم ^(١)

(١) قلت : لعل تفسير الفوم بالحنطة أو بكل ما يختبز .. أقرب إلى الصواب من تفسيره بالثوم وذلك من وجهين

١ - يفهم من ترتيب ذكر هذه الأشياء في الآية الكريمة : أن الله ذكر البقل والقثاء إلى بعضهما لتقارب النوع في الأصل وهو البنور . ثم ذكر الفوم والعدس لتقارب نوعيهما في الأصل لأنهما من نوع الحبوب ولو أن الفوم هو الثوم لتأخر ترتيب ذكره مع البصل لتقاربهما في الأصل وفي الحب .

٢ - إن الحنطة وكل ما يختبز منه ضرورة معاشية أكثر من الثوم إذ حاجة الناس للحنطة ، ولكل ما يختبز كالشعير والذرة ... أكثر من حاجتهم إلى الثوم والله أعلم . أضف إلى ذلك أن الفوم: الحنطة في لغة بني هاشم فلما طلب بنو إسرائيل هذه الأشياء ... وفضلوها على المن والسلوى وبخهم الله تعالى فقال : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، إهبطوا مصرًا فإن لکم ما سألتم . ﴾

وقوله تعالى : ﴿ اهبطوا مصرًا ﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف بالمصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف . وقال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك . والمعنى : أن اهبطوا مصرًا من الأمصار لا / مصر فرعون / لأن موسى عليه الصلاة والسلام قال لهم : هذا الذي سألتكم ليس بأمر عزيز المنال ؛ بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه . فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه . ولهذا قال : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم ﴾ أي ما طلبتم ولما كان سؤالهم من باب البطر والأشر ، ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ٦١

يقول تعالى : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ أي وضعت عليهم وألزموها شرعاً وقدرأ^(١) أي لا يزالون مستذلين ... وكل من جدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار وهم مع ذلك أذلاء في نفوسهم مستكينون بما أذنبوا . قال الحسن : أذلهم الله فلا منعة لهم ، وجعلهم تحت أقدام المسلمين^(٢) وقد أدركتهم هذه الأمة ، وإن المجوس لتجبيهم الجزية . ﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ يعني رجعوا بأثامهم ، وانصرفوا متحملين غضب الله وسخطه اللذين وجبا عليهم بما أسلفوا من الآثام .

﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ . يقول تعالى : إن مجازاتهم بضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وبغضب الله وسخطه كانت بسبب استكبارهم عن اتباع الحق . وإهانتهم حكمة الشرع وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعدم اتباعهم . وقد انتقصوا

(١) قلت - : شرعاً : أي بما اقترفوه من الكفر والآثام لذا فإنهم - بعد ما كفروا - كانوا ولا يزالون مستذلين ... وكل من جدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار .

وقدرأ : أي بما سبق في علم الله سبحانه مما سيكون منهم من اختيار الكفر على الإيمان بما يهدون إليهما من قبل الله - هداية دلالة - وسيعاقبون على كفرهم بالذلة والمسكنة والغضب لذلك فإنهم في أنفسهم وجبتهم أذلاء مستكينون .

(٢) قلت - : نعم « جعلهم تحت أقدام المسلمين - هم وغيرهم - لما كان للمسلمين دولة تحكم بما أنزل الله . وكانوا أهلاً لحمل رسالة الإسلام فحملوها وتمتد بإخلاص لله ولكتابه ولرسوله لا يحيدون عنها قيد أنملة . ولكنهم لما جعلوا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم واستبدلوا بشرع أعداء الله وأعدائهم ، أذلهم الله وجعل بلادهم « فلسطين » تحت أقدام اليهود بينما كان اليهود بالأمس تحت أقدام المسلمين لا لأن اليهود غير فاليهود هم المفضوب عليهم .. بل لأن المسلمين تخلوا عن مسؤولياتهم في حمل رسالة الاسلام وحكموا بغير ما أنزل الله . فهل للمسلمين أن يمددوا إلى الله ، ليمد مجدهم ويمد يهود كما كانوا تحت أقدام المسلمين؟

حقهم لدرجة أن أفضى الحال إلى قتلهم بغير الحق أي بلا جرم فعلوه . فلا كفر أعظم ولا أبلغ من ذلك . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : ٧٥ [أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، رجل قتل نبياً ، أو قتل نبياً ، وإمام ضلالة ، وممثل مسن الممثلين .] وجاء في الحديث المتفق عليه : ٧٦ [الكبّر بطن الحق وغمط الناس] أي رد الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاطف عليهم ولذا أحلّ الله بهم بأسه الذي لا يردّ ، وكساهم ذلاً في الدنيا والآخرة ... جزاءً وفاقاً . ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ وثمة علة أخرى في مجازاتهم بما جاوزوا به ، وذلك بموجب فعلهم المعاصي وارتكابهم محارم الله ، واعتدائهم حد ما نهوا عنه والله أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعمل صالحاً فَلَهُمْ أَجرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ٦٢

لما بين الله سبحانه في الآيات السابقة ، حال الكفار والمنافقين واليهود وسائر من خالفوا أوامره ، وتعدوا فعل ما لا إذن لهم فيه منه تعالى ، وبين ما أحلّ بهم من النكال نبه تعالى علي أن كذلك من أحسن من الأمم السالفة ، وأطاع أوامر الله كما أمر سبحانه فإن له جزاء الحسن . وكذلك الأمر إلى يوم القيامة ... فكل من اتبع رسول الله النبي الأمي فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه في الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه في الدنيا . ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ وهم أمة محمد ﷺ ، وسميت هذه الأمة : مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية ^(١)

﴿ والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر . ﴾

أي الذي آمن من اليهود والنصارى والصابئين ^(٢) سواء في ذلك الأمم السابقة منهم الذين

(١) قلت : وسواء في ذلك من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد بعثته ، أو من آمن به قبل بعثته أمثال : قس بن ساعدة الأيادي ، وزيد بن عمر بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، والبراء الشني ، وأبي ذر الغفاري وسلمان الغفاري ، وبحيرا الراهب ووفد النجاشي . فمنهم من أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وتابعه ومنهم من لم يدركه ... فهؤلاء جميعاً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم الذين عناهم الله فيمن عناهم إلى يوم القيامة في قوله هذه الآية « إن الذين آمنوا » والله تعالى أعلم .

(٢) قلت - : اليهود والنصارى هم - كما هو معلوم - الأمتان اللتان تنتسبان إلى موسى وعيسى عليهما السلام وهذان الاسمان لزمّا لليهود والنصارى زمن موسى وعيسى عليهما السلام لما كانا على الحق وبقيا لازمين لها كاسم الإسلام لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . أما « الصابئون فقد اختلف المفسرون في أمرهم ... فمنهم من =

آمَنُوا بِأَنْبِيَائِهِمْ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَغْيِرُوا وَلَمْ يَدْلُوهَا وَمَاتُوا عَلَى ذَلِكَ . أَوْمَنُوا أَدْرَكُوا مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْثَالُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَالنَّجَاشِيِّ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولَهُ وَعَمِلُوا صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ عَمَلًا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرِيعَةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٦٣ ﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٦٤ ﴿

يذكر الله تعالى بني إسرائيل ما أخذوه عليهم من العهود والمواثيق باتباع الشريعة وما فيها من التوحيد والأحكام . ولما أبوا أن يطيعوا أمر الله ، أمر الله الجبل أن يقع عليهم وقد غشيهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم فسقطوا سجداً على شق ، ونظروا بالشق الآخر ، تائبين لله . فكشف الله عنهم الجبل . وذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَنَقَضْتُمْ مَا عَاهَدْتُمْ اللَّهَ عَلَيْهِ ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ، وإرسال النبيين والمرسلين إليكم لكنكم بنقض الميثاق المؤكَّد العظيم من الخاسرين في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ٦٥ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٦٦ ﴾

- قال : هم قوم كانوا على فطرتهم ، ولا دين مقرر لهم يتبعونه . ولذا كان المشركون ينزولون من أسلم ... بالصابئ أي أنه خرج من سائر الأديان . وقال آخرون : الصابئون هم الذين لم تبلفهم دعوة نبي ومن قال : أنهم عبدة النجوم والكواكب . ومن قال أنهم سمو صابئة لأنهم خرجوا من دين اليهود وعبدوا الملائكة والكواكب . وقال ابن تيمية : رحمه الله تعالى : - وقوله هو الأصح والله أعلم - تلخصه هنا من كتابه « الرد على المنطقيين » : كانت « حران » دار الصابئة وكان بها هيكل العلة الأولى ، وهيكل العقل الأول وهيكل النفس الكلية ، وهيكل زحل ، وهيكل المشتري ، وهيكل المريخ ، وهيكل الشمس وكذلك الزهرة وعطارد والقمر . وكان دينهم قبل ظهور النصرانية ، ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة المشركين وكان جامع دمشق ممبلاً كبيراً ... له قبلة إلى القطب الشمالي . والصابئة نوعان : ١ - حنفاء موحدون ، ٢ : وصابئة مشركون . فالأول هم الذين اتقى عليهم الله بهذه الآية . فأتى الله على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً . اهـ

يقول تعالى : ولقد علمتم يا معشر اليهود ما أحل من البأس والنكال بأهل « إيلة » الذين عصوا أمر الله فيما أخذوا عليهم من تعظيم يوم السبت وعدم العمل فيه . فتحايلوا على اصطيد الحيتان التي كانت ما تأتيتهم إلا يوم السبت ، بما وضعوا لها من الشصوص والحبات والبرك فلا تستطيع الخروج منها طيلة يوم السبت فيأتون إليه ليلة الأحد ، يأخذون زاعمين أنهم لم يصطادوه يوم السبت بحيلهم هذه مع أن فعل الصيد ، وقع في السبت بفعل ما فعلوه قبل يوم السبت فلذلك مسخهم الله قرده مسخاً حقيقياً .

وقد كان أهل هذه القرية قسمين .. قسم أحتالوا وقسم لم يحتالوا أبداً ، وهؤلاء على قسمين أيضاً قسم كان ينهى عن الصيد وقسم آخر لم ينه ، فلما حل العذاب نزل بالذين أحتالوا ... وبالذين لم ينهوهم سواء ... جزاء عدم النهي . ولم ينج إلا أولئك الذين نهوهم عن هذه المعصية . قال عطاء الخراساني : زدوا يا أهل القرية : كونوا قرده خاشعين فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون : ألم نهكم ؟ فيقولون برؤوسهم أي بلى ولما كان المسخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام ، فبقوا قرده ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون ثم ماتوا . قال ابن عباس : فلولا ما ذكر الله أنه نجى الذين نهوا عن سوء لأهلك الله جميع القرية .

قوله تعالى : ﴿ وجعلناها نكالا ﴾ فالضمير عائد على القرية وقيل على المسخة والعقوبة والصحيح القرية ، أي جعل الله أهل هذه القرية بسبب اعتدائهم في السبت نكالا أي عاقبتهم عقوبة فجعلناها عبرة ، ولمن حولها من القرى ولبنى إسرائيل كيلا يعملوا مثل أعمالهم . وقوله تعالى : ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ أي موعظة للمتقين الذين من بعدهم إلى يوم القيامة . فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم . وقد كان ذلك في عهد داود عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ﴾

روى ابن بطة بالسند المتصل إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٧٧ [لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل] وهذا إسناد جيد وفي سنده أحمد بن محمد بن مسلم وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح والله أعلم .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ٦٧
 ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ٦٨ قَالُوا
 ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ٦٩ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ
 الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا
 ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْإِنِّ جِئْتَ
 بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

روى ابن أبي حاتم بالسند المتصل إلى محمد بن سيرين عن عبيدة السلماني قال : « كان رجل من بني إسرائيل عقيماً ، وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه يقتله . ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذوو الرأي منهم والنهي : علام يقتل بعضكم بعضاً ، وهذا رسول الله فيكم فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له ، فقال : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » قالوا اتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة . ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً فأخذوها بملء جلدتها ذهباً . فذبحوها فضربروه ببعضها فقام فقالوا من قتلك ... ؟ فقال هذا ... وأشار إلى ابن أخيه ثم مال ميتاً . فلم يعط من ماله شيئاً ، فلم يورث قاتل بعد . والظاهر أن هذه القصة مأخوذة من كتب بني إسرائيل . وهي مما يجوز نقلها ... ولكن لا تصدق ولا تكذب ، ولذلك لا يعتمد عليها إلا بما وافق الحق عندنا ... والله أعلم .

• • •

يقول تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتناخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ .

يذكر الله تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم في خرق العادة لهم في شأن البقرة ويبين القاتل فلما شكوا أمرهم إلى موسى عليه السلام قال : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتناخذنا هزوا ﴾ أي تستهزيء بنا... ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ فهو يلجأ إلى الله عائداً به أن يكون من المستهزئين الجاهلين والنبي لا يفعل هذا ... فلما تيقنوا الجحد في قول موسى عليه السلام ﴿ قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هي ... ﴾ وما كان الله ليأمر إلا أن يذبحوا بقرة ما ... أيتها كانت ... ولكن عنادهم ، وكثرة سؤالهم على أنبيائهم ، دعاهم أن يقولوا : ﴿ أدع لنا ربك يبين لنا ما هي ... ﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾ أي لا كبيرة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل ، بل هي أقوى ما تكون من البقر . وأطيعوا أمر الله فيما يأمركم به من ذبح البقرة . ﴿ قالوا : أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها ... ﴾ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . ﴿

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس : ﴿ فاقع لونها ﴾ يعني شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض وقوله : ﴿ تسر الناظرين ﴾ أي تعجب الناظرين

﴿ قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون ﴾ وهذا أيضاً من شدة عنادهم واختلافهم ؛ ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾

قوله : ﴿ لا ذلول تثير الأرض ﴾ أي أنها ليست مذلة بالحرارة . ﴿ ولا تسقى الحرث ﴾ أي ولا معدة للسقي في السانية ، بل هي مكرمة حسنة صبيحة ﴿ مسلمة ﴾ أي صحيحة لا عيب فيها ﴿ لا شية فيها ﴾ أي ليس فيها لون غير لونها . ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ أي مطابق للوصف الذي رآه في البقرة عند الرجل ... ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : كادوا أن لا يفعلوا ... ولم يكن ذلك للذي أرادوا ... لأنهم أرادوا ألا يذبحوها يعني لأنهم مع كل هذا البيان ، وكل هذه الأجوبة والأسئلة ، والاستيضاح ، ما ذبحوها إلا بعد الجهد ، وفي هذا ذم لهم . وذلك إنه لم يكن غرضهم إلا التعتت فلهذا ما كادوا يذبحونها .

قال ابن جريج : قال رسول الله ﷺ ٧٨ [إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد .]

(٢ - البقرة - ج ١) : إحياء القتل ببعض أجزاء البقرة... تنبيهٌ وحجةٌ لله تعالى على المعاد ٦٧

مسألة : أستدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت، أو تم تقييدها بعد الإطلاق، على صحة السَلَم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً بدليل ماثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ : ٧٩ [لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها] وكما وصف النبي ﷺ إبل الدبة في قتل الخطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون : لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم .

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ٧٢
فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُ فِيهَا﴾ أي واذكروا يوم قتلتم نفساً فادارأتم فيها قال البخاري : ﴿فادارأتم فيها﴾ أي اختلفتم وقال ابن جريج فادارأتم فيها قال قال بعضهم انتم قتلتموه وقال آخرون بل انتم قتلتموه أي كل فريق يدرأ عن نفسه الجريمة . ﴿والله يخرج ما كنتم تكتمون﴾ قال مجاهد : ما تغيبون ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ هذا البعض هو أي شيء كان من أعضائها فلمعجزةٌ حاصلةٌ به فلو كان في تعيين هذا البعض فائدة تعود علينا في أمر الدين والدنيا لبيته الله تعالى لنا، ولكنه أبهم ولم يجبي عن طريق صحيح عن المعصوم بيانه فنحن نُبهم كما أبهم الله . وقوله تعالى : ﴿كذلك يجبي الله الموتى﴾ أي فضرَبوا القتل ببعض أجزاء البقرة فحي ... وفي ذلك تنبيه من الله تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من امر القتل جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجةً لهم على المعاد ... وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد . روى أبو داود الطيالسي عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال (قلت يا رسول الله : كيف يجبي الله الموتى ... ؟ قال : ٨٠] «أما مررت بوادٍ مَحَلٍّ ثم مررت به خَضِرًا ... » قال بلى . قال : « كذلك النشور » أو قال : « كذلك يجبي الله الموتى » .

استدل لمذهب الإمام مالك في كون قول الجريح : فلان قتلني ^(١) لوثاً بهذه القصة ، لأن القتل لما حي سئل عن قتله فقال : فلان قتلني ، فكان ذلك مقبولاً منه ، لأنه لا يخبر حينئذٍ إلا بالحق، ولا يتهم والحالة هذه ، ورجحوا ذلك لحديث أنس : ٨١ [أن يهودياً قتل جارية على أوصاح لها ^(٢) فرضخ رأسها بين حجرين ، فقيل : من فعل بك هذا ، أفلان ؟ أفلان ؟

(١) (اللوث) : شبه الدلالة (قاموس) .

(٢) الأوصاح : جمع (وضح) وهي الحلي من الفضة (قاموس) .

٦٨ (٢ - البقرة - ج ١): إن الحجارة ألين من قلوب بني إسرائيل لتكذيبهم بالحق بعلم رؤيته

حتى ذكروا اليهودي ، فأومات برأسها فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى أعترف فأمر رسول الله ﷺ [أن يرض رأسه بين حجرين]

وعند مالك إذا كان لوثاً ، حلف أولياء القتل قسامة^(١) ، ونخالف الجمهور في ذلك ، ولم يجعلوا قول القتل في ذلك لوثاً .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٧٤

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقریباً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ فهي كالحجارة التي لا يكون من طبيعتها اللين أبداً ، لهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لَذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ . فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . ﴾

قوله تعالى : ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ أي صارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات. فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها ﴿ أو أشد قسوة ﴾ من الحجارة ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ كما قال ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴿ قال مجاهد : كل حجر يتفجر منه الماء أو يشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل ، لمن خشية الله . نزل بذلك القرآن . فهذه الحجارة ألين من قلوب بني إسرائيل لأنهم كذبوا بالحق بعد أن رأوه . وقد قال بعض المفسرين « إن ما ورد من وصف الحجارة من قبيل المجاز . ولكن قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة : « لا حاجة إلى المجاز فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾ وقوله ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ وقوله تعالى ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ وقوله تعالى

(١) القسامة : الجماعة يقسمون على الشيء ويأخذونه أو يشهدون (قاموس) .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ وفي الصحيح : ٨٢
[هذا جبل يحبنا ونحبه] ، وكحنين الجذع المتواتر خبره . وقوله تعالى : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (١) (٢)

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ
كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُوا
الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسْطِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ
بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦ أَوْ لَا
يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ٧٧

يقول تعالى : أفنتطمعون أيها المؤمنون أن يؤمنوا لكم أي ينقادوا اليكم بالطاعة ... لا .. إن هؤلاء الفرق الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه أي يتأولونه على غير تأويله من بعد ما عقلوه أي فهموه على الجالية ، ومع هذا يخالفونه على بصيرة وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله وهذا المقام شبيهه بقوله تعالى : ﴿ فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ قال السدي : وقد كان فريقاً منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ، قال : هي التوراة حرفوها قال قتادة : ﴿ ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ قال هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه من نعمت رسول الله ﷺ ومن تحليل الحرام وتحريم الحلال وإحقاق الباطل وإبطال الحق .

وعن ابن عباس : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ أي أن صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة : ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجبوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴾ أي وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم

(١) قلت : أي ليس بغافل عما يعمل هؤلاء من المخالفات الظاهرة والباطنة وكيف يغفل ، وهو الذي لا تعزب عن ملكه مثقال ذرة في السموات والأرض .

(٢) قال صديق حسن خان رحمه الله : « بغافل عما تعملون » أي فيه من التشديد والتهديد والوعيد ما لا يخفى فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه مطلقاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد والله أعلم .

قد كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان منهم . فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا لقوا الذين آمنوا ... الآية ﴾ أي تقرون بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذله الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا ، إجنحدوه ولا تُقرُّوا به . فبردُّ عليهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يُسرُّون وما يعلنون ﴾ قال أبو العالية يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به وهم يجحدونه مكتوباً عندهم .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَ شَيْءٌ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ ٧٩

يقول تعالى : ﴿ ومنهم أميون ﴾ أي ومن أهل الكتاب والأُمِّي عند العرب : هو الذي لا يكتب ولا يحسب . وقال عليه الصلاة والسلام : ٨٣ (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا ... الحديث) والمقصود أن ومن أهل الكتاب أميون لا يقرأون ولا يكتبون ﴿ إلا أمانِي ﴾ إلا أقوالاً وأحاديث يقولون بأفواههم كذباً ، ويتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ويقولون هو من الكتاب ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ أي يكذبون ولا يدرون ما فيه وهم يجحدون نبوتك بالظن . ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشرَّوا به ثمناً قليلاً ﴾ هؤلاء صنف آخر من اليهود . وهم أجبارهم الداعون إلى الضلال بالزور والكذب وأكل أموال الناس بالباطل .

قال السدي : كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله ، فيأخذوا به ثمناً قليلاً . ومن حديث رواه البخاري عن الزهري من طرق إلى ابن عباس ... أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوه بأيديهم وقالوا هو من عند الله ليشرَّوا به ثمناً قليلاً .

﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ أي فويل لهم مما كتبت أيديهم من الكذب والبهتان والافتراء وويل لهم مما أكلوا به من السحت . والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ

اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخَيِّفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٨٠

إدعى اليهود أن نار جهنم لن تمسهم أكثر من الأيام التي عبدوا فيها العجل ، وهي أربعين يوماً فقط فردّ الله عليهم : ﴿ قل اتخذتم عند الله عهداً ﴾ بذلك فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ولكن ما جرى أبداً مثل هذا العهد ﴿ أم ﴾ بمعنى بل ﴿ تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ من الكذب والافتراء عليه . ومن حديث رواه أبو بكر بن مردويه بالسند المتصل إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ٨٤ [سأل اليهود بعد فتح خيبر في جملة ما سألهم : (... من أهل النار ؟ فقالوا نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها فقال رسول الله ﷺ : [إخشوا والله لا تخلفكم فيها أبداً]

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٨١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٨٢ ﴾

برّد الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل الذين زعموا قائلين : ﴿ ... لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ بأن الأمر ليس كما زعمتم وتمنيتم ولا كما تشتهون بل الأمر : إنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته . وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات ، فهذا من أهل النار . ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشرعية فهم من أهل الجنة . قال ابن عباس : ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ أي عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره فما له من حسنة وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٨٥ [إياكم ومحقرات الذنوب فأنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه] قال ابن عباس : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أي من آمن بما كفرتم ، وعمل بما تركتم من دينه فلههم الجنة خالدون فيها . ويخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً بلا انقطاع والله أعلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ٨٣ ﴾

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر ، وأخذ ميثاقهم على ذلك ، وأنهم أعرضوا عن ذلك كله عمداً وهم يعرفونه ويذكرونه . فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به

شيئاً ، وبهذا أمر جميع خلقه ولذلك خلقهم كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وهذا هو حق الله تبارك وتعالى أن يُعبدَ وحده لا شريك له ثم يأتي بعده حق المخلوقين ، وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين . ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ... ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود : ٨٦ [قلت يا رسول الله أي العمل أفضل قال : (الصلاة على وقتها) قلت ثم أي .. ؟ قال : (بر الوالدين) قلت ثم أي .. ؟ قال : (الجهاد في سبيل الله] وجاء في الحديث الصحيح : ٨٧ [أن رجلاً قال يا رسول الله من أبر قال : (أمك) قال ثم من ؟ قال : (أمك) قال : ثم من ؟ قال : (أباك ثم أدناك ثم أدناك] **﴿ واليتامى ﴾** وهم الصغار لا كاسب لهم من الآباء **﴿ والمساكين ﴾** الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم .

قال الحسن البصري **﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾** فالحسنُ من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسناً كما قال الله . وهو كل خلق حسن رضيهِ الله . روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ٨٨ [لا تحقرن من المعروف شيئاً وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق] وأخرجه مسلم .

ومن بعد ما أمرهم بالإحسان للناس بالفعل فيجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي ، ناسب أن يأمرهم أن يقولوا للناس حسناً . ثم أكد الأمر بعبادته ، والإحسان إلى الناس بالمتعتين من ذلك ، وهو : الصلاة والزكاة . وأخبر أنهم أي بنو إسرائيل تولوا عن ذلك كله أي تركوه وراء ظهورهم ، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم . هذا حال هذه الأمة أي حال بني إسرائيل أما حال هذه الأمة الإسلامية فقد أمرهم الله بنظير ذلك فقامت بمالم تقم به أمة من الأمم قبلها والله الحمد والمنة . والله أعلم ^(١) .

(١) قلت : نعم كان حال الأمة الإسلامية كما ذكر المؤلف المفسر رحمه الله وذلك في صدر الإسلام عندما كانت الأمة الإسلامية تحكم بما أنزل الله . ولكن كلما تقادم العهد أنقصوا من تنفيذ أوامر الله فينقصهم الله بقدر ذلك من هيبتهم ودولتهم ، إلى أن وصلت الحال في زمننا الحاضر - القرن الرابع عشر - إلى تفكك الأمة الإسلامية إلى دويلات متخاذلة متفرقة ... !!! وكلها محكومة بل أكثرها محكوم من الكفار حكماً مباشراً أو غير مباشر . ولن تعود أمة الإسلام لمثل ما وصفها المفسر رحمه الله إلا إذا عادت للحكم بما أنزل الله ، كما كانت في الزمن الأول . لأن مهمة المسلم أن يقيم حكم الله في نفسه وفي مجتمعه بل وفي العالم أجمع ، ليحقق الوصاية التي انتدبه الله إليها على الدنيا ، ليقم حكمه فيها ، فإذا تنازل عن هذا الواجب المكلف به ، أصابه الله بقارعة من نوع العمل ، فيسلبه الحكم ويحكم غيره فيه حتى يرجع إلى الله .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ٨٤ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٨٦

يقول تبارك وتعالى منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان الرسول ﷺ بالمدينة من القتال مع الأوس والخزرج أيام جاهليتهم . وكانوا إذ ذاك عبَادَ أصنام وكانت بينهم حروب كثيرة وكان يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير وكانوا حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس . فكانت الحرب إذا نشبت بينهم كان كل فريق مع حلفائه . وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم . ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال . وبانتهاء الحرب استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ، لهذا قال تعالى ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ . أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يخرجكم من منزله ولا يظاهر عليه ، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة . وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي أقررتُم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ وذلك ابتغاء عرض الدنيا وقد كانت العرب تعيبرهم بذلك ، يقولون لهم كيف تقاتلونهم وتفادونهم ؟! أجاب اليهود إننا أمرنا أن نقدمهم وحرّم علينا قتالهم . قالوا فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن نستذل حلفاؤنا ! والحقيقة هي ابتغاء عرض الدنيا ...

والذي أوردت إليه الآية ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها ، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم بالصحة ^(١) فلهذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على

(١) قلت : ولهذا غضب الله عليهم لأنهم يعرفون الحق وشهدوا أنه الحق ثم خالفوه فاستحقوا . قت الله وغضبه ولعنهم وجعلهم خالدين في جهنم لا يخفف عنهم العذاب ولا ينصرون .

نقلها ، ولا يصدّقون فيما كتّموه من صفة النبي ﷺ ونعته ومبعثه وغرجه ومهاجره ، مما أخبرت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . واليهود - عليهم لعائن الله - يتكاثرون بينهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب جزاءً على مخالفتهم التوراة .

﴿ وما الله بغافل عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أي استحبّوها على الآخرة واختاروها ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ أي لا يفرّ عنهم العذاب ساعة واحدة ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم البرمدي ولا يجيرهم منه . والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ٨٧ ﴾

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعنوّ والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ؛ فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب ، وهو التوراة ، فحرقوها وبدّلوها وخالفوا أمرها وأولّوها ، وأرسل الرُّسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشرعته كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون ﴾ وقال تعالى ﴿ وقفينا من بعده بالرُّسل ﴾ وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى بن مريم فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ؛ ولهذا أعطاه الله من البيّنات وهي المعجزات من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس وهو : جبريل عليه الصلاة والسلام ، ما يدلّهم على صدقه فيما جاءهم به فاشتدّ تكذيب بني إسرائيل له . وحسدّهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض ، قال تعالى : إخباراً عن عيسى عليه الصلاة والسلام . ﴿ ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم وجئتكم بآية : من ربكم ... ﴾

الآية فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ معاملة ففريقاً يكذبونه ، وفريقاً يقتلونهم وما ذاك إلاّ لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا بمخالفتها . فلهذا كان ذلك يشقّ عليهم فكذبوهم وربّما قتلوا بعضهم ولهذا قال تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾

تقدم قولنا أن روح القدس : هو جبريل عليه الصلاة والسلام والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ وروى ابن حبان عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : ٨٩ [إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب .] وعن عائشة : أن رسول الله ﷺ وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ : ٩٠ [اللهم أيد حسان بروح القدس...] رواه البخاري . وقول حسان :

« وجبريل رسول الله فينسا وروح القدس ليس به خفاء »

قال ابن جرير : وأولى التأويلات بالصواب قول من قال : الروح في هذا الموضع (١) جبرائيل . فإن الله تعالى أخبر أنه أيد عيسى به قال تعالى : ﴿ إذ أيدتك بروح القدس... ﴾ وليس هو الإنجيل على حد قول بعض المفسرين بدليل قوله تعالى : ﴿ وإذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ فلو كان روح القدس هو الإنجيل لكان قوله المتقدم تكرير قول لا معنى له وإن سبحانه لأعلى وأجل من أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به (٢) والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا

مَا يُؤْمِنُونَ ٨٨ ﴾

قالوا عن قلوبهم أنها غلف يعني أنها ممتلئة بما سبق من علومنا، فهي لا تتسع لما عندك يا محمد وكأنها بامتلائها هذا مغلقة ومغلقة على ما فيها فلا يخلص إليها مما تقوله شيء . كما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ ورجحه ابن جرير واستشهد بما روى من حديث عمرو بن مرة الحجلي عن البخري عن حذيفة قال : القلوب أربعة ... فذكر منها : وقلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر ولهذا قال تعالى : ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾ أي ليس الأمر كما ادعوا ، بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها ، كما قال في سورة النساء : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ أي ما آمن منهم إلا قليل . والله أعلم .

(١) قلت : أي في هذه الآية : « وأيدناه بروح القدس » .

(٢) قلت : إن روح القدس مخلوق لله ، والإنجيل كلام الله غير مخلوق . وقول الرسول : (اللهم أيد حسان بروح القدس) هل معناه أيد بالإنجيل ... ؟ !!! لا . وقوله صلى الله عليه وسلم : (أن روح القدس نفث في روعي ...) هل معناه أن الإنجيل نفث في روعي ... ؟ !!! لا . فهذا مما يدل على أن روح القدس ليس الإنجيل إنما هو جبريل عليه الصلاة والسلام .

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٨٩

يقول تعالى : ﴿ولما جاءهم﴾ يعني اليهود ﴿كتاب من عند الله﴾ وهو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿مصدق لما معهم﴾ يعني من التوراة وقوله : ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي وقد كانوا قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون إنه سيبعث نبي في آخر الزمان تقتلكم معه قتل عاد وإرم . كما قال محمد بن إسحق بسنده عن عكرمة أو إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا وجحدوا ما كانوا يقولون فيه فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، وداد بن سلمة : يا معشر يهود : اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ونخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم في ذلك من قولهم : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ... الآية﴾

﴿بِشْمَا أَشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَآؤًا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ٩٠

قال السدي : أي بشما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به ، وعدلوا إليه من الكفر، بما أنزل الله على محمد رسول الله ﷺ عن تصديقه ومؤازرته ونصرته ، ولما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية ، لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . ولا حسد أعظم من هذا . قال ابن عباس في الغضب على الغضب ، فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم . فاستحقوا ، واستوجبوا واستقروا بغضب على غضب ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبر ، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٩١ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٩٢﴾

يقول تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب آمنوا بما أنزل الله على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي يكفيننا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ يعني بما بعده ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق مصدقاً لما معهم فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ الْإِيمَانَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُ الْأَنْبِيََاءَ الَّذِينَ جَاءَكُمْ بِتَصْدِيقِ التَّوْرَةِ الَّتِي بَأَيْدِيكُمْ ، وَالْحُكْمُ بِهَا وَعَدَمُ نَسْخِهَا ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صَدَقَهُمْ . قَتَلْتُمُوهُمْ بَغْيًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا عَلَى رِسْلِ اللَّهِ فَلَسْتُمْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا مَجْرَدَ الْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ وَالتَّشْبِهِ . ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ وَالِدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ . وَالْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ هِيَ الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالدَّمُ وَالْعَصَا وَالْيَدُ وَفِرْقُ الْبَحْرِ وَتَظْلِيلُهُمْ بِالْغَمَامِ وَالْمَنَ وَالسَّلْوَى وَالْحَجَرُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي مِنْ بَعْدِ مَا ذَهَبَ إِلَى الطُّورِ ، لِمُنَاجَاةِ اللَّهِ فَاتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ فِي هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِشَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٩٣

يُعَدِّدُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْطَاءَهُمْ وَمَخَالَفَتَهُمْ لِلْمِيثَاقِ ، وَعَتَوَهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ ، حَتَّى رَفَعَ الطُّورَ فَوْقَهُمْ أَيْ عَلَيْهِمْ حَتَّى قَبِلُوهُ ثُمَّ خَالَفُوهُ وَلِهَذَا قَالُوا بِسْمَعْنَا وَعَصَيْنَا ﴿وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ﴾ ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ أَشْرَبُوا حُبَّةً

حتى خلع ذلك إلى قلوبهم وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس . كما روى أحمد بسنده إلى أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : ٩١ [حَبَثَ الشَّيْءُ يَعْصِي وَيَصْمُ] ورواه أبو داود .

وقوله ﴿ قُلْ بِشْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي بشما تعتمدونه من قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الانبياء ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ . وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الانبياء والمرسلين المبعوث للناس أجمعين فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقض المواثيق والكفر بالله وعبادة العجل . ٩١ !!!

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٩٤ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمَنْ أَلْزَمَهُمْ شَرَكُوا يَوْمَ أَحْدُثُ لَهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ٩٦ ﴾

روى محمد بن إسحق عن ابن عباس رضي الله عنه : يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب . فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي يعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك . ولو تمنّوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات . روى ابن جرير : عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : ٩٢ [لو أن اليهود تمنّوا الموت لما تواروا ولمأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالا] ونظير هذا قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ولا يتغنّونه أبداً بما قدّمتم أيديهم والله عليم بالظالمين . قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبشكم بما كنتم تعملون ﴿ فهم عليهم لعائن الله لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى دُعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك فلما تأخروا عليم كذبهم . وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة وعتموهم وعنادهم إلى المباهلة . فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ

حاجتك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴿ فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض : والله لئن باهلم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف . فعند ذلك جنحوا للسلم ، وبذلوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . وهكذا فإن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة امتنعوا عن المباهلة لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة ، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ولهذا قال تعالى : ﴿ ولئن يتمنّوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴿ أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم الخاسرة عند الله لأن الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر فهم يودّون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم . وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة حتى . وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم . وهذا من باب عطف الخاص على العام . يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة أي يودّ أحد اليهود لسو يعمر ألف سنة قال مجاهد : حبّبت الخطيئة إليهم طول العمر ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ أي وما هو بمنجيه من العذاب وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت ، فهو يحب طول الحياة . وإن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيّع ما عنده من العلم . قال العوفي عن ابن عباس : ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ قال هم الذين عادوا جبريل قال أبو العالية وابن عمر : فما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجيه ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازي كل عامل بعمله .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧ ﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ٩٨ ﴿

قوله تعالى : - ﴿ قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزل على قلبك بإذن الله ﴾ أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذن له في ذلك ، فهو رسول من رسل الله ملكي ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴾ فحكم عليهم بالكفر المحقق إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو الله لأن جبرائيل لا يتزل بالأمر من تلقاء نفسه ، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال تعالى : ﴿ وما ننزل

إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... الآية ﴿ وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : ٩٣ [من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب] ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه فقال تعالى : ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك إلا للمؤمنين كما قال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ... الآية ﴾ ثم قال تعالى ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ تعالى من عادائي وملائكتي ورسلي . ورسله : تشمل رسله من الملائكة والبشر . كما قال تعالى : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ ﴿ وجبريل وميكال ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام . فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل ، ثم خصصا بالذكر ، لأن السياق في الانتصار لجبرائيل ، وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكائيل باللفظ ، لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم وميكائيل وليهم !! فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمهر حيث لم يقل : فإنه عدو بل قال : ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ كما قال الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء سبق الموت ذا الغنى والفقير

وإنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى ، وإظهاره وإعلامهم أن من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة وفي الحديث الآخر : ٩٤ [إني لأثار لأوليائي كما يثار الليث الحرب] وفي الحديث الصحيح : ٩٥ [من كنت خصمه خصمته]

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله : أجمع أهل العلم بالتأويل أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم .

فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ... الآية ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ٩٩ ﴾
أَوَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٠
أَوَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١ وَأَتَّبَعُوا مَا

تَثَلَّوْا الشَّيَاطِينَ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ١٠٢ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دلالات على نبوتك وهي ما حواه القرآن من أسرار وأخبار اليهود ، التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلمائهم وما حرقه أوائلهم وأواخرهم من التوراة . فأطلع الله نبيه محمداً ﷺ عليها جميعاً فلا يسأله اليهود عن شيء من أمور التوراة . إلا أنزل الله سبحانه ما سألوا عنه فيخصمهم فلما رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم منا بما أنزل الله إلينا ، وإن هذه الآيات البينات ملزمة ولا شك لكل ذي فطرة صحيحة ، تصديق ما جاء به ﷺ ، من غير تعلم تعلمه من بشر . لا سيما وهو معروف عندهم أنه أمي ، لم يقرأ كتاباً فهذه الآيات البينات لا شك أنها حجة عليهم ولكنهم جحدوها وكفروا بها .

قال ابن عباس : قال ابن صوريا القطوني لرسول الله ﷺ : يا محمد : ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فتبعتك . فأنزل الله في ذلك ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم بما أخذ الله عليهم من الميثاق وما عهد إليهم في محمد ﷺ : والله ما عهد إلينا في محمد ... وما أخذ علينا ميثاقاً... فأنزل الله تعالى : ﴿أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ وقال الحسن في قوله تعالى ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ قال نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه ... إلا نقضوه ونبذوه . يعاهدون اليوم وينقضونه غداً .

فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهد ، وتكذيبهم رسول الله ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة وهو الذي يحدون في كتبهم نعتة وصفته ، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته . كما قال تعالى ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدهم مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ وقال ما هنا : ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من السذين

تيسير العلي القدير - ٦

أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴿ أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه من البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها ! وأقبلوا على تعلّم السحر واتّباعه ، وأرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر ، تحت راعوفة بئر أروان . وتولى ذلك منهم / لبيد بن الأعصم / لعنه الله وقبحه . وقد أطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وشفاه منه وأنقذه ، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها .

وقوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ... ﴾ قال السدي : كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتعبد منها مقاعد للسمع ، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر ، فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا . فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره ، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة . فاكذب الناس ذلك الحديث في الكتب ، وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب . فبعث سليمان في الناس ، فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه . ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلاّ احترق . وقال : لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلاّ ضربت عنقه . فلما مات سليمان عليه السلام وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان . وخلف من بعد ذلك خلف ، تمثل الشيطان في صورة إنسان ... ثم أتى نفرأ من بني إسرائيل فقال لهم : هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً قالوا : نعم ، قال : فاحضروا تحت الكرسي ، فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته فقالوا له : فادن ... فقال : لا .. ولكنني ها هنا في أيديكم فإن لم تجدوه فاقتلوني . فحضروا فوجدوا تلك الكتب . فلمّا أخرجوها قال الشيطان : إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب . وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب ، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان ، أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً . وقالوا : هذا الذي كان سليمان يعمل بها قال : فأكفره جهال الناس وسبّوه ووقف علماء الناس ، فلم يزل جهال الناس يسبّونه حتى أنزل الله سبحانه على محمد ﷺ : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس

السحر . ﴿ وقال آخرون أقوالاً تدور حول هذا .. ولا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم . والله الهادي . والخلاصة أن اليهود الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ اتبعوا ما تتلوه الشياطين أي ما ترويه وتخبر به وتحدّثه الشياطين على ملك سليمان ^(١) وعدّاه بعلى / لأنه تضمن / تتلو / تكذب (لأنها تلاوات وأحاديث الشيطان .. وهل هي إلا الكذب ... ؟ !) وقوله تعالى : ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولوا : إنما نحن فتنه فلا تكفر . فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ كان يعتقد اليهود أن جبرائيل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام هما اللذان أنزلا السحر على سليمان عليه السلام . فكذبهم الله سبحانه ، وأخبر نبيّه محمداً ﷺ أن جبرائيل وميكائيل لم ينزلا السحر وبرأ سليمان عليه السلام مما نخلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وإنها تُعلّم الناس ذلك ببابل وإن الذين يعلمونهم رجلان أحدهما هاروت وأسم الآخر ماروت وعلى هذا : تكون / ما / في قوله تعالى : ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ نافية لا أسم موصول بمعنى الذي .

قال القرطبي : (ما : نافية ، ومعطوف على قوله ﴿ وما كفر سليمان ﴾ ثم قال : ﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ﴾ وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله تعالى وجعل قوله : ﴿ هاروت وماروت ﴾ بدلاً من الشياطين . قال وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى : ﴿ فإن كان له أخوة ﴾ أو لكونهما لهما أتباع أو ذكرا من بينهم لتمردهما . تقدير الكلام : ولكن الشياطين يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ثم قال : وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح . ولا يلتفت إلى ما سواه .

وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل ﴾ يقول لم ينزل السحر . وبإسناده - أي ابن جرير - عن الربيع بن أنس في قوله تعالى : ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ قال : ما أنزل الله عليهما السحر . قال ابن جرير : (فتأويل الآية على هذا ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ من السحر وما كفسر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل

(١) قلت إن معنى - ملك سليمان - والله أعلم - أي رعيته ... وبخاصة منهم كهنة بني إسرائيل تتلو فيها معنى / تكذب / كما قال ابن كثير . فيكون المعنى - والله أعلم - واتبع بنو إسرائيل ما تكذب الشياطين على رعية سليمان وما تلقوه من السحر . وما كفر سليمان وليس له أن يكفر فهو نبي مكرم معصوم ولكن الشياطين كفروا بسحرهم وكذبهم .

هاروت وماروت فيكون قوله ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذي معناه المقدم .

وهناك أقوال أخرى ، فمن قائل : ﴿ وما أنزل على الملكيين ﴾ بكسر اللام أنهما داود وسليمان عليهما السلام أي باعتبار أن / ما / نافية أيضاً وتقدير الكلام : أن الله تعالى ما أنزل السحر ولا علمه للملكيين داود وسليمان .

ومن قائل : أن هاروت وماروت ، قبيلان من الجن ، ومن قائل أنهما رجلان أسسم أحدهما هاروت والآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس والأصح ما قرره القرطبي آنفاً من أن هاروت وماروت بدل من الشياطين وهذا كما قال - أولى ما حُملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه .^(١)

ومن قائل : أنهما ملكان من الملائكة وتروى هنا قصة كوكب الزهرة !! مع الملكيين هاروت وماروت . وزعم الذين رواوا هذه القصة أن هاروت وماروت ملكان أهبطهما الله من السماء وألقى عليهما الشهوة التي لبني آدم ، ثم عرضت عليهما امرأة كأجمل ما تكون من النساء ... فراوداها عن نفسها فأجابتهما إلى ذلك بشرط أن يشركا بالله فأبيا ذلك ... ثم عرّضت ثانية فراوداها ولكنها اشتربت أن يقتلا نفساً فأبيا ذلك ثم عرّضت ثالثة فراوداها فخيرتهما بين الشرك بالله أو قتل النفس أو شرب قدح من الخمر فاختارا اقل ذلك إثماً وهو شرب الخمر ، فشرباه ، فلعبت الخمرة بهما ، فأشركا بالله ، وقتلا النفس ، وزنيا بالمرأة ، فلما صححوا من الخمر ، وأخبرتهما المرأة بما صنعا من تأثير الخمر فندما ... وأرادا العودة إلى السماء ، فلم يستطيعا ذلك ، فأحسّا بشناعة جرمهما . وقد خيرهما الله بين عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا الموقت على عذاب الآخرة المؤبد . أما المرأة فقد سألتهما عن الكلمة التي إذا قالها صعدا في السماء أو هبطا منها ، فأعلمها بها ، فقالتها فطارت إلى السماء ولكن مسّخت هناك نجمة ... !!! فكانت كوكب الزهرة ... ؟ !!! .

(١) قلت : إننا مع ابن كثير في تبيّنه تأويل القرطبي ... إلا في ما ذهب إليه القرطبي من أن هاروت وماروت بدل من الشياطين لأن الشياطين ليس من فطرهم النصح لبني آدم حتى يقولوا لهم : « إنما نحن فتنة فلا تكفر » بل إن من أولى مهماتهم وفطرتهم التي جبلوا عليها أن يفتنوا بني آدم ويغويهم . لذا فإني أرجح أن يكون هاروت وماروت بدلا من الناس وعلى هذا ... يكون تأويل الآية : وما كفر سليمان وما أنزل على الملكيين السحر ، ولكن الشياطين كفروا بتعليمهم السحر للناس أي يعلمون هاروت وماروت الذين هما رجلان من الناس ثم يعلم هذان الناس ... وما يعلمان أحداً منهم حتى يقولوا له إنما نحن فتنة فلا تكفر . فيكون هاروت وماروت بدلا من الناس الذين من فطرهم النصح ، وفي هذا ينزه الله عن تنزيل السحر على الملكيين ثم ننزههما من تعليم السحر للناس ، والسحر هو في أساسه كفر فلن يستطيع أحد أن يعلم السحر إلا أن يكفر ، ولا يستطيع المتعلم أن يتعلم إلا أن يكفر والملائكة منزّهون عن الكفر وتعلمه وتعليمه . وإن الله لا يرضى لمعباده الكفر

هذه القصة ... رُويت من طرق عديدة بلغت العشرين طريقاً ولكن ليس في هذه الطرق على كثرتها ولا طريق واحدة مرفوعة إلى رسول الله ﷺ . وقد ردّها كثير من المحدثين والحفاظ والمفسرين ، وحاصل ذلك راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ... إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الأسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي ما ينطق عن الهوى ... وظاهر سياق القرآن لإجمال القصة من غير بسط ولا أطناب فيها . فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراد الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال الموافقة لتنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به ولا بملائكته^(١) وقوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولوا : إنما نحن فتنه فلا تكفر ﴾ قال أبو جعفر الرازي بسنده عن ابن عباس قال : فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نبيه أشد النهي وقال له إنما نحن فتنه فلا تكفر . وذلك لأنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان فعرفا أن السحر من الكفر . قال فإذا أتى عليهما .. أمرأه أن يأتي مكان كذا وكذا ... فإذا أتاه عاين الشيطان فعلتم خرج منه النور فنظر إليه ساطعاً في السماء فيقول : يا حسرتاه يا ويله ماذا صنع . قال السدي : إذا أتاهما إنسان يريد السحر ، وعظاه وقال له : لا تكفر إنما نحن فتنه ... فإذا أبى قال له : إئت هذا الرماذ فبُلْ عليه ، فإذا بال خرج منه

(١) قلت : هذه القصة لا أساس لها من الصحة كما قاله كثير من المحدثين والمفسرين إذ ليس فيها حديث صحيح ، فهي واهية سنداً وثبتاً ولا تصح من وجوه : « ١ » يزعمون أن الله أنزل على الملكين السحر والسحر كفر فكيف يأذن الله للملائكة المعصومين أن يكفروا ويعلموا الناس السحر والكفر ؟ والله يقول : إن الله لا يرضى لعباده الكفر . ٢ - إن مسخ الإنسان كوكباً هذا من المحال الذي لم تجربهُ سنة الله . ٣ - مقتضى هذه القصة أن هاروت وماروت اختارا عذاب الدنيا فيلزم من ذلك أنهما حيّان إلى يوم القيامة حتى يتحقق عليهما عذاب الدنيا ويستكملانه ويجب أن يكونا أبداً في بئر بابل ويعلمان الناس السحر بشكل مستمر . فهذا مردود من وجوه :

أ - قوله صلى الله عليه وسلم : ٩٦ [لا يبقى على ظهر الأرض بعد مئة عام من على ظهرها اليوم] . فعل افتراض أنهما حيّان إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكونا قد ماتا بعد مئة عام من قوله عليه الصلاة والسلام . وهذا يخالف لعداهما الدنيوي الخالد إلى يوم القيامة حسب ما جاء بالقصة .

ب - إذا كانا ما يزالان إلى الآن في بئر بابل يعذبان ويعلمان الناس السحر فكان ولا بد أن يتمرض الرسول لهما بذكر ، أو تصلنا أخبارهما ، وأخبار الناس الذين عادوا متعلمين من مدرستهما [السحرية] !!! ؟

ج - إذا كان مكانهما مقصوداً من الناس لتعليم السحر لزم أن يكون معروفاً ببابل وبابل مكانها بالعراق ولكن لم يصلنا إلى الآن خبر اكتشاف هذا البئر أو أي خبر عنه .

د - هذه القصة من أخبار بني إسرائيل وأكاذيب أحبارهم .

فحريّ بقصة مثل هذه ... قال عنها العلماء الأثبات والمفسرون أنها محكية عن أحبار اليهود أن تكون مكذوبة ولعلها من رموز الأولين كما ذكر ذلك الخطيب ، واستبعد الشيخ ابن حجر الهيتمي المكي هذه القصة في كتابه الزواجر بما لا مزيد عليه ، وقال القرطبي إن هذا كله ضعيف ، وبعيد عن ابن عمر ، ولا يصح منه شيء ، وقال الخفاجي : قال المحدثون وجميع رجاله غير موثوق بهم . أجل لحريّ بمثل هذه القصة المكذوبة الموضوعة الباطلة المهلهلة ألا يؤبه لها ، ولا تذكر أو تكتب إلا للتنبيه على ما فيها من طامات ، وقد فعلنا .

نور ساطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان . ~~وأقبل شيء أسود كهينة الدخان حتى يمسح~~ ~~السماء وذلك الإيمان~~ . وأقبل شيء أسود كهينة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء وذلك غضب الله ، فإذا أخبرهما ، بذلك علما السحر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون ، فيما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة ، ما إنهم يفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف . وهذا من صنيع الشياطين كما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٩٧ [إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة . يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ... فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئا ويجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله فيقرّبه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نعم أنت] . وسبب التفريق بين الزوجين ما يحيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء المنظر والخلق ، أو نحو ذلك من الأسباب المفضية للتفرقة .

قوله تعالى : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ قال سفيان الثوري : إلا بقضاء الله ، وقال الحسن البصري : نعم من شاء سلطهم عليه ومن لم يشأ لم يسلطهم . وقوله تعالى : ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ أي يضرهم في دينهم ولا ينفعهم بنفع يوازي ضرره . ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق . ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك ، ما له في الآخرة من خلاق أي من نصيب ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدي . وقوله تعالى : ﴿ وليبس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ يقول تعالى : وليبس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ ورسله من قبل عليهم الصلاة والسلام واتقوا المحارم لكان مثوبة لهم من الله ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به . وقد استدلت بقوله : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا ﴾ على تكفير الساحر . وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة وقد أخرجه البخاري في صحيحه وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها سحرها جارية لها فأمرت بها فقتلت وقال عليه الصلاة والسلام : ٩٨ [حدّ الساحر ضربه بالسيف] رواه الترمذي . وقد رواه الطبراني من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً . ولا يدفع السحر مثله ، إنما أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل

الله على رسوله ﷺ في إذهاب ذلك وهما المعوذتان (الفلق والناس) وفي الحديث : ٩٩ [لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما] . وكذلك قراءة آية الكرسي ، فإنها مطردة للشيطان .

والسحر في الواقع له حقيقةٌ خلافاً لمن أنكر ذلك من المعتزلة وغيرهم ، والسحر كفر وتعلمه كفر وتعليمه كفر والساحر كافر ومعلم الساحر كافر واختلف في استتابته ، فمنهم - أي العلماء - من قال أنه يستتاب والأقرب قتل . ومنهم من قال لا يستتاب ويقتل آتياً . وذلك لقوله ﷺ [حد الساحر ضربه بالسيف] وفعلُ حفصة رضي الله عنها مع جاريتها التي سحرها فأمرت بها فقتلت ولم يذكر أنها استتابتها وكذلك كتابة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ^(١) والسحر أنواع وكلها شرٌّ إن كان باستعانة الشياطين أو كان شعبذة أو كان رقي وتعاويد ^(٢) أو أدوية وأدخنة فكله باطل ، والله أعلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا
وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ
يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ١٠٥ ﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التشبه بالكافرين . والآية هنا تخص اليهود فقد كانوا يورثون في كلامهم منتقِصين رسول الله ﷺ فكانوا - عليهم لعائن الله - إذا أرادوا أن يقولوا له ﷺ : اسمع لنا ؛ قالوا : / راعنا / يورثون بالرعونة . وكذلك إن سلموا يقولون : / السام عليكم / والسام : هو الموت . ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ / وعليكم / ولأنما يستجيب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا . والغرض : أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلًا فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظُرنا ... ﴾ ومن حديث للإمام أحمد بالسند إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ١٠٠ [بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعلت الذلّة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم] . ورواه أبو داود ففيه دلالة على النهي الشديد ، والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في كل أحوالهم

(١) قلت : وأنا أرجح عدم استتابة الساحر بل قتله فوراً وذلك (١) لما جاء في الآيات والأحاديث (٢) سداً لباب تعلم السحر وتعليمه ومزاوته وتفضيه بين الناس . وقد أخطأ كثيراً من قال بجواز تعلم السحر ليدفع عنه أو من غيره الأسر . ما دام رسول الله قد علمنا دفعة بالمعوذتين

(٢) أي الرقي والتعاويد غير الشرعية

وأمرهم التي لم تشرع . وقال عطاء : لا تقولوا راعنا كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها . وفي ذلك أقوال متقاربة . قال ابن جرير والصواب من القول في ذلك عندنا : أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ ﴿ راعنا ﴾ لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه ﷺ ونظير ذلك من كلامه ﷺ : ١٠١ [لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبله / ولا تقولوا عبادي ولكن قولوا / فتاوي] /

وقوله تعالى : ﴿ ما يؤذ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ يبين ذلك تعالى شدة عداوة المشركين وأهل الكتاب للمؤمنين الذين حذر الله من مشابهمهم لهم ، ليقطع المودة بين الفريقين ثم نبه على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ حيث يقول تعالى : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧ ﴾

أصل النسخ : من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة إلى غيرها . والنسخ الشرعي هو : رفع الحكم بدليل شرعي متأخر . ويكون النسخ : إما بتثبيت الخط ورفع الحكم ، مثل نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ ، ونسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة اثنين ، ومن ذلك أيضاً أن يحول الحلال حراماً والحرام حلالاً ، والمباح محظوراً والمحظور مباحاً . ولا يكون ذلك إلا في الأوامر والنواهي والحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة . فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ومنسوخ ^(١) . وإما بتثبيت الحكم ورفع الخط مثل قوله ﷺ ١٠٢ : [الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ...]

فقوله : « ما ننسخ من آية » أي نبطل حكمها وقوله : « أونسها » فقد قرئت على قراءتين : « نُنسِها » و « نَنسأُها » فعلى القراءة الأولى من النسيان أي ينسي الله رسوله ما أنزل عليه ، وعلى القراءة الثانية من النسيئة أي التأجيل والتأخير

(١) قلت : وكذلك آيات التوحيد فلا يكون فيها ناسخ ومنسوخ فإن الله واحد أحد في ربوبيته وأسمائه وصفاته فلا يكون في ذلك ناسخ ولا منسوخ .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ مَا ننسخ من آية أو ننسها ﴾ قال كان الله عز وجل ينسخ نبيّه ﷺ ما يشاء وينسخ ما يشاء . وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء أو نسأها نؤخرها ونرجئها . وروى ابن أبي حاتم بالسند إلى ابن عباس قال خطبنا عمر رضي الله عنه فقال : يقول الله عز وجل : ﴿ مَا ننسخ من آية أو ننسأها ﴾ أي نؤخرها وقوله : ﴿ نأت بغير منها أو مثلها ﴾ أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين وقال قتادة : ﴿ نأت بغير منها أو مثلها ﴾ ويقول : آية فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ونهي .

وقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قديره ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر فكما أنه خلقهم كما يشاء ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء ويصع ويمرض من يشاء ويوفق ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ، ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها ثم ينهى عنه لما يعلمه فالتطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا ، وترك ما نهوا وما عنه زجروا وفي هذا المقام ردّ عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله - في دعوى استحالة النسخ . فقد أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانها وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه وأن له أمرهم بما يشاء ، ونهيه عما يشاء ونسخ ما يشاء وإقرار ما يشاء وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه .

واليهود أنكروا النسخ كفرةً وعناداً ، إذ لا يمتنع على العقل امكانية النسخ في الأحكام لأنه يحكم بما يشاء ويفعل ويريد . وقد وقع النسخ في الكتب المتقدمة والشرائع الماضية كما أحلّ لآدم تزويج بناته من بنيه ، ثم حرّم ذلك . كما أحلّ أكل الحيوانات لنوح بعد خروجه من السفينة ثم نسخ حلّ بعضها . وكان نكاح الأخنتين مباحاً لإسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها . وأمر إبراهيم بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل وهم أي اليهود يعترفون بذلك ، ويصدفون عنه ، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى لما له في ذلك من الحكمة البالغة .

﴿...﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿...﴾ ١٠٨

نهى الله تعالى المؤمنين عن كثرة السؤال للنبي ﷺ عن الأشياء قبل وقوعها .

كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلِ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ . أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه فلعلة أن يحرم من أجل تلك المسألة . ولهذا جاء في الحديث الصحيح ١٠٣ : [إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته] وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ : ١٠٤ [كان ينهي عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال] وفي صحيح مسلم ١٠٥ [ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه] ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ .. ﴾ هذا القول يعم المؤمنين والكافرين فإنه عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الجميع كقوله ﴿ يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ والمراد : إن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعت وتعتاً وتكديباً وعناداً . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أي ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي فقد خرج عن الصراط المستقيم إلى الجهل والضلال .

﴿...﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٩ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿...﴾ ١١٠

يحذر الله عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم .

ويأمر عباده بالصفح والعفو ، والاحتمال حتى يأتي الله بأمره من النصرة والفتح ، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

قيل إن هذه الآية نزلت رداً على حيي بن أخطب وأبي ياسر بن أخطب اللذين كانا أشد يهود حسداً للعرب إذ خصهم الله برسوله ﷺ . وهكذا فقد أخبر الله تعالى أن اليهود يودّون لو يرجع المسلمون كفاراً حسداً من قبل أنفسهم من بعد ما تحقّقوا من رسالة محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسداً وبغياً لأنه كان من غيرهم وقوله تعالى : « فاعضوا واصفحوا » أي عمن يهجون ويكملون العداوة إنما كان هذا أول الأمر وقد نسخ ذلك قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » فنسخت هذه الآية وغيرها العفو والصفح وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسري إنها منسوخة بآية السيف ويرشد إلى ذلك قوله تعالى « حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير » أي حتى أذن الله لهم بالقتال . وقوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدّموا لأنفسكم من خير نجده عند الله » .

يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم ، وتعود عاقبته يوم القيامة عليهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . ولذا قال تعالى : « إن الله بما تعملون بصير » يعني إنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ويضع لديه سواء كان خيراً أو شراً فإنه سيجازي كلا بعمله . قال ابن جرير انه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليبيدوا في طاعته ويحذروا معصيته .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١١٣ ﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة :

أنهم قالوا : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادّعوا لما عذبهم . فقد قال تعالى : ﴿تلك أمانيتهم﴾ قال أبو العالية : أمانيتهم تمنوها على الله بغير الحق . ثم قال تعالى ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي هاتوا بيئتكم وحجتكم إن كنتم صادقين فيما تدعونه ثم قال تعالى : ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾

قال سعيد بن جبیر : بلى من أخلص وجهه لله وهو محسن أي متبع فيه الرسول ﷺ فإن للعمل المتقبل شرطين ، أحدهما : أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخر يكون صواباً موافقاً للشرية . فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ولهذا قال رسول الله ﷺ : ١٠٦ [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] رواه مسلم من حديث عائشة وقال تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ وأما إن كان العمل موافقاً للشرية في الظاهر ولكن بدون إخلاص فهو أيضاً مردود على فاعله وهو حال المرائين والمنافقين . ولهذا قال تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وقوله : ﴿فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ضمن لهم على ذلك تحصيل الأجور وآمنهم مما يخافونه ، فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا يحزنون على ما مضى مما يتركونه .

وقوله تعالى : ﴿وقالت اليهود ليست النصراني على شيء وقالت النصراني ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾ بين الله تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديبهم وتعاندتهم كما قال ابن اسحق عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصراني على رسول الله ﷺ أتتهم أخبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعبسى وبالأنجيل وقال رجل من أهل نجران من النصراني لليهود ما أنتم على شيء ووجد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله في ذلك من قولهما ﴿وقالت اليهود ليست النصراني على شيء وقالت النصراني ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾ . قال إن كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به . وقوله تعالى : ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ فقد اختلف فيمن عني بقوله تعالى : ﴿الذين لا يعلمون﴾ قال عطاء : هم أمم كانت قبل اليهود وقال السدي فهم العرب قالوا : ليس محمد على شيء ، واختار ابن جرير : أنها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال^(١) وقوله تعالى : ﴿فالله

(١) قلت : قوله تعالى « قال الذين لا يعلمون » أرجح أن المراد منه - والله أعلم - : هم العرب وذلك مفهوماً من السياق فقد ذكر اليهود والنصارى وهم أهل كتاب ، ويعلمون من كتابهم أنهم يخالفون =

بحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴿ أي يفصل بينهم بقضائه العادل.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ جَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين ، فمن قائل : إنهم النصارى الذين ساعدوا /بختنصر/ بخراب بيت المقدس . ومن قائل : إنهم المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل هو وأصحابه مكة حتى نحر هديه بلذي طوى وهادنهم وقال لهم : ما كان أحد يصد عن هذا البيت وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصدّه فقالوا : لا يدخل علينا من قتل آبائنا يوم بدر وفينا باق . وفي قوله : ﴿ وسعى في خرابها ﴾ قالوا إذا قطعوا من يعمرها بذكره وبأتيتها للحج والعمرة . واختار ابن جرير الأول ، واحتج بأن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة . وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس والذي يظهر والله أعلم القول الثاني كما روي عن ابن عباس لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في بيت المقدس كان دينهم أقوم من دين اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك ، لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . وإن المشركين أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة ومنعهم من الصلاة في المسجد الحرام . وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة فأى خراب أعظم مما فعلوه ؟..

أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه واستحذوا عليها بأصنامهم وأنذادهم وشركهم كما قال تعالى : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصتدون عن المسجد الحرام وما كانوا أوليائه إن

علمهم ويكفرون به . أما العرب فليسوا أهل كتاب ، فهم إذا لا يعلمون . ولذا ذكرهم الله بقوله : « وكذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » أي قالوا : إن محمداً ليس على شيء . أما قول القائل بأن المراد هم الأمم التي سبقت اليهود فبعبه إذ لا مناسبة لذكرهم ، ولماذا نترك واقع العرب وقتلت المائل لواقع اليهود من حيث قولهم : أن محمداً ليس على شيء ، والذي هو أقرب للمثلية بينهم وبين اليهود والنصارى الذين قال كل منهم عن الآخر : ليسوا على شيء ، ثم يتمسك بما كان عليه الأمم السابقة في الوقت الذي لا ندري ماذا قالوا لأنبيائهم ومن هذه المناقشة يرجع عندي قول السدي من أن العرب هم المقصودون (بالذين لا يعلمون) والله سبحانه وتعالى أعلم ، وهو الهادي إلى الصواب .

أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿^(١)﴾

وقوله تعالى : ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم في النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله﴾ .

فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها ، مصدوداً عنها ، فأى خراب لها أعظم من ذلك وليس المراد بعمارها زخرفتها وإقامة صورتها فقط ، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعة فيها ورفعها عن الدنس والشرك . ^(٢)

وقوله تعالى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » وهذا خبر معناه الطلب أي لا تمكثوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى : [أَلَا يَحُجُّنَّ] بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له أجل فأجله إلى مدته] وهذا إذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام . وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى في جزيرة العرب دينان ، وأن يجلي اليهود والنصارى منها والله الحمد والمنّة . وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التي بعث فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه وسلامه .

وهذا هو الخزي في الدنيا لأن الجزء من نوع العمل فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صدوا عنه وكما أجلوهم من مكة أجلوها عنها ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتنعوا من نصب الأصنام حوله ودعاء غير الله عنده والطواف به عربياً وغير ذلك .

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ

اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ١١٥

(١) قلت : في هذه الآية دليل على أن المقصود من قوله تعالى « وكذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » هم العرب المشركون وليسوا الروم ولا الأمم السابقة لليهود، للصفة الواردة في هذه الآية أنهم يصدون عن المسجد الحرام ولا شك فإن هؤلاء هم مشركو العرب .

(٢) قلت : وهذه الصفات أيضاً تدل على أنهم مشركو العرب والله الموفق الهادي للصواب

وهذا - والله أعلم - فيه تسليّة للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلّاهم. وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة توجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه (الناسخ والمنسوخ) : أخبرنا الحجاج بن محمد ثم ساق السند إلى ابن عباس قال : أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم ، شأن القبلة قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ فاستقبل رسول الله ﷺ فصلّى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ، ثم صرفه إلى بيته العتيق ، ونسخها فقال : « ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . »

وقال مجاهد : ﴿فأينما تولّوا فتمَّ وجه الله﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة. وقال ابن جرير : وقال آخرون بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجّه إلى الكعبة . وقال آخرون : نزلت إذنا من الله أن يصلي التطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره وفي حال شدة الخوف . وروى أبو كريب بالسند إلى ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية : ﴿فأينما تولّوا فتمَّ وجه الله﴾ ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن عبد الملك بن أبي سليمان به . وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة من غير ذكر الآية .

وقال آخرون : بل نزلت في قوم عميت عليهم القبلة ، فلم يعرفوا شطرها فصلّوا على أنحاء مختلفة فقد روى محمد بن إسحق الأهوازي بالسند إلى عامر بن ربيعة عن أبيه قال : كنّا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء ومظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلي فيه فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة ، فأنزل الله هذه : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ، رواه الترمذي وابن أبي حاتم بطرق ضعيفة ورويت أيضاً من طرق أخرى عديدة بأسانيد فيها ضعف ولعلّه يشدّ بعضها بعضاً وأما إعادة الصلاة لمن يتبين خطأه ففيها خلاف (وهذه دلائل أي الآية نفسها ، والأحاديث المتقدمة ، على عدم القضاء والله أعلم .)

وروى ابن جرير بالسند إلى مجاهد قال لما نزلت : ﴿ادعوني استجب لكم﴾ قالوا إلى أين ؟ فنزلت : ﴿فأينما تولّوا فتمَّ وجه الله﴾ قال ابن جرير ومعنى : ﴿أن الله واسع عليم﴾

يسع خلقه كلهم بالكفاية والحد والإفضال وأما قوله : عليم فإنه عليم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ، ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ۗ أَدَبِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ ﴾

إشتملت هذه الآية وإتي تليها ، الرد على النصارى ، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب من جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن لله ولداً . فقال تعالى : ﴿ بل له ما في السموات والأرض ﴾ أي ليس الأمر كما افترضوا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وهو المتصرف فيهن ، وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم ، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد كما قال تعالى :

﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إذا * تكاد السموات يتفتطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتِ الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فقرر في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له وأن جميع الأشياء غيره ، مخلوقة له ومربوبة ، فكيف يكون له منها ولد ؟ .

ولهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ قال ١٠٨ : [قال الله تعالى : « كذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَيَزْعُمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : « أَنْ لِي وَلَدًا فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا »] . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال ١٠٩ : [لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله . إنهم : يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعاقبهم .]

وقوله ﴿ كل له قانتون ﴾ روى ابن أبي حاتم بالسند عن ابن عباس قال : قانتين : مصابين . وقال عكرمة وأبو مالك : ﴿ كل له قانتون ﴾ مَقْرُونٌ له بالعبودية . وقال مجاهد مطيعون . وقوله تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أي : خالقهما على غير مثال سابق . قال ابن جرير فمعنى الكلام : سبحان الله أن يكون له ولد وهو مالك السموات والأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية ، وتقرُّ له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها وموجدُها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه . وهذا إعلام من الله لعباده ، أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بئوته ، وإخبار لهم : أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال ، هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١١٨

حكى القرطبي : ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ ، أي يخاطبنا بنبوتك يا محمد وهذا قول كفار العرب . ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ قالوا هم اليهود والنصارى . يؤيد هذا القول أن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ... ﴾ إلى قوله ﴿ ... قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ . وقوله تعالى ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب ^(١) وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به ، كما قال مَنْ قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتاب وغيرهم كما قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنأ الله جهرة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ أي أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب مَنْ تقدّمهم في الكفر والعناد والعتو . وقوله تعالى : ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ ، أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل لمن أيقن وصدق .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ

الْجَحِيمِ ١١٩

(١) قلت : لقد تكرر وصف مشركي العرب / بعدم العلم / مما يؤيد ما رجحناه في تعليقنا ص ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ في قوله تعالى : ﴿ وكذلك قال الذين لا يعلمون ﴾ وكذلك هنا في الآية رقم ١١٨ /

روى ابن أبي حاتم بالسند عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ١١٠ [أنزلت عليّ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾] قال : بشيراً بالجنة ونذيراً من النار . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ قراءة أكثرهم : ﴿ وَلَا تَسْأَلْ ﴾ أي لا نسألك عن كفر من كفر بك قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مَذْكُورٌ لِّسْتَعْلِيهِمْ بِمَسْطَرٍ ﴾ وقرأ آخرون : ﴿ وَلَا تَسْأَلْ ﴾ عن أصحاب الجحيم . بفتح التاء على النهي أي لا تسأل عن حالهم كما روى عبد الرزاق عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله ﷺ : ١١١ [ليت شعري ما فعل أبوي ، ليت شعري ما فعل أبوي ، ليت شعري ما فعل أبوي فنزلت : ﴿ وَلَا تَسْأَلْ ﴾ عن أصحاب الجحيم . فما ذكرهما حتى توفاه الله] . أما الحديث المروي في حياة أبويه عليه الصلاة والسلام فليس في شيء من كتب السنة ولا غيرها . وإسناده ضعيف والله أعلم . ويحتمل أن رسول الله ﷺ كان يستغفر لأبويه قبل أن يعلم أمرهما فلما علم ذلك ، تبرأ منهما وأخبر عنهما أنهما من أهل النار كما ثبت في الصحيح (١) .

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٣ ﴾

قال ابن جرير :

يعنى بقوله جل ثناؤه : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ أي يا محمد ليست اليهود ولا النصارى براضية عنك أبداً حتى تتبع ما يرضيهم ويوافقهم فاطلب رضا الله فيما بعثك الله من الحق . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ ﴾

(١) قلت : روى مسلم في صحيحه عن أنس : ١١٢ [أن رجلاً قال يا رسول الله : أين أبي ... ؟ فقال : « في النار » فلما قفى دعاء فقال : « إن أبي وأباك في النار »] وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : ١١٣ [زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، فقال : « إستانذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي فاستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكرك الموت »] وهناك أحاديث شتى في هذا الباب اقتصرنا منها على ما هو في صحيح مسلم ويتضح منها جلياً أن أبوي الرسول ماتا على الشرك فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أي قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى يعني هو الدين الصحيح ﴿ ولئن أتبت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾ . فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طريق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياداً بالله من ذلك. فإن الخطاب للرسول والأمر لأمرته (١) .

وقوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ قال سعيد وقتادة : هم أصحاب رسول الله ﷺ وقال ابن مسعود : والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يُحْلَلَ حلاله ويُحْرَمَ حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله . وقال ابن عباس مثل ذلك . ورؤي عن النبي ﷺ : ١١٤ [أنه كان إذا مرّ بآية رحمة سأل ، وإذا مرّ بآية عذاب تعوذ] . وقوله تعالى ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ خبر عن الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته . أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته ، آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليكم من ربكم ﴾ أي إذا أقمتوها حق الإقامة ، وآمنتم بها حق الإيمان ، وصدقتم بما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته ، والأمر باتباعه ونصره وموآزرته قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة . كما قال ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ ... ويقول تعالى ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنا علىكم البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ وفي الصحيح : ١١٥ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار .]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ١٢٢ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾

(١) قلت : فيه نهي كبير عن اتباع الكفار وتقليدهم في عقائدهم وعباداتهم ومعادلاتهم... وجعلهم مثلاً بالافتداء. كما هو الحال اليوم والعياذ بالله وخاصة في الحكم بغير ما أنزل الله . مع العلم بما جاء به القرآن والسنة من الأحكام . فمن يفعل ذلك فليس له من عذاب الله من ولي ولا نصير .

قد تقدم نظيرها في مختصر السورة وكررت هنا للتأكيد والحث على اتباع محمد ﷺ ولا يحسدوا بني عثمهم العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم فيكفروا به^(١)



وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۖ

أي اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي عليها مستقيم . فأنت والذين معك من المؤمنين اذكر لهؤلاء ابتلاء إبراهيم أي اختباره بما كلفه من الأوامر والنواهي ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي قام بهن كلهن كما قال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ أي وفى جميع ما شرع الله له فعمل به صلوات الله عليه وسلامه . قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بكلمات ﴾ أي بشرائع وأوامر ونواه . فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ وتُطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى : ﴿ ونمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ أي كلماته الشرعية وهي : إما خبر صدق ، وإما طلب عدل ، إن كان أمراً أو نهياً ومن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿ وإذا ابتلى إبراهيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي قام بهن . قال : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ أي جزاء على ما فعل كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به .

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام . فروى محمد بن اسحق بالسند إلى ابن عباس قال : الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم فَأَتَمَّهُنَّ : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقةهم ، ومحاجته نمروداً في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافة ، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم . وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله ، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه . فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له : ﴿ أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾

وروى ابن أبي حاتم بالسند إلى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ قال الله لإبراهيم إني مبتليك بأمر فما هو... قال تجعلني للناس إماماً قال : نعم. قال ومن ذريتي قال : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ قال تجعل البيت مثابة للناس قال : نعم قال : وأمناً . قال : نعم . قال : تجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة قال : نعم. قال : وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله قال : نعم . قال ابن جرير ما حاصله : أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلاّ بحديث أو إجماع . ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له .

وقوله : ﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك ، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وإنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم . والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ فكل نبي أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ١٢٥ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِشْنِ الْمُصِيرِ ١٢٦ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨ ﴾

قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ يقول لا يقضون

منه وطراً يأتونه ثم يرجعون منه ثم يعودون إليه . وروى ابن جرير بالسند إلى عبدة بن أبي لبابة في قوله تعالى : ﴿ ولأجعلنا البيت مثابة للناس ﴾ قال لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قضى منه وطراً . وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنى ، أورده القرطبي :

جعل البيت مثاباً لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر

ومضمون ما فسرنا به هذه الآية : أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرأ ، من كونه مثابة للناس ، أي جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح وتحنُّ إليه ولا تقضي منه وطراً ، ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ إلى أن قال : ﴿ ربنا وتقبل دُعائي ﴾ ويصفه بأنه جعله آمنه من دخله أمين ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً . وقال تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي بمكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴾ وفي هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده فقال : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ . وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو ... فقال ابن أبي حاتم بالسند إلى ابن عباس : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قال مقام إبراهيم الحرم كله . وعنه أيضاً قال : أما مقام إبراهيم الذي ذكره هنا فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد . وقيل إن مقام إبراهيم « الحج كله » . والصحيح أنه الحجر الذي صلى خلفه رسول الله ﷺ ركعتي الطواف . فقد روى البخاري عن النبي ﷺ عن أنس بن مالك مالك قال : قال عمر بن الخطاب : « وافقت ربي في ثلاث أو وافقت ربي في ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فترلت : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ إلى آخر الحديث ... ورواه مسلم عن عمر قال : (وافقت ربي في ثلاث : في الحجاب . وفي أسارى بدر وفي مقام إبراهيم . وقال ابن جريج بالسند إلى جابر : ١١٦ [إن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلّى خلفه ركعتين ثم قرأ : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾]

وكل ما تقدم يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة . وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار ، نقله إلى الناحية التي تليها . وهكذا حتى تم جدران الكعبة ، كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت . وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر بمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك . وإنما أخره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم ولم ينكر

أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ^(١)

وقوله تعالى : ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيئي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ وعهدنا أي أمرنا وعُدَّيَّ إلى لأنه بمعنى : تقدمنا وأوحينا. ﴿وطهرا بيئي للطائفين﴾ أي من الشرك بلا إله إلا الله . والطواف بالبيت معروف . وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى : للطائفين يعني من أتاه من غربة يطوف به ﴿والعاكفين﴾ المقيمين فيه . وقيل من انتابه من الأمصار فأقام عنده . وعن ابن عباس قال : إذا كان جالساً فهو من العاكفين حتى النائمين في المسجد يعتبرون من العاكفين قال ابن عمر . وثبت أنه كان ينাম في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب ﴿والركع السجود﴾ قال ابن عباس : إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود . وقد اختلف الفقهاء أيهما أفضل ؟ الصلاة عند البيت أو الطواف به ... ؟ قال مالك : الطواف لأهل الأمصار أفضل ، وقال الجمهور : الصلاة أفضل مطلقاً .

والمعنى إذا : وعهدنا إلى إبراهيم أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيئي ﴿للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ أي طهراه من الشرك والريب ، وأبنياه خالصاً لله : معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود . وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ، ومن قوله تعالى : ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطهيرها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ١١٧ [إنما بنيت المساجد لما بنيت له] وقد اختلف في أول من بنى الكعبة . فقيل : الملائكة ، وقيل آدم ، وقيل شيث عليهما السلام وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجرد ما إذا صح حديث من ذلك فعلى الرأس والعين .

قوله تعالى : ﴿وإذ قال لإبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أي اجعل هذه البقعة بلداً آمناً وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة . وقال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ كأنه والله أعلم - وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت

(١) قلت : إن من تتبع سبب نقل الحجر وتأخيره إلى مكانه اليوم ير أن عمر بن الخطاب رأى الحجر يتعثر به المسلمون أثناء طوافهم فأخبره رضي الله عنه رحمة بهم ، ولم ينكر أحد من الصحابة على ما فعله عمر وفي هذه الأيام عام ١٣٨٥ وما قبله وإلى ما بعده يكثر عدد الحجاج والحمد لله عاماً بعد عام لدرجة بلغ هذا العام ألف ألف وخمسمئة ألف حاج . حتى بلغ من أمر الزحام عنده ما أدى إلى وفاة عدد من الحجاج وخاصة في العام الذي مضى ... فيا ليت أولي الأمر يؤخروه أيضاً كما أخره عمر بن الخطاب بسبب التعمق وكيف بالوفاة ؟

واستقرار أهله به وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنّاً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة ولهذا قال آخر الدعاء : ﴿الحمد لله وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربّي لسميع الدعاء﴾

وقوله : ﴿وأرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ قال ابن عباس كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ﴿قال ومن كفر فأتعنه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ ومعناه : ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين أخلق خلقاً ولا أرزقهم ؟ أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير أي سأرزق الكافر أيضاً وأمتعته برزقه في الدنيا قليلاً ثم أضطره بما كفر إلى عذاب النار جزاءً وفاقاً ﴿وبئس المصير﴾ أي المرجع والمآل . وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة : ١١٨ [إلتمس لي غلاماً من غلمانكم يخدمني فخرج بي أبو طلحة يرد فني وراءه ، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل . وقال في الحديث ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال : « هذا جبل يحبنا ونحبه » فلما أشرف على المدينة قال : اللهم إني أحرم ما بين جبلية مثل ما حرم به إبراهيم مكة اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم .]

وفي لفظ لهما اللهم بارك لهم في مكيالهم وبارك لهم في صاعهم وبارك لهم في مدهم [(زاد البخاري) : يعني أهل المدينة .

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه عن النبي ﷺ ١١٩ [إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة] رواه البخاري .

أثبتنا هذه الأحاديث : لتعلقها بدليل حرمة مكة ومن أدلة ذلك : وقيل أنها محرومة منذ خلقت مع الأرض . وهذا أظهر وأقوى والله أعلم . وقد وردت أحاديث أخر، تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض . كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : ١٢٠ [إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعصده شوكة ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته ، إلا من عرفها ولا يختل خلاها » فقال العباس يا رسول الله إلا الأذخر فإنه لقينهم وليبوتهم فقال : « إلا الإذخر » [وهذا لفظ مسلم . ولهما عن أبي هريرة نحو من ذلك . أما تفضيل مكة على المدينة أو بالعكس فيأتي بعد إن شاء الله تعالى ﴿وإذا برقع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾

القواعد جمع قاعدة . وهي السارية والأساس . يقول تعالى واذكر يا محمد لقيمك بناء إبراهيم وإسماعيل البيت ورفعهما القواعد وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما . ويدلُّ على هذا قولهما بعده : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك ﴾ فهما في عمل صالح ويسألان الله به أن يتقبل منهما وقد كانا يرفعان ويدعوان الله سبحانه أن يتقبل عملهما وقلباهما وجلان ألام يتقبل منهما كما حكى الله عن حال المؤمنين الخلفص في قوله تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة ﴾ أي خائفة أن لا يتقبل منهم .

وقد روى عن البخاري رحمه الله في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ١٢١ [أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل ، أم اسماعيل اتخذت منطقاً لتعني أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي تُرضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعها هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء . ثم فقأ إبراهيم منطقاً ، فتبعته أم اسماعيل فقالت : يا إبراهيم : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت ذلك له مراراً .. وجعل لا يلتفت إليها . فقالت : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يضبتنا ... ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية ، حيث لا يرونه ، إستقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه . فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ... حتى بلغ يشكرون . ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش أبنها وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال يتلبّط . فانطلقت كراهة أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم ترَ أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال النبي ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت . فسمعت أيضاً فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث ؟ فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء . فجعلت تحوّضه وتقول بيدها هكذا ... وجعلت تغرف الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم » أو قال « لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً » قال فشربت وأرضعت ولدها

فقال لها الملك : « لا تخافي الضيعة ، فإن ها هنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه . وأن الله لا يضيع أهله » وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله . فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من (جرهم) أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا ... فتزولوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عاثفاً فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء . لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء .. !

فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأم اسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أن نزل عندك؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا ، قالوا : نعم . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس » فتزولوا وأرسلوا إلى أهليهم فتزولوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل آيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا ... ثم سألتها عن عيشتهم وهيتهم فقالت : نحن بشرٌ ، نحن في ضيق وشدة ، فشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له بغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشتنا ؟ فأخبرته أننا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك . قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك . وطلقها وتزوج منهم بأخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد ، فلم يجدوه فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت خرج يبتغي لنا قال : كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيتهم . فقالت : نحن بخير وسعة وأئنت على الله عز وجل قال ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال فما شرابكم؟ قالت الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال النبي ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعاهم فيه » - قال - فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقه . (قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يشب عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة وأئنت عليه فسألني عنك فأخبرته . فسألني كيف عيشتنا فأخبرته أننا بخير قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثب عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك ، وإسماعيل يبكي نبلاً له ، تحت دوحة قريبة من زمزم . فلما رآه ، قام إليه وصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد . ثم قال : يا إسماعيل : « إن

الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك قال : « وتعيني » ؟ قال : « وأعينك » قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل لإسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ^(١) فوضعه له فقام عليه ، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ قال : فجعلنا بيننا حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ [

وقد اختلف العلماء والمفسرون في قواعد البيت .. أهى قواعد بناها إبراهيم عليه السلام أم هي موجودة قبله ، وأمر أن يبني عليها ... ؟ فالراجح - والله أعلم - إنها قواعد كانت مبنية قبل إبراهيم ... وإنما هُدِيَ إليها وبُؤِيَ لها . قال الله تعالى : ﴿ ولأدبرنا إبراهيم وإسماعيل من قبل البيت ﴾ فالبيت إذاً كان سابقاً موجوداً إنما بُؤِيَ مكانه

قال ابن جرير : أخبرنا هناد بن السري وساق السند إلى خالد بن عرعة قال : إن رجلاً قام إلى علي رضي الله عنه فقال : ألا تخبرني عن البيت ... أهو أول بيت وضع في الأرض فقال : لا ؛ ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً وإن شئت أنبأتك كيف بُنيَ : إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتاً في الأرض فضاق إبراهيم ذرعاً بذلك . فأرسل الله السكينة وهي ريح خجوج ، ولها رأسان فأتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة ، فتطوّت على موضع البيت كطيّ الحجفة ، وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة ، فبنى إبراهيم وبقي الحجر فذهب الغلام يبني شيئاً فقال إبراهيم : « لا ... أبغني حجراً كما أمرك . » قال : فانطلق الغلام يلتمس حجراً فأثابه به فوجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه . فقال : « يا أبت من أتاك بهذا الحجر ؟ » فقال « أتاني به من لم يتكل على بنائك ، جاء به جبريل عليه السلام من السماء » ، فأتمّاه .

ويقال إن الحجر كان أبيض ياقوته بيضاء مثل الثغامة وكان آدم هبط به من الجنة فأسودّ من خطايا الناس . ويقال إن البيت بُني من أربعة أجبل : حراء ، وطور سيناء ، وطور زيتا ، والجدودي . والله أعلم .

(١) قلت : هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم في بناء الكعبة وهو مقام إبراهيم الذي جاء ذكره ص ١٠٣

وروى ابن أبي حاتم بالسند إلى سعيد بن المسيب قال سعيد : وحدثنا علي بن أبي طالب أن إبراهيم أقبل من أرض أرمينية ومعه السكينة تدله على تبويء البيت كما تتبوا العنكبوت بيتاً قال : فكشفت عن أحجار لا يطبق الحجر إلا ثلاثون رجلاً ، فقلت يا أبا محمد : فإن الله يقول : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ﴾ قال كان ذلك بعد .^(١)

« ذكر بناء قريش للكعبة »

بعد إبراهيم وقبل مبعث محمد ﷺ

قبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ، أجمع أمر قريش على نقض الكعبة لتوهتها وبنائها من جديد ، وتعاهدوا فيما بينهم ألا يدخلوا في بنائها إلا كسباً طيباً ولا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس . وقد كانت الكعبة مجزأة فيما بين قبائل قريش ، أي كان كل شق أو ركن لقبيلة من قبائل قريش حتى شق الحجر وظهر الكعبة .

وقد هابوا جميعاً هدمها وفرقوا منه . فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدوكم في هدمها . فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركن . فتربص الناس تلك الليلة وقالوا : ننظر ... فإن أصيب لم نهدم منه شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء ، فقد رضي الله ما صنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام أفضوا إلى حجارة خضري كالأسنة ، أخذ بعضها بعضاً .

قال محمد بن اسحق : وحدثني بعض من يروي الحديث بأن رجلاً من قريش ممن

(١) قلت : من عموم نصوص القرآن ، ومن الأخبار الواردة ، ورغم أن المحدثين قالوا انه لم يثبت منها أي حديث إنما من مجموع هذه الأحاديث يميل القلب إلى الظن الراجح بأن القواعد كانت موجودة قبل إبراهيم لا سيما وإن الله تعالى يقول : وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت « ويقول تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت » يتضح أن الله هداه إلى مكان البيت ، وإن القواعد من البيت أي أركانه الأربعة ، وليست هي أسسه الراسية عليها أركان البيت ، والأخبار المتقدمة تصف القواعد أن الحجر منها لا يطبق حمله إلا ثلاثون رجلاً . ثم قول إبراهيم (عند بيتك المحرم) وذلك قبل أن يبني البيت بأعوام ، لدليل على أن البيت كان موجوداً ومعروف البقعة ولا يعقل أن يكون بيت بلا قواعد والأخبار تقول : إنه كان مكان البيت وقتئذ ربوة حمراء مدرة ، ولعلها بعض أنقاض البيت المردومة سابقاً والله تعالى أعلم .

كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ، ليقلع بها أيضاً أحدهما . فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس .

اشترك الجميع في جمع الحجر والبناء ، حتى إذا بلغوا موضع الحجر الأسود ، فاختصموا فيه ، وكل قبيلة تود لو تنفرد بشرف وضعه في مكانه ، لتنال هذا الشرف حتى لكادوا يقتتلون ... لولا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي ، قال : يا معشر قريش إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم . ففعلوا فكان أول داخل محمد ﷺ . فلما رآه قالوا : هذا الأمين ... رضينا هذا محمد فلما أخبروه الخبر قال ﷺ : ١٢٢ [«هلم إلي ثوباً» . فأُتي به . فأخذ الحجر الأسود ، فوضعه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً » ففعلوا ... حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه بيده ﷺ ولم تزل الكعبة على بناء قريش ، حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير سنة ٦٠ وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية ، لما حاصروا ابن الزبير فحينئذ نقضها ابن زبير إلى الأرض وبنائها على قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وأدخل فيها من الحجر خمسة أذرع ، وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض . كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل الكعبة كذلك حتى قتله الحجاج فردّها إلى ما كانت بأمر عبد الملك بن مروان ، كما روى مسلم في صحيحه عن عطاء بنحوه .

وقد كانت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير (رض) لأنه هو الذي ودّه رسول الله ﷺ . ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان ، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ ، قال : ودّدنا أننا تركناه وما تولّى .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي قزعة : أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين ، يقول سمعتها تقول : قال رسول الله ﷺ : ١٢٣ [يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر فإن قومك قصرُوا في البناء] فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين ، فإنني سمعت أم المؤمنين تحدث هذا ... قال لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير . هذا الحديث كالمقطع به إلى عائشة لأنه قد روي عنها من طرق صحيحة متعددة ... فدلّ هذا على صواب بما فعله ابن الزبير ، فلو ترك لكان جيداً . ونهى مالك بن أنس (الرشيدي) أو أباه (المهدي) عن هدم الكعبة لإرجاعها إلى قواعد إبراهيم ، حتى لا تكون ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها .

وسوف تبقى لآخر الزمان إلى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة . كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ١٢٤ [يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة] ، وفي رواية عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ١٢٥ [يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ولكأنني أنظر إليه أصيلع أفيدع^(١) يضرب عليها بمسحاته ومعو له] وهذا والله أعلم إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج ، لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ١٢٦ : [لِيُحْجَنَّ الْبَيْتَ وَلِيُعْتَمَرَ نَ بعد خروج يأجوج ومأجوج .]

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

قال ابن جرير : يعنيان بذلك : واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك لا نشرك معك في الطاعة أحد أسواك ، ولا في العبادة غيرك ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ قال السدي : يعنيان العرب وقال ابن جرير : والصواب أنه يعم العرب وغيرهم ، لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل . وهذا الذي قال ابن جرير لا ينفيه السدي فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم والسياق إنما هو في العرب ولهذا قال بعده : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ والمراد بذلك محمد ﷺ وقد بعث فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأسود والأحمر . ويقول تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ وغير ذلك من الأدلة القاطعة ﴿ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ أي أخرجها لنا وعلّمناها . وعن سعيد بن منصور بالسند إلى مجاهد قال - ما خلاصته - : إن جبرائيل قال لإبراهيم : ارفع القواعد فرفعها ، ثم أراه مناسك الحج جميعاً فأراده إبليس أن يدخل في الحج شيئاً ، فلم يستطع وأمره أن يرميه ثلاث مرات ، في كل مرة سبع حصيات عند الجمرات الثلاث فرماه . ثم أتى به المشعر الحرام ، حتى أتى به عرفات ، قال قد عرفت ما أريتك ؟ قال نعم .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ١٢٩

وافقت تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث فيهم رسولاً منهم ، قدّر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين ^(١) إليهم وإلى سائر الثقلين كما روى الإمام أحمد عن العرياض بن سارية قال قال رسول الله ﷺ ١٢٧ : [إني عند الله خاتم النبيين ^(٢)] وإن آدم لمجندل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرّين .]

والمراد من قوله : (وبشارة عيسى بي) قوله تعالى : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ... ﴾ وأما قوله ﷺ ... ورؤيا أمي التي رأت فيوضحه قوله في الحديث الآخر الذي رواه أحمد : ١٢٨ [ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام .] أي أنها رأت مناماً ... وأنه حين حملت به ، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم . وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى أن الشام ستكون آخر الزمان معقل الإسلام وأهله ، بها ينزل عيسى ولهذا جاء في الصحيحين ١٢٩ : [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك .]

وفي صحيح البخاري : ... ١٣٠ [وهم بالشام] .

وقوله تعالى : ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ أي القرآن . ﴿ والحكمة ﴾ أي السنة .

وقوله : ﴿ ويزكيهم ﴾ يعني طاعة الله والإخلاص له قال ابن عباس . وقوله : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء والحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها .

(١) قلت : أي العرب .

(٢) قلت : أي مكتوب عند الله في أم الكتاب أنه سيكون آخر النبيين بعثاً . ويستدل بعض الغلاة بهذا الحديث على أنه صلى الله عليه وسلم أول الخلق . مع أن هذا الحديث لا يدل في واقعه على ذلك البتة . بل إنه يدل على وجوده العلمي لا على وجوده الخلق ، ويستوي في الوجود العلمي سائر المخلوقات مع النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : ١٣١ : (إن الله علم الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام) وعلم الله صفة الله غير مخلوقة ولم يسبق علم الله بعضه بعضاً . أما أول الوجود خلقاً هو القلم . وذلك كما أخبر عليه الصلاة والسلام بقوله : ١٣٢ (أول ما خلق الله القلم وقال اكتب قال رب وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة) أفنظر رسالتنا : « محمد أفضل الخلق لا أول الخلق » مطبوعة .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ١٣٠ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ١٣١ وَأَوْصَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه من الشرك بالله المخالف لملة ابراهيم الخليل إمام الخفاء ، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه . وقد خالف في ذلك سائر قومه حتى وإنه تبرأ من أبيه ... ! قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم . ﴾

فقوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ أي ظلم نفسه بسفهه ، وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال ، ومخالفة طريق من اصطفي في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه ، إلى أن اتخذ الله خليلاً . وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فأى سفه أعظم من ترك طريقة إبراهيم ومسلكه وملته ، وإتباع طرق الضلالة والغي ... ؟ وقوله تعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ أي أمره الله تعالى بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرأ . وقوله تعالى : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ أي وصى بهذه الملة وهي الإسلام . وقد قرأ بعض السلف : ﴿ ويعقوب ﴾ بالنصب عطفأ على بنيه كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن اسحق وكان حاضراً ذلك .

والظاهر والله أعلم أن اسحق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة . لأن البشارة وقعت بهما في قوله تعالى : ﴿ فبشرناهما بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحق كبير فائدة .

وقوله تعالى : ﴿ يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ أحسنوا في حال الحياة والزوموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فلأن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ، ويبعث على ما مات عليه .

وهذا لا يعارض حديث ١٣٣ : [وإن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها...] الخ الحديث ..

لأنه قد جاء في بعض الروايات هذا الحديث ١٣٤ : [ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس] . وقد قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرَهُ لِلْعُسْرَى ﴾ .

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٣ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٣٤

يقول تعالى : محتجاً على مشركي العرب أبناء إسماعيل ، وعلى الكفار من بني إسرائيل وهو : (يعقوب بن اسحق) بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له ، فقال لهم : ﴿ ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وآله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه . قال النحاس : والعرب تسمى العم أباً . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجدّ أباً وحجب به الأخوة ، كما هو قول الصديق حكاة البخاري من طريق ابن عباس وابن الزبير وهو مذهب أبي حنيفة ولتفصيل ذلك موضع آخر .

وقوله : ﴿ إلهاً واحداً ﴾ أي توحده بالألوهية ولا تشرك به شيئاً غيره ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي مطيعون وخاضعون . والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم ، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة وقوله ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ أي مضت ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ أي لا ينفعكم انتسابكم إلى الأنبياء كإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، إذا لم تفعلوا خيراً ، فإن لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ ولهذا جاء في الأثر : ١٣٥ [من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه] .

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٣٥ ﴾

روى محمد بن اسحق بسنده الى ابن عباس قال : قال عبدالله بن سوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد . وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل عز وجل : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ وقوله : ﴿ قل بل ملة لإبراهيم حنيفاً ﴾ أي لا نريد ما دعوتونا إليه من اليهودية والنصرانية ﴿ بل ﴾ نتبع ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي مستقيماً وقال أبو قلابة : الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا
أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ١٣٦

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين عليهم الصلاة والسلام مجملًا . ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم : ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ .

وقال أبو العالية والربيع وقتادة : الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط . والمراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم : ﴿ أذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ﴾ وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣٦ [آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن] .

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٣٧ صِبْغَةَ اللَّهِ
وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ١٣٨

يقول تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا ﴾ يعني الكفار من المشركين وأهل الكتاب بمثل ما آمنتم به من الإيمان بالله ورسله بلا تفريق بينهم ﴿ فقد اهتدوا ﴾ أي أصابوا الحق ﴿ وإن تولّوا ﴾ أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فإنما هم في شقاق فسيكفيهم الله ﴾ أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿ وهو السميع العليم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ صبغة الله ﴾ أي دين الله وانتصاب ﴿ صبغة الله ﴾ أي إلزموا صبغة الله أي فطرة الله ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ و نحن له عابدون ﴿ أي مطيعون

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ١٣٩ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٠ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٤١ ﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين . ﴿ أتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾ أي تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والالتقياد ، واتباع أوامره وترك زواجه ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ المتصرف فينا وفيكم المستحق الإلهية وحده ولا شريك له ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي نحن براء منكم وما تعبدون وأنتم براء منا ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ أي في العباداة والتوجه ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء كانوا على ملتهم اليهودية أو النصرانية فقال : ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾ يعني بل الله أعلم وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى .

وقوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ قال الحسن البصري : كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي اتهم أن الدين الإسلام . وأن محمداً رسول الله ، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية ، فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا الشهادة شهادة الله عندهم من ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ تهديد ووعيد شديد أي أن علمه محيط بعلمكم

وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة لهم ولا تغفروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين محمد ﷺ وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .
(ابتداء الجزء الثاني)



سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٢ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرُّسُولَ ۚ أَمَّا يُنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٤٣

المراد بالسفهاء هم مشركو العرب وأخبار اليهود والمنافقون هؤلاء جميعاً لأن الآية عامة . وقد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال بيت المقدس . فكان بمكة يصلي بين الركنين ^(١) فتكون الكعبة بين يديه وهو مستقبل بيت المقدس ^(٢) فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس . قاله ابن عباس والجمهور . ثم اختلفوا : هل كان الأمره بالقرآن أو بغيره ... ؟ على قولين : فعكرمة وأبو العالية والحسن البصري على أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه الصلاة والسلام .

والمقصود ... أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ إلى المدينة . واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً وكان يُكثِرُ الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبله

(١) المقصود بالركنين : هما الركن اليماني والركن الشامي

(٢) أي يقف من الجهة الجنوبية فيما يقابل اليوم باب الوداع ويتجه شمالاً إلى بيت المقدس فتكون الكعبة بين يديه وهو في نفس الوقت مستقبل بيت المقدس .

إبراهيم عليه الصلاة والسلام فأجيب إلى ذلك ، وأمرَ بالتوجه إلى الكعبة . فأعلمهم عليه الصلاة والسلام بذلك . وكان أولُ صلاة صلاها إليها ... صلاةُ العصر . كما جاء في الصحيحين من حديث البراء رضي الله عنه : ٣٧ [أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت] وعند النسائي أنها الظهر في مسجد بني سلمة وفي حديث نويلة بنت مسلم : ١٣٨ [أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر قالت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال .]

أما أهل قباء ... فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر . فأتاهم آت فقال : ١٣٩ [أن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة .] (٢) وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به ، وإن تقدم نزوله وإبلاغه . لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم . ولما وقع هذا ... حصل لبعض الناس من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب ، ارتياب وزيف عن الهدى وتخبيط وشك (٣) وقالوا : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ أي ما هؤلاء تارة يستقبلون بيت المقدس ، وتارة يستقبلون الكعبة؟! فأنزل الله تعالى ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ أي له الأمر كله ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ و ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ﴾ أي حيثما وجهنا سبحانه توجهنا إذ كمال الطاعة بامتثال أوامره حتى ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة . فنحن عبيده ونحوه تصرفه . ومن عنايته العظيمة بأمة محمد ﷺ أن هداهم إلى قبلته خليله إبراهيم عليه السلام ولهذا قال : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط

(١) (٢) قلت : لا شك أن عملية استبدال القبلة في الصلاة عبادة . إنما القول بأن جهة الكعبة من دون سائر الجهات ، هي قبله المسلمين في صلاتهم ، فهذا مما لا يختلف فيه اثنان أنه عقيدة ، وقد تقدم أن أهل المسجد صدقوا من أخبرهم وهو واحد فقط بأن القبلة قد تحولت إلى الكعبة بينما هم كانوا يصلون قبل بيت المقدس ، فداروا كما هم ، قبل البيت . فتصديقهم خبر هذا الواحد في أمر كهذا هو لا شك عقيدة ، وقد ثبتت هذه العقيدة من خبر ذلك الواحد الذي شهد بالله بأنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فداروا كما هم قبل البيت . ووقوع هذه الحادثة ثابت لا مرية فيه . وهذا من جملة الردود التي ترد بها على الذين يزعمون فيقولون : أن خبر الواحد أو حديث الآحاد لا تثبت به عقيدة بل يقولون ما هو أدعى من ذلك وهو : أن كل من يعتقد عقيدة ما من طريق حديث آحاد فهو آثم ... !!! ؟ نعوذ بالله من الخذلان وسوء المنقلب

(٣) كل ذلك كان فيهم من قبل ...

مستقيم ﴿ وقد روى الإمام أحمد بسنده إلى عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ يعني أهل الكتاب : ١٤٠ [إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وفضلوا عنها ، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وفضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام : آمين] وقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ الوسط ها هنا ، الخيار كما يقال : محمد وسط في قومه أي أشرفهم نسباً ، وقريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي خيرها . ومن ذلك الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر . وهكذا فقد جعل هذه الأمة وسطاً لما خصها بكل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى : ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد ^(١) قال : قال رسول الله ﷺ : ١٤١ [يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، قال فلذلك قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾ قال : الوسط العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم] رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش . ومن حديث لأحمد عن أبي سعيد الخدري : ١٤٢ [... فيدعى محمد وأمته ، فيقال لهم هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون نعم ، فيقال وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾] قال : عدلاً ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنتم عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ ^(٢) يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ، ويستقبل معك حيثما توجهت ، ممن ينقلب على عقبيه أي مرتدأ عن دينه ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ أي هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وإن كل ما جاء به حق وصدق لا مرية فيه وإن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما شاء وله

(١) وهو الخدري (٢) وفي هذه الآية دليل على أن الذي أمر رسول الله بالتوجه إلى بيت المقدس هو الله تعالى لا اجتهداً منه عليه الصلاة والسلام كما يرى البعض

الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك . بخلاف الذين في قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر ، أحدث لهم شكاً ، كما يحصل للذين آمنوا إيقاناً وتصديقاً . كما قال تعالى : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾

وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلّوا إلى القبلتين وهذا ما يدل على أن أمة محمد ﷺ كانت على كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لأوامر الله عز وجل رضي الله عنهم أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك أي ما كان يضيع ثوابها عند الله . وفي الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس : ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى أي ليعطيكم أجرها جميعاً : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾

وفي الصحيح : ١٤٣ (أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبيّاً من السبي أخذته فالصقته بصدرها وهي تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها ، فقال رسول الله ﷺ [« أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تغدر على أن لا تطرحه » قالوا : لا يا رسول الله قال « فوالله لو أرحم بعباده من هذه بولدها »] .

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٤٤

قال علي بن طلحة عن ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة (١) وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها من اليهود فأمره الله أن يستقبل بيست المقدس ففرحت اليهود . فاستقبلها رسول الله بضعه عشر شهراً وكان يحب قبلة إبراهيم فكان

يدعو إلى الله تعالى وينظر إلى السماء فأُنزل الله ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ إلى قوله ﴿ فَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أي قِبَلَهُ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال ١٤٤ [البيت قبله لأهل المسجد، والمسجد قبله لأهل الحرم، والحرم قبله لأهل الأرض، في مشارقتها ومغاربها من أمّتي .] ومن حديث نويلة بنت مسلم : ١٤٥ [لما كان الناس في مسجد بني حارثة وتحولوا إلى الكعبة بدل بيت المقدس لما أتاهم الآتي بتحويل القبلة إلى الكعبة قالت فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي ﷺ قال : ١٤٦ « أولئك رجال يؤمنون بالغيب » ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أي أمرَ تعالى باستقبال القبلة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً . ولا يستثنى من هذا شيء ، إلا النافلة في حال السفر فإنه يصليها حيثما توجهت قالبه، وقلبه نحو الكعبة . وكذا في حال المسابقة في القتال يصلي على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئاً ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلاّ سعيها .

(مسألة) وقد استدل المالكية من قوله : ﴿ فَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده لأن فيه انحناء ينافي كمال القيام . أما الجمهور قالوا بل موضع سجوده لأنه أبلغ في الخضوع وأكد في الخشوع وقد ورد به الحديث . ^(٢)

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي أن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالى سبوجهكم إليها بما في كتبهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته . ولكن أهل الكتاب يتكاثرون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً . ولهذا تهددهم تعالى بقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

وَلَّيْنِ أَتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَّيْنِ أَتَبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾

(١) فما قول من يقول : إن من يعتقد عقيدة بحديث آحاد فهو آثم...!!!! مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد للذين صدقوا خبر الواحد بأنهم رجال يؤمنون بالغيب ؟ ...

(٢) ١٤٧ (وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى طأطأ رأسه ، ورعى ببصره إلى الأرض) (١٤٨ ولما دخل الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها) رواه البيهقي ، والحاكم وصححه ، وله شاهد من حديث عشرة من الصحابة .

يخبر تعالى رسوله ﷺ : أنه لو قام كل دليل على صحة ما جاء به ... لما اتبعه اليهود لكفرهم وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من حقيقة نبوته . وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَبْلَتِهِمْ﴾ (١) أي أنه لا يتبع أهواءهم أبداً وليس اتجاهه لبيت المقدس لكونه قبلة اليهود ، إنما فعل ذلك عن أمر الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿وَلَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا تحذير شديد من مخالفة الحق بعد العلم به ، لأن الحجة أقوم على العالم من غيره ، والخطاب هنا وإن كان للرسول ، إنما المراد به أمته .

﴿الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ١٤٦ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ١٤٧ ﴿﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام كما يعرفون أبناءهم من بين أبناء الناس إذ لا يشك أحدٌ ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق ، والإتيان العلمي ﴿ليكتُمون الحق﴾ أي ليكتُمون الناس ما في كتبهم من صفات النبي عليه الصلاة والسلام ﴿وهم يعلمون﴾ ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به هو الحق لا مرية فيه ولا شك فقال ﴿الحق من ربك فلا تكوننَّ من الممترين﴾

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٤٨ ﴿﴾

قال العوفي عن ابن عباس : ولكل وجهة هو موليها يعني بذلك أهل الأديان يقول : لكل قبيلة قبلة يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون ، وقال ابو العالية : لليهودي وجهة هو موليها ، وللنصراني وجهة هو موليها ، وهذاكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً﴾

(١) قلت : وفي هذه الآية دليل على أن الرسول لم يستقبل بيت المقدس تألفاً لقلوب اليهود اجتهداً منه بل إن هذه الآية فصل في الخلاف وتؤكد أنه كان ذلك من أمر الله تعالى ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾

واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ﴿١﴾ وقال ها هنا : ﴿٢﴾ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير ﴿٣﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم

﴿٤﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٩ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض . وقد اختلف في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات ... أظهرها والله أعلم .. ما وجهه الفخر الرازي وهو : الأول : لمن هو مشاهد الكعبة . والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها والثالث لمن هو في بقية البلدان . وقيل أيضاً الأول : لإجابة لطلبته ﷺ بقوله تعالى ﴿١﴾ ... فلنوليك قبلة ترضاها ﴿٢﴾ والثاني انه بيان لما هو الحق الذي يحبه الله ويرضيه . والثالث : قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحجبون باستقبال الرسول إلى قبلتهم ، وقطع حجة المشركين لما صُرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف والله أعلم . وقوله : ﴿٣﴾ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴿٤﴾ أي أهل الكتاب لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين لإياهم في التوجه إلى بيت المقدس . وقوله : ﴿٥﴾ إلا الذين ظلموا منهم ﴿٦﴾ يعني مشركي العرب . ووجه بعضهم حجة الظلمة أن قالوا : إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم يرجع عنه ... ؟ والجواب : إن رسول الله ﷺ مطيع لله في جميع أحواله لا يخرج عن أمر الله طرفه عين ، وأمه تابعة له فلما أمره بالتوجه إلى بيت المقدس فأطاع ، ثم أمره بالتوجه إلى الكعبة فأطاع ، وقوله : ﴿٧﴾ فلا تخشَوْهم واخشوني ﴿٨﴾ أي لا تخشوا شبهة الظلمة ، وأفردوا الحشية لي . وقوله : ﴿٩﴾ ولأتم نعمتي عليكم ﴿١٠﴾ أي فيما شرعت لكم من استقبال القبلة . وقوله : ﴿١١﴾ ولعلكم تهتدون ﴿١٢﴾ أي إلى ما ضللت عنه الأمم هديناكم إليه ، وخصصناكم به ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها . والله الحمد

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ١٥١ ۝ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ١٥٢ ۝ ﴾

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات مبینات ويزكّيهم أي يطهرهم من الرذائل والدنس ، ويخرجهم من الشرك إلى التوحيد ، ويعلمهم الكتاب : أي القرآن. والحكمة : أي السنة. ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فبعد أن كانوا في جهل الجاهلية وسفاهة القول ، إنتقلوا ببركة رسالته إلى حال الأولياء ، وسجایا العلماء فصاروا علماء أبراراً صادقین ، رافلين بنعمة الله بمحمد ﷺ ؛ ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ، ومقابلتها بذكره وشكوه . وقال : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ أي فكما منّنت عليكم بمحمد فاذكروني ، وعن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : « تذكرني ولا تنساني فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني » . قال الحسن البصري وغيره : إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره وقال بعض السلف في قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال : هو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ قال : أذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجب لكم على نفسي . وفي الحديث الصحيح : ١٤٩ [يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه] وقوله : ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ أمر تعالى بشكوه ووعد على شكره بمزيد الخير فقال : ﴿ وإذا تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ وروى أحمد بسنده إلى رجاء العطاردي قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خبز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال : إن رسول الله ﷺ قال ١٥٠ [من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه] وقال روح مرة ، « على عبده » [

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ١٥٣ ۝ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ١٥٤ ۝ ﴾

لما فرغ تعالى من بيان الشكر ، شرع في بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها. وبين سبحانه أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب ، الصبر والصلاة. وفي الحديث : ١٥١ [إن رسول الله ﷺ كان إذا حز به أمر صلى] والصبر صبران : فصبر على ترك المحارم والمأثم وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث فهو على المصائب والنوائب . كالاستغفار من المعاييب . والصابرون كما قال علي بن الحسين زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ... ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وقال سعيد بن جبیر : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحياء ﴾ يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء في صحيح مسلم : ١٥٢ [إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قتاديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا وأي شيء نبغي ، وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جل جلاله : إني كتبت أنهم اليها لا يرجعون.] وفي الحديث الذي رواه أحمد بسنده عن كعب بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ١٥٣ [نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً .

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ١٥٧

أخبرنا تعالى أنه يتلى عباده أي يخبرهم ... فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع

كما قال تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر عليه ذلك وقال ها هنا : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ أي بقليل من ذلك ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴾ أي ذهاب بعضها ﴿ وَالْأَنْفُسِ ﴾ كموت الأصحاب والأقارب ﴿ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ أي لا تغل الحداائق والمزارع كمعادنها فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحلَّ به عقابه . ولهذا قال : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ هم ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أي تسَلَّوْا بقولهم هذا ، عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده ، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة ، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال : ﴿ وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي ثناء من الله عليهم ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ قال عمر بن الخطاب : نعمم العدلان ونعمت العلوة ﴿ وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ فهذان العدلان ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ فهذه العلوة ، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً .

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة . فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ١٥٤ [ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ اللهم أجرنى في مصيبتى وأخلف لى خيراً منها إلاّ آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها قالت : فاما توفى أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لى خيراً منه رسول الله ﷺ] وروى الإمام أحمد بسنده عن الحسين بن علي عن النبي ﷺ قال : ١٥٥ [ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب]

وروى الامام أحمد عن أبي سنان ^(١) قال : ١٥٦ [دفنت ابنأ لي فإني لفني القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الخولاني فأخرجني وقال لي : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى . قال حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ . « قال الله يا ملك الموت قبضت ولد عبدي ، قبضت قرّة عينه ، وثمرة فؤاده ؟ قال : نعم قال : فما قال ؟ قال حمّدك واسترجع . قال : ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد »] .



﴿ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ١٥٨

روى الامام أحمد بسنده عن عروة عن عائشة قال : ١٥٧ [قالت أرأيت قول الله تعالى ﴿ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما ، فقالت عائشة : بشما قلت يا ابن أخي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الانصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهلها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله عز وجل ﴿ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ قالت عائشة : ثم قدس رسول الله ﷺ الطوف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما . [أخرجاه في الصحيحين .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل : ١٥٨ [وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه . ثم خرج من باب الصفا وهو يقول ﴿ان الصفا والمروة من شعائر الله﴾ ثم قال : «أبدأ بما بدأ الله به » [وفي رواية النسائي : ١٥٩ [إبدأوا بما بدأ الله به] روى أحمد بسنده إلى حبيبة بنت أبي تبرة قالت : ١٦٠ [رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبته من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي »] وروى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول : ١٦١ [كتب عليكم السعي فاسعوا] وقد استدلل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك ، وقيل واجب وليس بركن فمن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم ، وقيل بل مستحب وإليه ذهب ابو حنيفة وغيره عن أنس وابن عمر وابن عباس قال القرطبي : واحتجوا بقوله تعالى ﴿فمن تطوع خيراً﴾ والقول الاول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما ، وقال : ١٦٢ [لتأخذوا عني مناسككم] فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج إلا ما خرج بدليل والله أعلم . وقد تقدم قوله عليه السلام (اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي) فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج وقد تقدم من حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها متذلة خائفة ، وجلة مضطربة ، فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتها ، وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زنم التي ماؤها ١٦٣ [طعام طعم وشفاء سقم] فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته

إلى الله ، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنوبه وقوله : ﴿ فمن تطوع خيراً ﴾ أي يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع قاله الرازي . وقوله : ﴿ فإن الله شاكر عليم ﴾ أي يشيب على القليل بالكثير ، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٦١ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ١٦٢ ﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة ، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله . قال أبو العالية : نزلت في أهل الكتاب ، كتموا صفة محمد ﷺ ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك ، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء ، والطير في الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء ، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . وعن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال : ١٦٤ [من سئل عن علم فكتمه ، أجم يوم القيامة بلجام من نار] وفي الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى ﴾ الآية .

وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى البراء بن عازب قال : ١٦٥ [كنا مع النبي ﷺ في جنازة فقال : « إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه ، يسمعها كل دابة غير الثقلين ، فتلعنه كل دابة سمعت صوته . فذلك قول الله تعالى ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ يعني دواب الارض] ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ﴾ أي رجعوا عما كانوا عليه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتُمونه ﴿ فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن

١٢٨ (٢ - البقرة - ج ٢) : من خَلَقَ وَأَنْعَمَ وَحْدَهُ ، لزم أن يكون المعبود وحده لا شريك له

﴿ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة إلى يوم القيامة ثم المصاحبة في نار جهنم التي ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ فيها ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يغير عنهم ساعة ولا يفتّر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك. اختلف العلماء في : هل يجوز لعن الكافر المعين فقد ذهب جماعة أنه لا يلعن لأنا لا ندري بما يحتم الله له وقالت طائفة أخرى بل يجوز لعن الكافر المعين واختاره الفقيه ابو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف واستدل غيره بقصة السكران الذي تكرر حده فقال رجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به ، فقال رسول الله ﷺ : ١٦٦ [لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله] فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن والله اعلم .

﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ١٦٣ ﴾

يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية ، لا شريك له ولا عدیل بل هو الله الذي لا إله إلا هو سبحانه وإنه هو الرحمن الرحيم وقد تقدم تفسير هذين الإسمين في أول الفاتحة . ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما مما برأ من المخلوقات الدالة ^(١) على وحدانيته فقال :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِّيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤ ﴾

يقول تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثواب ودوران فلكها - وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووادعها وعماراتها وما فيها من المنافع ، واختلاف الليل والنهار ، هذا يجيبني ثم يذهب ويخلفه ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ وتارة يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ

(١) قلت : يعني إن الدليل على أنه مستحق العبادة وحده ، كونه تفرّد بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما فالذي خلق وبرأ وأنعم وحده لا شريك له لزم أن يكون المعبود وحده لا شريك له .

هذا من هذا ثم يتعاضدان كما قال تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا . ﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس ، والانتفاع بما عند هذا الأقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء ، وما عند أولئك إلى هؤلاء . ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة - إلى قوله - ومما لا يعلمون ﴾ ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ على اختلافها في كل شيء ، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه ، لا يخفي عليه شيء من ذلك ، كما قال تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ ﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي فتارة تأتي بالرحمة ، وأخرى بالعذاب ، وتارة مبشرة بالغيث على اختلاف جهات مصدره ﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض ﴾ أي سائر بين السماء والأرض ومسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن ، كما يصرفه الله تعالى ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ تدل على وحدانية الله ، كما قال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار ﴾ ووروى الحافظ ابن مردويه عن ابن عباس : ١٦٧ [إن قريشاً سألت رسول الله ﷺ أن يجعل الله لنا الصفا ذهباً فتؤمن بك ، ونقاتل معك ، قال : « أوثقوا لي لأن دعوت ربي فجعل لكم الصفا ذهباً لتؤمنن بي ؟ » فأوثقوا له فدعاه ربه فأنابه جبريل فقال : إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك ، عذبهم عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين ، قال محمد ﷺ : « رب لا ... بل دعني وقومي فلأدعهم يوماً بيوم » فأنزل الله هذه الآية] ورواه ابن أبي حاتم بزيادة : ١٦٨ [وكيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا ؟] وروى وكيع بن الجراح عن أبي الضحى ، قال : لما نزلت ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ الآية قال المشركون : إن كان هكذا فليأتنا بآية ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن في خلق السموات والأرض ... ﴾

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ١٦٥ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ١٦٦ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي فَنَتَّبِعَ اللَّهُ مِنْهُمْ لَمَا كُنَّا كَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا تُمْ بَخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ١٦٧

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ، وما لهم في الدار الآخرة من العذاب بما جعلوا لله انداداً أي أمثالاً يعبدونهم ويحبونهم كحبه ، وهو الإله الذي لا ضد له ، ولا شريك معه ، وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال قلت : ١٦٩ [يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك] وقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ ولهذا لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ، ويأجأون دائماً إليه . ثم توعد المشركين فقال سبحانه : ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ﴾ وتقدير الكلام : لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً وأن كل الأشياء تحت قهره وسلطانه ﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾ فلو يعلمون ما يعانونه هنالك ، وما سيحل بهم من العذاب الهائل ، على شركهم وكفرهم ، لأنتهوا عما هم فيه من الضلال ، ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم ، وتبريهم المتبوعين من التابعين ، فقال : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا ، فتقول الملائكة : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ والجن أيضاً تبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوهني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كُفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص من النار ، قال ابن عباس : تقطعت المودة . وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ، ونوحّد الله بالعبادة ، ولكنهم كاذبون في هذا بل لو ردُّوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون كما أخبر تعالى . ولذا قال : ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أي تذهب وتضمحل كما قال تعالى : ﴿ وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩ ﴾

لما بين الله تعالى أنه لا إله إلا هو ، بيّن أنه الرازق لجميع خلقه ، فأمّنّ عليهم أن أباح لهم أكل الحلال الطيب ، ونهاهم عما حرم عليهم ، كما في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١٧٠ [يقول الله تعالى : إن كل مالٍ منحتُه عبادي فهو لهم حلال - وفيه - وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم .] وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس : قال : ١٧١ [تليت هذه الآية عند النبي ﷺ : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال : « يا سعد أطلبْ مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً وأما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به)

وقوله تعالى : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تنفير عنه وتحذير منه ، كما قال : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ كل معصية لله وكل نزعة وكل خطأ من خطوات الشيطان ، وكذلك النذر بالمعاصي . قال الشعبي (نذر رجل أن يذبح ابنه فأفناه مسروق بذبح كبش قال : هذا من خطوات الشيطان .) وقال عبد بن حميد بسنده إلى ابن عباس قال : (ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان ، وكفارته كفارة يمين .) وقوله تعالى : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وإن تقولوا على الله ما لا تعامون ﴾ أي إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة ، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ، وأغلظ من ذلك ، وهو القول على الله بلا علم ، فيدخل في هذا كل كافر وكل متبذع أيضاً

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ١٧١ ﴾

يقول تعالى : وإذا قيل للمشركين : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله واتركوا الضلال والجهل قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا من الشرك فقال تعالى منكراً عليهم : ﴿ أولوه كسان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي ليس لهم فهم ولا هداية ، وعن ابن اسحق أن ابن عباس قال نزلت في اليهود ، دعاهم ﷺ فقالوا : بل نتبع ما أفقينا عليه آبائنا فأنزل الله هذه

الآية ، ثم ضرب الله لهم مثلاً فقال : ﴿ ومثل الذين كفروا ﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالذباب السارحة التي لا تفقه بل إنما تسمع صوت راعيها قوله : ﴿ صم ﴾ بكم عمي ﴾ أي صم عن سماع الحق ، بكم لا يتفوهون به ، عمي عن رؤية طريقه ، ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ
وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَن أَضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا
عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣ ﴾

أمر الله عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى ، وأن يشكروه على ذلك إن كانوا عبيده ، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة ، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء في الحديث المروي عن أحمد بن حنبل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٧٢ [أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغذّي بالحرام فأنّي يستجاب لذلك ؟] ورواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث فضيل بن مرزوق وقد ذكر الله سبحانه أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية ، وسواء كانت منخنة أو موقودة أو نطيحة أو عدا عليها السبع ، وقد استثنت ميتة البحر لقوله تعالى : ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾ على ما سيأتي أن شاء الله وحديث العنبر في الصحيح وفي المسند والموطأ والسنن قوله ﷺ في البحر ١٧٣ [هو الطهور ماؤه الحل ميتته] وعن ابن عمر مرفوعاً : ١٧٤ [أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال] وسيأتي تقرير ذلك إن شاء الله في سورة المائدة .

«مسألة» : قيل أن لبن الميتة ويبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره ، وقيل طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة في رواية عن مالك وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم

نجاستها ، ولكن أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس^(١)

وقد روى ابن ماجه بسنده عن سلمان رضي الله عنه : ١٧٥ [سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء ، فقال : « الحلال ما أحل الله في كتابه ، والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه »] وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكّي أم مات حتف أنفه ويدخل شحمه في لحمه تغليباً وكذا حرم عليهم ما أهيل به لغير الله ، وهو ما ذبح لغير الله وعلى غير اسمه تعالى ، من الأنداد ونحو ذلك من فعل الجاهلية : ١٧٦ [وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت : ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم] . وقد أباح أكل ذلك عند الحاجة فقال ﴿ فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ ﴾ أي في غير بغى ولا عدوان ﴿ فلا إثم عليه ﴾ في ذلك ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ وقوله ﴿ غير باغٍ ﴾ يعني غير مستحلّه وليس له من ذلك إلا القدر الذي يبلغه الحلال وله أن يحمل منه ما يبلغه ذلك فإذا بلغه ألقاه وهو قوله ﴿ ولا عادٍ ﴾ .

« مسألة » لا خلاف في أكل طعام الغير إذا وجده المضطر من غير قطع ، أو أذى وهنا لا يحل له أكل الميتة ونحوها ، ولكن الخلاف هل يضمن ما أكل؟ الصحيح أنه لا يضمن لقوله ﷺ للرجل الذي منع جائعاً أن يحمل في ثوبه مما فرك من السنبل وضربه وأخذ ثوبه : ١٧٧ [« ما أطعمته إذ كان جائعاً ولا ساعياً ولا علمته إذ كان جاهلاً » فأمره فرد إليه ثوبه ، وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق »] قاله ابن ماجه وسنده صحيح قوي جيد . وقوله تعالى ﴿ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾ فيما أكل من اضطرار وما يدل على أكل هذه المحرمات للمضطر انه عزيمة لا رخصة هو ما رواه وكيع بسنده عن مسروق قال « من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار وقال ابو الحسن الطبري : هذا هو الصحيح عندنا ، كالإفطار للمريض ونحو ذلك ، والله اعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ

(١) قلت : أي أن جبن المجوس المعمول بالأنفحة المستخرجة من معدة الخراف ذبحاً من قبل المجوس كان يأكله الصحابة مع العلم أن ذبيحة المجوسي لا تؤكل وحكمها حكم الميتة إنما مع ذلك أكل الصحابة جبنها ، ومن هنا يستدل على أن الأنفحة مستثناة وهي من الغفو بدلالة الحديث الوارد أعلاه من رواية ابن ماجه وكذلك البيهقي واللبن والسمن والجبن والفراء ما سكت عنه فهو عفو والله تعالى أعلم

اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ١٧٥ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

يقول تعالى : ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم الشاهدة له بالرسالة والنبوّة ، وذلك لثلاث تذهب رياستهم وما يأخذونه من العرب من الهدايا على تعظيمهم آباءهم فخشوا - لعنهم الله - أن يظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم ، فكتموا الحق ، بالتزوير اليسير من عرض الدنيا فحسروا الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإن الله أظهر صدق رسوله ﷺ بما وهبه تعالى من المعجزات فصدقه الناس وصاروا عوناً له على قتال اليهود الذين باؤوا بغضب على غضب ، وذمهم الله في هذه الآية : ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أي إن ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة . وقوله : ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ لغضبه تعالى عليهم ، لكتمانهم بعد علم ، فلا ينظر إليهم ولا يثني عليهم بل يعذبهم عذاباً أليماً ، ثم قال عنهم ﴿أولئك الذين اشترؤا الضلالة بالهدى﴾ وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والنبأ به واتباعه وتصديقه فاعتاضوا عن ذلك بالضلالة وذلك تكذيبه والكفر به ، وكتمان صفاته في كتبهم ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ أي اشترؤا العذاب العظيم بدل المغفرة ﴿فما أصبرهم على النار﴾ ! أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تُفضي بهم إلى النار فالعجب العجيب من صبرهم على النار !! وهم يعلمون أنهم صائرون إليها بمعاصيهم ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ أي إنما استحقوا ذلك باتخاذ آيات الله هزواً فلا هم أظهروا ما في كتبهم من الحق ، ولا هم آمنوا بالرسول بل كذبوه وجحدوا صفته ، وهو الذي يدعوهم إلى الحق يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فاستحقوا العذاب والنكال ولهذا قال : ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلَفوا في الكتاب لفي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَىٰ

الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ
وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على قواعد عميمة ، وعقيدة مستقيمة ، كما روى ابن أبي حاتم بسنده إلى أبي ذر ١٧٨ [أنه سأل رسول الله ﷺ : ما الإيمان ؟ فثابه عليه ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ إلى آخر الآية ؛ قال : ثم سأله أيضاً فثابه عليه ، ثم سأله فقال : إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك] وهذا منقطع فإن مجاهداً لم يدرك أبا ذر فإنه مات قديماً .

ومعنى الآية : لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حوّلهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب ، وبعض المسلمين ، فأنزل الله بيان حكمته في ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل ، وامتنال أوامره والتوجه حيثما وجهه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس في التوجه إلى جهة المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، ولهذا قال : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية ؛ قال الثوري في قوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ الآية قال : هذه أنواع البر كلها . وصدق رحمه الله فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو وصدق بوجود الملائكة ، الذين هم سفرة بين الله ورسله . ﴿ والكتاب ﴾ « اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء وخاتمها أشرفها وهو القرآن الذي انتهى إليه خيرا الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله . وآمن بجميع أنبياء الله من أولهم إلى خاتمهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أي أخرجه وهو محب له ، راغب فيه ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً : ١٧٩ [أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغني وتخشى الفقر] وقال تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . ﴾ وقال تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ وهذا نط آخر أرفع ، وهو أنهم أثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له . وقوله

تعالى : ﴿ ذُوِي الْقُرْبَىٰ ﴾ وهم أولى من أعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث ١٨٠ [الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوي الرحم ثنتان : صدقة وصلة ، فهم أولى الناس بك وبرك وإعطائك] ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ هم الذين مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ ولا قدرة لهم على التكسب . كما روى عبد الرزاق بسنده عن علي عن رسول الله ﷺ قال : ١٨١ (لَا يَتُّمَّ بَعْدَ حُلْمٍ) وقوله : ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ يفسره ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ١٨٢ [ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده الثمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطن له فيتصدق عليه] وقوله ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطي ما يوصله إلى بلده ويدخل في ذلك الضيف . ﴿ وَالسَّائِلِينَ ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما روى أحمد بسنده عن عبد الرحمن حسين بن علي قال قال رسول الله ﷺ : ١٨٣ [للسائل حق وإن جاء على فرس] ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتاباتهم . وسيأتي الكلام في ذلك يبحث الصدقات من سورة براءة إن شاء الله . ﴿ وَأَقَامِ الصَّلَاةَ ﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها ، وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي . وقوله : ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ المراد زكاة المال فيكون إعطاء الجهات والأصناف المذكورة آنفاً إنما هو التطوع والبر والصلة ، ولهذا جاء في حديث فاطمة بنت قيس : ١٨٤ [في المال حق سوى الزكاة] والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَوْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ وعكس هذه الصفة : النفاق كما صح في الحديث : ١٨٥ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان] وقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ أي حال الفقر وهو البأساء ، وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ أي في حال القتال ولقاء الأعداء وإنما نصب ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ على المدح والحث على الصبر في الشدة . وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ

(٢ - البقرة - ج ٢) يأمر الله بالعدل في القصاص النفس بالنفس ، لا يقتل مسلم بكافر ١٣٧

فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ
فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

يقول تعالى كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون ، حرّمكم بحرّمكم ، وعبدكم بعبدكم ، وأنثاكم بأنثاكم ، ولا تتجاوزوا كما فعل من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم ، فقد كانت بنو النضير إذا غزت قريظة ، وقتل النضري القرظي لا يقتل به ، بل يفادي بمئة وسق من التمر وإذا قتل القرظي النضري قتل ، وإن فادوه فدي بمئتي وسق من التمر ضعف دية القرظي فأمر الله بالعدل بالقصاص ، فلا تحرف أحكام الله كفرأ وبغياً ، فقال تعالى ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ وروى أبو مالك أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ النفس بالنفس ﴾ فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونسائهم في النفس وفيما دون النفس ، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وما دون النفس رجالهم ونسائهم .

مسألة : ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود وكذلك مروى عن علي وابن مسعود بن المسيب وغيرهم مستندين إلى عموم حديث الحسن عن سمرة : ١٨٦ [من قتل عبده قتلناه ، ومن جدد عبده جددناه ومن خصاه خصيناه] ^(١) وخالفهم الجمهور فقالوا لا يقتل الحر بالعبد ، لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية وإنما تجب قيمته . وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بكافر ، لما ثبت في البخاري عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : ١٨٧ [لا يقتل مسلم بكافر] ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا . وذهب أبو حنيفة إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة .

مسألة -- : قال الحسن وعطاء : لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية وخالفهم الجمهور لآية المائدة ، ولقوله ﷺ ١٨٨ [المسلمون تتكافأ دماؤهم]

مسألة - : ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد ، قال عمر في

(١) قلت : لعل هذا الحكم خاص فيما يتعلق بالسيد وعبده حتى يقلع من الأذهان أن العبد يفعل به سيده ما يشاء لمجرد كونه عبده ولكن لو قتل حرّاً عبداً لغيره ، فلا يقتل حرّاً بعبده لقوله تعالى : « الحر بالحر والعبد بالعبد » وعلى هذا فيكون الحديث مخصوصاً فقط فيما بين السيد وعبده في أمور لا يستحق فيها العبد القتل ... أما إذا كان العبد مقترفاً ما يستحق عليه القتل شرعاً فله حكم آخر وبستوي فيه مع سائر المؤمنين من باب أولى . هذا ما أفهمه فإن كنت أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي وأتوب إلى الله سبحانه والله أعلم .

غلام قتله سبعة فقتلهم ، وقال : (لو تمالأ عليه أهلُ صنعاء لقتلتهم) . ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة ، وذلك كالإجماع .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُضِيَ لَهُ مِنْ أُخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو ﴿ فَاتَّبَاعَ بِمَعْرُوفٍ ﴾ فعلى الطالب اتباع المعروف إذا قبل الدية ، ﴿ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ يعني من القاتل من غير ضرر ولا مدافعة .

مسألة -- : قال مالك ، وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعي وأحمد في أحد قوليه ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل ؛ وقال الباقر : له ذلك وإن لم يرض .

مسألة -- : وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو . وخالفهم الباقر .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ مما كان محتوماً على من قبلكم من القتل أو العفو . وعن ابن عباس قال : كتب على بني إسرائيل القصاص في القتل ، ولم يكن فيهم العفو . فقال الله لهذه الأمة ﴿ كتب عليكم القصاص في القتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فَمَنْ عُضِيَ لَهُ مِنْ أُخِيهِ شَيْءٌ ﴾ . فالعفو أن يقبل الدية في العمد ، ذلك تخفيف مما كتب على بني إسرائيل من كان قبلكم فاتباع بالمعروف أو أداء إليه بإحسان . وقال قتادة : رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية ، ولم تحل لأحد قبلهم . وقوله ﴿ فَمَنْ اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها ، فله عذاب من الله أليم موجع شديد وإنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية . كما روى سعيد بن أبي عروبة بسنده عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية ﴾ [يعني لا أقبل منه الدية بل أقتله] . وقوله : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها ، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل ، إنكف عن صنيعه ، فكان في ذلك حياة للنفس ﴿ يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ أي يا أولي العقول لعلكم تتجرون عن محارم الله . والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ١٨٠ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٨١ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٨٢ ﴾

قبل أن تنزل آية الموارث كانت الوصية للوالدين والأقربين وكان ذلك واجباً على أصح القولين، إنما نسخته آية الفرائض التي جعلت الموارث فريضة من الله لأهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل مئة الموصي . وفي الحديث الوارد في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول : ١٩٠ [ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث] وروى أحمد عن ابن عباس أنه قرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية ﴿ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين ﴾ قال نسخت هذه الآية وقيل أنها منسوخة فيمن يرث ، ثابتة فيمن لا يرث (قلت) ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر لأن آية الموارث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دلّ عليه عموم آية الوصاية لأن الأقربين أعمّ ممن يرث ومن لا يرث ، فرفع حكم من يرث بما عيّن له ، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الاولى ، وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم : إن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت نداءً حتى نسخت ، فأما من يقول أنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية ، فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قال أكثر المفسرين ، والمعتبرين من الفقهاء ، فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالأجماع بل منهي عنه للحديث المتقدم (ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث) فآية الميراث حكم مستقل ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات ، يرفع بها حكم هذه بالكلية . بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث استثناساً بآية الوصية وشمولها ، ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : ١٩١ [ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلاّ ووصيته مكتوبة عنده] قال ابن عمر : ما مرّت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلاّ وعندي وصيتي .

وقوله تعالى : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ أي مالاّ قاله ابن عباس وغيره . ثم منهم من قال : الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثه . ومنهم من قال : إنما يوصي إذا ترك مالاّ جليلاً . ثم اختلفوا في مقداره فروى ابن أبي حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه قال قيل لعلي رضي الله عنه أن رجلاً من قريش قد مات وترك ثلاثمائة دينار أو اربعمائة ولم يوص . قال : ليس بشيء إنما قال الله : « إن ترك خيراً » وعنه رضي الله عنه انه دخل على رجل من قومه يعود فقال له أوص . فقال له علي : إنما قال الله : ﴿ ان ترك خيراً الوصية ﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً فاتركه لولدك وقال قتادة : كان يقال : ألفاً فما فوقها وقيل ستين وقيل ثمانين .

وقوله : ﴿ بالمعروف ﴾ أي بالرفق والإحسان كما قال الحسن : نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصي اذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر . والمراد بالمعروف أن يوصي لأقريبه

وصية لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير ، كما ثبت في الصحيحين ان سعداً قال :
 ١٩٢ [يا رسول الله إن لي مالاً ولا يرثني إلا ابنة لي أفأوصي بثلاثي مالي قال : لا قال :
 فبالشطر؟ قال لا قال : فالثالث؟ قال : الثالث والثالث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء
 خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس] وقوله : ﴿ فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على
 الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ﴾ أي فمن بدل الوصية وحرفها فغيّر حكمها ، وزاد فيها أو
 نقص ، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿ فإنما إثمه على الذين يبدلونه ﴾ قال ابن
 عباس وغيره : قد وقع أجر الميت على الله ، وتعلق الأثم بالذين بدلوا ذلك ﴿ إن الله سميع
 عليم ﴾ أي قد أطلع على أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدله الموصي إليهم . وقوله
 تعالى : ﴿ فمن خاف من موصٍ جناً أو إثماً ﴾ قال ابن عباس وغيره : الجحف الخطأ ، وهذا
 يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وارثاً بواسطة أو وسيلة كما إذا أوصى ببيعة الشيء الفلاني
 محابةً أو أوصى لابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل إما مخطئاً أو متمدداً فهو آثم في
 ذلك فلا وصي والحالة هذه ، أن يصلح القضية ، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي ، ويعدل
 عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب شيء من مقصود الموصي والطريق الشرعي . وهذا
 الإصلاح ليس من التبديل في شيء وروى ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال :
 ١٩٣ [الجحف في الوصية من الكبائر] وفي رفعه نظر ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ
 مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ
 طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤

يقول الله تعالى آمراً هذه الأمة بالصيام . وهو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع ،
 بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الإخلاط الرديئة
 والأخلاق الرذيلة . وذكر أنه : ﴿ كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلمهم فيه
 أسوة وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكل مما فعله أولئك ، كما قال تعالى : ﴿ لكل
 جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا

الخيرات ﴿ الآية ... ولهذا قال ههنا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . ﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن ، وتضييق لمساك الشيطان وهذا ثبت في الصحيحين : ١٩٤ [يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء] .

كان الصيام في ابتداء الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر ، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان وعن معاذ وابن مسعود وغيرهما : إن هذا الصيام لم يزل مشروعاً من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام ، حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها . ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر ﴾ أي المريض والمسافر لا يصومان بل يُفطران ويقضيان بعدة ذلك أياماً أخر ، وأما الصحيح المقيم إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً . والصيام أفضل من الإطعام قاله ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من السلف وذلك لقوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . ﴾ ثم أنزل الله تعالى الآية الأخرى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن - إلى قوله - فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدي ، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها ، وروي أيضاً عن ابن عمر أنها منسوخة ، وروى البخاري عن ابن عباس أنها ليست منسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً . وحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم ، ففيه قولان . والصحيح منهما الإفطار ، ويجب عليه فدية عن كل يوم . وفي صحيح البخاري : فقد أطعم أنس بعد ما كبر عاماً أو عامين عن كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً وأفطر رواه البخاري معلقاً وقد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده . ويلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع ، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما .

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ١٨٥

يمدح الله تعالى شهرَ الصيام من بين سائر الشهور ، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم وقد ورد في الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء. روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن واثلة بن الأسقع : أن رسول الله ﷺ قال : ١٩٥ (أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان^(١) . وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل ، فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه ، جملة واحدة وإما القرآن فنزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه ، كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وقال : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ثم نزل بعد مفراً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ وفي رواية عكرمة عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر ، إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه وذلك قوله : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فأؤدك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هُدًى للناس وبيِّناتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ وهذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدىً لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه .

﴿ وبيِّناتٍ ﴾ أي ودلائل على صحة ما جاء به من الهدى والرشاد مفراً بين الحق والباطل

(١) قال الله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » والرسول صلى الله عليه وسلم قال التمسوها في العشر الأخير من رمضان) وفي حديث آخر قال (التمسوها في الآحاد) ، وفي حديث آخر (في السابع والعشرين من رمضان) فأما قوله في هذه الرواية أعلاه : وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان هو مخالف لنص القرآن : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ما يدل على ضعف هذا الحديث لمخالفة نصه لنص القرآن ، لأن ليلة القدر كانت في ليلة السابع والعشرين من رمضان والله تعالى أعلم وهو الموافق للصواب .

والحلال والحرام . وقوله تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر ، أي كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة ، ونسخت الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقبلاً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما قدم بيانه ، ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض والمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال : ﴿ ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ أي ومن كان به مرض يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر فله أن يفطر وعليه عدة ما أفطره . ولهذا قال : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ أي إنما رخص بالفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم .

وها هنا مسائل : الأولى : زعم بعضهم أنه لا يباح الإفطار إلا لمن استهل الشهر مسافراً لا لمن كان مقيماً أول الشهر ثم سافر أثناءه لقوله ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ولكن هذا مردود ، إذ لا دليل في الآية على زعمهم لأنه ثبت في الصحيحين ١٩٦ أن [رسول الله ﷺ] لما بلغ الكديد لما خرج لغزوة الفتح في رمضان أفطر وأمر الناس بالفطر [

الثانية - : وقال آخرون : بوجوب الإفطار في السفر لقوله : ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ وهذا خلاف ما ثبت من فعله ﷺ من حديث أبي الدرداء قال : ١٩٧ [خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدهنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر ، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة] .

الثالثة - : وقال آخرون : الصيام أفضل ، وقال جماعة : بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة لقوله ﷺ : ١٨٨ [عليكم برخصة الله التي رخص لكم]

وقيل : إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر : ١٩٩ [إن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلل عليه فقال : ما هذا ؟ قالوا صائم فقال ليس من البر الصيام في السفر] أخرجاه والصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان قال : ٢٠٠ [فمننا الصائم ، ومننا المفطر فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم .]

فأما إن رغب عن السنة ، ورأى أن الفطر مكروه إليه ، فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام لما جاء في مسند أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر : ٢٠١ [من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة]

ولا يجب التتابع في قضاء صيام المعذور ... فإن شاء فرق وإن شاء تابع ، وهذا قول

جمهور السلف والخلف تؤيده الدلائل ، لأن التتابع إنما وجب في شهر رمضان لضرورة أدائه فيه ، فأما بعد انقضاء رمضان فللمراد صيام عدة ما أفطروا لهذا قال تعالى : ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وروى الإمام أحمد عن عامر بن عروة ... جعل الناس يسألونه ﷺ : علينا حرج في كذا ؟ فقال رسول الله ﷺ ٢٠٢ [إن دين الله في يسر] ثلاثاً وروى أحمد أيضاً بسنده عن أنس بن مالك يقول : إن رسول الله ﷺ قال : ٢٠٣ [يسرّوا ولا تعسّروا وسكّنوا ولا تنفّروا] أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى ﴿ ولتكمّلوا العدة ﴾ أي إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر ، وإنما أمركم بالقضاء ، لتكمّلوا عدة شهركم . وقوله : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال : ﴿ فإذا قضيت مناسكتكم فاذكروا الله كذا كركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾

قال ابن عباس : ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر وأوجه داود الظاهري لظاهر الأمر وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يشرع التكبير في عيد الفطر والباقون على استحبابه وقوله ﴿ ولعالمكم تشكرون ﴾ أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين لذلك .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ١٨٦

وفي ذكره تعالى : هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر ، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده عن عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله (ص يقول : ٢٠٤ [للصائم عند افطاره دعوة مستجابة]

قال ابن أبي حاتم بسنده عن معاوية بن حيدة القشيري ٢٠٥ [إن إعرابياً قال : يا رسول الله ﷺ ، أفریب ربنا فتناجیه ... أم بعید فتنادیه ؟ فسکت النبی ﷺ فأنزل الله : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾ الآية ... إذا أمرتهم أن يدعوني فدعوني استجبت . روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري قال : ٢٠٦ [كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلا رفعتنا

اصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منا فقال : « يا أيها الناس : إربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ^(١) يا عبدالله بن قيس ، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله [أخرجه في الصحيحين وبقية الجماعة . وروى مالك عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : ٢٠٧ [يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لي] أخرجه في الصحيحين من حديث مالك به وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : ٢٠٨ [لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل .] قالوا وكيف يستعجل ؟ قال : « يقول قد دعوت ربي فلم يستجب لي » [رواه الامام أحمد

(١) قلت : لقد وقع الخاصة والعامة في زمننا الحاضر - إلا من رحم ربك - في أمر خطير عظيم وهو دعاء غير الله تعالى من الأنبياء والأولياء والصالحين في أمور لا يقدرون عليها فيما لو كانوا على قيد الحياة فكيف وقد اختارهم الله إليه ، وقضى عليهم بالموت ؟ هذه الأمور التي لا يقدر على إجابتها إلا الله وحده لا شريك له . فترى العامة وكثيراً من الخاصة يعكفون على أصحاب القبور ، يطوفون حولها سبعة أشواط وينادون أصحابها لقضاء حوائجهم ، كالمغفرة والهداية ودفع الضر ، وكشف الكربات ، وجلب الرزق ، وهبة الأولاد ذكوراً أو أنثى ، ويقولون يا فلان أنا دخيلك ، وفي جوارك أدركني أغثي ... العارف لا يعرف !!! أنت أعلم بحالي. وأمثال ذلك من الشرك الأكبر .. !!! وإذا دفعتك عقيدتك الطيبة لأن تنصحهم وتفهمهم أن مثل هذه الأمور من العبادات .. ولا يمكن أن تصرف إلا لمستحقها وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، قامت قيامتهم. وإن مما يديم القلوب ، ويفري المهج حزناً ولوعة على ما آلت إليه حال المسلمين كما هو أن يهب بعض الذين هم محسوبون على الأمة من العلماء ، هبة عظيمة ويقولوا لك: أتركهم يا أخي .. نواياهم طيبة ، إنهم لا يقصدون طلب الدعاء من أصحاب القبور ، ولكن لجلهم وعدم معرفتهم لا يعبرون عن مرادهم ، إلا بدعائهم إنما يريدون التوصل بهم إلى الله . وإذا قلت له : حساً تفضل يا صاحب الفضيلة وعلمهم وعدل من ألفاظهم حتى لا يقعوا في الشرك الأكبر .. وهذا الذي قلته لي قلته لهم ، فيقول لك : لا لا يا أخي أتركهم على نواياهم فنواياهم طيبة !!! ولا يتقدم ولا خطوة واحدة لنصحهم وإذا نصحتهم انت قامت قيامته ونمتك بشئ النعوت التي أقل ما يقال فيها أنها تنابذ بالألقاب. ولكن إياك يا أخي المسلم أن يصدقك عن إذاعة الحق أمثال هؤلاء ... فاصدع بالحق والله ناصر لك . « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » وإنك لترى أيضاً في حلقات الرقص التي يسمونها كذباً وزوراً وهتاناً « حلق الذكر » من المنكرات التي أسلفنا ما تنصدع له القلوب من دعوة غير الله تعالى ، وفي شكل مزري . ولو أبصره أعداء الإسلام لشتوا بالإسلام وأهله ولجعلوا أصحوكه ، من ارتفاع بالأصوات إلى القفز ، والرقص ، والتمايل ، والضرب على الدف والصنج والطنبور ، والأغاني من المردان والتكسر والتمايل ، والدمدمة والأهممة بما لا معنى له ويسمون ذلك ذكر الله !! وحاشا أن يكون ذكر الله متديناً إلى مثل هذا الدرك الأسفل هذا عداء الشريكيات في الفاظهم كقولهم مثلاً : / يا شيخني يا رفاعي • ادركني بالفرج • وإذا لم تدركني • فالي من التجني / ؟ وأمثال ذلك والرافعي بريء مما يشركون. فقله تعالى : وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني » وقوله صل الله عليه وسلم : (اربعوا على أنفسكم فأنكم لا تدعون أصم ولا غائباً) لا أكبر وأبلغ رد على أولئك الذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً هذاهم الله أو عاملهم بما يستحقون .

وروى ابن مردويه عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، حدثني جابر بن عبد الله ٢٠٩ [ان النبي ﷺ قرأ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم امرت بالدعاء وتوكلت بالإجابة لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، أشهد أنك فرد أحد صمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وأشهد أن وعدك حق ، ولقائك حق ، وبالجنة حق ، والنار حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنت تبعث من في القبور]

روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس عن النبي ﷺ قال : ٢١٠ [يقول الله تعالى يا ابن آدم واحدة لك ، واحدة لي ، واحدة فيما بيني وبينك ، فأما التي لي فمعبدي لا تشرك بي شيئاً ، وأما التي لك فما عملت من شيء أو من عمل وفيتكته ، وأما الذي بيني وبينك ، فمهلك الدعاء وعليّ الإجابة] وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر . كما رواه الإمام أبو دارد الطيالسي بسنده عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢١١ [لك أثم عند إفطاره دعوة مستجابة] فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا . وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٢١٢ [ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين]

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِيَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧ ﴾

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، فإنه

كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة ؛ والرفث هنا هو الجماع قاله جمع منهم : ابن عباس وبعض التابعين . وقوله : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ قال ابن عباس وغيره : هن سكن لكم وأنتم سكن لهن . وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان لئلا يشق ذلك عليهم ويخرجوا ؛ قال الشاعر :

إذا ما الضجيج نثي جيدها تداعت فكانت عليه لباسا

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم : ٢١٣ [إن الرجل من الصحابة - وذلك قبل اقتراف رمضان - إذا كان صائماً فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلى مثلها ، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً وكان يومه ذلك يعمل في أرضه ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك ، فغلبته عينه فنام ، وجاءت امرأته ، فلما رآته نائماً قالت : خيبة لك أئمت ؟ فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ فتزلت : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ - إلى قوله - ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ ففرحوا فرحاً شديداً .] وقوله تعالى : ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ... ﴾ وأسباب نزول هذا حال قيس بن صرمة المذكور آنفاً ٢١٤ [ثم إن هناك رجالاً من المسلمين كانوا يختانون أنفسهم أي يجامعون نساءهم في شهر رمضان بعد العشاء وبعدما ينامون وكان منهم عمر بن الخطاب وكان ذلك العمل ممنوعاً كما تقدم إذ كان المسلمون قبل ذلك إذا صاوا العشاء حرّم عليهم النساء والطعام إلى مثلها في القابلة ، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ... ﴾ [يعني تجامعوهن وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴾ فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن ﴾ يعني جامعوهن ﴾ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ يعني الولد ﴾ واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ فكان ذلك عفواً من الله ورحمة ، فأباح الطعام والشراب والنكاح في جميع الليل رحمة ورخصة ورفقاً . وقوله : ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ أي ابتغوا الرخصة التي كتب لكم ولكن تفسيرها بالولد أصبح . قوله : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . ﴾ أي إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل ، ويرتفع الالتباس ، قال : ﴿ من الفجر ﴾

وروى البخاري بسنده عن عدي بن حاتم قال : ٢١٥ [قلت يا رسول الله : ما الخيط

١٤٨ (٢-البقرة-ج ٢): استحباب السحور، المصباح جنباً يصوم، تعجيل الفطر، لا وصال في الصوم

الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان؟ قال: إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثم قال: لا بل هو سواد الليل وبياض النهار [

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب، وحثّ السنة على السحور، ففي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ٢١٦ [تسحروا فإن في السحور بركة] وقد ورد أحاديث كثيرة: ٢١٧ [إن رسول الله ﷺ سماه: الغداء المبارك] وقد ورد في الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: ٢١٨ [لا يمنعنكم إذ أن بلال عن سحورك، فإنه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطالع الفجر] [

(مسألة) ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخاري ومسلم، من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا: ٢١٩ [كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم] وفي حديث أم سلمة عندهما: ٢٢٠ [ثم لا يفطر ولا يقضي].

﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ٢٢١ [إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا فقد أفطر الصائم] وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ٢٢٢ [لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر] أخرجه ثم ورد في الأحاديث الصحاح النهي عن الوصال. وهو: أن يصل يوماً آخر، ولا يأكل بينهما شيئاً. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ٢٢٣ (لا تواصلوا قالوا: يا رسول الله إنك تواصل). قال: فإني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني قال فلم ينتهوا عن الوصال. فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» [كالمتكلم لهم] وأخرجه في الصحيحين من حديث الزهري به. فقد ثبت النهي عنه أنه من خصائصه عليه الصلاة والسلام وأنه كان يقوى على ذلك ويضع. والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حته إنما كان معنوياً لا حسياً وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي. ولكن لا بأس من الوصال إلى السحر: لبعض حديث رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: ٢٢٤ [لا تواصلوا فأبيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر...] أخرجه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿ولا

تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ﴿ فقد كان المعتكفون في المساجد يخرجون منها ويجامعون إن شاءوا ، حتى نزلت هذه الآية فمنعوا من ذلك ليلاً أو نهاراً حتى يقضوا اعتكافهم . أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد . ولذا فإن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في المسجد ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بدَّ له منها أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه .

فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت ٢٢٥ [كان رسول الله ﷺ يديني إليّ رأسه فأرجله وأنا حائض ، وكان لا يدخل البيت إلاّ لحاجة الإنسان . قالت عائشة : ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلاّ وأنا مارة .]

وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام لإرشاد وتنبية على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر رمضان كما ثبت في السنة عن رسول الله ﷺ ٢٢٦ [انه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده] أخرجاه وقوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله ﴾ أي هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه ، وما أبخنا فيه وما حرّمنا ، وذكرنا غاياته ، ورخصته وعزائمه ، حدود الله ، أي شرعها الله وبينها بنفسه . فلا تقربوها أي لا تجاوزوها وتتعدّوها ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس ﴾ أي : كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ للناس لعلهم يتقون ﴾ أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون • كما قال تعالى : ﴿ هو الذي ينزل على عبده آياتٍ بيناتٍ ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ﴾

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام ، وقال بعض السلف : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : ٢٢٧ [ألا إنما أنا بشر ، وإنما يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من نار

فليحملها أو ليذرها [فدلّت الآية والحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر ، فلا يحل في نفس الأمر حراماً وهو حرام ، ولا يحرم حلالاً وهو حلال وإنما هو ملزم في الظاهر ، فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره ولهذا قال تعالى ﴿ ولا تأكلوا أموالكم ﴾ وأنتم تعلمون ﴿ أي تعلمون بطلان ما نروّجونه في كلامكم



يَسْتُلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَأَلْحَجْ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

٢٢٨ [سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة قالوا : يا رسول الله لم خلقت الأهلة ؟ فأنزل الله يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس ﴿ [جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسأهم ومحل دينهم .] وروى عبد الرزاق بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ٢٢٩ [جعل الله الأهلة مواقيت للناس ، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً] ورواه الحاكم من حديث ابن أبي رواد به وقال : كان ثقةً عابداً مجتهداً شريف النسب فهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقوله : ﴿ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ روى البخاري عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله : ﴿ وليس البر ... الآية ﴾ وقال عطاء بن رباح : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم ، دخلوا منازلهم من ظهورها ، ويرون أن ذلك أدنى إلى البر ، قال الله تعالى : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ غداً إذا وقفت بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٩٠ أَوْ قَاتِلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرِجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ

الْكَافِرِينَ ١٩١ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٩٢ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

قال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ قال هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ، ويكف عن كف عنه حتى نزلت سورة ﴿ براءة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أي لتكون همتمكم منبعثة على قاتلهم كما همتهم منبعثة على قاتلكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً .

وقوله : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي : من المثلثة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم ، والرهبان وأصحاب الصوامع ، وتخريق الأشجار ، وقتل الحيوان لغير مصلحة ، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز وغيرهما ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٢٣٠ [أغزوا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع] ولما كان الجهاد فيه لإزهاق النفوس وقتل الرجال ، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله ، أبغ وأشد وأعظم وأطم من القتل ، ولهذا قال : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ يعني الشرك أكبر من القتل وأشد منه ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام ﴾ كما جاء في الصحيحين : ٢٣١ [إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة ، ولم يحل إلا ساعة من نهار وإنها ساعتي هذه ، حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة لا يعصده شجره ولا يختلى خلاه ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ ، فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم] وذلك يوم فتح مكة فانه فتحها عنوة .

وقوله تعالى : ﴿ حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فأقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ يقول تعالى ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدأوكم بالقتال فيه فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل وقوله تعالى : ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ أي فإن انتهوا عن قتالكم في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة ، فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فانه تعالى لا يتعاضمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه ثم أمر الله بقتال الكفار ﴿ حتى لا

١٥٢ (٢-البقرة-ج٢): أمر بالعدل حتى بالمشركون. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل...

تكون فتنة ﴿ أي شرك قاله ابن عباس وغيره ﴾ ويكون الدين لله ﴿ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي، على سائر الأديان. وفي الصحيحين ٢٣٢ ﴾ [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله .]

وقوله تعالى : ﴿ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ يقول تعالى فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقاتل المؤمنين فكفّوا عنهم ، فإنّ من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وهذا معنى قول من قال : أن لا يقاتل إلا من قاتل . أو يكون تقريره فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم وهو الشرك ، فلا عدوان عليهم بعد ذلك والمراد بالعدوان ها هنا : المعاقبة والمقاتلة كقوله تعالى : ﴿ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ ولهذا قال عكرمة : الظالم من أبى أن يقول : لا إله إلا الله .

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ١٩٤

قال عكرمة : عن ابن عباس وغيره : لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحجبه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدّوه بمن معه من المسلمين في ذى القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان من المسلمين وأقصه الله منهم ، فنزلت في ذلك هذه الآية : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴾ وروى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله قال : ٢٣٣ [لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام ، إلا أن يغزى وتغزوا فإذا حضره أقام حتى ينسلخ] هذا إسناد صحيح . ولهذا لما بلغ النبي ﷺ وهو نجيم في الحديبية أن عثمان قتل - وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين - بايع أصحابه وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة ، على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل ، كفّ عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان ... وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف عدل إليها فحاصرها ، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق ، واستمر عليها إلى كمال الأربعين يوماً كما ثبت في الصحيحين عن أنس ولما كثّر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من / الجعرانة / حيث قسم غنائم / حنين / وكانت عمرته هذه في ذى القعدة أيضاً ، عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى

عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴿ أمر بالعدل حتى في المشركين كما قال : ﴿ «جزاء سيئة سيئة مثلها» وروي عن ابن عباس أن قوله : ﴿ فمن اعتدى عليكم... ﴾ الآية أنها نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد ، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة ، ونقل ابن جرير عن مجاهد : بل الآية مدنية بعد عمرة القضية . وقوله تعالى ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه ، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٩٥ ﴾

روى البخاري عن حذيفة ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ نزلت في النفقة . وروي عن ابن عباس وجمع من التابعين نحوه وقال الليث بن سعد عن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا ؛ صحبتنا رسول الله ﷺ ، وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار تحبباً فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرنا على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقم فيهما فترل فينا : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد . رواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال أبو بكر بن عياش بسنده إلى البراء بن عازب قال له رجل : إن حماة على العدو وحدي فقتلوني أكنتُ القيتُ بيدي إلى التهلكة ؟ قال : لا ، قال الله لرسوله : ﴿ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾ وإنما هذه في النفقة . رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الترمذي وقيس بن الربيع عن إسحق عن البراء فذكره . وقال بعد قوله : ﴿ ... لا تكلف إلا نفسك ﴾ ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلتمى بيده إلى التهلكة ولا يتوب . وعن النعمان بن بشير أنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له فيلقى بيده إلى التهلكة ، أي يستكثر من الذنوب فيهلك ، ومضمون الآية الأمر بالانفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات ، وخاصةً صرف الأموال في قتال الأعداء ، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم ، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ، ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال : ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ .

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١)

لما ذكر تعالى أحكام الصيام ، وعطف بذكر الجهاد ، شرع في بيان المناسك ، فأمر بإتمام الحج والعمرة وظاهر السياق لإكمال أفعالها بعد الشروع فيهما ولذا قال بعده : ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي صُدِّدْتُمْ عن الوصول إلى البيت ، ومنعتم من إتمامها . ولهذا اتفق العلماء ، على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هما قولان للعلماء ، وقد ذكرناهما بدلائلهما في كتابنا الأحكام وعن علي أنه قال في هذه الآية : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال : أن تحرم من دويرة أهلك ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاووس ، قال سفيان : إتمامهما أن تحرم من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة ، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت لو حججت أو اعتمرت . وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره ، قال مكحول : إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات ^(١) وقال عبد الرزاق بسنده إلى الزهري قال : بلغنا أن عمر قال في قول الله : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر وأن تعتمر في غير أشهر الحج ^(٢) وهذا القول فيه نظر لأنه قد ثبت أن عمرات رسول الله ﷺ كلها في أشهر الحج في ذي القعدة ، فإن عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة

(١) على قول من قال أن القرآن أفضل

(٢) على قول من قال أن الأفراد أفضل

ثمان وعمرته التي مع حجته ، أحرمَ بهما معاً^(١) في ذى القعدة سنة عشر . وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته ، ولكن قال لأم هاني : ٢٣٤ [عمرة في رمضان تعدل حجةً معي] وما ذاك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه عليه السلام فاعتاقت ، عن ذلك بسبب الظهر . وثبت أن رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحج وعمرة^(٢) وقال في الصحيح أيضاً : ٢٣٥ [دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة .]

ورد في الصحيحين عن يعلى بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النبي ﷺ وهو بالجرعانة فقال : ٢٣٦ [كيف ترى في رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق ؟ فسكت رسول الله ﷺ ثم جاءه الوحي ثم رفع رأسه فقال أين السائل ؟ فقال : ها أنا ذا . فقال : « أما الجبة فانزعها ، وأما الطيب الذي بك فأغسله ، ثم ما كنت صانعاً في حجك فأصنعه في عمرتك »] وقوله : ﴿ فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست ، أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكما لها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي ، وكان سبعين بدنة . وأن يخلقوا رؤوسهم وأن يتحللوا ، فلم يفعلوا ، إنتظاراً للنسخ ، حتى خرج فخلق رأسه ففعل الناس ، وكان منهم من قصر رأسه ولم يخلقه فلذلك قال ﷺ ٢٣٧ [رحم الله المحلقين قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ فقال في الثالثة « والمقصرين »] وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة بدنة وكانوا ألفاً وأربعمائة وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم وقيل بل كانوا على طرف الحرم .

وقد اختلف العلماء : هل يختص الحصر بالعدو ... فلا يتحلل إلا من حصره عدو لا مرض ولا غيره على قولين : فعن ابن عباس قال لا حصر إلا حصر العدو فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء إنما قال تعالى : ﴿ فإذا أمنتم ﴾ فليس الأمن حصرًا ، وأيد هذا القول جمع فيهم ابن عمر وبعض التابعين . والقول الثاني إن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال عن الطريق أو نحو ذلك . روى الإمام أحمد بسنده إلى الحجاج

(١) ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ٢٣٨ (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولعلتها عمرة) فتبين من هذا الحديث أن التمتع هو الأفضل إن لم نقل ما يقوله الموجبون فنحن إلى قولهم أميل

(٢) هذا لا يدل على أفضلية القران فإنه صلى الله عليه وسلم بقي على إحرامه ولم يحل لأنه ساق الهدي من الحبل ولولا ذلك لأحل مع الذين أمرهم أن يحلو ويفسخوا حجهم إلى عمرة وثبت في الصحيح أنه قال لأصحابه [دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة] وعلى هذا فالأفضلية للتمتع .

ابن عمر الأنصاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢٣٩ [من كسر أو وجع أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى] قال فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا صدق . وروي عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب وغيرهم قالوا الإحصار من عدو أو مرض أو كسر .

وثبت في الصحيحين عن عائشة : ٢٤٠ [أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت يا رسول الله اني أريد الحج وأنا شاكية ، فقال « حجي واشترطي أن محلى حيث حبستى »] فمن العلماء من أيد الاشتراط وقد علق الشافعي قوله بصحة هذا المذهب على صحة الحديث قال البيهقي وغيره من الحفاظ : وقد صح والله الحمد .

وقوله : ﴿فما استيسر من الهدي﴾ كان علي يقول : شاة . وقال ابن عباس نحوه وكذا قال جمع من التابعين وهو مذهب الأئمة الأربعة وهناك من لا يرى الهدي إلا من الإبل والبقر (قلت) والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديبية ، فانه لم ينقل عن أحد منهم انه ذبح في تحلله ذلك شاة وإنما ذبحوا الإبل والبقر كل سبعة في بقرة كما جاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال ٢٤١ [أمرنا رسول الله ﷺ ان نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة] وعن ابن عباس قال : بقدر يسارته ان كان موسراً فمن الإبل والإبل فمن البقر وإلا فمن الغنم ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : ٢٤٢ [أهدى النبي ﷺ مرة غنماً]

وقوله تعالى : ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ لأنه لا يجوز الذبح إلا في الحرم في حالة الأمن. أما ما وقع في الحديبية فكان ذبحهم خارج الحرم يعزى ذلك للإحصار الذي أحصرتهم قريش ، عن الدخول إلى الحرم فقوله ﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾ يعني يفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعاً ، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت : ٢٤٣ [يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال : « اني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر »] وقوله تعالى : ﴿فمن كان منكهم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ روى البخاري بسنده إلى عبد الله بن معقل قال : ٢٤٤ [قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - فسألته عن فدية من صيام فقال : حملت إلى النبي ﷺ ، والقمل يتناثر على وجهي ، فقال : ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا أما نجد شاة؟ قلت : لا قال : صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من طعام ، واحلق رأسك .

فترلت في خاصة وهي لكم عامة] ورواه أحمد عن كعب بن عجرة قال : ٢٤٥ [أتى عليّ النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدر والقمل يتناثر على وجهي أو قال حاجبي ؛ فقال : يؤذك هوام رأسك ؟ قلت : نعم . قال : فاحلقه وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو أنسك نسكة^(١)]

(قلت) وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أن يخير في هذا المقام : إن شاء صام وإن شاء تصدق بفرق وهو ثلاثة أصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدآن ، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء ، أي ذلك فعل ، أجزأه . ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿ ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ . أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك وأرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال أنسك شاة ، أو أطعم ستة مساكين ، أو صم ثلاثة أيام . فكل حسن في مقامه والله الحمد والمنة .

قال هشام : أخبرنا ليث عن طاووس أنه كان يقول : ما كان من دم فبمكة ، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء . وقوله تعالى : ﴿ فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ﴾ أي إذا تمكنتم من أداء المناسك ، فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج ، وهو يشمل من أحرم بهما ، أو أحرم بالعمرة أولاً فلما فرغ منها أحرم بالحج ، أما قوله : ﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ﴾ أي فليذبح ما قدر عليه من الهدى ، وأقله شاة ، وله أن يذبح البقر ، لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر . وقال الأوزاعي (عن أبي هريرة : ٢٤٦ [أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعاً] . وفي الصحيحين عن عمران بن حصين قال : ٢٤٧ [نزلت آية المتعة في كتاب الله وفعلناها مع رسول الله ﷺ ، ثم لم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها ، حتى مات ؛ وقال رجل برأيه ما شاء] روى البخاري يقال إنه عمر ، وهذا الذي رواه البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول : إن تأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام يعني قوله تعالى : ﴿ وأنتموا الحج والعمرة لله ﴾ وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرماً^(٢) لها ، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين

(١) قلت : يعني فدية حلق الرأس قبل بلوغ الهدى محله لمن به أذى في رأسه وإيس له علاقة بالهدى .

(٢) قلت : سبحانه من حصر العصمة بأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام . فأمر صلى الله عليه وسلم الصحابة جميعاً أن يفسخوا حجهم إلى عمرة ولما تلكأوا غضب ودخل على عائشة غاضباً فقالت أغضب الله من أغضبك وقد سأله أحد الصحابة قال هل دخلت العمرة في الحج لهذا العام ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ٢٤٢ (بل إلى أبد الأبد إلى أبد الأبد) وشبك بين أصابعه وقال عليه الصلاة والسلام : ٢٤٣ (لو استقبلت من أمري ما استدبرت ١١ =

ومعتمرين : كما قد صرح به رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾ أي فمن لم يجد هدياً فصيام ثلاثة أيام في الحج أي في أيام المناسك . قال العلماء : والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر ، أما صيامها في أيام التشريق فيه قولان للعلماء : أنه يجوز لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخاري : ٢٤٨ [لم يُرَخَّصْ في أيام التشريق أن يُصَمَّنَ إلا لمن لا يجد الهدي .] وعن علي أنه كان يقول : من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج ، صامهن أيام التشريق وقال ذلك أيضاً عكرمة والحسن وعروة بن الزبير وإنما قالوا ذلك لعموم قوله ﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج ﴾ وهذا قول الشافعي في القديم والجديد من مذهبه أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه مسلم عن قتيبة الهذلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٤٩ [أيام التشريق أيام أكل وشرب ، وذكرُ الله عز وجل] وقوله تعالى : ﴿ وسبعة إذا رجعتم ﴾ أي رجعتم إلى الوطن والأهل لقوله : ﷺ (١) في بعض حديث للبخاري عن ابن عمر ٢٥٠ [... فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله] أخرجاه . وقوله تعالى : ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ تأكيد لقوله : ثلاثة وسبعة أي كاملة والأمر بإكمالها وإتمامها .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ أجمع أهل التأويل أن أهل الحرم معنيون به ، وأنه لا متعة لهم . وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول : يا أهل مكة ، لا متعة لكم ، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم

= سقت الهدي وبلغتها عمرة) كل هذا يدل على أن التمتع بالعمرة باق إلى الأبد ، ولكن ... رحم الله عمر وغفر له ورضي عنه وأرضاه على أن قول عمر رضي الله عنه بمنعه التمتع بالعمرة قد حرقه الرفضة إلى أبعد حد ... وهم يعلمون أنهم لكاذبون ... وذلك أنهم يقولون أن المتعة كانت على زمن الرسول وخلافة أبي بكر وما حرمها إلا عمر مستغلين التشابه اللفظي بين التمتع بالعمرة إلى الحج وبين ما يروون إليه من حل المتعة أي الزواج الموقت الذي حرمه الرسول صلى الله عليه وسلم مرة في خير ثم أحله في فتح مكة ثم حرمه في مكة نفسها وفي نفس الوقت وأعني في أثناء وجوده في مكة فقال : ٢٥١ : (أيها الناس إني كنت قد أذنت لكم في الاستمتاع بالنساء وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة) رواه مسلم عن سبرة الجهني ج ٤ ص ١٣٢ وفي صحيح مسلم عن سبرة الجهني قال : ٢٥٢ (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً بين الركن والباب) وهو يقول بنحوه . وفي مسلم ج ٤ ص ١٣٣ عن سبرة الجهني قال : ٢٥٣ (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها .) فتأمل يا أخي المسلم ما يحرقه الرفضة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يستغلون من تشابه الألفاظ وهم يعلمون أنهم لكاذبون هدام الله سواء السبيل .

(١) هذا الحديث عام ويخصه الحديثان أعلاه أو الخبران : (لم يرخص ...) و (من فاته صيام ...)

واديًا ، أو قال يجعل بينه وبين الحرم واديًا ثم يهل بعمرة ، وعن طاووس قال : المتعة للناس لا لأهل مكة من لم يكن اهله من الحرم .

وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم ونهاكم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره .

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾

اختلف أهل العربية في قوله تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ قال بعضهم : تقديره الحج أشهر معلومات فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها وإن كان ذاك صحيحاً ، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة ، مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم ... واحتج لهم بقوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ وبأنه أحد النسكين ، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة . وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره ، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به وهذا القول مروى عن ابن عباس وجابر وبه يقول عطاء وداوود ومجاهد رحمهم الله والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ فلا يصح قبلها كمواقات الصلاة ، وروى الشافعي رحمه الله عن ابن عباس أنه قال : لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج من أجل قوله تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ ورواه ابن مردويه في تفسيره عن ابن عباس : ٢٥٤ [من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج] . وروى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس قال : ٢٥٥ [لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج] . وهذا اسناد صحيح . وقول الصحابي : من السنة كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين ، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه . وقد ورد فيه حديث مرفوع رواه ابن مردويه بسنده عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال : ٢٥٦ [لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج] وإسناده لا بأس به . ولكن رواه الشافعي من طرق إلى جابر بن عبد الله سئل ٢٥٧ [أبهل بالحج قبل أشهر الحج فقال : لا] وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع ، ويبقى - سيند

١٦٠ (٢ - البقرة - ج ٢) المتأخر أفضل ، والمتعجل لا إثم عليه تحريم الرفث والفسوق والجدال في الحج

مذهب صحابي يتقوَّى بقول ابن عباس [من السنة أن لا يُحرم بالحج إلا في أشهره] والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ أشهر معلومات ﴾ روى البخاري : عن ابن عمر : ٢٥٨ [هي شوال وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة] وهذا الذي علقه البخاري بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولاً إلى ابن عمر بنحوه وإسناده صحيح وقد رواه الحاكم أيضاً وقال على شرط الشيخين . (قلت) وهو مروي عن جمع من الصحابة والتابعين وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم ، وقال ابن جرير : (وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب ، كما تقول العرب : رأيت العام ورأيت اليوم وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم ...

كقوله تعالى : ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ﴾ وإنما تعجل في يوم ونصف يوم) وقوله تعالى : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ قال ابن جرير أجمعوا على أن المراد من الفرض ها هنا الإيجاب والإزام . أي أوجب باحرامه حجاً وقال عطاء : الفرض : الإحرام وكذا قال غيره وعن ابن عباس أنه قال : فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض ﴿ فلا رفث ولا فسوق ﴾ قال عطاء : الرفث : الجماع وما دونه من قول الفحش . ﴿ ولا فسوق ﴾ أي إتيان المعاصي في الحرم والسباب وثبت في الصحيح : ٢٥٩ [سباب المسلم فسوق وقتاله كفر] والفسوق جميع المعاصي وفي الصحيحين عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٠ [من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه]

وقوله تعالى ﴿ ولا جدال في الحج ﴾ أي قطع النزاع في مناسك الحج وإتيانها ... وقد بينها الله آتم بيان ، ووضحها أكمل إيضاح ، وقد كان يقع جدل بين قريش وبقية العرب فقريش كانت تقف عند المشعر الحرام بمزدلفة ، وبقية العرب كانت تقف بعرفة فكانوا يتجادلون وكل يدعي أن حجه وموقفه موقف وحج إبراهيم وقد قطع الله النزاع في ذلك وبين المناسك جميعاً وحرم الجدال فيها وفي وقتها . وقيل أيضاً أن الجدال ها هنا المخاصمة والمراء والسباب والخصومات والغضب . إلا أن تستحب بما ذكرناه من غير أن تضربه (قلت) ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً : والدليل أن أبا بكر ضرب غلامه لأنه أضل بعيره الذي عليه الزاد والماء فكان رسول الله ﷺ ينظر إلى فعل أبي بكر ويتسم ويقول : ٢٦١ [انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع] كهينة الإنكار اللطيف . إن الأولى ترك ذلك والله أعلم .

فمن رواية أحمد مختصراً . وقال أحمد عن جابر : ٢٦٢ [من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفرله ما تقدم من ذنبه] . وقوله تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً أو فعلاً حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ فقد أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون ، فأنزل الله تعالى ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا ... كالدقيق والسويق والكعك . وعن مجاهد : أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجودة وقوله تعالى : ﴿ فإن خير الزاد التقوى ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا ، أرشدهم إلى زاد الآخرة ، وهو استصحاب التقوى إليها كما قال سبحانه ﴿ وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ﴾ وهو الخشوع والطاعة والتقوى يعني زاد الآخرة وقال مقاتل بن حيان لما نزلت هذه الآية ﴿ وتزودوا ﴾ قام رجل من فقراء المسلمين فقال : يا رسول الله ما نجد ما نتزوده فقال رسول الله ﷺ : ٢٦٣ [تزود ما تكف به وجهك عن الناس وخير ما تزودتم التقوى] رواه ابن حاتم . وقوله تعالى : ﴿ واتقوا يا أولي الأبواب ﴾ بقول : واتقوا عذابي ونكالي . وعذابي لمن خالفني ، ولم يأمر بأمري ، يا ذوي العقول ، والأفهام .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴾ (١٩٨)

قال البخاري عن ابن عباس : كانت عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز ، أسواقاً في الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا في الموسم ، فنزلت ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ في مواسم الحج . وروى أحمد عن أبي أمامة التيمي قال : قلت لابن عمر : إنا نكري فهل لنا من حج ، قال : أليس تطوفون بالبيت ، وتأتون المعروف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رؤوسكم قال : قلنا : بلى فقال ابن عمر : ٢٦٤ [جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾] . روى ابن جرير بسنده عن أبي صالح مولى عمر ، قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، كنتم تتجرون في الحج ؟ قال : وهل كانت معاشهم إلا في الحج ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ عرفة موضع الوقوف في الحج ، وهي عمدة أفعال الحج ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يعمر الدبلي ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢٦٥ [الحج عرفات - ثلاثا - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه] ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر ، لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : ٢٦٦ [لتأخذوا عني مناسككم] وقال في هذا الحديث ٢٦٧ [فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك] وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله ، وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة مستندين في ذلك إلى حديث حارثة بن لام الطائي قال : ٢٦٨ [أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت : يا رسول الله إني جئت من جبل طيء ، أكللت راحتي ، وأنعت نفسي والله ما تركت من جبل إلا وقف عليه ، فهل لي من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفته]

وتسمى عرفات : المشعر الحرام ، والمشعر الأقصى . وإلال على وزن هلال ، ويقال للجبل في وسطها : جبل الرحمة .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال : ٢٦٩ [كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة ، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا ، فأخّر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس] ورواه ابن مردويه من حديث زمعة بن صالح وزاد : ٢٧٠ [ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس ، حتى إذا أسفر كل شيء ، وكان في الوقت الآخر ، دفع] وهذا أحسن الإسناد .

قال أبو إسحق السبيعي عن عمر بن ميمون سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام ، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال : أين السائل عن المشعر الحرام ؟ هذا المشعر الحرام .

وفي حديث جابر بن عبد الله الطويل الذي في صحيح مسلم ، قال فيه : ٢٧١ [فلم يزل واقفاً - يعني بعرفة - حتى غربت الشمس وبدت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلة ، ودفع رسول الله ﷺ وقد شقق للقصواء الزمام حتى أن رأسها

(٢ - البقرة - ج ٢) : الدفع من مزدلفة بعد الإسفار الشديد، والشكر على نعمة الهداية ١٦٣

ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس : السكينة السكينة . كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يستبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ، فدعا الله وكبره وهله ووحده فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، فدفع قبل أن تطلع الشمس [وعن ابن عمر : (المشعر الحرام المزدلفة كلها) .

(قلت) والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام ، لأنها دخل الحرم . وقوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية لإبراهيم الخليل عليه السلام ؛ ولهذا قال ﴿ وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ قيل من قبل هذا الهدى وقبل القرآن وقبل الرسول ، والكل متقارب ومتلازم وصحيح .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٩٩)

﴿ ثم ﴾ - ها هنا - لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه ، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليدكر الله عند المشعر الحرام . وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كان الجمهور يصنعون ، يقفون بها إلا قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحيل ، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته .

روى البخاري بسنده عن عائشة ، قالت : ٢٧٢ [كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون / الحُمس / وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها ثم يفيض منها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ من حيث أفاض الناس ﴾] وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وغيرهم ... واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع .

وروى الإمام أحمد بسنده إلى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : ٢٧٣ [أضللت بعيراً لي بعرفة فذهبت أطلبه ، فإذا النبي ﷺ واقف] قلت : ٢٧٤ [إن هذا من الحمس ما

شأنه ها هنا ؟] أخرجاه في الصحيحين ثم رواه البخاري عن ابن عباس : ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار وعن مزاحم قال : والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام . قال ابن جرير : ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح .

وقوله تعالى : ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم : ٢٧٥ [أن رسول الله ﷺ ، كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً .] وفي الصحيحين : ٢٧٦ [انه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين] وروى البخاري عن شداد بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ [سيد الإستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة ، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة] وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمر أن أبا بكر قال : ٢٧٨ [يا رسول الله علّمني دعاءً أدعوه به في صلاتي فقال : قل : « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فأغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم »] والأحاديث في الاستغفار كثيرة .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٢٠٢)

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وبراغها ، وقوله تعالى : ﴿ كَذْكُرِكُمْ ﴾ روى عن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله على محمد ﷺ : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذْكُرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ فعن أنس وجمع غيره من التابعين نحوه . وحكاه ابن جرير عن جماعة والله أعلم . و﴿ أَوْ ﴾ ههنا لتحقيق

المماثلة في الخبر كقوله تعالى : ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ وقوله ﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ فليست ههنا للشك قطعاً ، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه ؛ ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة . وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال : ﴿ومن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق﴾ أى من نصيب ولا حظ ، مثل أن يقول : اللهم اجعله عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم : ﴿فمن الناس...﴾ الآية وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون : ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ فأنزل الله : ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ ولهذا مدح من يسأله الدنيا والآخرة فقال : ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر ، فإن الحسنة تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ودار ، وزوجة ، ورزق ، وعلم نافع وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل ، فكل ذلك مندرج في الحسنة في الدنيا ؛ وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفرع الأكبر ، وتيسير الحساب وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام . وقال القاسم أبو عبد الرحمن : من أعطي قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وجسداً صابراً فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووُقي عذاب النار ولهذا وردت السنة بالترغيب بهذا الدعاء .

روى الإمام أحمد عن أنس : ٢٧٩ [إن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ : هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه ؟ قال : نعم . كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال رسول الله ﷺ : سبحان الله لا تطيقه أولاً تستطيعه ، فهلاً قلت : ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ قال فدعا الله فشفاه] انفرد به مسلم .

روى الإمام الشافعي بسنده عن عبد الله بن السائب : ٢٨٠ [أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركنين - ركن بني جمح والركن الأسود : ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾] روى ابن مردويه بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٨١ [ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول : آمين فإذا مررت عليه فقولوا : ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾]

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٠٣)



قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق ، والأيام المعلومات أيام العشر . وقال عكرمة ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ يعني التكبير ، في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر وقال الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٨٢ [يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق ، عيدنا أهل الإسلام ، وهي أيام أكل وشرب] روى ابن جرير : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن حذافة يظوف في منى : ٢٨٣ [لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل .]

وفي رواية للزهري : ٢٨٤ [إلا من كان عليه صوم من هدي] وهذه زيادة حسنة ولكن مرسله وعن عائشة قالت : ٢٨٥ [نبى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق وهي أيام أكل وشرب وذكر الله] وعن ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام : يوم النحر ، وثلاثة بعده وعليها دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال تعالى : ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر ، ويتعلق بقوله ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ ذكر الله على الأضاحي . ويتعلق به الذكر المؤقت خلف الصلوات والمطلق في سائر الأحوال . وأشهر الأقوال للعلماء : ما عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق وهو آخر النفر الآخر . ويتعلق بذلك التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق . وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره : ٢٨٦ [إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار ، لإقامة ذكر الله عز وجل .] ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف ، قال : ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ كما قال : ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ
 اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ﴾ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ
 لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۖ﴾ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ
 لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ۖ﴾ (٢٠٦) وَمِنَ
 النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ۖ﴾ (٢٠٧)

وعن ابن عباس أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا
 بالرجيع وعابوهم ، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه : ﴿ومن الناس من
 يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ وقيل بل ذلك عام في المنافقين كلهم ، وفي المؤمنين كلهم
 وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد ، وهو الصحيح . وقال ابن جرير
 بسنده إلى نوف وهو البكالي - وكان ممن يقرأ الكتب ، قال : إني لأجد صفة ناس من
 هذه الأمة في كتاب الله المنزل : (قوم يحतालون على الدنيا بالدين ، أَلَسْتُمْ أَحْلَى مِنَ
 الْعَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ ، يلبسون للناس مسوك الضأن ؛ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذَّنَابِ ،
 يقول تعالى : فعليَّ يجترئون وبني يغترون ، حلفت بنفسي لأبعثنَّ عليهم فتنة ترك الحليم
 فيها حيران . قال القرطبي : تدبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون فوجدتها ﴿ومن الناس من
 يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه﴾ الآية ... قال سعيد بن هلال : وقد
 عرفت فيمن نزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب : إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون
 عامة فيما بعد . وهذا الذي قاله القرطبي حسن صحيح . وأما قوله : ﴿ويشهد الله على ما
 في قلبه﴾ فقرأه ابن محيصن بفتح الياء وضم الجلالة «يَشْهَدُ» ومعناها : أن هذا وإن أظهر
 لكم الحيل لكن الله يعلم ما في قلبه من القبيح كقوله تعالى : ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا
 نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ وقرأه
 الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة ﴿ويُشْهِدُ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز
 الله بما في قلبه من الكفر والفاق كقوله تعالى : ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من
 الله﴾ الآية ... وقيل : معناه أنه يقسم بالله ويشهد على أن ما في قلبه موافق لسانه . وهذا
 صحيح .

وقوله تعالى : ﴿وهو ألدُّ الخِصَامِ﴾ الألد في اللغة الأعوج ﴿وتنذر به قوماً لدآ﴾

أي عوجاً ، وهكذا في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه بل يفترى ويفجر كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ انه قال : ٢٨٧ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر] روى البخاري عن عائشة ترفعة : ٢٨٨ [إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم] . وقوله تعالى :

﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ أي هو أعوج المقال سعيه الفعال . والسعي - ها هنا - هو القصد كما قال إخباراً عن فرعون : ﴿ ثم أدبر يسعى ... ﴾ وقال : ﴿ ... فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة ، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهى عنه بالسنة النبوية : ٢٨٩ [إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة والوقار] فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث : وهو محل نماء الزروع والثمار . والنسل : وهو نتاج الحيوانات ، اللذين لا قوام للناس إلا بهما . وقال مجاهد : إذا سعى في الأرض لإفساداً ، منع الله القطر فهلك الحرث والنسل . ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أي لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك .

وقوله ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر وقيل له : أنزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق ؛ امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم كقوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ... ﴾ الآية ... ولهذا قال في هذه الآية ﴿ فحسبه جهنم ولبس المهاد ﴾ أي كافية عقوبة في ذلك .

وقوله ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ، ذكر صفات المؤمنين الحميدة . قال ابن عباس وجمع من التابعين : نزلت في صهيب بن سنان الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل ، فخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية ، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع ، فقال : وأنتم فلا أحسر الله تجارتكم . وما ذلك ؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية ... روى ابن مردويه عن عثمان النهدي عن صهيب ، قال : ٢٩٠ [لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش : يا صهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك ؟ والله لا يكون هذا أبداً ... فقلت لهم : أرأيتم إن دفعت إليكم مالي ، تخلّون عني ؟ قالوا نعم . فدفعت إليهم مالي ، فخلّوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال ﴿ ربح صهيب ، ربح صهيب ، مرتين ﴾] أما الأكرهون فحملوا ذلك على

أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ... ﴾ الآية .

ولما حمل هشام بن عامر بين الصفيين أنكر عليه بعض الناس ، فردَّ عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلوا هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (٢٠٩) ﴿

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين به ، المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك .

وعن ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ أي ادخلوا في الإسلام وأطيعوا أوامره جميعاً ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي اجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ و ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ولهذا قال ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ قال مطرف : أغشَّ عباد الله لعبيد الله الشيطان وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَكُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج ﴿ فاعلموا ان الله عزيز ﴾ أي في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب ، ﴿ حكيم ﴾ في أحكامه ونقضه وإبرامه .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (٢١٠) ﴿

يهدد الله الكافرين : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ﴾ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير . وإن شراً فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ كما قال

تعالى : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ وقد ذكر ابن جرير - ها هنا - حديث الصور بطوله من أوله عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم ، وفيه : ٢٩١ [... إن الناس إذا اهتموا المواقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ فإذا جاءوا إليه قال : أنا لها أنا لها ... فيذهب فيسجد لله تحت العرش ، ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد ، فيشفعه الله ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ثم الثالثة ، إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون ، قال : وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة ، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميئ الخلائق ولا يموت ، سيّوح قدّوس رب الملائكة والروح ، سيّوح قدّوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذي السلطان والعظمة ، سبحانه سبحانه أبداً أبداً .]

﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ (٢١١) زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ (٢١٢) ﴾

يخبر تعالى عن بني إسرائيل : كم شاهدوا مع موسى من آية بيّنة أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به كيداً وعصاه وقلقه البحر ، وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، ومن إنزال المن والسلوى ، وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار ، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه ، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها وبدّلوا نعمة الله كفرّاً ، أي استبدلوا بها ، الكفر والإعراض عنها ﴿ ومن يبدّل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش : ﴿ ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرّاً وأحلّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها ،

واطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يرضي الله عنهم وسخروا من الذين آمنوا ، الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم وبذلوه ابتغاء وجه الله فلهذا فازوا يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسراهم ومأواهم فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين ، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء لا تعداد له في الدنيا والآخرة . وقال النبي ﷺ : ٢٩٢ [أنفق بلائاً ولا تحش من ذي العرش إقلالا] وقال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ وفي الصحيح : ٢٩٣ [إن ملكين يترلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما اللهم اعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم اعط ممسكاً تلفاً] وفي الصحيح ٢٩٤ [يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، وما لبست فأبليت ، وما تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فذهب وتاركة للناس]

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢١٣ ﴾

روى جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ... فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وقيل أقوال أخرى والصحيح قول ابن عباس وهو أصح سنداً ومعنى لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله اليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض : ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ روى عبد الرزاق

عن أبي هريرة في قوله ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ الآية... قال قال النبي ﷺ : ٢٩٥ [نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع فعداً لليهود وبعد غد للنصارى] وقال الربيع بن أنس في تفسير هذه الآية : فهدى الله الذين آمنوا ... أي كان الذين آمنوا من هذه الأمة على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ، أقاموا على الأخلاص لله عز وجل وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ... إن رسلهم قد بلغوهم وإنهم قد كذبوا الرسل . وكان أبو العالية يقول في هذه الآية : المخرج من الشبهات والضلالات والفتن . وقوله : ﴿بإذنه﴾ أي بعلمه بهم وبما هداهم له قاله ابن جرير ﴿والله يهدي من يشاء﴾ أي من خلقه ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . وفي الصحيحين عن عائشة : أن رسول الله ﷺ ، كان إذا قام من الليل يصلي يقول ٢٩٦ [اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، إهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم] .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤) ﴿

يقول تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنة﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا كما فعل بالذين من قبلكم. ولهذا قال : ﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البئساء والضراء﴾ وهي الأمراض والنوائب . قال ابن مسعود وابن عباس وجمع من التابعين ﴿البئساء﴾ الفقر و ﴿الضراء﴾ السقم و ﴿زلزلوا﴾ أي خوَّفوا من الأعداء ، وامتحنوا امتحاناً عظيماً ؛ كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الارت قال : ٢٩٧ [قلنا : يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه ، ثم قال : والله لِيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى

يسيرُ الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون [وقوله تعالى : ﴿ مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ أي سنتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ أي يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة ، قال الله تعالى : ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ وكما تكون الشدة يتزل من النصر مثلها . وفي الحديث : ٢٩٨ [عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثه ، فينظر صبيحتهم قنطين ، فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب ...] الحديث

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقَرِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ٢١٥ ﴾

يسألونك كيف ينفقون فبين لهم تعالى ذلك، أي إصرفوها في هذه الوجوه كما جاء في الحديث : ٢٩٩ [... أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك] وتلا ميمون هذه الآية ثم قال : هذه مواضع النفقة ، ما ذكر فيها طبعاً ولا مزماراً ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان . ثم قال تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أي مهما صدر منكم من فعل معروف فالله يعلمه وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢١٦ ﴾

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد غزاً أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استعين أن يُعين ، وإذا استُفِر أن ينفر وإن لم يُحتج إليه قعد . (قلت) ولهذا ثبت في الصحيح : ٣٠٠ [من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات ميتة جاهلية] وقال عليه السلام

يوم الفتح ٣٠١ [لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيةٌ وإذا استنفرتم فانفروا .] وقوله : ﴿ وهو كره لكم ﴾ أي شديد عليكم ثم قال تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذرائعهم . ﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم ثم قال تعالى : ﴿ والله يعلم وانتم لا تعلمون ﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في الدارين فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . (٢١٨) ﴾

روى ابن أبي حاتم بسنده عن جندب بن عبد الله ٣٠٢ [ان رسول الله بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة ابن الجراح ، فلما ذهب ينطلق بكى صابغة إلى رسول الله ﷺ فحبسه ، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش وكتب له كتاباً (وأمره ان لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال لا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك ...]

وفي رواية ابن مسعود ٣٠٣ [أنهم كانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي ، وفيهم عمار بن ياسر وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان السلمي حليف لبني نوفل ، وسهيل بن بيضاء ، وعامر بن فهيرة ، وواقد بن عبد الله البربوعي حليف لعمر بن الخطاب وإن رسول الله ﷺ كتب لأبن جحش كتاباً وأمره ان لا يقرأه حتى ينزل ببطن نخلة فلما نزل بطن نخلة فتح الكتاب ، فإذا فيه : أن سير حَتَّى

تنزل بطن نخلة ، فقال لأصحابه : من كان منكم يريد الموت فليمض وليؤص فلاني موص وماهي لأمر رسول الله ﷺ ،

روى عبد الملك بن هشام راوي السيرة عن محمد بن اسحق ... ٣٠٤ [فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه « إذا نظرت في كتابي في هذا .. فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم] فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب قال : سمعاً وطاعة ثم قال لأصحابه قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمض إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتية منهم بخبر وقد نهاني أن استكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا ، فماض لأمر رسول الله ﷺ . فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد . فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له نجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقبانه ، فتخلفا عليه في طلبه . ومضى عبدالله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة . فمرت به عير لقريش تحمل زيتاً وأدماً وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبدالله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبدالله المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة فلما رأهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريباً منهم ... وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب ^(١) فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، فليمتنعن منكم ، ولئن قتلتموهم لقتلنهم في الشهر الحرام ، فردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذوا معهم . فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبدالله فأعجزهم ، وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعين والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة . قال ابن اسحق : ... فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » فوقف العير ، والأسيرين وأبي أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ ، أسقط في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ... فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدء عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة

(١) وفي رواية جندب بن عبدالله ، : لم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادي ...

أكبر من القتل ﴿ أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدّوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴾ أكبر عند الله ﴿ من قتل من قتلتم منهم ﴾ والفتنة أكبر من القتل ﴿ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴾ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴿ أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه ، غير ثابّين ولا نازعين . قال ابن اسحق : فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة ، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم ابن كيسان ، فقال رسول الله ﷺ : لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا يعني سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان فلما نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما تقتل صاحبكم فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول الله ﷺ منهم ؛ فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً ؛ وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً قال ابن اسحق : فلما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا : يا رسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم . ﴾ [وقال عبد الله بن جحش في تلك الغزوة أبياتاً يردُّ فيها على قريش لما قالت : قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم وأخذوا المال وأسروا الرجال :

تعدّون قتلاً في الحرام عظيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشداً
صلودكم عما يقول محمد	وكفر به والله راء وشاهداً
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لئلا يرى الله في البيت ساجداً
فلما وإن غيرتمونا بقتله ...	وأرجف بالإسلام باغ وحاسداً
سقيناً من ابن الحضرمي رماحنا	بنخلة لما أوقد الحرب وأقداً
دماً وابن عبد الله عثمان بيننا	ينازعه غل من القيد عائداً



يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوَةُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * (٢١٩) فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةُ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ • (٢٢٠) ﴿٢٢٠﴾

قوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أما الخمر ، فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) : إنه كلُّ ما خامر العقل . كما سيأتي بيانه في سورة المائدة وكذا الميسر وهو القمار . وقوله : ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أما إثمهما فهو في الدين وأما المنافع فدنوية كبيعها والانتفاع بشمنها ، وما كان ينتفعه بعضهم في الميسر فينفقه على نفسه وعياله ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَا تُحِبُّهُمَا كَبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ ولهذا كانت هذه الآية مهيأة لتحريم الخمر على البنات ، ولم تكن مصرّحة بل معرّضة ، ولهذا قال عمر بن الخطاب (رض) لما قرئت عليه : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ . إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وسيأتي الكلام في ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى وبه الثمة ٣٠٥ : [وكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران] .

وقوله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ قال ابن أبي حاتم عن يحيى أنه بلغه أن معاذ بن جبل وثعلبة ، أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله إن لنا أرقاء وأهلين فما ننفق من أموالنا ؟ فأنزل الله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾

وقوله : ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ أي ما يفضل عن أهلك قاله ابن عباس وابن عمر وجماعة من التابعين وقال عبد بن حميد في تفسيره عن الحسن في الآية : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾

قال : ذلك ألا يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس ، ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير عن أبي هريرة قال ٣٠٦ : [قال رجل : يا رسول الله ، عندي دينار قال : أنفقه على نفسك قال : عندي آخر قال : أنفقه على أهلك قال عندي آخر قال أنفقه على ولدك قال :

عندي آخر قال : فأنت أبصر . [ورواه مسلم في صحيحه . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٣٠٧ : [خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وأبدأ بمن تعول] .

وقوله : ﴿ كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ﴾ أي كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده ، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة . قال ابن عباس يعني في زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائها وفي رواية عن قتادة : فأثروا الآخرة على الأولى .

وقوله : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل لإصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعتكم ﴾ الآية .

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ وإن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ إنطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل لإصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم وهكذا رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم من طرق عن عطاء بن السائب به وكذا رواه السدي عن ابن عباس وابن مسعود بمثله . وروى وكيع بن الجراح بسنده عن عائشة (رض) : إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة حتى أخاط طعامه بطعامي وشرابه بشاربي فقله : ﴿ قل لإصلاح لهم خير ﴾ أي على حدة ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم . وقوله : ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ أي يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح . وقوله : ﴿ ولو شاء الله لأعتكم ﴾ إن الله عزيز حكيم ﴿ أي ولو شاء لضيق عليكم ، ولكنه وسع عليكم وخفف عنكم بمخالطتهم . وسبأني في سورة النساء تفصيل معاملته اليتيم إن شاء الله وبه الثقة .

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا مُمْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا أُعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا أُعْجَبُكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ (٢٢١) ﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين ، أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان وقد خص الله من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله : ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ﴾ قال ابن عباس استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب . قال عمر بن الخطاب : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة ، وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ٣٠٨ [يتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا] إن هذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه فالقول به لإجماع الجميع من الأمة عليه . وقوله : ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ قال السدي ٣٠٩ : [نزلت في عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها ، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهما فقال له : « ما هي ؟ » قال تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . فقال : « يا أبا عبد الله هذه مؤمنة » فقال والذي بعثك بالحق لأعتقها ولأتزوجنها ، ففعل ، فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا : نكح أمته وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبةً في أحسابهم فأنزل الله هذه الآية] . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : ٣١٠ [تنكح المرأة لأربع : لأمها ولحسبها ولجملها ولدينها فافطر بذات الدين تربت يداك] . .

ولمسلم عن جابر مثله . وله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ٣١١ [الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات ، كما قال تعالى : ﴿ لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلونّ لهنّ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ أي ولرجل مؤمن ولو كان عبداً حبشياً خير من مشرك وإن كان رئيساً سرياً ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم ، تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة وعاقبة ذلك وخيمة ﴿ والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾ أي بشره وما أمر به وما نهى عنه ﴿ ويبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ

أَمَرَكَمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . (٢٢٣) ﴿٢٢٣﴾

روى الإمام أحمد عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت (١) فسأل أصحاب النبي ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن المحيض ... ﴾ حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ ٣١٢ [« اصنعوا كل شيء إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر ، فقالا : يا رسول الله : ان اليهود قالت : كذا وكذا ، أفلا نجامعن فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا ان قد وجد عليهما ، فخرجنا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل في آثارهما فسقاها فعرفا أنه لم يجد عليهما [رواه مسلم .

وروى أبو داود بسنده عن عكرمة عن بعض أزواج النبي ﷺ : ٣١٣ [كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً] فقلوه : ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ يعني الفرج لقوله : [« اصنعوا كل شيء إلا النكاح »] ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج . (قلت) : ويحل مضاجعتها ومؤاكلتها بلا خلاف . قالت عائشة : ٣١٤ [كان يأمرني رسول الله ﷺ فأغسل رأسه وأنا حائض ، وكان يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن .] وفي الصحيح عنها قالت : ٣١٥ [كنت اتعرق العرق (٢) وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ ، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه ، واشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت اشرب منه] ومن يطأ في الحيض فقد أثم ويستغفر الله ويتوب إليه . وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا...؟ فيه قولان : أحدهما : نعم لما رواه أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ٣١٦ [في الذي يأتي أمراته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار] . وفي لفظ الترمذي : ٣١٧ [إذا كان دماً أحمر فدينار ، وإن كان دماً أصفر فنصف دينار] والقول الثاني : وهو الصحيح الجليل من مذهب الشافعي وقول الجمهور أنه لا شيء في ذلك بل يستغفر الله عز وجل لأنه

(١) المراد بالمجامة - هنا - الاجتماع بهن ، لا الوقاع -

(٢) عرق اللحم ، وتعرقه واعرقة : تناوله بفمه من المظم

لم يصح عندهم رفع الحديث وهناك من يرى - فيما يتعلق بالحائض - انما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الأزار كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت : ٣١٨ [كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فأتزرت وهي حائض] وهذا لفظ البخاري ولهما عن عائشة نحوه فقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ تفسير لقوله : ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ ونهي عن قربهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً ومفهومه : حله إذا انقطع . وقال الإمام أحمد فيما أملاه في الطاعة : وقوله : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث ... ﴾ الآية الطهر يدل على أن يقربها ، فلما قالت ميمونة وعائشة : ٣١٩ [كانت إحدانا إذا حاضت أتزرت ودخلت مع رسول الله ﷺ في شعاره] دل ذلك على أنه إنما أراد الجماع .

وقوله : ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال . وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك بشروطه إلا أبو حنيفة رحمه الله يقول إنها تحل فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده ولا تفتقر إلى غسل والله أعلم .

قال ابن عباس : ﴿ حتى يطهرن ﴾ أي من الدم ﴿ فإذا تطهرن ﴾ أي بالماء وكذا قاله جماعة من التابعين .

وقوله : ﴿ من حيث أمركم الله ﴾ قال ابن عباس يعني الفرج ولا تعدوه الى غيره فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى . وفيه دلالة على تحريم الوطء في الدبر كما سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى . وقوله : ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ أي من الذنب وإن تكرر غشيانه ﴿ ويجب المنتهرين ﴾ أي المنتهزين عن الأقدار والأذى وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض في غير المأني .

وقوله ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ الحرث موضع الولد ﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمائم واحد كما ثبتت بذلك الأحاديث . وروى البخاري عن جابر قال : ٣٢٠ [كانت اليهود تقول : اذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول ، فترلت : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾] ورواه مسلم وأبو داود . روى ابن أبي حاتم عن جابر : ٣٢١ [إن اليهود قالوا للمسلمين : من أتى امرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول فانزل الله : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾] قال ابن جريج في

الحديث : فقال رسول الله ﷺ : ٣٢٢ [مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج] . وهناك أحاديث كثيرة تبين كيفية المباشرة على أن تكون من صمام واحد وهو الفرج . وقد ورد النهي عن إتيان النساء في أدبارهن .

وروي عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده ان النبي ﷺ قال : ٣٢٣ [الذي يأتي امرأة في دبرها هي اللوطية الصغرى .] وروى الإمام أحمد بسنده عن علي بن طلق قال : ٣٢٤ [نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن ، فإن الله لا يستحي من الحق .] وروى أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٣٢٥ [ان الذي يأتي أمرأته في دبرها لا ينظر الله اليه .] وروى أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ انه قال : ٣٢٦ [ملعون من أتى أمرأته في دبرها .] وكل ما أتى من الإخبار في إباحة ذلك فهي أخبار غير صحيحة وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في جزء جمعه في ذلك وكلها ضعيفة واهية وقد روي عن ابن عمر ومالك والشافعي والطحاوي أنه حلال ولكن كل ذلك لا يصح عنهم رضي الله عنهم قال النصر الصباغ : كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد كذب - يعني : ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه والله أعلم . وكذلك فإن ابن عمر رضي الله عنه أنه يحرمه : قال الدارمي في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال : قلت لأبن عمر : ما تقول في الجوارى أيمتضهن قال : وما التحميص ؟ فذكر الدبر فقال : وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين ؟ وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم . وروى معمر بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام . وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري بسنده إلى اسراييل بن روح سألت مالك بن أنس ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن ؟ قال : ما أنتم إلا قوم عرب ، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع ، لا تعدوا الفرج قلت يا أبا عبد الله ، أنهم يقولون أنك تقول ذلك . قال يكذبون عليّ يكذبون عليّ . فهذا هو الثابت عنه وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة . وقول التابعين وغيرهم من السلف ، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار ومنهم من يُطلقُ على فعله الكفر .

وقوله : ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ أي من فعل الطاعات مع أمثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ، ولهذا قال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي المطيعين لله فيما أمرهم ، التاركين ماعنه زجرهم وقال ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ قال : تقول باسم الله التسمية عند

الجماع وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً]

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

يقول تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعةً لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فالاستمرار على اليمين آثمٌ لصاحبها من الخروج منها بالتكفير ؛ وقال رسول الله ﷺ : ٣٢٨ [والله لأن يلعج أحدكم يمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه] وهكذا رواه مسلم وأحمد .

وقال ابن عباس في معنى هذه الآية : لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير وكذا قال جماعة من التابعين . ويؤيد ما قاله هؤلاء ما جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٢٩ [إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحملتھا] وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٠ [من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير] وقد وردت أحاديث أخرى ليس فيها كفارة والصحيح عنه ﷺ فيه ٣٣١ [فليكفر عن يمينه] وقوله : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادةً من غير تعقيد ولا تأكيد كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٢ [من حلف باللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله] فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية ، قد أسلموا وألستهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد فأمرؤ أن يتلفظوا بكلمة التوحيد حتى تكون هذه بهذه ^(١) روى أبو داود في باب اللغو في اليمين عن عائشة :

(١) قلت : وقوله : ... فليقل لا إله إلا الله دليل على أن الحلف بغير الله شرك ولو كان الأمر دون الشرك لما أمره بأن يقول : لا إله إلا الله إذ فيه معنى تجديد الإيمان ونفي العبادة عما سوى الله .

إن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٣ [اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته : كلا والله ، وبلى والله] روى ابن جرير عن الحسن بن أبي الحسن قال : ٣٣٤ [مر رسول الله ﷺ بقوم يتتصلون ، يعني يرمون ، ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه ، فقام رجل من القوم فقال : أصبت والله ، وأخطأت والله ، فقال الذي مع النبي ﷺ : حنث الرجل يا رسول الله ؛ قال كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة .] وهذا مرسل حسن عن الحسن .

روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : هو قوله : لا والله ، بلى والله وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك وقال ابن عباس لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة .

روى أبو داود «باب اليمين في الغضب» عن سعيد بن المسيب : أن أخوين من الإنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحبه القسمة ، فقال : إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك ، كفر عن يمينك وكلم أخاك ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٣٥ [لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل ولا في قطيعة الرحم ، ولا فيما لا تملك] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُوَآخِذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو أن يخلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب . قال مجاهد وغيره : وهي كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُوَآخِذْكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ ﴾ الآية . ﴿ والله غفور حلیم ﴾ أي غفور لعباده حلیم عليهم .

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْتُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* (٢٢٧) ﴿

الإيلاء : الحلف . فإذا حلف الرجل ان لا يجامع زوجته مدة ، فلا يخلو اما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها ، فإن كانت أقل ، فله ان ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبة بالفيتة - أي بالعودة إلى الجماع - في هذه المدة ؛ وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة ان رسول الله ﷺ ، آلى من نسائه شهراً ففترل لتسع وعشرين وقال ؛ ٣٣٦ [الشهر تسع وعشرون] فأما إن زادت المدة على

أربعة أشهر ، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر إما أن يفيء أي يجماع ، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا ، وهذا ثلاثاً يضر بها . ولهذا قال تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم ﴾ أي يحلفون على ترك الجماع من نسائهم ، فيه دلالة على أن الإيلاء يخص بالزوجات دون الإماء ﴿ تربص أربعة أشهر ﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ويطالب بالقيئة أو الطلاق ؛ ولهذا قال ﴿ فإن فاعوا ﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهو كناية عن الجماع قاله ابن عباس وجمع من التابعين . ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين ^(١) والذي عليه الجمهور أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف . كما تقدم في الأحاديث الصحاح والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر ، كقول الجمهور من المتأخرين ، وقيل يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر تطبيقاً واحدة ، وقيل تطليقة رجعية وقيل بائنة وكل من قال : إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة إلا ما روى عن ابن عباس وأبي الشعثاء : إنها إن كانت حاضت ثلاث حيضات فلا عدة عليها . والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف المولي فيطالب أما بهذا أي بالرجوع إلى جماعها ، أو بالطلاق ولا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر طلاق . وروى مالك عن ابن عمر قال : إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف فلما أن يطلق ولما أن يفني ، أخرجه البخاري . وهذا ما عليه أيضاً عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ وكثير من التابعين والفقهاء وكل هؤلاء قالوا إن لم يفني ألزم بالطلاق وإلا طلق عليه الحاكم والطلقة رجعية ، لها رجعتها في العدة .

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المولي بأربعة أشهر الأثر الذي رواه مالك بن أنس في الموطأ عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهُ
وَأَرْقَى أَنْ لَا خَلِيلَ أَلَا عِبُّهُ
فَوَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ أَنِي أَرَأَيْتُهُ
لَحُرَّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ

(١) قلت : فيه إلفات نظر لطيف من الباري عز وجل إلى أن الإيلاء فيه ذنب، وهو أن المولي حرم زوجته من حقها في الجماع تلك المدة، وذلك بدليل قوله : «فإن الله غفور رحيم» ولولا الذنب ما كانت المغفرة. وإن هذا الذنب هو التقصير بحق الزوجة بسبب اليمين كما فيه إلفات نظر إلى أن ترك الإيلاء أولى .

فسأل عمرا بنته حفصة رضي الله عنها : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها فقالت ستة أشهر أو أربعة أشهر فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك .

ورويت هذه الأبيات عن السائب بن جبير مولى ابن عباس أطول من الأولى :

تطاول هذا الليل وازورّ جانبُهُ	وأرقني أن لا ضجيجَ لأعبُهُ
الأعبهُ طوراً ، وطوراً كَأَتَمَّا	بدا قمرأ في ظلمة الليل حاجبُهُ
يُسْرُ به من كان يلهو بقرببُهُ	لطيفُ الحشا لا يحتويه أقاربُهُ
فوالله لولا الله لا شيء غـيرُهُ	لنقُصَّ من هذا السرير جوانبُهُ
ولكنني أخشى رقيباً موَكَّلًا	بأنفاسنا لا يفتر الدهرَ كاتبُهُ
مخافة ربّي والحياءُ يَصُدُّني	ولاكرامُ بعلي أن تُنالَ مراكبُهُ ^(١)

وقد روي هذا من طرق عديدة وهو من المشهورات .

وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

هذا أمر من الله تعالى للمطلقات ، المدخول بهن ، من ذوات الأتراء بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت . وقد اختلف في الأمة فمن قال : إذا طُلِّقت تعدد بقرأين لأنها على النصف من الحرية ، والقراء لا يتبعص فكمل لها قرآن لحديث : ٣٣٧ [طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان] ولكن لم يثبت هذا الحديث فقد قال الدارقطني أنه من كلام القاسم بن محمد ثم فيه مظاهر بن أسلم المخزومي المدني ضعيف بالكلية ومروي أيضاً من قول ابن عمر غير مرفوع ، وقالوا : لم يعرف بين الصحابة خلاف ، وهو مذهب الأئمة الأربعة . وقال بعض السلف : بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية ولأن هذا الأمر

جبَّلِي* ، فكان الحرائر والإماء في هذا سواء حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه .^(١)

وقد اختلف بين الساف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو ... ؟ على قولين : « أحدهما » أنها الأطهار . وعن عائشة : ... إنما الأقراء الأطهار ، وعن ابن عمر انه كان يقول : اذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرىء منها . وقال مالك : وهو الأمر عندنا وروي مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وجماعة من التابعين وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعي ، وداود وأبي ثور ورواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ أي الأطهار . ولا كان الطهر الذي يطلق فيه محتسباً ، دلّ على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ، ولهذا قال هؤلاء : إن المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة . (والقول الثاني) أن المراد بالأقراء ، الحيض ، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة . زاد الآخرون وتغتسل منها . فالقول ان الأقراء الحيض مروي عن أكابر الصحابة وفيهم الخلفاء الأربعة وكبار التابعين وهو مذهب أبي حنيفة وأصح الروايتين عن أحمد بن حنبل ، وهو مذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى وغيرهم ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي من طريق المنذر بن المغيرة عن عروة بن الزبير عن فاطمة بنت أبي حبيش ، أن رسول الله ﷺ قال لها : ٣٣٨ [دعي صلاتك أيام أقرائك] فهذا لو صحّ لكان صريحاً في أن القراء هو الحيض ولكن المنذر قال فيه أبو حاتم : مجهول ليس بمشهور وذكره ابن حبان في الثقات قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القراء يراد به الحيض ، ويراد به الطهر ، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين .

وقوله تعالى ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ أي من حبَل أو حيض وقوله تعالى : ﴿ إن كنّ يؤمنن بالله واليوم الآخر ﴾ تهديد لهن على مخالفة الحق ، ودل على أن هذا يرجع إليهن لأنه أمر لا يُعلم إلا من جهتهن ، ويتعذر إقامة البيّنة غالباً على ذلك ، فرد الأمر إليهن وتوعدن فيه لئلا يُخبرن بغير الحق .

وقوله تعالى : ﴿ وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾ أي وزوجها

(١) قلت : اذا ثبت حديث : (طلاق الأمة تطليقتان ، وعدتها حيضتان) سمعنا وأعلمنا ... وإلا فالقول بأن الحرّة والأمة في هذا الأمر سواء هو مطابق لمعوم الآية ، وهو موافق للجبلة والفترة .

الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها ، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير ، وهذا في الرجعات ؛ فأما المطلقات البوائن ، فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقةً بائن ، وإنما كان ذلك في الطلاق الثلاث ، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مئة مرة ، فلما قصرُوا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات ، صار للناس مطلقةً بائن وغير بائن . وقوله تعالى : ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن فليؤدَّ كلُّ ما وجب عليه للآخر بالمعروف .

وثبت في صحيح مسلم عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع : ٣٣٩ [... فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف]

وقوله تعالى : ﴿واللرجال عليهن درجة﴾ أي في الفضيلة في الخلق والمترلة وطاعة الأمر والانفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره حكيم في أمره وشرعه وقدره .

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * (٢٣٠)﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق

برجعة امرأته وإن طلقها مئة مرة ما دامت في العدة ، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهن الله إلى ثلاث طلقات ، وأباح الرجعة في المرة والثنتين ، وأبأنها بالكلية بالثالثة . فقال تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ قال أبو داود في (باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث) عن ابن عباس ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ الآية وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعته وإن طلقها ثلاثاً ، فنسخ ذلك فقال : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ الآية .

وهكذا فقد وُقِّتَ الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره . ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ أي إذا طلقها واحدة أو اثنتين فهو مخير ما دامت عدتها باقية بين أن تردّها اليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها ، وبين أن تركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك وتطلق سراحها محسناً إليها ، لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها . روى ابن أبي حاتم عن اسماعيل بن سميع ، قال سمعت أبا رزين يقول : ٣٤٠ [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت قول الله ، عز وجل ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ أين الثالثة ؟ قال : التسريح بإحسان] وفي رواية عبد بن حميد في تفسيره : ٣٤١ [... التسريح بإحسان الثالثة]

وقوله تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيّقوا عليهن ، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو بيعضه كما قال تعالى : ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ فأمر إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفسها فقد قال تعالى : ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ وأما إذا تشاقق الزوجان ، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل ، وأبغضته ، ولم تقدر على معاشرته ، فلها أن تفتدي منه بما أعطاهها ولا حرج عليها في بذلها له ، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ الآية ... فأما إذا لم يكن لها عذر ، وسألت الافتداء منه ، فقد روى ابن جرير عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : ٣٤٢ [أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة] وفي رواية أحمد عن أبي قلابه وذكر أبو أسماء وذكر ثوبان بنحوه . ورواه ابن جرير بزيادة : ٣٤٣ ﴿ المختلعات هن المناقات ﴾ وقال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف : أنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب

المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ﴾ قالوا فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة فلا يجوز في غيرها إلا بدليل ، والأصل عدمه ، ومن ذهب إلى هذا ابن عباس وجماعة من التابعين والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي : لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها ، وجب ردُّه إليها وكان الطلاق رجعيّاً ، قال مالك : وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه .

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق ، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى ، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة .

روى البخاري عن ابن عباس : ٣٤٤ [إن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولادين ولكن أكره الكفر في الإسلام فقال رسول الله ﷺ : «أتردين إليه حديثه؟» قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : «إقبل الحديثة وطلقها تطليقة»]

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال بعد أن سأله عكرمة : هل كان للخلع أصل ؟ قال : ٣٤٥ [إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبدالله بن أبي ، إنها أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً إني رفعت جانب الحياء فرأيت أنه قد أقبل في عدة ، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامه ، وأقبحهم وجهاً ؛ فقال زوجها : يا رسول الله إني قد أعطيتها أفضل مالي حديثة لي فإن ردت عليّ حديثي ، قال : ما تقولين ؟ قالت : نعم وإن شاء زدته قال : ففرق بينهما .]

وفي رواية الإمام أبي عبدالله بن بطة بسنده عن ابن عباس : ٣٤٦ [أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت والله ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق ولكنني أكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضاً فقال لها النبي ﷺ : «تردين عليه حديثه؟» قالت : نعم فأمره النبي ﷺ «أن يأخذ ما ساق ولا يزاد»]

...

ذهب الجمهور إلى جواز مفاداة الزوج زوجته بأكثر مما أعطاه ذلك لعموم قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افدت به ﴾ ولقول عمر بن الخطاب لزوج الزوجة الناشئة اخلعها ولو من قرطها . وفي رواية : خذولو عقاصها ، وقال البخاري : واجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها . ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير

ولا يترك لها سوى عقاص شعرها وبه يقول ابن عمر وابن عباس وجمع من التابعين وهذا مذهب مالك والليث والشافعي وأبي ثور واختاره ابن جرير .

وقال أصحاب أبي حنيفة : إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاها ولا يجوز الزيادة عليه ، فإن ازداد جاز في القضاء ، وإن كان الإضرار من جهته لم يجوز أن يأخذ منها شيئاً فإن أخذ جاز بالقضاء . وقال أحمد وأبو عبيد واسحق بن راهويه : لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها وهذا قول سعيد بن المسيب وغيره من كبار التابعين . وقال معمر والحكم : كان علي يقول : لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها . وقال الأوزاعي : القضاة لا يجوزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها . (قلت) : ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة عن عكرمة عن ابن عباس في قصة ثابت بن قيس ، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد . وبما روى عبد بن حميد حيث قال بسنده إلى عطاء : أن النبي ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها ، يعني المختلعة ، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿ فلا جناح عليهما فيما افدت به ﴾ أي من الذي أعطاه لتقدم قوله : ﴿ ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افدت به ﴾ أي من ذلك ، وهكذا كان يقرأها الربيع بن أنس : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افدت به ﴾ رواه ابن جرير ، ولهذا قال بعده : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

فصل : ذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن الخلع ليس بطلاق وإنما هو فسخ فقد قال الشافعي بسنده إلى ابن عباس في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد ، يتزوجها إن شاء لأن الله تعالى يقول ﴿ الطلاق مرتان - قرأ إلى - ان يترابعا ﴾ وروى الشافعي عن عكرمة قال : كل شيء أجازته المال فليس بطلاق . وهو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وابن عمر وهو قول طاوس وابن عمر وأحمد بن حنبل واسحق ابن راهوية وأبو ثور وداود الظاهري وهو مذهب الشافعي القديم وهو ظاهر الآية .

وقال آخرون في الخلع أنه طلاق بائن إلا أن ينوي أكثر من ذلك فبحسب نيته واليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو عثمان البتي والشافعي في الجديد غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالعة بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق ، فهو واحدة بائنة ، وإن نوى ثلاثاً فثلاث . وللشافعي قول آخر في الخلع ، وهو أنه متى لم يكن

بلفظ الطلاق وعُرِّي عن البيّنة ، فليس هو شيء بالكلية .^(١)

مسألة : يختلف في عدة المختلعة هل هي كالمطلقة بثلاثة قروء إن كانت ممن تحيض أم أن عدتها حيضة واحدة فقد أيد القول الأول : عمر وعلي وابن عمر وجمع من التابعين ومأخذهم في هذا : أن الخلع طلاق فتعتد كسائر المطلقات ، وأيد آخرون القول الثاني وظل ابن عمر يفتي بقوله الأول حتى سمع عثمان بن عفان يفتي بالقول الثاني فأفتى به هو أيضاً وقال : عثمان خيرنا وأعلمنا وحدث عبدة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : (عدة المختلعة حيضة) وحدث ابن عباس قال : عدتها حيضة وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول أن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا واحتجوا بما رواه أبو داود والترمذي حيث قال كل منهما عن ابن عباس : ٣٤٧ [إن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي ﷺ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة] ثم قال الترمذي حسن عريب وروى الترمذي عن الربيع بنت معوذ بن عفراء ٣٤٨ [أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة] قال الترمذي : الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة .

وروى ابن ماجه عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت لعبادة بن الوليد بن عبادة بن

(١) قلت : سئلت من أحد الإخوان ... (هل الخلع طلاق أم فسخ ؟)

فأجبت : الحمد لله والصلاة والسلام على مصطفىه أما بعد :

فإن الجمهور على أن الخلع طلاق بائن لحديث : (... خذ الحديقة ، وطلقها تطليقة) وليس بفسخ .

وذهب بعض أهل العلم ، منهم : ابن عباس وعثمان بن عفان وابن عمر من الصحابة وأحمد بن حنبل وداود الظاهري وإسحق بن راهويه وطاوس والشافعي في القديم من الأئمة والفقهاء إلى أنه فسخ . لأن الله تعالى قال : الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان - إلى أن قال - فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره « ٢/٢٣٠ فلو كان الافتداء طلاقاً ، لكان الطلاق الذي لا تحل فيه إلا بعد الزواج ، هو الطلاق الرابع ... ؟ ؟ ؟ ولم يشرع الله طلاقاً رابعاً ... !

قال ابن القيم : والذي يدل على أنه ليس بطلاق أنه سبحانه وتعالى رتب الطلاق بعد الدخول الذي لم يستوف عدده ثلاثة أحكام ، كلها متتفية عن الخلع :

١ - : إن الزوج أحق بالرجعة فيه

٢ - : أنه محسوب من الثلاث فلا تحل بعد استيفاء العدد إلا بعد دخول زوج وإصابته .

٣ - : أن العدة فيه ثلاثة قروء

وقد ثبت بالنص والإجماع أنه لا رجعة في الخلع ، وثبت في السنة وأقوال الصحابة أن العدة فيه حيضة واحدة ، وثبت بالنص جوازها بعد طلقتين ووقوع ثالثة بعدها وهذا ظاهر جداً في كونه ليس بطلاق .

ويقول ابن القيم : يعد الخلع فسخاً بأي لفظ حتى بلفظ الطلاق

فاذا أمنت النظر فيما تقدم تبين لك جلياً أن الخلع ليس طلاقاً بل هو فسخ والحمد لله رب العالمين .

الصامت لما سألتها قائلاً : حدثيني حديثك ، قالت : اختلعت من زوجي ثم جث عثمان فسألت عثمان : ماذا عليّ من العدة ؟ قال : ٣٤٩ [لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك ، فتمكثين عنده حتى تحيض حيضة] قالت : وإنما اتّبع في ذلك قضاء رسول الله ﷺ في مريم المغالية وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه ^(١)

مسألة : وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء . قال سفيان الثوري : إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها ، وإن كان يسمى طلاقاً فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة . وبه يقول داود بن علي الظاهري ^(٢) واتفق الجميع على أن للمختلغ أن يتزوجها في العدة .

مسألة : واختلف في : هل له أن يوقع عليها طلاقاً آخر في العدة ، فيه ثلاثة أقوال والأصح منها : ليس له ذلك لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه .

وقوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . ﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها . كما ثبت في الحديث الصحيح ٣٥٠ [إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم محارم فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها]

وقوله تعالى : ﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلاقاً ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أي حتى يطلّاقها زوج آخر في نكاح صحيح ، فلو وطئها واطيء في غير نكاح ولو في ملك اليمين ، لم تحل للأول ، لأنه ليس بزواج ، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول ، واشتهر بين الفقهاء عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنه

(١) قلت : إن الدليل واضح مع الذين يقولون : عدة المختلعة حيضة واحدة ، وهذا ما يؤيد من قال أن الخلع ليس بطلاق ، ولو كان مطلقاً لكانت عدتها ثلاثة قروء .

(٢) قلت : وقول سفيان الثوري هو الأصح والله أعلم يعني إذا أراد الرجعة لأن الخلع فرقة ولا سبيل له عليها إلا برضاها . أي بعقد جديد لأنه لا رجعة في الخلع ، وكأنه في الشطر الثاني من قوله يرد على من يقول أن الخلع طلاق من قولهم نفسه الوارد في أول هذه المسألة وهو : لا تراجع المختلعة إلا برضاها في العدة . وكان سفيان يقول : إن كنتم تعتقدون أن الخلع طلاق ، فالطلاق أملك للرجعة ما دامت في العدة .

يقول : يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثاني ، وفي صحته عنه نظر . لأن سعيد بن المسيب يروى خلافه ، فقد روى أبو جعفر بن جرير رحمه الله بسنده عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبي ﷺ : [في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة ، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها ، أترجع إلى الأول؟ قال : « لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها »] وروى الإمام أحمد بسنده إلى سالم بن عبد الله بن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ : [في الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها فترجع إلى زوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ : « حتى تذوق العسيلة »] فبعد أن يخالف سعيد بن المسيب ما رواه بغير مستند والله أعلم .

روى ابن جرير عن عائشة ٣٥٣ : [أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً ، فتزوجت زوجاً فطلقها قبل أن يمسه ، فسئل رسول الله ﷺ أتحل للأول ؟ فقال : « لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول »] أخرجه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن عبيد الله بن عمر العمري .

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راعباً في المرأة ، قاصداً لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج وليس المراد بالعسيلة المنى ... لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ٣٥٤ [ألا إن العسيلة الجماع] فأما إذا كان الثاني قصده أن يحلّها للأول ، فهذا هو المحلل ، الذي وردت الأحاديث بدمه ولعنه . ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة .

﴿ الأحاديث في المحلل والمحلل له ﴾

١ - : عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : ٣٥٥ [لعن الله الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وأكل الربا ومؤكله]

٢ - : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ٣٥٦ [« لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكتابه ، والواشمة والمستوشمة للحسن ، ومانع الصدقة ، والمحلل والمحلل له » وكان ينهى عن النوح .] رواه الإمام أحمد

(٢ - البقرة - ج ٢) : المحلل والمحلل له ملعونان ، وعملية (التجحيش) زنى صريح ١٩٥

٣ - : عن جابر رضي الله عنه : ٣٥٧ [ان رسول الله ﷺ : لعن الله المحلل والمحلل له] ضعيف رواه الترمذي

٤ - : عن عقبة بن عامر : قال رسول الله ﷺ : ٣٥٨ [الا أخبركم بالنيس المستعار ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال : هو المحلل . لعن الله المحلل والمحلل له .] تفرد به ابن ماجه .

٥ - : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ٣٥٩ [لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له] ابن ماجه

٦ - : وروى أبو بكر بن أبي شيبة بسنده عن عمر بن الخطاب انه قال : لا أوتي بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما . وعن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما وكذا روى عن علي وابن عباس وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ أي الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿ فلا جناح عليهما أن يترابعا ﴾ أي المرأة والزوج الأول ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ أي يتعاشرا بالمعروف قال مجاهد : إن ظنا أن نكاحهما على غير دلالة ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي شرائعه وأحكامه ﴿ يبينها ﴾ أي يوضحها ﴿ لقوم يعقلون ﴾

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في أن المرأة إذا تزوجت ثانية بعد طلبة أو طلفتين وانقضاء عدتها من زوجها الأول ، ثم طلقها الثاني ، وانقضت عدتها وتزوجها الأول ، هل تعود إليه بما بقي من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد ، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق ، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموعها أي الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله . وحجتهم : أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث ، فلا يهدم ما دونها من باب أولى . والله أعلم .

﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢٣١)

أمر الله الرجال بالإحسان إذا طلق أحدهم امرأته طلاقاً له عليها فيه رجعة ، إذا انقضت عدتها ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فلما أن يسكنها أي يرجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف ، وهو أن يُشهد على رجعتها ، وينوي عشرتها بالمعروف ؛ أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزلها بالتي هي أحسن ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْسُكُوهُنَّ ضُرَاراً لِّتَعْتَدُوا ﴾ قال ابن عباس وجماعة من التابعين : إذا قارب انقضاء عده المرأة راجعها زوجها ضرراً لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها فتعتد وهكذا ... لتطول عليها عدتها . فهناهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً ﴾ وعن عبادة بن الصامت في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً ﴾ قال كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل : زوجتك انبي ثم يقول كنت لاعباً ، ويقول قد اعتقت ويقول : كنت لاعباً فأُنزل الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً ﴾ فقال رسول الله ﷺ : ٣٦٠ [ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعباً فهن جائرات عليه : الطلاق والعناق والنكاح .]

وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ في إرسال رسوله بالهدى إليكم ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أي السنة ﴿ يَعِظْكُمْ بِهِ ﴾ أي يأمركم وينهاكم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما تأتون وفيما تذكرون ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أهوركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٣٢)

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلاقاً أو طلاقين ، فتنقضي عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها وكذا قال جماعة من التابعين . وفيها

دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها وأنه لا بد من ولي . كما في الأثر ٣٦١ [لانكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل .] وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء وقد قررنا ذلك في كتاب الأحكام ، والله الحمد والمنة .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وصححه واللفظ له عن معقل بن يسار ٣٦٢ [إنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فهو بها وهو به ، ثم خطبها مع الخطّاب ، فقال له : يا لكع بن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ، والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك ، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها فانزل الله : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتِ النِّسَاءَ فَلْيُغْنِ أَجْلَهُنَّ ... إِلَى قَوْلِهِ ﴾ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فلما سمعها معقل قال : سمع لربي وطاعة ثم دعاه فقال : أزوجك وأكرمك - زاد بن مردويه - وكفرت عن يميني]

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي عليكم أن لا تمنعوا الولايا أن يتزوجن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف إن كنتم تؤمنون بالله وبشرعه وتخافون عذاب اليوم الآخر ﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ أي اتباعكم شرع الله في رد المولات إلى أزواجهن وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم - والله يعلم - أي الخيرة فيما تأتون وما تذرّون ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا اتَّيَمُّ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (٢٣٣)

يرشد الله تعالى الوالدات أن يرضعن اولادهن كمال الرضاعة ، وهي ستان فلا

اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ، ولهذا قال ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما، لم يحرم. روى الترمذي : (باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين) عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٣ [لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام] هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم : أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين ، وما كان بعد الحولين الكاملين، فإنه لا يحرم شيئاً. (قلت) : تفرد الترمذي برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين. ومعنى قوله : إلا ما كان في الثدي، أي في محال الرضاعة قبل الحولين ، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم بن النبي ﷺ قال : ٣٦٤ [إن ابني مات في الثدي ، إن له مرضعاً في الجنة] وهكذا أخرجه البخاري من حديث شعبه . يعني أن ابنه إبراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر فقال : (إن له مرضعاً) ، يعني تكمل رضاعته . وروى الدار قطني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٥ [لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين] (قلت) ورواه مالك في الموطأ عن ابن عباس مرفوعاً ورواه الدرروردي عن ابن عباس وزاد ٣٦٦ [وما كان بعد الحولين فليس بشيء] وهذا أصح . وروى أبو داود الطيالسي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٧ [لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام] وتام الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى ﴿ وفصاله في عامين أن اشكر لي ﴾ وقال : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين يروى عن علي وابن عباس وابن مسعود وجابر وأبي هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور ؛ وهو مذهب الشافعي وأحمد وإسحق والثوري وأبي يوسف ومحمد ومالك في رواية . قال مالك ولو فطم الصبي دون الحولين ، فأرضعته امرأة بعد فصاله ، لم يحرم لأنه قد صار بمنزلة الطعام . وهو رواية عن الأوزاعي . وقد روي عن عمر وعلي أنها قالا : (لا رضاع بعد فصال) فيحتمل أنهما أرادا الحولين ، كقول الجمهور : سواء فطم أو لم يفطم ، ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك والله أعلم .

وأما قول عائشة رضي الله عنها برضاع الكبير، وأنه يؤثر في التحريم، وتحتاج بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث ٣٦٨ [أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة .] وأبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ، ورأى ذلك من الخصائص. وهو قول الجمهور. وحجة الجمهور وهم الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ،

والأكابر من الصحابة وسائر أزواج رسول الله ﷺ سوى عائشة ، ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : ٣٦٩ [انظرون مَنْ إخوانكن فإنما الرضاعة من المجاعة] وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير ^(١) ، عند قوله تعالى ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف ، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته ويساره ، وتوسطه وإقتاره ، كما قال تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ قال الضحاك : إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده ، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف .

وقوله تعالى : ﴿ لا تضارَّ والدة بولدها ﴾ أي بدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبأ الذي لا يعيش بدونه غالباً ، ثم لها دفعه عنها إذا شاءت على أن لا تكون مضارةً لأبيه . كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرر بها ، ولهذا قال : ﴿ ولا مولود له بولده ﴾ أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها لإضراراً بها . قاله جماعة من التابعين وغيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ أي عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل ، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها ، وهو قول الجمهور . وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف ، ويرجح ذلك بحديث سمرة مرفوعاً : ٣٧٠ [من ملك ذا رحم محرم ، عتق عليه] وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو في عقله وعن علقمة : أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال : لا ترضعيه .

وقوله تعالى : ﴿ فإن أرادوا فصلاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ أي إذا أجمعا على فطامه قبل الحولين ، ورأيا في ذلك مصلحةً له فلا جناح عليهما في ذلك ، ولا ينبغي انفراد أحدهما بذلك دون الآخر أو يستبد من غير مشاورة الآخر . وهذا فيه احتياط للطفل ، وإلزام للنظر في أمره وهو من رحمة الله بعباده حيث نبه الوالدين وأرشدتهما إلى ما يصلحهما ويصلحه . كما قال في سورة الطلاق : ﴿ فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلِمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ إذا اتفقا على استلام الوالد ولده لعذر، فلا جناح عليهما في بذله إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن ، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢٣٤)

هذا أمر من الله تعالى للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتدّ دن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع . ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة والحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي : ٣٧١ [إن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها ، فترددوا إليه مراراً في ذلك ؛ فقال أقول فيها برأيي ، فان يك صواباً فمن الله ، وان يك خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً ، وفي لفظ : لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط وعليها العدة . ولها الميراث ؛ فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله ﷺ ، قضى به في بروع بنت واشق ففرح عبدالله بذلك فرحاً شديداً .] وفي رواية : ٣٧٢ (فقام رجال من اشجع فقالوا : نشهد أن رسول الله ﷺ ، قضى به في بروع بنت واشق) ولا يخرج من ذلك الا المتوفي عنها زوجها وهي حامل فإن عدتها بوضع الحمل ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله : ﴿ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ولما ثبت في السنة في حديث سبيعة الأسلمية المخرج في الصحيحين من غير وجه : ٣٧٣ [أنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته - وفي رواية - فوضعت حملها بعده بليال ، فلما تعلت من نفاسها ، تجملت للخطّاب ، فدخل عليها أبو السنابل ابن بعمك فقال لها : مالي أراك متجملة ، لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك ، جمعت علي ثيابي حين

أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حلت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج إن بدا لي . [

واستثنيت من ذلك الزوجة إذا كانت أمةً فإن عدتها على النصف من عدة الحرة : شهران وخمس ليل على قول الجمهور ، لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة ^(١) ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام لعموم الآية . ولأن العدة من باب الأمور الجبليّة التي تستوي فيها الخليقة .

وذكر سعيد بن المسيب وغيره أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا لاحتمال اشتغال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر أن كان موجوداً ، كما جاء في حديث ابن مسعود في الصحيحين وغيرهما : ٣٧٤ [إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح] فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والعشر أيام بعدها لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه ، ولذا ذهب الإمام أحمد إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا لأنها صارت فراشاً كالحرائر (*) وروى الإمام أحمد عن عمر بن العاص أنه قال : ٣٧٥ [لا تلبسوا عاينا سنةً نبينا ، عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر] ورواه أبو داود ، وابن ماجه .

وقوله تعالى : ﴿ فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها ، ولما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمسي

(هـ) قلت : حال الحرة كالأمة لا يختلفان فيما يتعلق بالعدة أبداً إن كانت الأمة زوجة عبد أو كانت أم ولد فعدتهما كالحرة سواء بسواء لأن خلقهما واحد فهل العبودية تغير الخلق ... ؟

(١) قلت : لا يلزم إذا كان الحد يقيم نصفاً على الأمة أن تكون العدة كذلك نصفاً... لأن حال الحرة غير حال الأمة ، ولكن ليس رحم الحرة غير رحم الأمة ، وإن الملك لما يؤمر بنفخ الروح في جنين الحرة تكون مدة وجوده عند الحرة والأمة سواء . وإن مراحل نموه من نطفة إلى علقه إلى مضغة أيضاً ، واحدة عند الحرة والأمة . ومراد الشارع تحديد نسبة الولد لمن ... ؟ فإدام مراحل نموه لا تختلف في الخليقة البشرية فلا لزوم لتفريق عدة الحرة عن عدة الأمة وإذا كان الله تعالى لم يفرق في ذلك بل أطلق وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم لم يخبرنا بأن عدة الأمة . على النصف من عدة الحرة فإلى أي مستند استند المفرقون بين العديتين ؟ أما قياس العدة على الحد فهذا قياس مع الفارق كما لا يخفى ...

المؤمنين أن رسول الله ﷺ ، قال : ٣٧٦ [لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوج أربعة اشهر ^(١) وعشراً] وفي الصحيحين أيضاً عن أم سلمة : ٣٧٧ [أن امرأة قالت : يا رسول الله ، إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحها ؟ فقال : لا . كل ذلك يقول - لا - مرتين أو ثلاثا ، ثم قال : « إنما هي أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة . »]

والغرض من الإحداد ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك . وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً ، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً . وفي وجوبه على عدة البائن قولان ، ويجب على جميع الزوجات الإحداد وسواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحررة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية . واستثنى الثوري وأبو حنيفة الكافرة لكفرها بالصغيرة لعدم التكليف .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أي على أوليائها ﴿ فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف ﴾ أي تترين وتتصنعن، وتعرض للتزويج، فذلك المعروف . قاله ابن عباس .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ * (٢٣٥) ﴾

يقول تعالى ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح وعن ابن عباس : التعريض : أن يقول : إنني أريد التزويج واني أحب امرأة ومن امرها ... - يعرض لها بالقول بالمعروف - . ولا ينتصب لها ما دامت في عدتها وهكذا حكم المطلقة المبتوتة ، يجوز التعريض لها . كما قال النبي ﷺ لفاطمة

(١) قلت : وليس للحداد لباس معين فتلبس ثيابها العادية متجنبة الزينة في كل شي . أما اعتقاد لزوم لبس السواد دون غيره للعادة فعوام .

بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات فأمرها ان تعتد في بيت ابن أم كلثوم ، وقال لها ٣٧٨ : [فإذا حلت فأذيني ، فلما حلت ، خطب عليها أسامة بن زيد مولاة فزوجها إياه] فأما المطلقة (١) فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها والله أعلم .

وقوله - ﴿ أو أكنتم في أنفسكم ﴾ أي أضرمتم في أنفسكم من خطبتهن ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ ولهذا قال ﴿ علم الله أنكم ستذكروهن ﴾ في أنفسكم فرفع الحرج عنكم في ذلك ، ثم قال : ﴿ ولكن لا تواعدوهن سرأ ﴾ قال ابن عباس : أي لا تقل لها : إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري. ونحو هذا في عدتها فنهى الله عن ذلك . وقوله تعالى : ﴿ إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ﴾ يعني من إباحة التعريض أو يقول لوليها : لا تسبقني بها ، يعني : لا تزوجها حتى تعلمني . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تقضي العدة . وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة . واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها ، فدخل بها فانه يفرق بينهما . وهل تحرم عليه أبداً؟ على قولين : الجمهور على أنها لا تحرم عليه بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها .

وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه مؤبداً بناءً على قول لعمر بن الخطاب ... ولكن ثبت أن هناك انقطاعاً فيما بين من نقل القول وبين عمر . ثم روى الثوري أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها وجعلها يجتمعان .

وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ توعدهم على ما يقع في ضمائرهم بشأن النساء وأرشدتهم إلى إضمار الخير دون الشر ثم لم يؤيسهم من رحمته فقال : ﴿ واعلموا أن الله غفور حلیم ﴾ .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ * (٢٣٦) ﴿

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها ، وقبل الدخول بها . قال ابن عباس وغيره : المس النكاح ، بل ويجوز أن يطلقها ويحق لها المهر إن كانت قد تزوجت بلا مهر ولهذا أمر الله تعالى بإمتاعها وهو تعويضها عما فاتها ، بشيء تُعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . قال ابن عباس أعلا متعة الطلاق الخادم ، ودون ذلك شيء من المال ، ودون ذلك الكسوة .

وقد اختلف العلماء : هل تجب المتعة لكل مطلقة ، أو انما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها مهر . على أقوال : فمن العلماء من استحباها لكل مطلقة ، ومن قال : للمطلقة قبل الدخول بها وإن كانت لها مهر معلوم والقول الثالث وهو الراجح والله أعلم : ان المتعة انما تجب للمطلقة اذا لم يُدخل بها ولم يفرض لها مهر، فإن دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا لم يكن لها مهر ، وإن كان قد فرض لها مهر، وطلقها قبل الدخول وجب عليه نصف المهر المسمى ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة ؛ وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها . فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾

﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ . وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢٣٧)

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى ، حيث انما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبيئتها لا سيما وقد قرنهما بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية ، والله أعلم . ومما هو مجمع عليه أنه متى كان قد ستمى لها صداقاً ثم فارقتها قبل دخوله بها فإنه يجب لها نصف ما ستمى من الصداق . إلا أنه عند الثلاثة يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها . وبه حُكِمَ الخلفاء الراشدون لكن قال الشافعي بسنده عن ابن عباس انه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسه ثم يطلقها : ليس لها إلا نصف الصداق لأن الله يقول : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ

فريضة فنصف ما فرضتم ﴿ قال الشافعي : بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب .

وقوله : ﴿ إلا أن يعفون ﴾ أي النساء ، عما وجب لها على زوجها ، فلا يجب لها عليه شيء وقوله : ﴿ أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ﴾ روى ابن أبي حاتم : ذكر عن ابن لهيعة حدثني عمر بن شعيب ، عن أبيه عن جده ، عن النبي ﷺ قال ٣٧٩ : [ولي عقدة النكاح الزوج] وقال ابن أبي حاتم : عن عيسى بن عاصم ، قال : سمعت شريحاً يقول : سألي علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح فقلت له : هو ولي الأمر فقال علي : لا ، بل هو الزوج . وبهذا يقول ابن عباس وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وجمع من التابعين . وقيل أن ولي عقدة النكاح أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه ورجح بعض من قال هذا القول إلى أنه الزوج . وقوله تعالى : ﴿ وأن تغفوا أقرب للتقوى ﴾ أي أقربهما للتقوى من الرجال والنساء الذي يعفو . قال مجاهد وغيره : الفضل - ها هنا - أن تغفو المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها ، ولهذا قال : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ أي الإحسان فلا تهملوه واستعملوه بينكم . روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن علي بن أبي طالب ، أن رسول الله ﷺ قال : ٣٨٠ [ليأتين على الناس زمان عضوض ، يعرض المؤمن على ما في يديه وينسى الفضل] وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ « شرار يبايعون كل مضطر » وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر وعن بيع الغرر ، فإن كان عندك خير فعُدْ به على أخيك ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه فإن المسلم أخو المسلم لا يحرزه ولا يحرمه . [وقوله تعالى : ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم واحوالكم وسيجزى كل عامل بعمله .

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ . (٢٣٨)
فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . (٢٣٩)

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : ٣٨١ [سألت رسول الله ﷺ ، أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة في وقتها قلت ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله قلت ثم أي ؟ قال : بر الوالدين] قال حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدرته لزداني . [

وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى ، وقد اختلف السلف والخلف فيها أي الصلاة هي ؟ وقيل ، وقيل ... إنما المدار ومترك النزاع في الصبح والعصر . وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها . والدليل على ذلك : روى الإمام أحمد بسنده عن علي قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ٣٨٢ [شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً . ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء] وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية محمد بن حازم الضرير . ورواه مسلم أيضاً من طريق شعبة ، عن علي بن أبي طالب . وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وغير واحد من أصحاب المساند والسنن والصحاح ، من طرق يطول ذكرها عن عبيدة السلماني عن علي به .

روى الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : ٣٨٣ [حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى] وسماها لنا أنها هي صلاة العصر [وقال ابن جرير بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٨٤ [الصلاة الوسطى صلاة العصر]

وقوله تعالى : ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه ، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها . ولهذا امتنع رسول الله ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة ، اعتذر إليه بذلك وقال : ٣٨٥ [إن في الصلاة لشغلاً] . وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة ٣٨٦ [إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله] وروى الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم ، قال : ٣٨٧ [كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ فأمرنا بالسكوت] رواه الجماعة سوى ابن ماجه .

روى الحافظ أبو يعلى بسنده عن ابن مسعود ، قال : ٣٨٨ [كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه فلم يرد علي ، فوقع في نفسي أنه نزل في شيء فلما قضى النبي ﷺ صلاته قال « وعليك السلام أيها المسلم ورحمة الله ، إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء ، فإذا كنتم في الصلاة فاقتنوا^(١) ولا تكلموا »]^(٢)

(١) وهكذا ثبت بالأدلة الصحيحة من السنة المطهرة أن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى فلا عبرة للاقوال الضعيفة التي يرووها المخالفون لأن العبرة فيما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم .

(٢) قلت : اقتنوا : أي اخشعوا وتذللوا واستكبنوا بين يديه كما جاء آنفاً في التفسير

(٣) ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم عليه في الصلاة كان يرد إشارةً فقد روي عن ابن عمر قال : ٣٨٩ (قلت لبلال : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يرد عليهم - حين كانوا يسلمون عليه وهو -

وقواه تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها وشدد الأمر بتأكيدها ، ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب فقال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أي فصلوا على أي حال كان رجالاً أو ركباناً ، يعني مستقبل القبلة وغير مستقبلها ، كما قال مالك عن نافع : ٣٩٠ [ان ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم أو ركباناً مستقبل القبلة أو غير مستقبلها ، قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله ﷺ] ورواه البخاري وهذا لفظ مسلم : ٣٩١ [وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان ليقتله ، وكان نحو عرفة أو عرفات فلما واجهه حانت صلاة العصر ، قال : فخشيت أن تغتني فجعلت أصلي وأنا أومئء [إيماء] الحديث بطوله يرواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد وهذا من رخص الله تعالى التي رخص لعباده ووضعه الأصار والأغلال عنهم . وعن ابن عباس قال في هذه الآية : يصلي الراكب على دابته والرجل على رجليه. وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه : إلى أن الصلاة في الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة إذا تلاحم الجيشان. وعن ابن عباس قال : ٣٩٢ [فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة] وسئل الحكم وحماد وقتادة عن صلاة المسابقة فقالوا : ركعة .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أي أقيموا صلاتكم كما أمركم فاتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها ﴿ كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أي مثل ما أنعم عليكم وهذاكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر .

= في الصلاة قال يشير بيده .) رواه الخمسة . ورواه البيهقي عن نافع قال سمعت ابن عمر يقول : ٣٩٣ (خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى مسجد قباء يصلي فيه ، قال : فجاءته الأنصار فسلموا عليه وهو يصلي قال : فقلت لبلال : ...) الحديث . وكذلك هو عند أبي دارد - ٣٩٤ (وفيه يقول هكذا - وبسط كفه وبسط جعفر بن عون كفه . وجعل بطنه أسفل ، وجعل ظهره إلى فوق .)

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَّأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْخَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * (٢٤٢)﴾

• قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتى قبلها ، وهي : قوله تعالى : ﴿يُتْرِكْنَ أَنْفُسَهُنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فقد روى البخاري عن ابن الزبير قال : قلت : لعثمان بن عفان ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً...﴾ نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها — أو تدعها — قال : « يا ابن أخي : لا أغير شيئاً منه من مكانه » ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان : إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة أشهر ، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد التى نسختها يوهم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين : بأن هذا أمر توقيفي وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها .

• وروى من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته إعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله ، ثم أنزل الله بعد : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ فهذه عدة المتوفى عنها زوجها ، إلا أن تكون حاملاً ، فعدها أن تضع ما في بطنها ، وقال : ﴿ولهن الربع مما تركن إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركن﴾ فبيّن ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة .

وقد استدل جماعة من هذه الآية على وجوب مكوثها سنة معتدة . وقال آخرون منهم مجاهد وعطاء : إن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة ، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات ان يُمَكَّن من السكنى ، في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً إن اخترن ذلك ، ولهذا قال : ﴿وصية لأزواجهم﴾ أي يوصيكم الله بهن وصية ولا يُمنعن من ذلك لقوله : ﴿غير إخراج﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر

أو بوضع الحمل ، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل ، فانهن لا يمنعن من ذلك لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ﴾ . وهذا القول له اتجاه ، وفي اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة ، منهم الإمام أبو العباس بن تيمية ، ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر وقول عطاءو من تابعه ، على أن ذلك منسوخ بآية الميراث ، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلّم . وإن أرادوا إن سكّنى الأربعة أشهر وعشر ، لا تجب في تركة الميت ، فهذا محل خلاف بين الأئمة . وقد استدلوا على وجوب السكّنى في منزل الزوج ، بما رواه مالك في موطئه : ٣٩٥ [إن الفريضة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة ، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت : فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة ، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « نعم » قالت : فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمرني فنوديت له فقال : « كيف قلت » ؟ فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي ، فقال : « أمكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » فقالت : فاعتدلت فيه أربعة أشهر وعشرا ، قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به .] وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث مالك به ورواه النسائي أيضاً وابن ماجه عن سعد بن اسحق به وقال الترمذي حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ وفي هذه استدل العلماء الموجبون المتعة لكل مطلقة ومن قال إنها مخصصة بالآية ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾ ^(١) . وقوله تعالى كذلك يبين الله لكم آياته ﴿ أي في إحلاله وتحريره وفروضة وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه ، بينه ووضحه وفسره ، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه ﴾ لعلكم تعقلون ﴿ أي تفهمونه وتندبرونه .

(١) راجع تفسير هذه الآية وهي برقم ٢٣٦ البقرة



﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * (٢٤٥)

عن ابن عباس قال : كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون . قالوا نأتي أرضاً ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم ﴿ موتوا ﴾ فماتوا ، فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم فذلك قوله عز وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ الآية وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم . وفي هذه القصة عبرة ودليل : على أنه لا يغني حذر من قدر وأنه لا ملجأ منه إلا إليه . فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء ، طلباً لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم ، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد .

ومن هذا القبيل ، الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عباس : ٣٩٦ [ان عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فذكر الحديث ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً لبعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر ثم انصرف] وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي كما أن الحذر

لا يغني من القدر ، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه ، لا يقرب أجلاً ولا يبعده ، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزداد فيه ولا ينقص منه ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة ﴾ بحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله وقد روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ... قال أبو الدحداح الأنصاري : ٣٩٧ [يا رسول الله وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله قال فناوله يده ؛ قال : فإنني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي ؛ قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح قالت : لبيك ، قال : أخرجي ، قد أقرضته ربي عز وجل [وقوله تعالى : ﴿ قرضاً حسناً ﴾ روى عن عمر وغيره من السلف : هو النفقة في سبيل الله . وقوله تعالى : ﴿ فيضاعفه له اضعافاً كثيرة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ الآية ... وسيأتي الكلام عليها . ومن بعض حديث رواه ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة قال : والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٩٨ [إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة] وقوله تعالى : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ أي أنفقوا ولا تبالوا فالله هو الرزاق يضيّق على من يشاء ويوسع على آخرين له الحكمة البالغة ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ جَاءُوا إِسْرَءِيلَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ اأَبْعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ؟ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٢٤٦)

كان بنو إسرائيل على طريق الاستقامة مدةً من الزمان ، ثم أحدثوا الأحداث ، وعبد

بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر و يقيمهم على التوراة ، إلى أن فعلوا ما فعلوا ، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا خلقاً كثيراً ، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة ، وكانوا لا يقاتلهم أحد إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان • وكان ذلك موروثاً لخلفهم ، عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام . فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب ، وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل ، وانقطعت النبوة من أسباطهم ، ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل • فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم ، ولم ترل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً ، فسمع الله لها ووهبها غلاماً ، فسمته شمويل أي سمع الله دعائي ومنهم من يقول : شمعون وهو بمعناه ، فأنبته الله نباتاً حسناً ، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه ، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده ، فدعا بني إسرائيل ، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم . فقال لهم النبي : فهل عسى أن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه ، ﴿ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسييت الأولاد . قال الله تعالى : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا ، بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤٧)

بعث الله طالوت ملكاً على بني إسرائيل ، وكان من أجنادهم . ولم يكن من سبط يهوذا فقالوا : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴾ أي ليس هو من سبط الملك وهو فقير لا مال له يقوم بالملك • وهذا اعتراض منهم على نبههم وتعت ، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروفه فأجابهم النبي قائلاً : ﴿ إن الله اصطفاه

عليكم ﴿ والله أعلم به منكم ، ولست أنا الذي عينته ، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك : ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة ومن ههنا ينبغي أن يكون الملكُ ذا علم ، وشكل حسن ، وقوة ، شديدة في بدنه ونفسه . ثم قال : ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ بحكمته ورأفته ولهذا قال : ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي واسع الفضل ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٢٤٨ ﴾

يقول لهم نبيهم إن علامة بركة مُلك طالوت عليكم ، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فيه سكينه من ربكم ﴾ معناه : فيه وقار وجلالة . وقال عطاء : ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه . وقوله تعالى : ﴿ وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ قال ابن عباس : عصاه ورضاض الألواح وزاد عكرمة : والتوراة ، وزاد أبو صالح : والمن وقوله تعالى : ﴿ تحمله الملائكة ﴾ قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض ، حتى وضعته بين يدي طالوت ، والناس ينظرون فأمنوا . بنبوة شمعون وأطاعوا طالوت .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا اللَّهَ كَمُ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ٢٤٩ ﴾

يخبر تعالى عن طالوت ملك بني اسرائيل حين خرج في جنوده وكان جيشه ثمانين ألفاً والله أعلم أنه قال : ﴿ إِنْ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ ﴾ أي مختبركم بنهر ، قال ابن عباس وهو نهر الشريعة بين الأردن وفلسطين ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي فلا يصحبني ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ أي فلا بأس عليه . قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روي ، ومن شرب منه لم يروَ فشرب ستة وسبعون ألفاً وتبقى معه أربعة آلاف . وروي عن البراء بن عازب قال : ٣٩٩ [كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِينَ كَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةِ عَشَرَ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَ النَّهْرِ ، وَمَا جَاوَزَهُ مَعَ إِلَّا مَوْمِنٌ] ^(١) رواه البخاري ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق وليس النصر بالكثرة العددية والعُدديّة ولهذا قالوا : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

﴿ وَمَا بَرَزُوا لِمُجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . ﴾ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَاتَّاهُ اللَّهُ الْمَلِكَ وَالْحَكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ . ﴾ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . ﴾ (٢٥٢)

لما واجه أصحاب طالوت المؤمنون القليلون ، أصحاب جالوت الكافرين ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً ﴿ أي أنزل علينا صبراً من عندك ﴾ وثبت أقدامنا ﴿ أي في لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز ﴾ ، وأنصرنا على القوم الكافرين ﴿

قال الله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي غلبوهم وقهرهم بنصر الله لهم . ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ قَالَ الْمَلِكُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ ، وَلِهَذَا

(١) يعني أن عدد جنود طالوت ثلاثمئة وبيضة عشر مثل عدد أهل بدر

قال تعالى : ﴿وَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الذي كان بيد طاووت ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة بعد شمويل ﴿وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي من العلم الذي اختصه به ﷺ . ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين ، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طاووت ، وشجاعة داود عليه السلام لهلكوا .

وقوله : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي ذو من عليهم ورحمة ، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً . وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه ، في جميع أفعاله وأقواله .

ثم قال تعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَلَئِنْ لَمْ يَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا لَكُنَّ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ، ولأنك يا محمد ﴿لَمْ يَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم .



﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٣)

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وقال ههنا : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يعني موسى ومحمد ﷺ ، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ ، الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل . والجمع بين هذه الآية والحديث الثابت في الصحيحين ، عن أبي هريرة وهو قوله ﷺ : ﴿لَا تَفْضُلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ...﴾ يستلزم الاطلاع على الأسباب الموجبة لوروده ، لذا فإن سبب ورود هذا الحديث : كان من أجل سبب قد وقع بين مسلم ويهودي فقال اليهودي في قسم يقسمه : لا والذي اصطفى موسى على العالمين فلطم المسلم اليهودي ،

فقال : أي خيـث ؟ وعلى محمد ﷺ ؟ فاشتكى اليهودي لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : ٤٠٠ [لا تفضلوني على الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري ، أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور فلا تفضلوني على الأنبياء .] فالجواب من وجوه : (أحدها) : أنه ﷺ ما كان يعلم التفضيل ... وفي هذا نظر (الثاني) : ان هذا قاله من باب التواضع (الثالث) : ان هذا نهي عن التفضيل في حال التشاجر . (الرابع) : التفضيل لمجرد العصبية ^(١) (الخامس) ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو لله وعليكم التسليم والإيمان وقوله تعالى : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات ﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء به نبي إسرائيل من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ أي يجبريل عليه السلام ثم قال الله تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما أقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ﴾ أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره ، ولهذا قالوا ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّفِقُوا فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ . (٢٥٤) ﴿٢﴾

يأمر تعالى عباده بالاتفاق مما رزقهم في سبيله ليدخروا الثواب عنده ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لا ينع فيه ولا خلة ولا شفاع ﴾ أي لا يشتري نفسه ولو دفع ملء الأرض ذهباً ولا تنفعه الصلابة ولا القرابة ، ولا تنفعهم شفاع الشافعين ^(٢).

وقوله : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ أي ولا ظالم أظلم ممن لقي الله كافراً .

(١) أرجح : ان التفضيل المنوع هو المبني على عصبية مجردة حاصلة بمجرد كون النبي المفضل هو من قوم ذلك الشخص أو أن هذا الشخص من أتباع ذلك النبي ... أما التفضيل إذا كان مبنياً على النصوص الشرعية الثابتة من القرآن والسنة فقولته تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ... وكحديث الشفاعة العظمى ... فهذا التفضيل إنما هو من قبيل الواقع لا من عصبية فحسب .

(٢) إذا لم تكونوا مؤمنين

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (٢٥٥)

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله . روى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي بن كعب ٤٠١ [أن النبي ﷺ سأله : أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فرددها مراراً ، ثم قال : آية الكرسي ، قال : ليهنك العلم أبا المنذر. والذي نفسي بيده ، إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش] وقد رواه مسلم وليس عنده زيادة : والذي نفسي بيده ..

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن أبي ذر جندب بن جنادة - في بعض حديث له - [... قلت يا رسول الله ٤٠٢ أي ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : آية الكرسي : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾] ورواه النسائي .

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : ٤٠٣ [وكنتي رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذه وقات : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإنني محتاج وعليّ عيال ولي حاجة شديدة. قال : فخلّيت عنه فأصبحت فقال النبي ﷺ : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ، شكاً حاجة شديدة وعيلاً ، فرحمته وخلّيت سبيله ؛ قال : « أما إنه قد كذبتك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ : أنه سيعود ؛ فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذه فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإنني محتاج وعليّ عيال ، لا أعود . فرحمته وخلّيت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قلت : يا رسول الله ، شكاً حاجةً وعيلاً ، فرحمته وخلّيت سبيله . قال : « أما إنه قد كذبتك وسيعود » فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام ، فأخذه فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات إنك

تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ؛ قلت : وما هي ؟ قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ حتى تحتم الآية ؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ؛ فأصبحت • فقال لي رسول الله ﷺ : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قلت : يا رسول الله ، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها ، فخليت سبيله . قال : « ما هي ؟ » قال لي : إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تحتم الآية « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شيء على الخير ؛ فقال النبي ﷺ : « أما إنه صدقك وهو كذوب » ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قلت : لا قال : ذاك شيطان [وعن أبي أمامة مرفوعاً : ٤٠٤] إسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث : البقرة، وآل عمران، موطه]

﴿ وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة ﴾

فقوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ الحي القيوم ﴾ أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً ، القيم لغيره ، ولا قوام للموجودات بدون أمره . وقوله تعالى : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ لا تأخذه أي لا تغلبه سنة وهي النعاس ولهذا قال : ﴿ ولا نوم ﴾ لأنه أقوى من السنة . وفي الصحيح عن أبي موسى ، قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : ٤٠٥ ﴿ ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل ، وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجاب النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .]

وقوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه . كقوله تعالى : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً ... ﴾

وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة ، كما في حديث الشفاعة : ٤٠٦ [أتى تحت العرش فأخرساجداً فيدعني ما شاء أن يدعني ، ثم يقال لرفع رأسك وقل تسمع ، واسمع

تشفع* - قال - فيحدث لي حداً فأدخلهم الجنة . [وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، كقوله إخباراً عن الملائكة : ﴿ وما ننزّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعاه عليه ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس : لو أن السموات السبع والأرضين السبع ، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة وقال أبو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٠٧ [ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد القيت بين ظهري فلاة من الأرض] روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي . فقال رسول الله ﷺ : ٤٠٨ [والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي ، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة .]

وقوله تعالى : ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أي لا يثقله ولا يكثره حفظ السموات والأرض ، ومن فيهما ، ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ، ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد ، الفعال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو القاهر لكل شيء ، الحسيب على كل شيء ، الرقيب العلي العظيم ، لا إله الا هو ، ولا إله غيره ، ولا رب سواه . فقوله تعالى ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الكبير المتعال ﴾ . وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح ، الأجود فيها والأصح طريقة السلف الصالح ، أمرُّوها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ^(٢) .

(١) وهذا خاص بالأنبياء والرسل مصداقه قوله تعالى : عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول ...

(٢) أي لا تؤولوها بأراء الناس . بل آمنوا بها مع تنزيه الله تعالى عن الشبه بشيء من خلقه .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ
بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ
لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٥٦)

يقول تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ أي لا تُكْرَهُوا أحداً على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بين واضح ، جلي دلالته وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونور بصيرته ، دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره ^(١) فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً .

وقد ذكر أن أسباب نزول هذه الآية : أن الأنصار كانت المرأة منهم تجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لا إكراه في الدين ... ﴾ رواه ابن جرير عن ابن عباس ورواه أبو داود والنسائي عن بNDAR به ، وأبو حاتم وابن حبان من حديث شعبة به ، وهكذا ذكر مجاهد وغيره أنها نزلت في ذلك . وقال محمد بن اسحق عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من بني سالم بن عوف ، يقال له الحصيني . تنصّر ابنه وكان هو رجلاً مسلماً فقال للنبي ﷺ : [ألا أستكرهما فقد أبا إلا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك وهذه الآية منسوخة بآية القتال : ﴿ سدد عَوْْنٌ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

(١) قلت : أي إن عليكم أن تعرضوا للإسلام في عقيدته السمحة الهداية المهدية على الناس . وعلى الناس أن يتدبروها ويطلعوا على أدلتها وحججها وبراهينها التي هي في مستوى مفاهيمهم ولا شك . لأن الله تعالى جعل الإسلام من السهولة والساحة لدرجة : أن الناس في مقدورهم بما وهبهم الله من عقل وفهم أن يتدبروه على اختلاف درجاتهم في ذلك ... اللهم إلا أن يكون مجنوناً أو ما يشبه فلا يكون مكلفاً . وما سوى ذلك من الإنس والجن فمكلفون أن يفهموا ويتدبروا كما أراد الله وأمر فان اتخذوه ديناً يسره الله لهم وأعانهم على ذلك . ومن ركب رأسه ، وتمصّب لباطله رغم فهم الأدلة ، وأعرض عن الإسلام فان الله تعالى جزاء طغيانه : يعمي قلبه ، ويختم على سمعه وبصره جزاء وفاقاً وذلك كقوله تعالى : «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى» .

وعلى هذا فإنه يجب أن يُدعى جميع الأمم إلى الدخول في الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه، أو لم يبذل الجزية، قُتل حتى يقتل هو هذا معنى الإكراه. وفي الصحيح : ٤٠٩ [عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل] أي الأسارى يُقدّم بهم بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة. وقوله تعالى : ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾^(١) ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم. ﴿أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله، ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا الله. والطاغوت الشيطان فإنه يشمل كل شر. كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها.

وقوله تعالى : ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب وشبه ذلك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم لأنها في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوي شديد والعروة الوثقى هي الإيمان والإسلام. ولا تنافي بين من قال هذا ومن قال بهي لا اله إلا الله أو هي القرآن، أو هي الحب في الله والبغض في الله وكل ذلك صحيح. وقال معاذ بن جبل في قوله ﴿لا انفصام لها﴾ دون دخول الجنة. روى الإمام أحمد عن محمد بن قيس بن عباد قال : ٤١٠ [كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه اثر من خشوع، فصلى ركعتين أوجز فيهما فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس، قالت له : ان القوم لما دخلت المسجد، قالوا : كذا وكذا قال : سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم... إني رأيت كأنني في روضة خضراء - قال ابن عون^(٢)، فذكر من خضرتها وسعتها - وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلى عروة، فقيل لي إصعد عليه، فقلت : لا أستطيع، فجاءني منصف - قال ابن عون : هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي فقال : اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال : استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، فقال : «أما الروضة، فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما

(١) قلت : قدم هنا الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله وفي ذلك إشارة لطيفة إلى وجوب تطهير القلوب أولاً ونزع ما فيها من الإيمان بالطاغوت حتى إذا فرغت وطهرت ملئت بالإيمان بالله وتشربت بذلك، عندها لا يمكن إلا أن يكون الله حافظاً لها فلا يستطيع أحد أن ينتزع هذا الإيمان الراسخ منها فتستمسك بالعروة الوثقى (٢) أحد رواة الحديث الوارد في السند.

العروة فهي العروة الوثقى ، انت على الإسلام حتى تموت [أخرجاه في الصحيحين وهو (عبدالله بن سلام) رضي الله عنه وأرضاه .

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٥٧)

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي السهل ، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يُزَيِّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿ أولئك اصحاب النار هم فيهم خالدون ﴾ ولهذا وحَّد تعالى لفظ النور ، وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد ، والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ
الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُنْحِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ
فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥٨)

هذا الذي حاجَّ ابراهيم في ربه هو ملك بابل نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح . ومعنى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ أي في وجود ربه ، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، وما حمله على هذا ... إلا تجسُّره ، وطول مدته في الملك . ولذا قال تعالى : ﴿ ان آتاه الله الملك ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعوا إليه فقال إبراهيم : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أي هو محدث الأشياء من العدم ، ويعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ، ضرورة ،

لأنها لم تحدث من نفسها فلا بد لها من موجد أوجدها ، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له قال النمرود : ﴿ أنا أحبي وأميت ﴾ وذلك أنني أوتي بالرجلين قد استحقا القتل فأمر فيقتل أحدهما ، وأمر بالعمو عن الآخر فلا يقتل . هذا ما قاله قتادة وغيره -والظاهر والله أعلم - أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ، وإنما أراد النمرود أن يدعي الربوبية عناداً ومكابرةً ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت . ولهذا قال له إبراهيم : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ أي إذا كنت أنت تحيي وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، (وهذه الشمس جزء صغير من هذه المخلوقات) ، وهي تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهاً كما تدعي فأت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه عن المكابرة بُهت أي أخرس ... وقامت عليه الحجة ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يلهيهم حجة ولا برهاناً . بل حجتهم داحضة ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . وقول المنطقيين : إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى دليل أوضح منه ... وليس كما قالوه ... بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ولدحض ما ادعاه النمرود في الأول والثاني والله الحمد والمنة .^(١)

أما النمرود ، فقد ظل معانداً رغم خرسه عن الجواب ، ولم يؤمن بالله تعالى الذي هو يحيي ويميت لذا فقد أرسل الله عليه وعلى قومه بآباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاماً بالية ودخلت واحدة منها في منخري الملك ، عذبه الله بها فكان يضرب برأسه بالمرازب مدةً من الزمن حتى أهلكه الله بها .^(٢)

(١) قلت : رحم الله ابن كثير فقد أوتي في هذا المعنى الذي فسر به هذه الآية بياناً شافياً للمقامين ، جزاء الله خيراً وحباه من فضله رحمة ومفكرة ، وغرفاً في جنات النعيم

(٢) قلت : هذا الذي ادعى أنه يحيي ويميت لم يستطع أن يميت بعوضة صغيرة دخلت منخريه وسببت له ألماً لم يعالجه إلا بالمرازب وقيل بالذمال حتى هلك ... وفي هذا عبرة للمعتبرين . أجل عجز عن أن يميت بعوضة آذته وأودت بحياته والإماتة مستطاعة ، فهذا المستطاع عجز عنه ، فكيف إذا كلف أن يحيي بعوضة ماتت ، أو جناح بعوضة ... فسيحانك ربي ما أعظمك .

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

تقدم قوله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ وهو في قوة قوله : هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه ، ولهذا عطف عليه بقوله تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ اختلفوا في هذا المار من هو ... ؟ أهو عزيز أم الخضر أو هو أرميا بن حلقيا ، أو حزقييل بن بوار ، أم هو رجلٌ ما من بني إسرائيل ، ولعله العزيز أما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس ، مرَّ عليها بعد تخريب (بمختصر) لها وقتل أهلها ﴿وهي خاوية﴾ أي ليس فيها أحد .

وقوله تعالى : ﴿على عروشها﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على الأرض ، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، وقال : ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى شدة خرابها ، واستبعاد عودتها لعمرائها . قال الله تعالى : ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ فبعد مضي سبعين سنة على موته ، عمرت البلدة وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها . فلما بعثه الله عز وجل بعد مئة عام من موته ، كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه ، لينظر بهما إلى صنع الله فيه : كيف يحيي بدنه فلما استقل سوياً ﴿قال﴾ الله له ، أي بواسطة الملك ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنه لما مات كان ذلك أول النهار ولما بعثه بعد مائة عام كان ذلك في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ، ظن أنها شمس ذلك اليوم ! فقال : ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴿فقد كان معه عنب وتين وعصير فوجده لم يتغير﴾ وانظر إلى حمارك ﴿كيف يحييه الله عز وجل ، وأنت تنظر﴾ ولنجعلك آية للناس ﴿أي دليلاً على المعاد﴾ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ﴿أي نرفعها ، فيركب بعضها على بعض ، وقرئ﴾ ننشزها ﴿

أي نحيبها ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ فبعد تفرقها يمينا ويساراً بعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع حوله ، ثم ركب كل عظم موضعه ، حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم فيها ، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً ، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخرني الحمار ، فنهق. كله بإذن الله عز وجل ، وذلك كله بمأى من العزيز فلماً تبين له هذا كله. ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ أي أنا عالم بهذا ، وقد رأيته عياناً ، فأنا أعلم أهل زمانى بذلك .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦٠)

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام ، أسباباً منها أنه لما قال النمرود : ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة ، فقال : ﴿رب أرنى كيف تحيي الموتى﴾ . قال ألم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٤١١ [نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿رب أرنى كيف تحيي الموتى﴾ ، قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي] وكذا رواه مسلم ، فليس المراد ههنا بالشك الذي قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف . وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أحدها : ... (١)

(١) هنا يباين ... ولم يذكر المفسر الحافظ ابن كثير الأجوبة ... ولتمام الفائدة نذكر ما ذكره البغوي في تفسيره حكاية عن محمد بن اسحق بن خزيمة عن أبي إبراهيم اسماعيل بن يحيى المزني أنه قال: جعل هذا الحديث : لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكنا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا ؟ ... ففي الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ، ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَخَذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَهْنَ إِلَيْكَ ﴾ أي أوثقهن واذبحهن وقطعهن . فلماً أوثقهن ذبحهن ، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً بعد أن قطعهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن . قال ابن عباس : وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهم فدعاهن كما أمره الله عز وجل ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حذته ، وأتينه يمشين سعيّاً ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدّم له غير رأسه أباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركّب مع بقية جسده بحول الله وقوته . ولهذا قال : ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء وما شاء كان بلا ممانع ، لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره . قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن أيوب في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ قال : قال ابن عباس : ما في القرآن آية أرجى عندي منها . وقال ابن أبي حاتم عن ابن المنكدر أنه قال : لالتقى عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص : أي آية في القرآن أرجى عندك فقال ابن عمرو بن العاص : قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا ... ﴾ الآية فقال ابن عباس : لكن أنا أقول قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى ﴾ فرضي من إبراهيم قوله ﴿ بَلَى ﴾ قال فهذا لما يعترض في النفوس ، ويوسوس به الشيطان . وهكذا رواه الحاكم وصححه .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦١)

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعني في طاعة الله من الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك . وعن ابن عباس : الجهاد والحج يضَعَّفُ الدرهمُ فيهما إلى سبعمائة ضعف ولهذا

قال : ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة ، فإن فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمّيها الله عز وجل لأصحابها ، كما ينمّي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف .

روى أحمد عن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقية مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ : ٤١٢ [آتَيْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ] ورواه مسلم والنسائي .

وقوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ أي بحسب اخلاصه في عمله ، وقد تقدم حديث أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة في تضعيف الحسنة إلى ألفي ألف حسنة عند قوله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرصاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة ﴾ ^(١) ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي فضله واسع كثير، أكثر من خلقه ، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه وبحمده .

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْأً وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ * (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى

وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * (٢٦٤) ﴿

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منأً على ما أعطوه ، فلا يمتنون به على أحد ، ولا يمتنون به لا بقول ولا بفعل . وقوله تعالى : ﴿ ولا أذى ﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه بكرهاً محبطون به ما سلف من الإحسان ، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك . فقال تعالى : ﴿ لهم

أجرهم عند ربهم ﴿ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه . ﴾ ولا خوف عليهم ﴿ فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة . ﴾ ولا هم يحزنون ﴿ على ما خلفوا وراءهم من الحياة الدنيا وبهجتها . ثم قال تعالى : ﴿ قول معروف ﴾ أي من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿ ومغفرة ﴾ أي عفو وغفر عن ظلم ﴿ خير من صدقة يتبعها أذى ﴾ والله ﴿ غني ﴾ عن خلقه ﴿ حلیم ﴾ أي يحلم ويغفر ويصفح . وقد وردت أحاديث في النهي عن المن في الصدقة ، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ٤١٣ [ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى ، والمسبل لإزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب] .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى ، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ؛ ثم قال تعالى : ﴿ كالذي ينفق ماله رياء الناس ﴾ أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من رآى بها الناس ، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله ، وإنما قصده مدح الناس له ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية ، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته . ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه : ﴿ فمثل كمثل صفوان ﴾ وهو الصخر الأملس ، ﴿ عليه تراب فأصابه وابل ﴾ وهو المطر الشديد ﴿ فركه صلداً ﴾ أي أملس يابساً لم يبق عليه شيء من ذلك التراب ، وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب . ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يقدرון على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢٦٥)

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك ، ﴿ وتثبيئاً ﴾ من أنفسهم ﴿ أي متحققون يقيناً أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ، ونظير هذا في معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح المتفق عليه : ٤١٤ (من صام رمضان إيماناً واحتساباً) أي مؤمناً بشرعيته ومحسباً ثوابه عند الله .

وقوله تعالى : ﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ أي كمثل بستان في مرتفع من الأرض ، تجري فيه الأنهار . وقوله تعالى : ﴿ أصابها وابل ﴾ وهو المطر الشديد ، كما تقدم ، ﴿ فانت أكلها ﴾ أي ثمرتها ﴿ ضعفين ﴾ أي بالنسبة لغيرها من الجنان ﴿ فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ أي اللين من المطر لا تحمل أبداً لأنها إن لم يصبها وابل فطل ، وأياً ما كان ، فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً بل يتقبله الله ويكثره ، كل بحسب عمله ، ولهذا قال : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفي عليه من أعمال عباده شيء .

﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ
ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢٦٦)

قال البخاري عند تفسير هذه الآية عن عبيد بن عمير ، قال : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب رسول الله ﷺ : فيمن ترون هذه الآية نزلت ؟ ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جنة من نخيل وأعنان ﴾ قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر فقال : قولوا : نعلم أولاً نعلم فقال ابن عباس رضي الله عنهما : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ضربت مثلاً بعمل ، قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غني يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي ، حتى أغرق أعماله .

وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية ، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ... ثم انعكس سيره فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه من الصلاح ، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال فلم يحصل منه شيء ، وخانه أحوج ما كان إليه . ولهذا قال تعالى ﴿ وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار ﴾ وهو الريح الشديد ﴿ فيه نار فاحترقت ﴾ أي أحرق ثمارها ، وأباد أشجارها ، فأبي حال يكون حاله ؟ وكذلك حال الكافر يكون يوم القيامة إذا رُدَّ إلى الله عز وجل ، ليس له خير فيستعجب كما ليس لهذا قوة فيغرس بستانه . ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه ، كما لم يغرن عن هذا ولده .

وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه ، كما حرم هذا جنته عند ما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته . ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني ، وتترلونها على المراد منها . كما قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِصُّوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * (٢٦٩)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإِنفاق والمراد به الصدقة ههنا ، قال ابن عباس : من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها ، وقال أيضاً : أمرهم بالإِنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيته وهو خبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . ولهذا قال : ﴿ ولا تيمموا الخبيث ﴾ أي تقصدوا الخبيث ﴿ منه تنفقون ولستم بآخذيهِ ﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه ، إلا أن تتغاضوا فيه فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون . نزلت في جماعة من الأنصار كانوا يتصدقون برديء التمر ...

وقوله تعالى : ﴿ إلا أن تغمضوا فيه ﴾ يقول : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه ، فكيف ترضون لربكم ما لا ترضون لأنفسكم؟ وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه؟! رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ورواه ابن جرير وزاد فيه وهو قوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله غني حميد ﴾ أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها

فهو غني عنها ، وما ذاك إلا لساوي الغني الفقير . كقوله تعالى : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . ﴾ وهو غني عن جميع خلقه ، وجميع خلقه فقراء إليه وهو واسع الفضل ، لا ينفد ما لديه ؛ فمن تصدق بصدقة من كسب طيب ، فليعلم أن الله غني واسع العطاء ، كريم جواد وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة ، فالذي يقرضه غير عديم ولا ظلوم ، وهو الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وقوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً ﴾ والله واسع عليم . ﴿ روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٤١٥ [إن للشيطان لمةً بآدم ، وللملئكة لمةً ، فأما لمةُ الشيطان ، فإيعاد بالشرك وتكذيب بالحق . وأما لمةُ الملئكة فإيعاد بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله ؛ ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان] - ثم قرأ - : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً ﴾ [الآية ... رواه الترمذي والنسائي وأخرجه ابن حبان في صحيحه .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ أي يخوفكم الفقر لتُسيروا ما بأيديكم فلا تُنفقوه في مرضاة الله . ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ وإضافةً إلى ذلك يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ، ومخالفة الخلاق . قال تعالى : ﴿ والله يعدكم مغفرةً منه ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿ وفضلاً ﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر. ﴿ والله واسع عليم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ يعني المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله قاله ابن عباس .

وقد روى ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً : ٤١٦ [رأس الحكمة مخافة الله] وقال مجاهد : الحكمة الإصابة بالقول ، وقال ليث بن سليم : العلم والفقه والقرآن ، وقال أبو العالية : الحكمة خشية الله ، وقيل الفهم ، وقيل السنة ، وقيل العقل وقال مالك هو الفقه في الدين وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله وقال السدي : الحكمة النبوة .

والصحيح : ما قاله الجمهور : لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها ، وأعلاها النبوة ، والرسالة أخص ؛ ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع كما جاء في بعض الأحاديث :

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ : ٤١٧ [لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها] وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق متعددة عن اسماعيل بن أبي خالد . وقوله تعالى : ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ أي وما ينتفع بالوعظة والتذكار إلا من له لب وعقل ، يعني به الخطاب ومعنى الكلام .

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا ﴾
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * (٢٧٠) إِنَّ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * (٢٧١) ﴿

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده . وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره ، وكذب خبره ، وعبد معه غيره . فقال : ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته .

وقوله تعالى : ﴿ إن تبدو الصدقات فنعماً هي ﴾ أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي . وقوله تعالى : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ فيه دلالة على إن إسرار الصدقة خير من إظهارها ، لأنها أبعد عن الرياء إلا اذا كان القصد اقتداء الناس به فذلك أفضل . والأفضل في الأصل الإسرار . ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة من حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : ٤١٨ [... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه]

وقال رسول الله ﷺ : ٤١٩ [الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة .] وإن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة ولكن روى ابن جرير عن ابن عباس في تفسيره هذه الآية قال : جعل الله صدقه السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سرّاً يحصل لكم الخير في رفع الدرجات، ويكفر عنكم السيئات . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزىكم عليه .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ لِخَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٧٤)

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ٤٢٠ [أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ فأمر بالصدقة على كل من سأل من كل دين] ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِقُوا ﴾ كقوله : ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلِنَفْسِهِ ﴾ ونظائرها في القرآن كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ قال عطاء الخراساني : يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله ، وهذا معنى حسن . وحاصله : أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله تعالى فقد وقع أجره على الله سبحانه ، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب البرّ أو الفاجر أو مستحق أو غيره ، وهو مثاب على قصده ، ومستند هذا تمام الآية : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

والحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٢١ [قال رجل لأصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يدرانية فأصبح الناس يتحدثون

تصدق على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأن تصدقن الليلة بصدقة فوضعها في يد غني ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غني . قال : اللهم لك الحمد على غني ، لأن تصدقن الليلة بصدقة ، فخرج فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق ، فأُتي فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، وأما الزانية فاعلمها أن تستعفف بها عن زناها ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق أن يستعفف بها عن سرقة . وقوله تعالى : ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ يعني المهاجرين الذين قد أنقطعوا إلى الله ورسوله وسكنوا المدينة ، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و ﴿ لا يستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ يعني سفرًا للتسبب في طلب المعاش والضرب في الأرض هو السفر. قال الله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالمهم وفي هذا المعنى الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال : ٤٢٢ [قال رسول الله ﷺ : ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده الثمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، والأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً] وقد رواه أحمد وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال : ٤٢٣ [سرحني أُمي إلى رسول الله ﷺ أسأله ، فأتيته فقعدت ، قال فاستقبلني فقال : « من استغنى أغناه الله ، ومن استعفف أعفاه الله ، ومن استكف كفاه الله ، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد أحلف . قال فقلت (في نفسي) ناقتي الياقوتة خير من أوقية ، فرجعت فلم أسأله]

وقوله تعالى : ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه وسيجزى عليه أوفر الجزاء يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات ، حتى النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً روى الإمام أحمد عن أبي (١) مسعود رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : ٤٢٤ [إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحسبها كانت له صدقة] أخرجه من حديث شعبة به وقوله تعالى : ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات . ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٧٥)

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات ، المخرجين للزكوات ، المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقربات ، في جميع الأحوال والأوقات ، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات . فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها ، إلى بعثهم ونشورهم . فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخطب الشيطان له وقال ابن عباس : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخفق . رواه ابن أبي حاتم ، وروى عن جمع من التابعين نحو ذلك . وروى ابن جرير عن ابن عباس ، قال : (يقال يوم القيامة لا آكل الربا : خذ سلاحك للحرب ^(١)) ، وقرأ : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ... ﴾ الآية وذلك حين يقوم من قبره . وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل : ٤٢٥ [فأتينا على نهر ، حسبت أنه كان يقول : أحمر مثل الدم ، وإذا في النهر سابع يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابع يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده ، فيفغر له فاه فيلقمه حجراً] وذكر في تفسيره أنه آكل الربا .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا . وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ أي إنما جُوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم ، أي على ما قالوه من الاعتراض ، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً ، وهو العليم الحكيم الذي لا

(١) قلت : وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ... » الآية وأي سلاح يستطيع أن يحمل وقتئذ : ... ؟ الجواب لا سلاح .. ولا حجة . فكيف حاله أمام حرب الله له إذ ذاك ؟ اللهم أجركم من عذابك .

معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده ، فيبيحه لهم ، وما يضرهم فينهاهم عنه ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل . ولهذا قال : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه ، فله ما سلف من المعاملة ؛ لقوله : ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة ٤٢٦ : [وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ، وأول ربا أضع ربا العباس] ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف ، كما قال تعالى : ﴿ فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ . أيما كان كل من الربا قبل التحريم . روى ابن أبي حاتم عن العالية بنت أبقع : ٤٢٧ [ان عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم بحنة أم ولد زيد ابن أرقم : يا أم المؤمنين : أتعرفين زيد بن أرقم ؟ قالت : نعم قالت : فلاني بعته عبداً إلى العطاء بشمانمائة ، فاحتاج إلى ثمنه ، فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة فقالت : بشس ما اشتريت وبشس ما اشتريت ؛ أبلغني زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ قد بطل إن لم يتب ، قالت : فقلت أرأيت إن تركت المتين واخذت الستمأة ؟ قالت : نعم ﴾ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ [وهذا الأثر مشهور . وهو دليل لمن حرم مسألة العينة ، مع ما جاء فيها من الأحاديث ...

ثم قال تعالى : ﴿ ومن عاد ﴾ إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة ولهذا قال تعالى : ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقد قال أبو داود عن جابر قال : لما نزلت ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم ... ﴾ الآية قال رسول الله ﷺ : ٤٢٨ [من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله] ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

وإنما حرمت المخابرة : وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض ، والمزابنة : وهي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالنمر على وجه الأرض . والمحاقلة : وهي اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض . إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف . ولذا فقد ضيق الفقهاء المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه وحرموها . لأن ما أفضى إلى الحرام حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم فالأصل اتقاء الشبهات . وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٢٩ [ان

الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتهيات ، فمن أتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه . [وفي السنن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٣٠] [دع ما يريبك إلى ما لا يريبك] وفي الحديث الآخر ٤٣١ [الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن يطَّلَعَ عليه الناس]

وعن ابن عباس قال : آخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، آية الربا رواه البخاري وروى أحمد عن عمر قال : من آخر ما نزل آية الربا وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا فدعوا الربا والريبة .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٤٣٢ [« يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا » قال : قيل له : الناس كلهم؟ قال نعم لم يأكله منهم فإله من غباره] ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجة . ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات ، الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عائشة ، قالت : ٤٣٣ [لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن ، فحرم التجارة في الخمر] وقد أخرجه الجماعة ، سوى الترمذي من طرق عن الأعمش به وهكذا لفظ رواية البخاري . وعن علي وابن مسعود قوله ﷺ : ٤٣٤ [لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه] .

﴿ يَمَحَقُ اللَّهُ الرُّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * (٢٧٧) ﴿

ينبغي تعالى أنه يمحى الربا ، أي يذهب إيا بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعدمه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وما آتيتهم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ روى أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ ، قال : ٤٣٥ [إن الربا وإن كثُر فإن عاقبته تصير إلى قل] وهذا من باب

المعاملة ، بنقيض المقصود. وقوله تعالى : ﴿ ويربي الصدقات ﴾ قرىء بضم الياء والتخفيف ، من ربا الشيء يربو وأرباه يريه ، أي كثره ونمّاه . وقرىء يربي بالضم والتشديد من التربية .. روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه ، حتى يكون مثل الجبل] وقوله تعالى : ﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل ، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة ، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله من الحلال له فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل ، بأنواع المكاسب الخبيثة ، فهو جحود لما عليه من النعمة ، ظلوم أثم بأكل أموال الناس بالباطل .

ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين برهبهم ، المطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة ، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُفُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٨١)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بتقواه ، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ، ويبعدهم عن رضاه . فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿ وذرُوا ما بقي من الربا ﴾ أي أتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال ، بعد هذا الأنداز ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك . [وقد ذكر زيد بن أسلم وغيره أن هذا السياق نزل في بني عمر بن عمير من ثقيف ،

وبني المغيرة من بني مخزوم ، كان بينهم ربا في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه ، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم ، فتشاوروا وقالت بني المغيرة لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب ابن أسيد ، نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فترلت هذه الآية ؛ فكتب بها رسول الله ﷺ إليه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ فقالوا : نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا فتركوه كلهم] ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الأنداز ، قال ابن جريج قال ابن عباس : فأذنوا بحرب أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله . وقال ابن أبي حاتم عن الحسن وابن سيرين قالا : والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا وأنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم فإن تابوا وإلا قتلوا . وقال قتادة : أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون ، وجعلهم بهرجاً أين ما أتوا ، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه ، فلا يلجأنكم إلى معصيته فاقة .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ﴾ بأخذ الزيادة ﴿ ولا تظلمون ﴾ أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً بل لكم ما بذلت من غير زيادة عليه ولا نقص منه . وقوله : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاءً ، لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين : إما أن تقضي وإما أن تُربي . ثم يندب الله إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل ؛ فقال : ﴿ وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي وأن تركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين ؛ وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ بذلك :

روى الطبراني عن أبي أمامه أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٣٨ [من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ، فليسر على معسر أو ليضع عنه]

روى الإمام أحمد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : ٤٣٩ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة » قال ثم سمعته يقول : « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة . » قلت : سمعتك يا رسول الله تقول : من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة ثم سمعتك تقول من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة . قال : له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثله صدقة .]

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٤٤٠ [كان تاجر

يدين الناس ، فإذا رأى معسراً قال لفتيانہ : تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه [ثم قال تعالى يعظ عباده ، ويذكرهم زوال الدنيا ، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته فقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول ؛ رواه ابن أبي حاتم . وقد رواه ابن مردويه عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ قال ابن جريج : يقولون : إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليالٍ وبدء يوم السبت ومات يوم الاثنين رواه ابن جرير .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَنْخَسِ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ يَمْنُنَ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّوْا فَإِنَّهُ فَسُقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * (٢٨٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ، ليكون ذلك أحفظ لمتنadarها وميقاتها ، وأضبط للشاهد فيها ؛ وقد نبّه على هذا في آخر الآية حيث قال عز وجل ﴿ ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ﴾ وقال سفيان الثوري عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ قال : أنزلت في السّلم إلى أجل معلوم . وقال أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه . ثم قرأ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ﴾ رواه البخاري وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والستين والثلاث ؛ فقال رسول الله ﷺ : ٤٤١ [من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم .] وقوله : ﴿ فاكتبوه ﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثيق والحفظ . والأمر هنا أمر إرشاد لا أمر إيجاب . وقال أبو سعيد والشعبي والربيع بن أنس وغيرهم : كان ذلك واجباً ، ثم نسخ بقوله تعالى ﴿ فإن أمن بعضهم بعضاً فليؤدّ الذي أئتمن أمانته ﴾ (١) روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ انه ذكر : ٤٤٢ [إن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : لائنني بشهداء أشهدهم . قال : كفى بالله شهيداً قال : لائنني بكفيل ؛ قال : كفى بالله كفيلاً . قال : صدقت . فدفعها إليه إلى أجل مسمى . فخرج في البحر فقصى حاجته ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثم زجّج موضعها ، ثم أتى بها البحر ثم قال : اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار ، فسألني كفيلاً ، فقلت : كفى بالله كفيلاً ، فرضي بذلك ، وسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضي بذلك ؛ وإني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجده مركباً ، وإني استودعتكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه . ثم انصرف ، وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعلّ مركباً يجيئه بما له ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهدت في طلب مركب لأتيك بمالك فما وجدت

(١) نسخ الوجوب في الكتابة ، لا الكتابة نفسها ؛ والكتابة أفضل .

مركباً قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إليّ بشيء ؟ قال ألم أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه ؟ قال : فإن الله قد أدّى عنك الذي بعثت به في الخشبة . فانصرف بأفكك راشداً . [وهذا إسناد صحيح وقد رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم .

وقوله تعالى : ﴿ فليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ أي بالقسط والحق ولا يَجُرُّ في كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان . وقوله تعالى : ﴿ ولا يَأْبَ كاتب أن يكتب كما علّمه الله فليكتب ﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس بولا ضرورة عليه في ذلك ، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم ، فليصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب . كما جاء في الحديث : ٤٤٣ [إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق] وقوله تعالى : ﴿ وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ﴾ أي وليملل المدين على الكاتب ، ما في ذمته من الدين ، وليتق الله في ذلك . ﴿ ولا يبخس منه شيئاً ﴾ أي لا يكتّم منه شيئاً . ﴿ فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً ﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه . ﴿ أو ضعيفاً ﴾ أي صغيراً ، أو مجنوناً . ﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾ إما لعي أو جهل بموضع الصواب . ﴿ فليملل وأتبه بالعدل ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واسعشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق . ﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال ، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة . كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ انه قال : ٤٤٤ [يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار] فقالت المرأة منهن جزلة : وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار قال : ﴿ تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب منكن ﴾ قالت : يا رسول الله : ما نقصان العقل والدين ؟ قال أما نقصان عقلها ، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل ، فهذا نقصان العقل ؛ وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين » [

وقوله تعالى : ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً . وقوله تعالى : ﴿ أن تضلّ إحداهما ﴾ يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿ فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يَأْبَ الشهداء إذا ما دُعوا ﴾ قيل معناه : إذا دُعوا للتحمّل ^(١)

(١) قلت : التحمل هو : دعوتك لشهد واقعة حال .

فعلیهم الإجابة ومن ها هنا استفيد أن تحمّل الشهادة فرض كفاية ، وقيل وهو مذهب الجمهور والمراد بقوله تعالى : ﴿ ولا يَأْبَ الشهداء إذا ما دُعُوا ﴾ للأداء ^(١) قال مجاهد وغيره : إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار ، وإذا شهدت فدعيت فأجب. وقد روي عن ابن عباس أنها تعم الحالين : التحمّل ، والأداء . وقوله تعالى : ﴿ ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ﴾ أي ولا تسأموا أي لا تملّوا أن تكتبوا الحق على أي حال من القلة والكثرة إلى أجله . وقوله تعالى : ﴿ ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به أعدل وأقوم للشهادة أي أثبت للشاهد إذا رأى خطه تذكر به الشهادة لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه وأقرب إلى عدم الريبة ويرجع عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة .

وقوله : ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ﴾ أي إذا كان البيع حاضراً يبدأ بيد فلا بأس بعدم الكتابة لانقضاء المحذور من تركها .

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى : ﴿ وأشهدوا إذا تباعتم ﴾ يعني أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل ، أو لم يكن فيه أجل . وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب ، لا على الوجوب . والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري وقد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي ﷺ ٤٤٥ [إن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ ليقتضيه ثمن فرسه ، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي ، ففطق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال : إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعته ؛ فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي ، قال : أوليس قد ابتعته منك ؟ قال الأعرابي : لا والله ما بيعتكم ؛ فقال النبي ﷺ : بل قد ابتعته منك ، ففطق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي ، وهما يتراجعان ، ففطق الأعرابي يقول : هلم شهيداً يشهد أنني بايعتكم ، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول : هلم شهيداً يشهد أنني بايعتكم ؛ قال خزيمة : أنا أشهد أنك قد بايعته فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال : بم تشهد ؟ فقال : بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين . [وهكذا رواه أبو داود والنسائي .

(١) والأداء : تأديتك الشهادة بما رأيت من تلك الواقعة التي دعيت لحضورها .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : قال (يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة ، فيقولان : إننا على حاجة : فيقول إنكما قد أمرتما أن تجيئا ، فليس له أن يضارهما. وروى عن عكرمة ومجاهد وطاوس وغيرهم نحوه. وقوله تعالى : ﴿ وإن فعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتهم عنه فإنه فسق. كأن بكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون . وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره . ﴿ ويعلمكم الله ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كهلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي عالم بخاصة الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات .



﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٢٨٣ ﴾

يقول تعالى ﴿ وإن كنتم على سفر ﴾ أي مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿ ولم تجدوا كاتباً ﴾ يكتب لكم ؛ قال ابن عباس : أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلماً فرهان مقبوضة في يد صاحب الحق واستدل جماعة من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر . وقد ثبت في الصحيحين عن أنس ٤٤٦ [ان رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير رهنها قوتاً لأهله] وفي رواية (من يهود المدينة .) (١)

(١) قلت : فيه دليل على أن الرهن يجوز في الحضر * وهناك أمر خطير في تحويل مفهوم الرهن الشرعي إلى احتيال على الشرع ، لاستحلال الربا ويسمونه رهناً . وصورته : أن ترهن دارك أو أرضك أو غير ذلك عند زيد على مبلغ معلوم بشكل تصبح العين المرهونة في حوزة المسترهن يستعملها سكناً أو إسكاناً، أو فلاحاً بلا أي عوض مدة الرهن مع بقاء المبلغ في ذمة الراهن لا ينقص منه شيء، فعوضاً عن أخذ الربا نقداً أخذ أجره وسكناً ... وهذا هو الربا الصريح ... ولا عبرة لتغيير اسمه من ربا إلى «رهن» أو «بيع بالخيار» كما افترق بوجه متأخرة الأحناف وسموه تلك الأسماء «إن هي إلا أسماء سجدتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ... » على أن الرهن المشروع أن ترهن الدار أو الأرض أو غير ذلك دون أن يستثمر المسترهن المرهون وإن فعل المسترهن، فللراهن =

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَقَ أَمَانَتَهُ ﴾ روى ابن أبي ساتم بسند جيد عن أبي سعيد الخدري أنه قال : (هذه نَسَخَتْ ما قبلها) إذا ائتمن بَعْضُكُمْ بَعْضًا فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَقْرَأَنَّ اللَّهَ رِبَّهٗ ﴾ يعني المؤمن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن الحسن وسمرة أن رسول الله ﷺ قال : ٤٤٧ [على اليد ما أخذت حتى تؤدِّيَه]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ أي لا تخفوها. ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبِهِ ﴾ يعني فاجر قلبه . كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّهُ إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وهكذا قال ما هنا : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

﴿ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • (٢٨٤)

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهما ، وأنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقَّت وخفيت . وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : ٤٤٨ [لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾] فاستد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا يا رسول الله : كلَّفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها . فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما

= أجر المثل، يقتطع من أساس المبلغ. حتى يدعى لأن الرهن الشرعي ما هو إلا ضمانته للدين حتى إذا لم يدفع المدين يصار إلى بيع المرهون. هذا إذا كان الراهن قادرًا على الدفع وإلا « فنظرة إلى ميسرة » وهذا هو الرهن الشرعي... وأقوال با (١) قلت : أي قوله تعالى : « ... فاكتبوه » أي نسخ وجوب الكتابة أما الكتابة فبقيت للتدب لا للوجوب

٢٤٦ (٢ - البقرة - ج ٢): كانت المحاسبة على حديث النفس، فقال ﷺ قولوا سمعنا وأطعنا

قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ﴾ فلما أقرَّ بها القوم ونطقت بها ألسنتهم ، أنزل الله في أثرها ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ [إلى آخره ورواه مسلم مفرداً به ولفظه ٤٤٩] فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ قال : نعم ، ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ قال : نعم ، ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ قال : نعم ، ﴿ واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ قال : نعم . [وفي رواية ابن عباس [قد فعلت]

روى البخاري عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أحسبه ابن عمر ٤٥٠] ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ﴾ قال : نسخها الآية التي بعدها [وهكذا ثبت . روي عن علي وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة أنها منسوخة بالتي بعدها .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٥١] قال الله : إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكذبوها سيئة ؛ وإذا همَّ بحسنة فلم يفعلها فاكذبوها حسنة فإن عملها فاكذبوها عشرأ . [

ولفظ مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ٤٥٢] قال الله : إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة ، فإن عملها كتبها له عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف وإذا همَّ بسيئة فلم يعملها لم يكتبها عليه فإن عملها كتبها سيئة واحدة [

وروى مسلم عن عبدالله ، قال : ٤٥٣] سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة (١) ، قال تلك صريح الإيمان [

(١) يعني كراهية الوسوسة

﴿أَمِنْ الرَّسُولِ يَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ
أَمِنْ بِاللَّهِ وَمَلِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ
نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ (٢٨٦)﴾

﴿ ذكر الاحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما ﴾

روى البخاري عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٥٤ [من قرأ بالآيتين
من آخر سورة البقرة في ليلته كفناه] . وهو في الصحيحين .

• قال الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٥٥ : [أعطيت خواتيم سورة
البقرة من كنز تحت العرش]

• روى أبو عيسى الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : ٤٥٦ [إن الله
كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألني عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة
البقرة ، ولا يقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان] ثم قال : هذا حديث غريب
وهكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه

روى ابن مردويه عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ : ٤٥٧ [أعطيت فاتحة
الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش ، والمفصل نافلة]

وقوله تعالى : ﴿ آمَن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ إخبار عن النبي ﷺ بذلك أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت عليه هذه الآية ٤٥٨ [ويحق له أن يؤمن] رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه

وقوله تعالى : ﴿ والمؤمنون ﴾ عطف على الرسول، ثم أخبر عن الجميع فقال : ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد لا إله غيره ولا رب سواه ، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نُسَخَّ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين. وقوله تعالى : ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه وقمنا به وامثلنا العمل بمقتضاه . ﴿ غفرانك ربنا ﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللفظ . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : في قول الله تعالى : ﴿ آمَن الرسول - إلى قوله - غفرانك ربنا ﴾ قال قد غفرت لكم ﴿ وإليك المصير ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب . روى ابن جرير عن جابر قال : ٤٥٩ [لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ آمَن الرسول - إلى قوله - وإليك المصير ﴾ قال جبريل : إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه فسأل : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها ﴾] إلى آخر الآية .

وقوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها ﴾ أي لا يكلف أحداً فوق طاقته ، وهذا من لطفه وإحسانه تعالى وهذه الآية هي النسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ أي هو وإن حاسب وسأل ، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه ، وكرهية الوسوسة السيئة من الإيمان . وقوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت ﴾ أي من خير . ﴿ وعليها ما اكتسبت ﴾ أي من شر . وذلك ما هو ضمن التكليف . ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ أي إن تركنا فرضاً نسياناً أو فعلنا حراماً ، كذلك أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي ^(١) وروى ابن ماجه عن ابن عباس : قال قال : رسول

(١) قلت : ما عدا توحيد الله سبحانه ومعرفته في توحيد الذات والصفات والأسماء والأفعال فهذه لا يعذر صاحبها بالجهل بها إذ أن عليها مدار الإيمان أو الكفر

(٢ - البقرة - ج ٣) : ربنا لا تحمِلنا ما لا طاقة لنا به . واعفُ واغفرْ وارحمْ ٢٤٩

الله ﷺ : ٤٦٠ [إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] ورواه ابن حبان والأوزاعي والطبراني .

روى ابن أبي حاتم عن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال : ٤٦١ [إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث : عن الخطأ والنسيان والاستكراه] ^(١) قال أبو بكر فذكرت ذلك للحسن فقال أجل أما تقرأ بنهك قرآنًا : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة ، وإن أطلقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم ، وبعثت نبيك محمداً نبي الرحمة بوضعها .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، قال : ٤٦٢ [قال الله نعم] وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : ٤٦٣ [قال الله قد فعلت]

وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٦٤ [بُعِثْتُ بِالْخَنِيفَةِ السَّمْحَةِ] وقوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحمِلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء لا تبتلينا بما لا يقبل لنا به . وقوله تعالى : ﴿ واغفر لنا ﴾ أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا . ﴿ واغفر لنا ﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا التبيحة ﴿ وارحمنا ﴾ أي فيما يستقبل ، فلا توقعنا في ذنب آخر . ولهذا قالوا : إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء : أن يغفو الله عنه فيما بينه وبينه ، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم ، وأن يحفظه فلا يوقعه في نظيره . وقد تقدم في الحديث أن الله قال : نعم . وفي الحديث الآخر قال الله : قد فعلت . وقوله تعالى : ﴿ أنت مولانا ﴾ أي أنت وليتنا وناصرنا ، وعليك توكلنا وأنت المستعان وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك . ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أي الذين جحدوا دينك ، وأنكروا وحدانيتك ، ورسالة نبيك ، وعبدوا غيرك ، فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة . قال الله : نعم . وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس . قال الله قد فعلت .

قال ابن جرير عن معاذ بن جبل أنه إذا فرغ من هذه السورة ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ قال : آمين ورواه وكيع عنه . انه كان إذا ختم البقرة قال : آمين

تم اختصار تفسير سورة البقرة وله الحمد

(١) في سنده : شهر فان كان ابن حوشب فضعيف .

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ مَكْنِيَّةٌ وَأَيُّهَا مَائِنَاتٌ

نزلت بعد سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . آ لَمْ . (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ . (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . (٤)

قد ذكرنا الحديث الوارد أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و ﴿الم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ عند تفسير آية الكرسي وقد تقدم الكلام على قوله : ﴿الم﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ؛ وتقدم الكلام على قوله : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ في تفسير آية الكرسي .

وقوله تعالى : ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي لا شك فيه ولا ريب وقوله تعالى : ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المتصلة قبله ، فهي تصدقه بما أخبرت به ، وبشّرت في قديم الزمان من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ ، وأنزال القرآن العظيم عليه . وقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أي على موسى بن عمران ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي على عيسى بن مريم عليهما السلام ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هذا القرآن ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي في زمانهما ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال بما يذكره الله من الحجج والدلائل والبراهين ويوضحه وينبّه عليه من ذلك . وقال قتادة والربيع بن أنس

الفرقان - ها هنا - القرآن وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بها وردّها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي يوم القيامة ، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي منيع الجنبات عظيم السلطان ﴿ذُو انتقام﴾ ممن كذب بآياته وخالف رسله .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ . (٥)
هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (٦)

ينبخر تعالى أنه عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ، وهو الذي يخلقكم في الأرحام كما يشاء ، ذكرأ أو أنثى حسناً أو قبيحاً وشقيماً أو سعيداً ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو الخالق فهو إذاً المستحق للآلهية وحده لا شريك له ، له العزة التي لا ترام ، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تصريح بأن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق سائر البشر ، لأن الله صوّره في الرحم وخلقه كما يشاء ، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصراني ... !!! ؟ وقد تقلّب في الأحشاء وتقلّب من حال إلى حال .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ . (٧) رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . (٩)

ينبغي تعالى ان في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب ، أي واضحات لا التباس فيها على أحد . ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير أو بعض من الناس . فالأصل في ذلك ، ردُّ التشابه إلى المحكم فمن فعل ذلك اهتدى ، ومن عكس انعكس . ولهذا قال : ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ وأخر متشابهات ﴾ أي تحتل دلالتها موافقة المحكم ، أو شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد .

وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فقال ابن عباس : المحكمات : ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وأحكامه ، وما يؤمر به ويعمل به وعنه أيضاً : المحكمات قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتْلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ والآيات بعدها ^(١) وقال يحيى بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام .

والمتشابهات قال أبو فاختة ، فواتح السور . وقيل في المتشابهات : المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقال محمد بن اسحق : المحكمات هن حجة الرب وعصمة العباد ورفع الخصوم الباطل ليس هن تصريح ولا تحريف عما وضعن عليه . والمتشابهات في الصدق ليس هن تصريح ولا تحريف ولا تأويل ، لبث الله فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ، ألا يصرفن إلى الباطل ، ولا يحرفن عن الحق .

ولهذا قال : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ أي خروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فيبتعون ما تشابه منه ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم تحريفه إلى مقاصدهم الفاسدة ، لاحتمال صرف اللفظ ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ، لأنه دافع لهم وحجة عليهم . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصراني بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وتركوا الاحتجاج بقوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ وغير ذلك من الآيات

المحكّمات الصريحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله .

وقوله تعالى : ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ أي تحريفه على ما يريدون . مثل أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء وروى البخاري ومسلم وأبو دواد عن العقبني ... عن عائشة رضى الله عنها قالت : ٤٦٥ [قال رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب - إلى قوله - وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ قالت : قال رسول الله ﷺ : « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم »] لفظ البخاري وكذا رواه الترمذي .

روى الامام أحمد ... عن أبي أمامة يحدث عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ٤٦٦ ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ قال « هم الخوارج » وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنه الخوارج . وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي ﷺ غنائم حنين فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ، ففجأوه بهذه المقالة ... فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة : أعدل فإنك لم تعدل ؛ فقال رسول الله ﷺ : ٤٦٧ [لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ، أيامني على أهل الأرض ولا تأمنوني ! فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب وفي رواية خالد بن الوليد في قتله ؛ فقال دعه .. فانه يخرج من ضيضيء هذا ، أي من جنسه ، قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم] ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب ، وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة ، ثم انبعثت القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية وغير ذلك من البدع ، التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله : ٤٦٨ (وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة . قالوا وما هم يا رسول الله ؟ قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي) أخرجه الحاكم بهذه الزيادة في مستدركه .

وقوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا ، فقيل على الجلالة ؛ كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء : (فتفسير لا يعذر أحد في جهله به ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه

الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله) روى ابن مردويه بسنده إلى ابن العاص ، عن رسول الله ﷺ قال : ٤٦٩ [ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به .] روى عبد الرزاق عن ابن طاووس عن أبيه قال : كان ابن عباس يقرأ وما يعلم تأويله إلا الله . ويقول الراسخون آمنا به . وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله . وعن ابن جرير إن في قراءة عبدالله بن مسعود : أن تأويله عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به . وكذا عن أبي بن كعب ، واختار ابن جرير هذا القول .

روى محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير : وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ثم ردوا تأويل المشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمات التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد . فأتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً فنفذت الحجة ، وظهر به العذر وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لأبن عباس فقال : ٤٧٠ [اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل .]

وقوله تعالى لإخباراً عنهم أنهم يقولون : ﴿ آمنا به ﴾ أي المتشابه ﴿ كل من عند ربنا ﴾ أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق ، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد ، كقوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما يذكر إلا أولو الأبواب ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها ، أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة . روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ٤٧١ [سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارءون . فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمي .]

ثم قال تعالى عن الراسخين في العلم أنهم دعوا ربهم قائلين : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ أي لا تُملها عن الهدى بعد إذ أقمها عليه ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ﴿ وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ ثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيقاناً وإيماناً ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ . روى ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ٤٧٢ [كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قلت : يا رسول الله ما أكثر

(٣ - آل عمران ج ٣) : قلوب العباد بيد الله - أموال الكفار وقود أهلها في جهنم ٢٥٥

ما تدعو بهذا الدعاء ؛ فقال : ليس من قلب إلاّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاعه ، أما تسمعي قوله : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ انك أنت الوهاب ﴿ غريب من هذا الوجه ولكن أصله ثابت في الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة .
وقوله تعالى : ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ أي يقولون في دعائهم :
إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، ونجزى كلا بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر .

﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ (١٠) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١١)

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار ﴾ أي حطبها الذي تسجر به كقوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وروى ابن مردويه بسنده عن أم الفضل : ٤٧٣ [ان رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة ، فقال : هل بلغت يقولها ثلاثاً ؛ فقام عمر بن الخطاب وكان أواها ، فقال : اللهم نعم ، وحرصت وجهدت ، ونصحت ، فاصبر فقال النبي ﷺ « ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى موطنه ، وليخوضن رجال البحار بالاسلام ، وليأتين على الناس زمان يقرأون القرآن ، فيقرأونه ويعلمونه ، فيقولون : قد قرأنا وقد علمنا ، فمن هذا الذي هو خير منا ؟ فما في أولئك من خير قالوا يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال أولئك منكم ، أولئك هم وقود النار] .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي كصنيع آل فرعون ، والمعنى أن الكافرين لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين لارسل فيما جاء وابه من آيات الله وحججه ﴿ والله شديد العقاب ﴾ أي شديد الأخذ ، أليم العذاب ، لا يمتنع منه أحد وهو الفعال لما يريد الذي غلب كل شيء ، لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝ (١٣) ﴾

ذكر محمد بن اسحق : أن رسول الله ﷺ [لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود وقال « يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب به قريشاً » فقالوا ، يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرأ من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ - إلى قوله - لعبرة لأولي الأبصار ﴾ [أي قل يا محمد للكافرين ستغلبون في الدنيا ، وتحشرون يسوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد . ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ أي عبرة ﴿ في فئتين ﴾ أي طائفتين ﴿ التقتا ﴾ للقتال ﴿ ففئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ أي يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْن ﴾ أي جعل ذلك سبباً لنصرة المسلمين عليهم . هذا ما حكاه ابن جرير عن بعض العلماء .

كما روى محمد بن اسحق عن عروة بن الزبير ٤٧٥ [أن رسول الله ﷺ لما سأل العبد الأسود لبني الحجاج عن عدة قريش قال كثير قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قال : يوماً تسعاً ويوماً عشراً قال النبي ﷺ : القوم ما بين تسعماً إلى ألف]

والظاهر أن الله تعالى قلل المشركين في أعين المسلمين ، وقلل المسلمين في أعين المشركين وذلك لما حصل التصاف ليقدّم كل منهما على الآخر ، ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَفِيتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ ولما التحم الجيشان بقي المسلمون يرون المشركين قليلاً . قال أبو إسحق ، عن عبد الله بن مسعود لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي : تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مئة قال فأسرنا رجلاً منهم ، فقلنا كم كنتم ؟ قال ألفاً ، أما المشركون فرأوا المسلمين مثلهم ليحصل الرعب والخوف والجزع والهلع في قلوبهم وذلك قوله تعالى : ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْن ﴾ أي رأوهم ألفين بأعينهم تأييداً من الله للمسلمين ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝ (١٣) ﴾

ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴿ أي يعز المؤمنين ويذل الكافرين وفي ذلك عبرة لمن له بصيرة وفهم ، ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

﴿ زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَإِ ﴾ (١٤) قُلْ أُوْتِبْتُكُم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١٥)

ينخر تعالى عما زين للناس في هذه الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد . كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : ٤٧٦ [ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء] فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد ، فهذا مطاوب مرغوب فيه ، مندوب إليه قال رسول الله ﷺ : ٤٧٧ [الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله] وقال عليه الصلاة والسلام : ٤٧٨ [تزوجوا الودود الولود فإنني مكاثرتكم الأمم يوم القيامة] . وكذلك المال تارة يكون للفخر والتكبر فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح محمود شرعاً . وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار وحاصلها : المال الجزيل . روى ابن أبي حاتم عن أنس عن رسول الله ﷺ في قوله : ٤٧٩ [القنطار يعني ألف دينار] .

« وحب الخيل على ثلاثة أقسام » تارة يكون في سبيل الله للغزو عليها فمن نوى ذلك فيثاب وتارة تربط فخرًا ونواءً لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر ، وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر ، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله عند قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ الآية .

وأما المسومة : الراعية ، وقيل الغرة والتحجيل ، وقيل غير ذلك . روى الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ : ٤٨٠ (خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة) المأمورة . الكثيرة النسل ، والسكة النخل المصطف ، والمأبورة الملقحة . وقوله تعالى : ﴿ والأَنْعَامُ ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿ والحَرْثُ ﴾ يعني الأرض المتخذة للفراسة والزراعة . ثم قال تعالى ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا ، وزينتها الفانية الزائلة ﴿ والله عنده حسن المآب ﴾ أي حسن المرجع والثواب . روى ابن جرير عن عمر بن الخطاب لما نزلت ﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ قال قلت : الآن يا رب حين زينتها لنا ؛ فنزلت ﴿ قل أُوْنِشْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ﴾ أي قل يا محمد للناس أُوْخْبِرْكُمْ بِخَيْرٍ مما زين للناس في هذي الحياة الدنيا من نعيمها الذي هو زائل لا محالة ... ثم أخبر عن ذلك فقال ﴿ للَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ما كثرين فيها أبد الآباد ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أي من الدنس والحَيْض والنفاس ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدا كقوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم . ثم قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾ أي يعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء .

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ . (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ . (١٧)

بصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى : ﴿ الذين يقولون ربنا إنا آمنّا ﴾ أي بك وبكتابك وبرسوك ، ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا ^(١) فاغفر لنا ذنوبنا وتقصرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿ وقنا عذاب

(١) قلت : أي توسل إليك بإيماننا بك وبكتابك وبرسوك . وهذا توسل مشروع ، لأنه توسل بالأعمال الصالحة وهو أعلى الأعمال ، كيف لا وهو إيمان بالله وكتابه ورسوله ، وهناك توسل ممنوع ما علمنا إياه الله ولا بلغناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو : التوسل بذوات المخلوقين الذي ما هو إلا الزلفى المنوعة التي كان يفعلها المشركون منذ الجاهلية الأولى ، فلم يقبلها الله بل منها ... وعلمنا خيراً منها .

النار ﴿ الصابرين ﴾ على فعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ والصادقين ﴾ فيما أخبروا به من الإيمان ﴿ والقانتين ﴾ الخاضعين الطائعين ﴿ والمنفقين ﴾ من أموالهم في جميع ما أمروا به من صلة الأرحام ومواساة ذوي الحاجات ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار وثبت في الصحيحين والمساند والسنن عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ ، قال : ٤٨١ [ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فاستجب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟] ... وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ، ثم يقول : يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن جرير عن حاطب قال : سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول : يا رب ، أمرتني فأطعتك ، وهذا السحر فاغفر لي . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : ٤٨٢ [كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة] .

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * (٢٠)

شهد تعالى وكفى بالله شهيداً ، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم ، وأصدق القائلين ﴿ أنه لا إله إلا هو ﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلاق كما قال تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك ﴾ الآية ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته ، فقال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿ قائماً بالقسط ﴾ وهو كذلك في جميع الأحوال ﴿ لا إله إلا هو ﴾

تأكيد لما سبق ﴿ العزيز الحكيم ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابة الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . روى ابن أبي حاتم بسنده إلى الزبير : ٤٨٣ [قال سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ﴾ . قال وأنا أشهد أي رب] روى أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير بسنده عن غالب القطان : ٤٨٤ [قال أتيت الكوفة في تجارة فترلت قريباً من الأعمش فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فمر بهذه الآية ﴿ شهد الله ﴾ إلى قوله ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ثم قال الأعمش ، وأنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ قالها مراراً ؛ قلت : لقد سمع فيها شيئاً فغدوت إليه فودعته ثم قلت : يا أبا محمد ، إني سمعتك تردد هذه الآية قال : أو ما بلغك ما فيها ؟ قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني . قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة ، فأقمت سنة فكنت على بابي ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد ، قد مضت السنة . قال حدثني أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل : عهدي إلي وأنا أحق من وفي بالعهد ، أدخلوا عبدي الجنة » [وقوله تعالى :

﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الاسلام وهو أتباع الرسل فيما بعثهم به الله حتى ختمهم بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه الا من جهة محمد ﷺ ، فمن لقي الله بعد بعثه محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل . كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ أي بغى بعضهم على بعض ، فاختلّفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم فحمل ذلك على مخالفة بعضهم في جميع الأقوال والأفعال وإن كانت حقاً ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب ﴾ في مجازاته ومحاسبته على تكذيبه وعقابه على ذلك .

ثم قال تعالى ﴿ فإن حاجوك ﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴾ أي فقل : أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ﴿ ومن اتبعن ﴾ أي على ديني . ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو أهل الكتاب والمشركين إلى الاسلام فقال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأمينين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ أي والله عليه حسابهم وإليه مآبهم وهو الذي

يُضِل وَيَهْدِي من يشاء وله الحجة البالغة ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية أو الضلالة ، هذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على بعثته ﷺ العامة لجميع الخلق ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً﴾ وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت توافره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف من بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امثالاً لأمر الله له بذلك

وقد روى عبد الرزاق بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : ٤٨٥ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار] رواه مسلم . وقال ﷺ : ٤٨٦ [بعثت إلى الأحمر والأسود وقال : ٤٨٧] كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ

وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . (٢١)
أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . (٢٢) ﴿

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبه من المآثم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلغتهم إياها الرسل استكباراً أو عناداً ، واستنكافاً عن اتباع الحق وفوق ذلك قتلوا النبيين بغير ما سبب إلا لدعوتهم إياهم إلى الحق ﴿ويقتلون الذين يأْمُرُونَ بالقسط من الناس﴾ وهذا هو غاية الكبر كما قال النبي ﷺ : ٤٨٨ [الكبر بطر الحق وغمط الناس] روى ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة الجراح رضي الله عنه قال : ٤٨٩ [قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : « رجل قتل نبياً ، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : « يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف

ونهبهم عن المنكر . فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم . فهم الذين ذكر الله عز وجل « [. ولذلك قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ

كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبَهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * (٢٥) ﴾

يقول تعالى منكرأ على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بالتوراة والإنجيل فإذا دُعُوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من اتباع محمد ﷺ أعرضوا : وهذا غاية في ذمهم لمخالفتهم وعنادهم ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ أي إنهم افتروا على الله بأنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام فقط وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة ^(١) ثم قال تعالى : ﴿ وغرّبهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ثبتهم على باطلهم ما خدعوا به أنفسهم بأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودات وهذا محض اختلاق منهم . فتوعدهم الله بقوله جل وعلا : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة أمام الله وهم الذين كذبوا رسله وأنبياءه وقتلوهم وقتلوا مصلحيهم فهو سائلهم عن ذلك ومجازيهم به ذلك اليوم الذي لا شك في وقوعه ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمَلِكِ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ * (٢٧) ﴿٢٧﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه ﴿ اللهم مالك الملك ﴾ أي أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، لك الملك كله. ﴿ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ أي أنت المعطي والمانع ، ما شئت كان ، وما لم تشأ لم يكن . وفي هذه الآية : تنبيه وإرشاد إلى شكره سبحانه على نعمته على هذه الأمة بتحويله النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي خاتم الأنبياء على الإطلاق ورسوله إلى الإنس والجن والذي خصته خصائص لم يعطها نبي قبله ، ولا رسول من نشر أمته في الآفاق ، وظهر دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع صلوات الله عليه وسلامه . وهكذا يعطي النبوة لمن يريد كما قال تعالى : ﴿ الله يعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾ أي تأخذ من طول هذا فتريده في قصر هذا فيعتدلان ثم تأخذ من هذا في هذا فيفتاوتان ثم يعتدلان ، وهكذا في فصول السنة الأربعة . وقوله تعالى : ﴿ وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ أي تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء . ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ أي تعطي من شئت وتقتّر على من شئت لحكمتك البالغة وطبق إرادتك ومشيتك . روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : ٤٩٠ [اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران ﴿ قل اللهم مالك الملك - إلى قوله - انك على كل شيء قدير ﴾] .

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَ
وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢٨) ﴿٢٨﴾

نهي تبارك وتعالى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء يسرون إليهم بالمودة من

دون المؤمنين ، ثم توعّد على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾ أي فقد برىء من الله كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما قال البخاري عن أبي الدرداء : إنه قال : إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم . وروى الثوري : عن ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ويؤيد هذا ، ما قاله تعالى ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ روى البخاري : قال الحسن : التقية إلى يوم القيامة ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن وإلى أعدائه ، وعادى أوليائه . ثم قال تعالى : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي إليه المرجع والمنقلب ليجازي كل عامل بعمله ، روى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ، قال : قام فينا معاذ فقال : يا بني أود إنني رسول رسول الله إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار .

﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣٠)

يخبر تعالى : عباده أنه يعلم سرائرهم وظواهرهم . ولا تخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان ، في السموات والأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك فيهما . ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي قدرته نافذة في جميع ذلك . وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما يبغضه منهم . فهو عالم بما يفعلون ، وقادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أمهلهم فإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . ولهذا قال بعد هذا : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير أو شر ، فإن خيراً سرّه ، أو شراً ساءه

وودلوانه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد ثم قال تعالى مؤكداً ومتوعداً ﴿وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يخوفكم عقابه ، ثم قال مَرُجِيّاً لعباده لئلا يقنطوا من رحمته ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي رحيم بخلقه يجب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ويتبعوا رسوله الكريم ﷺ .

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ . (٣٢)

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع للحمدي في كافة أقواله وأفعاله ؛ كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٩١ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ أي يحصل لكم وفوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم . وهو أعظم من الأول كما قال بعض الحكماء : ليس الشأن أن تُحِبَّ ، إنما الشأن أن تُحَبَّ . ثم قال تعالى : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته ، ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي تَخَالَفُوا عن أمره : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم رسل الله ورسوله للجن والإنس الذي لو كان الأنبياء والرسل بل وأولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا أتباعه والدخول في طاعته ، واتباع شريعته ، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ الآية ... إن شاء الله تعالى .

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى

الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * (٣٤)

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض فاصطفى آدم عليه السلام خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة ، واصطفى نوحاً عليه السلام أول رسول بعثه إلى أهل الأرض ، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله. واصطفى آل إبراهيم ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء محمد ﷺ . وآل عمران والمراد والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام . وعيسى من ذرية إبراهيم كما سيأتي :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ أَلَدْتُ كَأُنْثَىٰ وَلَئِنْ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . (٣٦) ﴿

أمرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام وقد دعت الله تعالى أن يهبها ولداً فاستجاب دعاءها ، فواقعها زوجها فحملت منه . فلما تحققت الحمل ، نذرت أن يكون مفرغاً للعبادة لخدمة بيت المقدس ، فقالت : يا رب ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيتي ﴿ فَلَمَّا وَضَعْتُهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ أَلَدْتُ كَأُنْثَىٰ ﴾ أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿ وَلَئِنْ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا ، وقد حكى مقررأ ، وبذلك أثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال : ٤٩٢ [ولد لي الليلة ولد سميت به باسم أبي إبراهيم] أخرجاه وكذلك ثبت فيهما : ٤٩٣ [أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه وسماه عبد الله] فأما حديث الحسن عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٤ [كل غلام مرتين بعقيقته ، يذبح عنه يوم السابع ويسمى ويحلق رأسه] فقد رواه أحمد ، وأهل السنن ،

وصححه الترمذي ، وروي : يدعى ، وهو أثبت واحفظ والله أعلم ، وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أي عوذتها وذريتها أي وهو ولدها عيسى عليه السلام فاستجاب الله لها ذلك كما روى عبد الرزاق عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٩٥ [ما من مولود يولد الا معه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها] ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [أخرجاه .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧) ﴿

يخبر ربنا تعالى أنه تقبلها نذيرة ، وأنه أنبتها نباتاً حسناً بأن قرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين فلهذا قال : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أي جعله كافلاً لها ، وإنما قدر الله كون زكريا كفلاً لسعادتها ، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً ، لكونه كان زوج أختها كما ورد في الصحيح : ٤٩٦ « ... فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة] وأخبر عن سيادتها وجلادتها في محل عبادتها فقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ، وقيل علماً أو صحفاً فيها علم رواه ابن أبي حاتم والأول أصح وفيه دلالة على كرامات الأولياء ، وفي السنة لهذا نظائر كثيرة ... فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ أي يقول من أين لك هذا ؟ ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي

الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . (٣٩) قَالَ رَبُّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . (٤٠) قَالَ رَبُّ أَجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَأَذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ . (٤١) ﴿٤١﴾

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، تافت نفسه للولد وإن كان شيخاً كبيراً قد وهن عظمه ، واشتعل رأسه : وكانت امرأته كبيرة وعاقراً فسأل ربه بنداء خفي وقال : ﴿ رب هب لي من لدنك ﴾ أي من عندك ﴿ ذرية طيبة ﴾ أي ولداً صالحاً ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ أي خاطبته وأسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ^(١) أي محل ومجلس صلاته . ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة : ﴿ إن الله يبشرك بيحيى ﴾ أي بولد من صلبك اسمه يحيى ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ أي بعيسى بن مريم إذ هو أول من صدق به وعلى سنته ومنهاجه .

وقوله تعالى : ﴿ وسيداً ﴾ أي سيداً في العلم والحلم والعبادة والخلق . وقوله تعالى : ﴿ وحصوراً ﴾ قيل أنه لا يأتي النساء ، أو لا ينزل الماء ، أو ذكره مثل هدبة الثوب أو مثل القذاة ... !!!

وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء : (إعلم ان ثناء الله على يحيى أنه كان ﴿ حصوراً ﴾ ليس كما قاله بعضهم ... بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، ونقاد العلماء وقالوا : هذه نقیصة وعیب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب كأنه حصور عنها .

إن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى عليه الصلاة والسلام ، أو بكفاية من الله عز وجل ليحيى عليه الصلاة والسلام ، ثم هي في حق من قدر عليها ، وقام بالواجب فيها ، ولم تشغله عن ربه

(١) المحراب هو المسجد كله. وليس هو الفجوة الموجودة في جدار القبلة، فهذه بدعة محدثة... ما كانت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا في زمن صحابته ، والوليد بن عبد الملك قيل إنه هو الذي أحدث بدعة إدخال قبر الرسول في المسجد بالمدينة رغم نهي الله حسيبه

درجة" عليا . وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة ، بتحسينهن وقيامه عليهن ، وإكسابه لهن وهدايته إياهن ، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره . فقال : ٤٩٧ (حبب إليّ من دنياكم ...) هذا لفظه والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : انه معصوم من الفواحش والقاذورات ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلاءهن بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال ﴿ هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ كأنه قال : ولدأ له ذرية ونسل وعقب والله سبحانه وتعالى أعلم .

.....

وقوله تعالى ﴿ ونبأاً من الصالحين ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى عليه السلام بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة ، عجب من وجود الولد بعد الكبر ﴿ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأني عاقر قال ﴾ أي الملك - ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة استدلل بها على وجود الولد مني ﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ﴾ أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال ، فقال تعالى ﴿ واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار ﴾ وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم ان شاء الله تعالى .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ
وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي
مَعَ الرَّاكِعِينَ . (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا
كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ . (٤٤)

يخبر تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم بنت عمران عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك إن الله اصطفاها لكثرة عبادتها وطهارتها من الأكدار والوساوس ، واصطفاها ثانية

مرة بعد مرة بلحالاتها على نساء العالمين ، وقد روى مسلم بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٩٨ [خير نساءها مريم بنت عمران ، وخير نساءها خديجة بنت خويلد] أخرجه في الصحيحين .

روى الترمذي بسنده عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٩ [حسبك من نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون] تفرد به الترمذي وصححه .

روى ابن جرير بسنده عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٠٠ (كل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون) وقد أخرجه الجماعة إلا أبا داود من طرق عن شعبة به .

ولفظ البخاري : ٥٠١ (ويكمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) وقد أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروا مريم بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد الله من الأمر الذي قدره الله وقضاه ، مما فيه محنة لها ، ورفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظمى حيث خلق منها ولدًا من غير أب فقال تعالى : ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ أما القنوت فهو الطاعة في خشوع قال مجاهد : كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها ، والقنوت هو طول الركوع في الصلاة ، ﴿ واسجدي واركعي من الراكعين ﴾ أي كوني منهم ثم قال تعالى لرسوله بعدما أطلعه على جليلة الأمر ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ أي نقصه عليك ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر ، وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم في الأجر .

قال ابن جرير عن عكرمة قال : ثم خرجت أم مريم بمريم تحملها في خرقتها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليهما السلام قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فأتى حررتها ، وهي أنثى ، ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردّها إلى بيتي ، فقالوا : هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم في الصلاة - وصاحب قرباننا ؛ فقال زكريا : إدفعوها لي فإن خالتها تحتي ، فقالوا : لا تطيب أنفسنا ، هي ابنة إمامنا ، فذلك حين اقترعوا بأقلامهم التي يكتبون

بها التوراة فقرعهم زكريا فكفلها ، وكان مع ذلك - أي زكريا - كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم ، صلوات الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَنْتُمُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ . (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ . (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . (٤٧)

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أي يقول له : كن فيكون ، وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه ﴿ اسمع المسيح عيسى ابن مريم ﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له . ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحى إليه من الشريعة ، وينزل عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به ؛ وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره ، معجزة وآية وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه ﴿ ومن الصالحين ﴾ أي في قوله وعمله ، له علم صحيح وعمل صالح .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : ٥٠٢ (لم يتكلم في المهدي إلا ثلاث : عيسى ، وصبي كان في زمن جريج ، وصبي آخر) (١) فلما

(١) قلت : لعله الرضيع الذي قال لأمه : (اصبري يا أماء فإنك على الحق) من حديث قصة الأعدو دلتا أن تقاعست أن تقع في النار التي أضرمها ذو نواس اليهودي باليمن ، ليرجع النصارى المؤمنين عن دينهم الحق ، إلى اليهودية .

سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل قالت: ﴿ربّي أتّى يكون لي ولد ولم يمسنّي بشر﴾ كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ولا من عزمي أن أتزوج فقال لها الملك ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء وصرّح ههنا بقوله تعالى: ﴿يخلق ما يشاء﴾ ولم يقل يفعل، كما في قصة زكريا بل نص ههنا بقوله ﴿يخلق ما يشاء﴾ لثلاث تبقى لمبطل شبهة. وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي فلا يتأخر شيئاً بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة كقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي إنما تأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح البصر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨)
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْبِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٥٠) إِنْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١) ﴿

يخبر تعالى عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام: إن الله يعلمه الكتاب والحكمة والظاهر أن المراد بالكتاب ههنا: الكتابة. والحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة^(١) ﴿والتوراة﴾ الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام ﴿والإنجيل﴾

(١) ورد لفظ الحكمة في سورة البقرة في عدة مواضع، وخلاصة المعنى أن الحكمة هي: معرفة الحقيقة في كل شيء، ووضع الأشياء في محلها مع مراعاة الصحة في الحكم. فتجري الحقائق العلمية والفقه في الدين لمعرفة مراد الله من أحكامه هي الحكمة البالغة «ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» فهي أمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله.

الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه السلام وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا . وقوله تعالى ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ قائلاً لهم : ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ فكان يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل ﴿وأبرئ الأكمه﴾ الذي يولد أعمى وهو أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿والأبرص﴾ معروف ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ قال كثير من العلماء بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه . فزمان موسى عليه السلام غاب عليه السحر فلقت عصاة موسى ثعابينهم التي ما هي إلا الحبال والعصي . وفي زمان عيسى عليه السلام غلب الطب فجاءهم بما لا قبل لهم به وهو إحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان النصحاء والبلغاء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . وقوله تعالى : ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ الآن وغدا ﴿إن في ذلك لآية لكم﴾ على صدقي فيما جئتكم به ﴿إن كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يدي من التوراة﴾ أي مقررأ لها ومثبتاً ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين ثم قال تعالى : ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي بحجة دالة على صدقي فيما أقول لكم ﴿فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخشوع والاستكانة إليه ﴿هذا صراط مستقيم﴾



﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . (٥٣) وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . (٥٤)﴾

يقول تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار

على الضلال ﴿ قال من أنصاري إلى الله ﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ الحواريون جمع حواري وهو الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب ، فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ : ٥٠٣ [لكل نبي حواري وحواريّ الزبير] وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال : مع أمة محمد ﷺ وهذا إسناد جيد .

ثم قال تعالى عن ملائكة من بني إسرائيل ، فيما همّوا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصلب حين تماثروا عليه ، ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان ، وكان كافراً : أن هنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا. وأنه ولد زنية حتى استثاروا غضب الملك. فبعث في طلبه فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به ، تجاه الله تعالى من بينهم ورفعوه إليه وألقى شبهه على أحدهم فاعتقدوه عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك . وكان هذا من مكر الله بهم فإنه نجّى عبده ورسوله ورفعهم وتركهم في ضلالهم يعمهون . ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ . (٥٨) ﴾

اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ إني متوفيك ورافعك إلي ﴾ فقال قتادة وغيره .

هذا من المقدم والمؤخر ، تقديره إني رافعك ومتوفيك ، يعني بعد ذلك . وقيل : متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت ، وقيل : تَوَفَّيْهِ رَفَعُهُ ، وقال الأكثرون : المراد بالوفاة - ها هنا - النوم ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفّاكم بالليل ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : ٥٠٤ [الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا] وقيل : رفعه في منامه ^(١) . وقال تعالى : ﴿ ... وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قبل موته ﴾ عائد على عيسى عليه السلام ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتي بيانه - إن شاء الله - ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ وهكذا وقع فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إليه ، تفرقت أصحابه شيعاً بعده. فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته . ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا : هو الله ، وآخرون قالوا : هو ثالث ثلاثة . وقد حكى الله مقالتهم في القرآن ورد على كل فريق ، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلاثمئة سنة ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان اسمه قسطنطين ، فدخل في دين النصرانية ، قيل حيلة ليفسده ، فزاد فيه ونقص منه ووضعت له القوانين وأحل في زمانه لحم الخنزير ، وصلوا إلى الشرق وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع وزاد في صياهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه وصار دين المسيح (دين قسطنطين) إلا أنه بنى لهم من الكنائس والصوامع والمعابد والأديرة ما يزيد على اثني عشر ألف معبد وبنى المدينة المنسوبة إليه. وهم في هذا كله قاهرون لليهود أيده الله عليهم ، لأنه أقرب إلى الحق منهم وإن كان الجميع كفاراً .

فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان كل من آمن به، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ، فكان أتباع محمد هم أتباع كل نبي على وجه الأرض لأنه دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته ، فلهذا ولما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقاً ، سلبوا النصراني بلاد الشام والأجوف وهم إلى الروم . فلجأوا إلى مدينتهم القسطنطينية . ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة .

(١) قالت : والراجح عندي والله أعلم قول قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إلي ومتوفيك

وقد أخبر الصادق المصدوق عليه السلام أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستقيثون ما فيها من الأموال ^(١) ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم ير الناس مثلاً ولا يرون بعدها نظيرها. ولهذا قال تعالى : ﴿ وجاعل الذين أتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ وكذلك فعل بمن كفر من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى ، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وإزالة الأيدي عن الممالك وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق . ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾ أي في الدنيا بالنصر والظفر وفي الآخرة بالحنات العاليات ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى عليه السلام ومبدأ ميلاده وكيفية أمره لا مزية فيه ولا شك ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ وها هنا قال تعالى :

﴿٥٩﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ
ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ
الْمُتَرَدِّينَ * (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ
تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ

[illegible]

ثُمَّ نَبْتَلِْهُ فَنَجْعَلْ لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * (٦٢)
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ * (٦٣) ﴿٦٣﴾

يقول جل وعلا : ﴿ إن مثل عيسى عند الله ﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير
أب ﴿ كمثل آدم ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن
فيكون ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأخرى .
وإن جاز ادعاء البتة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب ، فجواز ذلك في آدم بالطريق
الأولى ومعلوم اتفاقاً إن ذلك باطل ، فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً .
ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلق حين خلق آدم لا من ذكر ولا من
أنثى وحواء خلقها من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية
البرية من ذكر وأنثى . ولهذا قال تعالى في سورة مريم ﴿ ولنجعل آية للناس ﴾ وقال
ههنا : ﴿ الحق من ربك فلا تكن من المترين ﴾ أي هذا هو الحق في شأن عيسى الذي
لا محيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

ثم قال تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا
وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ أي نحضرهم في هذه المباحلة ﴿ ثم
نبتلهم ﴾ أي نلتنهم ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ أي منا ومنكم .

وسبب نزول هذه المباحلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نصارى نجران . فإن
النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البتة والإلهية
فأنزل الله صدر هذه السورة ردّاً عليهم ؛ كما ذكر الإمام محمد بن اسحق بن يسار في
سيرته تلخيصاً وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً فيهم أربعة
شيوخ رجلاً من أشرفهم يؤول أمرهم بينهم وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم ؛ وهم
الغائب وكان أشهرهم ومباحب الرأي والمشورة ، والشيخ . وكان علمهم ؛ وأبى حارثة بن
الغائب وكان أشهرهم ؛ وكان من العرب أشرفهم ؛ وعلمته الروم وملوكها وشرفهم
؛ لأنهم يعرفون رسول الله ﷺ وصفته وشأنه بما علمه من الكتب المتقدمة ولكن
حملة ذلك على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها ، وجاهه عند أهلها قال

قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم الحبرَات والجلب والاردية ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ : ٥٥٥ [فقال رسول الله ﷺ ودعوهم ففصلوا إلى المشرق قال فكلم الثلاثة رسول الله ﷺ فقالوا عن عيسى أنه الله وابن الله وثالث ثلاثة تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

ويحتجون في قولهم هو الله ... بأنه كان يحجي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب وغير ذلك . وفي قولهم بأنه ابن الله انه لم يكن له أب يعلم وقد تكلم في المهد ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى : فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلتُ وأمرت وقضيت وخلقيت ولكنه هو وعيسى ومريم تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وفي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن ، فلما كلمه الحبران ، قال لهما رسول الله ﷺ : (أسلما) قالا قد أسلمنا . قال : «أنكما لم تسلما فأسلما» قالا : بلى قد أسلمنا قبلك . قال : «كذبتما بمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير» قالا فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ فلم يجبهما . فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها . قال ابن اسحق فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعتهم أن ردوا ذلك عليه ، ودعاهم إلى ذلك فقالوا : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه . ثم انصرفوا عنه . ثم خلوا بالعاقب ، وكان صاحب رأيهم فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لني مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط ، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلا لالف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فأتوا النبي ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا ، فإنكم عندنا رضا . قال محمد بن جعفر فقال رسول الله ﷺ : «أتتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين» فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ما أحببت الأماره قط ، حيي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر ، سلم ثم نظر عن يمينه وعن شماله ، فجعلت أظطاول له ليراني فلم يزل ياتمس بيصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه

فقال : « أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضي الله عنه . [

والغرض : أن وفودهم كان في سنة تسع ، لأن الزهري قال : كان أهل نجران أول من أدّى الجزية إلى رسول الله ﷺ ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح وهي قوله تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ - إِلَى قَوْلِهِ - حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ قال جابر : ﴿ أَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ﴿ وَابْنَاءَنَا ﴾ الحسن والحسين ﴿ وَنِسَاءَنَا ﴾ فاطمة . ثم قال تعالى ﴿ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد . ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمته

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٦٤) ﴿

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا . ثم وصفها بقوله ﴿ سواء بيننا وبينكم ﴾ أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسرها بقوله ﴿ أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ لا وثناً ولا صليلاً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً ، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل . كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ قال ابن جريج : يعني يطع بعضنا بعضاً في معصية الله ﴿ فإن تولَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي فإن تولَّوْا عن هذا النصف وهذه الدعوة ، فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم

وقد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته من طريق الزهري بالسند إلى أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر فسأله عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه فأخبره بجميع ذلك على الجلية ، مع أن ابا سفيان إذ ذاك كان مشركاً ، لم يسلم إلا بعد... وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح ، كما هو مصرح به في الحديث... والغرض أنه قال ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه :

٥٠٦ [بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من أتبع الهدى أما بعد ، فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتيك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ﴿١﴾ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴿٢﴾] .

وقد ذكر ابن اسحق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ، نزلت في وفد نجران ، وقال الزهري هم أول من بذل الجزية ، لا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح ، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب ، وبين ما ذكره ابن اسحق والزهري ؟ والجواب عن وجوه (١) يحتمل نزولها مرتين قبل الحديبية ومرة بعد الفتح (٢) أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى هذه الآية وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك (٣) يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية ، وبذل الصلح عن المباحلة من دون الجزية (٤) يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا في كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعد ثم أنزل القرآن موافقة له ﷺ (١)

﴿١﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَ
التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا

(١) والظاهر - والله أعلم - أن الأمر كما احتمله ابن كثير في الوجه الثاني : أي أن صدر سورة آل عمران نزلت في وفد نجران إلى هذه الآية وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك .

وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * (٦٨)

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ودعوى كل طائفة أنه كان منهم كما قال محمد بن اسحق بن يسار عن ابن عباس قال : لاجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزّل الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم ... ﴾ أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً مع تقدمه في الزمن إذ أن اليهودية والنصرانية كانتا بعد زمنه بدهر ، ولذا قال تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم . فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم ﴾ الآية فالطرفان تحاجّا في إبراهيم بلا علم . ولو أنهما تحاجّا فيما يعلمون من دينيهما لكان أولى . لذا فقد أنكر الله على اليهود والنصارى ذلك ، وأمرهم برد العلم إليه تعالى ولهذا قال : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى الإيمان ﴿ وما كان من المشركين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ أي أحق الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه على دينه في حينه . وهذا النبي أي محمد ﷺ والذين آمنوا من أصحابه ومن تبعهم بعدهم . روى سعيد بن منصور بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ : ٥٠٧ [لكل نبي ولاية من النبيين ، وإن وليّهم منهم أبي وخليل ربي عز وجل إبراهيم عليه السلام ثم قرأ : « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ... » الآية] والله ولي المؤمنين ، أي جميع المؤمنين بأبيائه ورسله .

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ

بآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * (٧٢) وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * (٧٤)

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين ويغفون لإصلاهم ، ولم يعلموا أنهم مذكور بهم ، وأن وبال ذلك يعود على أنفسهم دون أن يشعروا ، ثم أنكر عليهم فقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي تعلمون صدقها وحققها ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تكتُمون الحق الذي في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتحققونه ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ ﴾ هذه مكيدة بضغفاء الناس تلبسوا عليهم فإنهم اتفقوا أن يظهروا لإيمانهم أول النهار ويصلوا مع المسلمين الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ، ليوهموا الجبهة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ، ولهذا قالوا : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ ﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين من التوراة من ذكر رسول الله ﷺ ولزوم اتباعه فيحتجون به عليكم فلا تظهروه إلا لأهل ملتكم ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان وقوله تعالى : ﴿ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ، أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ يقولون : خشية أن يساووكم بالعلم ، أو يتخذوه حجة عليكم في الدنيا والآخرة فلا تظهروه . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي تحت تصرفه ، وهو المعطي المانع ، بمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام ، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته ، بما صرف عن الحق وله الحجة التامة والحكمة البالغة

﴿والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ أي اختصكم أيها المؤمنون بالفضل ، وهداكم إلى أكمل شرع ، وجعلكم أتباع أشرف نبي .



﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقَنْطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بدينارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * (٧٦)﴾

يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ، ويحذر المؤمنون من الاغترار بهم فإن منهم ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ أي من المال ﴿يؤدّه إليك﴾ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي بالمطالبة الملحة في استخلاص حقه ، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار ، فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك . وقد تقدّم الكلام على القنطار في أول السورة (١) وأما الدينار فمعروف ، ومناسب أن يذكرها هنا الحديث الذي علّقه البخاري في غير موضع من صحيحه ومن أحسنها سياقة في كتاب الكفالة — وقد رواه الإمام أحمد وتقدم ذكره في سورة البقرة فلا حاجة لإعادته (٢) —

وقوله تعالى : ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي إنما حملهم على الجحود أي جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب ، فإن الله قد أحلها لنا . قال الله تعالى ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي وقد اختلقوا هذه المقالة واثبتوها بهذه الضلالة فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بُهت . روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر قال : ٥٠٨

(١) عند قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات ... » رقم /١٤/ .

(٢) هو في الجزء الثالث من سورة البقرة عند قوله تعالى .. « فاكتبوه » ثم نسخ ذلك بقوله تعالى « فان آمن بضعكم ... » رقم الحديث /٤٤٢/ فليرجع إليه من يشاء .

[لما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل قال نبي الله ﷺ : « كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة ، فلنأخذ مؤدأة إلى البر والفاجر »] ^(١) ثم قال تعالى : ﴿ بلى من أوفى بعهد واتفق ﴾ أي لكن من أوفى بعهد واتفق منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأجمعهم بذلك ، واتفق محارم الله ، واتباع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿ فإن الله يحب المتقين ﴾ .

﴿ إِنَّا الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧)

يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ ، وذكر صفته للناس وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة بالأثمان القليلة الزهيدة وهي ، عروض دنيوية فانية ﴿ أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ برحمته ولا يكلمهم كلام لطف بهم ﴿ ولا يزكّيهم ﴾ أي من الذنوب والأدناس بل يأمر بهم إلى النار ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر :

١ - أخرج الشيخان من حديث الأعمش : عن شقيق عن عبد الله ^(٢) قال : قال رسول الله ﷺ ٥٠٩ [من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان فقال الأشعث : في والله كان ذلك ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض ، فجحطني أرضي فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ : ألك بيّنة ؟ قلت : لا ، فقال اليهودي أحلف . فقلت : يا رسول الله ، إذا يحلف فيذهب مالي ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ الآية] .

(١) قلت : وشتان ما بين ما عليه اليهود من أكل الأموال بالباطل بحجة مختلفة مؤتلفة ، وبين ما يدعو إليه الإسلام الحنيف : فقد قال ابن عباس : أنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب نفس وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - أعلاه ٥٠٨ - فيه الفصل .

(٢) ابن مسعود .

٢- : رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكَنْدِيِّ قَالَ : ٥١٠ [خَاصِمُ رَجُلٍ مِنْ كَنْدَةَ ، يُقَالُ لَهُ أَمْرُو الْقَيْسِ بْنِ عَامِرٍ رَجُلًا مِنْ حَضْرَمَوْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَرْضِ ، فَقَضَى عَلَى الْحَضْرَمِيِّ بِالْبَيِّنَةِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيِّنَةٌ فَقَضَى عَلَى أَمْرِئِ الْقَيْسِ بِالْيَمِينِ ، فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ أَمْكَنْتَهُ مِنَ الْيَمِينِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ذَهَبَتْ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ أَرْضِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةً لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالٌ أَحَدٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ قَالَ رَجَاءُ وَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ... ﴾ فَقَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ : مَاذَا لَمْ تَرْكُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « الْجَنَّةُ » قَالَ فَاشْهَدْ أَنِّي قَدْ تَرَكْتُهَا لَهُ كُلِّهَا] .

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ * (٧٨)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ عَلَيْهِمُ لَعْنُ اللَّهِ ، أَنَّ مِنْهُمْ فَرِيقًا يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَيَبْدُلُونَ كَلَامَ اللَّهِ وَيَزِيلُونَهُ عَنِ الْمَرَادِ بِهِ ، لِيُوهِمُوا الْجَهْلَةَ أَنَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَذَلِكَ وَيَنْسُبُونَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ كَذِبٌ عَلَيْهِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا وَافْتَرَوْا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ : ﴿ يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ يَحْرِفُونَهُ . وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا بَأْيَدِهِمْ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَهَا التَّبْدِيلُ وَالتَّحْرِيفُ وَالزِّيَادَةُ وَالنَّقْصُ ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ * (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ * (٨٠)

قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر : أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة - إلى قوله - بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ أي ما ينبغي لنبي ولا مرسل أن يقول للناس اعبدوني مع الله ! فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى. وذلك أن أهل الكتاب كان يعبد بعضهم بعضاً يعني أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ الآية ... وفي المسند والترمذي كما سيأتي : ٥١١ [أن عدي بن حاتم قال : يا رسول الله ما عبدوهم . قال : بلى لأنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم] فالجهلة من الأحبار والرهبان ، ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرّون بما يأمر الله به ، وبلغتهم إياه الرسل الكرام ، وينهون عما نهى الله ورسله ، فالرسل هم السفراء الأمناء بين الله وخلقه فقاموا بذلك أتم قيام ، ونصحوا الخلق ، وبلغوا الحق . وقوله تعالى : ﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس كونوا ربانيين أي علماء حلماء فقهاء أهل عبادة وتقوى . وقال الضحاك في قوله تعالى : ﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ أي تفهمون الناس معانيه وتعلمونهم أحكامه وأوامره ونواهيه ، لا أن تحفظوا ألفاظه فحسب...^(١) ثم قال الله تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ أي ولا يأمركم النبي بعبادة أحد غير الله : لا نبي مرسل ولا ملك مفضل ﴿ أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ أي لا يأمر النبي بالكفر ولا عبادة غير الله ، والأنبياء إنما يأمرّون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ وذلك إخباراً عن الملائكة .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ

(١) قلت : لقد صار حفظ ألفاظ ... القرآن فقط في زماننا ، صنعة عند الذين اتخذوا قراءة القرآن في الحفلات والمآتم ... يتعجلون أجره ولا يتأجلونه ! وهو لا يتجاوز حناجرهم . وسما ظلماً بالقرءاء... !!! وما القرءاء في مفهوم الشرع ، إلا العلماء والفقهاء ... فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وإنا إليه راجعون .

قَالَ أَقَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ * (٨٢)

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبيّ بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام ، لمهما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة ، وبلغ أي مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمننّ به ولينصرنّه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من أتباع من بعث بعده ونصرته. ولهذا قال تعالى وتقدس : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنّه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعني عهدي ﴿ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال علي وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنّه . وقال طاووس والحسن البصري وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً . وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقتضيه . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : ٥١٢ [جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني أمرت بأخلي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت : قلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، قال : فسرى عن النبي ﷺ وقال : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه ، وتركتموني لضللتهم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين » [وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ٥١٣ [لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا ... وإنكم إما أن تصدّقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني] .

فرسول الله ﷺ ، هو الإمام الأعظم ، الواجب الطاعة ، المقدم على الأنبياء جميعاً ، وهو إمامهم ليلة الاسراء ببيت المقدس ، وصاحب الشفاعة العظمى ، والمقام المحمود ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ * (٨٣) قُلْ أَمَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ * (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ * (٨٥)

ينكر الله سبحانه على من أراد ديناً غير دين الله الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي له أسلم من في السموات والأرض أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً. كما قال تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ فالؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع . وقال وكيع في تفسيره عن مجاهد : ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ . قال : هو كقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ وقيل : حين أخذ الميثاق ، قاله ابن عباس . ﴿ وإليه يرجعون ﴾ ، أي يوم المعاد فيجازي كلّا بعمله . ثم قال تعالى : ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ﴾ يعني القرآن ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ﴿ أي من الصحف والوحي ، ﴿ والأسباط ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الإثني عشر ، ﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ، ﴿ والنبيون من ربهم ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء ، ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ يعني بل نؤمن بجميعهم ، ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ فالؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل هم مستسلمون بما أنزل من عند الله وبكل شيء يرسل الله .

ثم قال : ﴿ من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ الآية... أي من سلك طريقاً سوى ما شرع الله ، فلن يقبل منه ﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ كما قال ﷺ في الحديث الصحيح : ٥١٤ [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] .

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ
الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * (٨٦)
لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ أَوْ يَكْفُرَ عَنْهُمْ إِنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * (٨٧)
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * (٨٨) إِلَّا
الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * (٨٩)

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل لي من توبة ؟ فترلت ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاء به الرسول ووضح لهم الأمر ، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿ خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يفتّر عنهم العذاب ساعةً واحدةً ثم قال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته بخلقه ، أن من تاب إليه تاب عليه .

﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ • (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ شَرِّينَ • (٩١) ﴿٩١﴾

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُقْتِرًا فَعَسَىٰ أَمْرُهُ أَن يَكُونَ شَرًّا ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ قَاتِلًا يُقْتَلْ أَوْ مَارِدًا لِّمَالِهِ يُمَارَدْ ۚ فَأُولَٰئِكَ يَرْجُو أَوَّلُ الْيَوْمِ ۚ

إذا حضر أحدهم الموت ﴿ الآية ولذا قال هنا : ﴿ لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴾ أي التاركون الحق إلى الباطل . روى البزار بسنده عن ابن عباس : ٥١٥ (إن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا ، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ﴾ وإسناده جيد . ثم قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ أي من مات كافراً لن يقبل منه خير أبداً ، ولو كان يقري الضيف ، ويفك العاني ، ويطعم الطعام ، لا ينفعه ذلك ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة : ٥١٦ كما [سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان وكان يقري الضيف ، ويفك العاني ، ويطعم الطعام ، هل ينفعه ذلك ؟ فقال « لا إنه لم يقل يوماً من الدهر : ﴿ رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾] وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قبل منه كما قال تعالى : ﴿ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ ويقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : ٥١٧ [يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء ، أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك] وهكذا أخرجه البخاري ومسلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ أي وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه .

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٩٢)

جاء في الصحيحين : أن عمر قال : ٥١٨ [يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو

(٣ - آل عمران - ج ٤) : اليهود يسألون الرسول... وعاهدوه إن أجابهم بالحق أن يسلموا... ٢٩١

أنفس عندي من سهمي الذي هو بخير ، فما تأمرني به ؟ قال : حبس الأصل وسبل الثمرة [(١)] .

وقال البزار عن حمزة بن عبد الله بن عمر ، قال : قال عبد الله ، حضرتني هذه الآية : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ فذكرت ما أعطاني الله فلم أجد شيئاً أحبَّ إليَّ من جارية رومية ، فقلت : هي حرة لوجه الله فلو أني أعود في شيء جعلته الله لنكحتها ، يعني تزوجتها .

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٣) فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * (٩٥) ﴿

روى الامام أحمد عن ابن عباس : ٥١٩ [حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال : نسألك عنهن ولا يعلمهن إلا نبي ؛ قال : سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله ، وما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم شيئاً ففرقتموه ، لتتابعني على الإسلام ... ؟ قالوا : فذلك لك . قالوا : أخبرنا عن أربع خلال : أخبرنا أي الطعام حرم لإسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ، ومن وليه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنّه ، فقال : أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً ، وطال سقمه فنذر الله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها . فقالوا : اللهم نعم . فقال : اللهم أشهد عليهم ...] (٢) .

(١) قلت : وهذا الحديث هو أصل وقف الخيرات .

(٢) إكتفيت بإيراد هذا الجزء من الحديث لمناسبته . وتماه في سورة البقرة

قال ابن جرير في تفسيره : فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استئناؤه باقتداء بطريقه . قال : وقوله تعالى : ﴿ من قبل أن تنزل التوراة ﴾ أي حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قلت ^(١) : ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان (إحداهما) أن إسرائيل عليه السلام حرم الأشياء إليه ، وتركها لله ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم ، فله مناسبة بعد قوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ فهذا هو المشروع عندنا ، وهو الأنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهي ، كما قال تعالى : ﴿ وآتَى المال على حبه ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ الآية ... (المناسبة الثانية) لما تقدم بيان الرد على النصارى ، واعتقادهم الباطل في المسيح وأمه وظهور الحق في ذلك ، شرع في الرد على اليهود قبائحهم الله تعالى ، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه ، قد وقع . فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة : أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة ، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، فاتبعه بنوه في ذلك ؛ وجاءت التوراة بتحريم ذلك وأشياء أخرى زيادة على ذلك ، وكان الله عز وجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه ، وقد حرم ذلك بعد ذلك ، وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة ، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم ، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً ، وقد فعله يعقوب عليه السلام فجمع بين الأختين ، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة . وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم . وهذا هو النسخ بعينه . فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرم في التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه بل كذبوه وخالفوه ؟ وكذلك الذي بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم ، والصراط المستقيم وملة أبيه إبراهيم فما بالهم لا يؤمنون ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ كل الطعام كان حلالاً لنبي إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴾ أي كان حلالاً لهم جميع الأطعمة ما عدا الذي حرّمه إسرائيل على نفسه منها قبل نزول التوراة . ثم قال تعالى : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ أي فمن كذب على الله ، وادعى أنه شرع لهم السبت ، والتمسك بالتوراة دائماً ، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل صدق الله ﴾ أي قل يا محمد صدق الله فيما

أخبر به ، وفيما شرعه في القرآن . ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ هذه الملة التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ ، فهي الطريقة التي لم يأت نبيٌ بأكمل منها ، ولا أمين ، ولا أوضح ولا أتم ، كما قال تعالى : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ ۝ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ
أَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ
فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝ (٩٧) ﴾

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس عامة لعبادتهم ونسكهم ، يطوفون به ، ويصلُّون إليه ويعتكفون عنده . ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام ، الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه ، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه . ولهذا قال تعالى : ﴿ مباركاً ﴾ أي وضع مباركاً ﴿ وهدى للعالمين ﴾ . روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ٥٢٠ [قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة قلت : ثم أي ؟ قال : ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد] واخرجه البخاري ومسلم .

وروى ابن أبي حاتم عن خالد بن عرعة قال : قام رجل إلى علي رضي الله عنه فقال : ألا تحدثنني عن البيت ، أهو أول بيت وضع في الأرض ؟ قال : لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً . وذكر تمام الخبر في كيفية بناء إبراهيم البيت (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ بكة : من أسماء مكة على المشهور وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة ، منها : مكة ، وبكة ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، وأم القرى وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ فيه آيات بيّنات ﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من

بناء إبراهيم وأن الله عظمه وشرفه ؛ ثم قال تعالى : ﴿مقام إبراهيم﴾ ^(١) وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وعن ابن عباس : أن من الآيات مقام إبراهيم والمشارع وقال مجاهد : أثر قدميه في المقام آية بينة وكذا روى عن عمر بن عبد العزيز وغيره وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وقوله تعالى : ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء وكذلك كان الأمر في الجاهلية وقال تعالى : ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : ٥٢١ [لا هجرة ولكن جهاد ونيةٌ وإذا استنفرتم فانفروا] وقال يوم الفتح : ٥٢٢ [ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة ، وانه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة ، لا يعصده شوكه ، ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يخفى خلاها فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم وليبوتهم ، فقال إلا الإذخر] وعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٢٣ [لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة] رواه مسلم [

وعن عبدالله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحرورة بسوق مكة ، يقول : ٥٢٤ [والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله] رواه الامام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي حديث حسن صحيح ^(٢)

وقوله تعالى : ﴿والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ هذه آية وجوب

(١) أي الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام حتى يبني الكعبة وهو الآن على ما وضعه عمر بن الخطاب . وهناك عزم من أولي الأمر ، بتأخيرهم منعاً للزحام المميت ، وقيل أنه شرع بذلك ولا بأس من هذا التأخير ما دام قد ثبت أن عمر أخره للسبب ذاته فجزاهم الله خيراً .

(٢) قلت : فما قول من يقول من الفلاة الجلاء حديثاً يعزبه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وهو : اللهم أخرجني من أحب البقاع إلى فأسكنني في أحب البقاع إليك . فأسكنه في المدينة زاعماً أن المدينة أحب إلى الله من مكة ، والصحيح : إن مكة أحب أرض الله إلى الله ، كما جاء في الحديث الصحيح ، وهل يخالف رسول الله بحبه ما أحب الله ؟ فمكة أحب البقاع إلى الله وإلى رسوله ، شاموا أم أبوا .

الحج عند الجمهور ، وقيل بل هي قوله تعالى : ﴿ وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً ، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع . روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ٥٢٥ [أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا] . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ؛ فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم . ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه] ورواه مسلم

وفي الصحيحين من حديث ابن جريج عن عطاء عن جابر عن سراقه بن مالك قال يا رسول الله : ٥٢٦ [متعتنا هذه لعامنا هذا ، أم للأبد ؟ قال : لا . بل للأبد] وفي رواية [بل للأبد الأبدي] روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ٥٢٧ [قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من الحاج يا رسول الله ؟ قال : الشعث الثفل ، فقام آخر فقال : أي الحج أفضل يا رسول الله ؟ قال : العج والثج فقام آخر فقال : ما السبيل يا رسول الله ؟ قال : الزاد والراحلة] وهكذا رواه ابن ماجة من حديث إبراهيم بن زيد وهو الجوزي . قال الترمذي : ولا يرفعه إلا من حديثه وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه وقال : ولكن قد تابعه غيره ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ، نحو ذلك . ورواه الحاكم عن أنس ٥٢٨ [إن رسول الله ﷺ سئل عن قوله عز وجل ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ فقيل ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة .] ثم قال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

وقال أحمد بن حنبل عن ابن عباس : قال : قال رسول الله ﷺ ٥٢٩ [تعجلوا إلى الحج - يعني الفريضة - فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له] روى أحمد أيضاً عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ ٥٣٠ [من أراد الحج فليتعجل] ورواه أبو داود ، وقوله تعالى : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه روى سعيد بن منصور عن عكرمة ، قال : ٥٣١ [لما نزلت ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ قالت اليهود : فنحن مسلمون ، قال الله عز وجل : فأخصمهم فحجهم ، يعني فقال لهم النبي ﷺ : إن الله فرض على المسلمين

حج البيت من استطاع اليه سبيلاً فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا ان يحجوا ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ (٩٩) ﴾

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصددهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان . مع علمهم بصدق ما جاء به الرسول ﷺ ، لما يعلمون ذلك عن أنبياء الله الأقدمين وما بشروا به ونوّهوا من ذكر النبي الأمي خاتم النبيين ورسول رب العالمين ومع ذلك جحدوا وعاندوا فأخبر تعالى أنه ليس غافلاً عن أعمالهم وسيجزى بهم على ذلك يوم الدين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ (١٠١) ﴾

يحذر تبارك وتعالى المؤمنين من طاعة بعض أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على إيمانهم كما قال تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ الآية ثم قال : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ يعني حاشاكم من الكفر ما دامت آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً كما جاء في الحديث إن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً : ٥٣٢ [أي المؤمنين أعجب اليكم إيماناً؟ قالوا : الملائكة . قال وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا : فنحن . قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قالوا : فأَيُّ الناس أعجب إيماناً؟ قال قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها .] ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ

إلى صراط مستقيم ﴿ أي ومع هذا فلا اعتصام بالله والتوكل عليه هما العمدة في الهداية ،
ووسيلة الرشاد ، إلى طريق السداد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٠٢) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٣)

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال : أن يطاع
فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . وهذا إسناد صحيح موقوف .
وروى عنه مرفوعاً والوقف أصح . وروى عن أنس أنه قال : لا يتقى الله العبدُ حق
تقاته حتى يخزن لسانه . وقد ذهب سعيد بن جبير وغيره إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله
تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وعن ابن عباس أنها لم تنسخ ، ولكن ﴿ حق تقاته ﴾
أن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على
أنفسهم وآبائهم وابنائهم . وقوله تعالى : ﴿ ولا تموتنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي حافظوا
على الإسلام ، في كل حال لتموتوا عليه فمن سنته تعالى : أنه من عاش على شيء مات
عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه ، فعياًذاً بالله من خلاف ذلك . روى الإمام أحمد
عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٣٣ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ
تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ولو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت
على أهل الدنيا معاشهم فكيف بمن ليس له طعام إلاّ الزقوم . [رواه الترمذي وقال
حسن صحيح والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه وقال
صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر وقال :
قال رسول الله ﷺ : ٥٣٤ [من أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته
وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه]

وقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ قيل ﴿ بحبل الله ﴾ أي بعهد

الله كما قال في الآية بعدها ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ أي بعهد وذمة . وحبل الله قيل القرآن كما في حديث الحارث الأعور عن علي مرفوعاً في صفة القرآن : ٥٣٥ [هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم] وقد ورد حديث خاص بهذا المعنى فقد روى الحافظ الطبري بسنده عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٣٦ [كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض] وقوله تعالى : ﴿ ولا تفرقوا ﴾ أمرهم بالجماعة ، ونهاهم عن التفرقة وقد وردت الأحاديث المتعددة في ذلك كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : ٥٣٧ [إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً ، يرضى لكم : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثاً : قبل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .] وقد ضُمنت لهم العصمة من الخطأ عند اتفاقهم وخيف عليهم الافتراق والاختلاف فقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلّمة من عذاب النار وهم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .^(١)

وقوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ إلى آخر الآية . وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج وكانت بينهم في الجاهلية حروب طويلة فلما دخلوا في الإسلام صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذاته متعاونين على البر والتقوى .

قال الله تعالى : ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ﴾ إلى آخر الآية ؛ وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان .

وقد ذكر محمد بن اسحق وغيره : ٥٣٨ [أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج وذلك أن رجلاً من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج ، فسأه اتفاقهم وإلفتهم ، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعث وتلك الحروب ، ففعل ، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض ، وتناوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة ، فبلغ ذلك

(١) قلت : نرى نحن السلفين أننا نحاول مجتهدين قدر الاستطاعة أن نكون من الفرقة الناجية والله الموفق وهو المستعان وعليه التكلان وحده لا شريك له .

النبي ﷺ فأتاهم فجعل يسكتهم ويقول «أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم ؟» وتلا عليهم هذه الآية ... فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي الله عنهم . [(١)]

﴿...﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * (١٠٨) وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * (١٠٩) ﴿...﴾

يقول تعالى : ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون . يعني المجاهدين والعلماء . وقال أبو جعفر الباقر : ٥٣٩ [قرأ رسول الله ﷺ ﴿...﴾ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ ثم قال : (الخير اتباع القرآن وسنتي) [رواه ابن مردويه والمراد من هذه الآية ، أن تقوم فرقة من هذه الأمة تنصدي لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٤٠ [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] وفي رواية ٥٤١ [وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل] روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال : ٥٤٢ [والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم] ورواه ابن ماجه والترمذي وحسنه وأحاديث الباب كثيرة .

(١) فهل تتأسى الدول العربية بهم ، ويتناسون فرقتهم ويصدقون في حرب اليهود حتى يزيحهم عن فلسطين ، فتعود لأهلها العرب ...؟ هذا ما ندعو الله أن يكون .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾
 ينهانا سبحانه عن طريق الذين اختلفوا وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام
 الحجة عليهم . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يعني يوم القيامة ، حين
 تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة . قاله ابن عباس رضي
 الله عنهما . ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ وهم المنافقون ﴿ فَذُوقُوا
 الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ
 فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يعني الجنة لا ييغون عنها حولا . ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ
 آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أي هذه الآيات آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد
 ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَا اللَّهُ بِرِيدٍ ظَلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي
 ليس بظالم لهم ، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور ، لأنه القادر على كل شيء ، العالم بكل
 شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي
 السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي الجميع ملك له وعبيد له ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴾ أي
 هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ
 خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١٠) لَنْ يَضُرَّكُمْ
 إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (١١١) ضُرِبَتْ
 عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَافُوا
 بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
 يَعْتَدُونَ ﴾ (١١٢)

يخبر تعالى عن هذه الأمة بأنهم خير الأمم ؛ فقال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
 لِلنَّاسِ ﴾ قال البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

قال : خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام ، وهكذا قال ابن عباس وجماعة من التابعين والمعنى : أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس . ولهذا قال تعالى : ﴿ تأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ قال الإمام أحمد عن درة بنت أبي لهب قالت : ٥٤٣ [قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر ، فقال : يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال : « خير الناس أقرامهم واتقاهم لله ، وأمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم »] وهذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم . كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾ أي خياراً ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ الآية .

وثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة حدثه قال : ٥٤٤ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً ، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » قال أبو هريرة : فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة عليه فقال : يا رسول الله : ادعُ الله أن يجعلني منهم ؛ فقال رسول الله ﷺ « اللهم اجعله منهم » ثم قام رجل من الأنصار فقال مثله ؛ فقال : « سبقك بها عكاشة . »]

• وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ قال : ٥٤٥ [« إن ربي أعطاني سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » فقال عمر : يا رسول الله : فهلا استزدته ؟ فقال « استزدته فأعطاني مع كل ألف سبعين ألفاً » قال عمر فهلا استزدته ؟ قال « قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً » قال عمر فهلا استزدته ؟ قال « قد استزدته ، فأعطاني هكذا » ؛ وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه وقال عبد الله : وبسط باعيه ، وحشا عبد الله ، وقال هاشم وهذا من الله لا يدري ما عدده

• روى الطبراني عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٤٦ [« يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب » قيل : من هم قال « هم الذين لا يسترقون ولا يكتون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتكفلون »] رواه مسلم من طريق هشام بن حسان

• روى مسلم عن حصين بن عبد الرحمن قال : ٥٤٧ [كنت عند سعيد بن جبير فقال أبكم رأى الكوكب الذي انقضى البارحة ؟ قلت : أنا ، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لدغت . قال : فما صنعت ؟ قلت : استرقيت . قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثنا الشعبي . قال : وما حدثكم الشعبي ؟ قلت : حدثنا

عن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال « لا رقية إلا من عين أو حمة » . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال « عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ؛ إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمي ؛ فقبل لي : هذا موسى وقومه ؛ ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد عظيم ؛ فقبل لي : انظر إلى الأفق الآخر ؛ فإذا سواد عظيم ، فقبل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » ثم نهض فدخل منزله فغاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ؛ وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ ، فقال « ما الذي تخوضون فيه ؟ » فأخبروه ، فقال « هم الذين لا يرقون ، ولا يسترقون ، ولا يكتون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : أنت منهم ؛ ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ؛ قال « سبقك بها عكاشة » وأخرجه البخاري ، وليس عنده : لا يرقون .

ثبت في الضحاخين عن عبد الله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله ﷺ : ٥٤٨ [« أما ترضون ان تكونوا ربع أهل الجنة ؟ » فكبرنا ، ثم قال « أما ترضون ان تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ » فكبرنا ؛ ثم قال « إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة . »]

• روى الطبراني : عن أبي هريرة ، قال : ٥٤٩ [لما نزلت : ﴿ ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين ﴾ قال رسول الله ﷺ : أنتم ربع أهل الجنة ، أنتم ثلث أهل الجنة أنتم نصف أهل الجنة أنتم ثلثا أهل الجنة]

• روى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : ٥٥٠ [نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق . فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه ، الناس لنا فيه تبع غدأ ، لليهود وللنصارى بعد غد]

• • •

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ فمن انصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح . كما قال قتاده : بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة

(٣- آل عمران - ج ٤): ترك العرب الإسلام، فصاروا سخرية الأمم، فهلا يعودون إليه؟ ٣٠٣

حجها، رأى من الناس دعة، فقرأ هذه الآية: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس...﴾ ثم قال: من سره أن يكون من هذه الأمة، فليؤد شرط الله فيها. رواه ابن جرير. ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ الآية... وإذا قال تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ أي بما أنزل على محمد ﴿لكان خير أ لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ أي قليل مؤمنوهم وأكثرهم الكافرون الفاسقون.

ثم أخبر تعالى عباده المؤمنين ومبشراً لهم بالنصر على أهل الكتاب الكفرة الملحدين. فقال تعالى: ﴿لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾ هكذا وقع، فإنهم إذ ذمهم الله يوم خيبر وقبلهم بنو قينقاع، والنضير، وقرظة، كلهم أرغم الله أنوفهم. وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة وسلبوهم ملكهم أبداً الأبدن، ولا تزال عصابة الشام قائمة بالإسلام حتى ينزل عيسى بن مريم^(١) وهم كذلك، ويحكم بملّة الإسلام وشرع محمد عليه الصلاة والسلام فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام. ثم قال تعالى: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما تنفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا، فلا يأمنون إلا بحبل من الله، أي بذمة من الله وهو عتد الذمة لهم، وضرب الجزية عليهم ولأزمهم

(١) قلت: هذا حسن ظن من المفسر الحافظ ابن كثير رحمه الله وما كان ليدي أن عصابة الإسلام بالشام لم تعد قائمة بالإسلام كما كان يعهد في زمانه. إنما خلفهم خاف أضاعوا الصلاة بل أضاعوا الإسلام برمته فلا حكم بالإسلام ولا شعور بمسؤولياته، بل ولا إيمان ولا إسلام. فقد تحلل المسلمون ليس في الشام فحسب، بل في أكثر بلاد العرب والإسلام، من كل عروة تربطهم بالإسلام. فإلاد كان الكفار يحكمونها مباشرة بجيوشهم ثم رحلت الجيوش، ولكن ظلت القوانين الكافرة والثقافة الكافرة فولدت حكماً كافراً، منذ أن كان الاستقلال المزعوم...؟؟؟!! فمن ليدهي أن لا ينصرهم الله في أي ميدان لأنهم لم ينصروا الله تعالى «ان نصروا الله ينصركم ويثبت أقداركم» فمنذ أيام فقط من كتابة هذه الأسطر... واجعلناه انهم المسلمون والعرب-ويشكلون دولاً عديدة وجيوشاً ذات قوة- أمام دويلة من اليهود هزيلة وهي: حثالات الأمم ورجال الشهب، نعم... انهم دول العرب العديدة أمام هذه الدويلة اليهودية وما ذلك إلا انتقام من الله العلي العزيز الجبار لدينه الذي ضيعه العرب، وقرآنه الذي حجره العرب، وشرعه الذي تنكره العرب، فمن أين يأتي النصر للعرب؟ إذا هم أضاعوا الرسالة، وخانوا الأمانة وغشوا الأمة... فالحقيقة التي ما بعدها حقيقة أنهم انهزموا انهزاماً شنيعاً ذليلاً خانعاً... فأصبحوا هزاة الأمم وسخرية الشعوب، لأنهم كانوا لا يعتمدون على الله ولا يؤمنون بالله... بل يتبعون بعروبهم الكاذبة، ويعتمدون على عنجهيتهم الفارغة، وعلى كفرهم بمبادئ الإسلام وشرعه الذي لولاه لما حكم العرب المسلمون في أول الأمر، أكثر من نصف الكرة الأرضية. أجل لقد كسرهم الله ليعتبروا ويمدوا إلى الحق، ويرجعوا إلى الهدى... فهل يرجعون...؟؟؟!! أقول هذا وقلبي يتفطر ألماً ولوعة وأسى وإنا لله وإنا إليه راجعون

أحكام الملة ﴿ وحبل من الناس ﴾ أي بعهد من الله وعهد من الناس . وقوله : ﴿ وباعوا بغضب من الله ﴾ أي ألزموا : فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ أي ألزموها قدراً وشرعاً . ولهذا قال : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ﴾ أي لأنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة ابداً متصلاً بذل الآخرة ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أي لأنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وكثرة المعاصي والعصيان والعدوان ، روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي ، ثم يقوم سوق بقلهم في آخر النهار .



لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

المشهور عند كثير من المفسرين هو كما ذكره محمد بن اسحق وغيره ، ورواه العوفي عن ابن عباس ، أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب ، كعبدالله بن سلام وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة وغيرهم ، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب ، وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى : ﴿ ليسوا سواء ﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ، ومنهم المجرم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ أي قائمة بأمر الله ، مطيعة لشرعه ، متبعة نبي الله . فهي قائمة ، يعني مستقيمة

﴿ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ أي يقيمون الليل ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في السورة ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ﴾ الآية ... ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ أي لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً ثم أخبر تعالى عن الكفرة المشركين بأنه ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أرادهم بهم ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار فقال تعالى : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيهاصر ﴾ أي برد شديد ﴿ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾ أي فأحرقته ، يعني بتلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع ، فذهبت به وأفسدته ، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه . فكذلك الكفار يمحق الله الثواب من أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَالَهٖ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١١٨) ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيط قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ (١١٩) إن تمسكنكم حسنة تسوهم وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴾ (١٢٠)

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة ، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضرهم ولأعدائهم ، والمنافقون يجهدهم وطاقتهم ، لا يألون المؤمنين خبالاً أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ويؤدون ما يعنت المؤمنين ويخرجهم ويشق عليهم . وقوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ أي من غيركم من الأديان ، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره وقد روى البخاري والنسائي عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : ٥٥١ [ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ؛ والمعصوم من عصمه الله] وقال ابن أبي حاتم عن ابن أبي الدهقان قال : قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتباً فقال : (قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين .) ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استتالة على المسلمين وإطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب . ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم ﴾ أي رغب المنافقون في فعل ما يخرجكم ويشق عليكم .

وقوله تعالى : ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ أي ظهر على وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة ، مع ما خفي في صدورهم من البغضاء وما لا يخفى على لبيب عاقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قد بينّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ أي تحبونهم بما يظهرون لكم من الإيمان ، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً . ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أي ليس عندكم شيء منه شك ولا ريب وقال ابن عباس : أي تؤمنون بكتابكم وكتابتهم وبما مضى من الكتب وهم يكفرون بكتابكم فأنتم أحق بالبغضاء لهم ، منهم لكم . ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ والأنامل أطراف الأصابع وهذا شأن المنافقين يظهرون الإيمان والمودة ، ويبطنون الكفر والبغض . كما قال تعالى : ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق قال الله تعالى : ﴿ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أي إن كان إيمانهم يغيظكم ، فإن الله سيعلي كلمته ويظهر دينه على أيديهم فموتوا غيظاً فالله يعلم ما تضمرون من البغضاء للمؤمنين ، وسيجازيكم بنزيركم ونصرهم في الدنيا ولكم عذاب الحريق خالدون فيه أبداً في الآخرة ثم قال تعالى : ﴿ إن تمسكتكم حسنة تسؤهم وإن تصببكم سيئة يفرحوا بها ﴾ وهذا من شدة العداوة

للمؤمنين ، فإن أصابهم خير ونصر ساءهم ، وإن أصابهم شر وانكسار لما يعلمه الله من الحكمة - كما جرى يوم أحد - فرح المنافقون . فخطب الله المؤمنين : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ أي أن تتوكلوا على الله لا يصلحكم كيدهم لأنكم بحفظ الله ، فلا يقع شيء إلا بتقديره ومشيته ، ومن توكل عليه كفاه . ثم شرع الله تعالى بذكر قصة أحد من اختبار المؤمنين ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وبيان الصابرين . فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٢٣)

المراد بهذه الواقعة ، يوم أحد عند الجمهور . قاله ابن عباس وغيره ، وكانت الواقعة يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة . وسببها إرادة المشركين بأخذ الثأر لقتلهم يوم بدر ، وكان قد بقي من أموال التجارة التي سلمت يوم بدر مع أبي سفيان ، وأرصدوها جميعاً لقتال محمد ﷺ . هذا ما أراد أبناء القتلى إرصاده وإنفاقه فجمعوا الأحابيش والجمعوع العديدة ، وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاة الجمعة استشار الناس : أخرج إليهم أم يمكث في المدينة ؟ فأشار عبدالله بن أبي بالمقام بالمدينة ، وأشار آخرون ممن لم يشهدوا بدرأ بالخروج إليهم . فدخل رسول الله ﷺ فلبس لامته وخرج عليهم ، وقد ندم بعضهم وقالوا : لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله : إن شئت أن نمكث ، فقال رسول الله ﷺ : ٥٥٢ [ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له] فسار ﷺ في ألف من أصحابه فلما كانوا بالشوط ، رجع عبدالله بن أبي بثلاث الجيش مغضباً ، لكونه لم يرجع إلى قوله ، واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال : ٥٥٣ [لا يقاتلن أحد حتى نامره بالقتال] وكان جيش المسلمين سبعة عشر وأمر على الرماة عبدالله بن جبير وكان عددهم خمسين رجلاً . وقال رسول الله ﷺ : ٥٥٤ [إنضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من

قَبِيلِكُمْ والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا نَحْطَفُنَا الطير فلا تبرحوا مكانكم [وقد أعطى اللواء مصعب بن عمير وأجاز بعض الغلمان وأخّر آخرين .
وتهاً قريش وهم ثلاثة آلاف ، ومعهم مئة فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل
خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار ، ثم
كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذ
غدوت من أهلِكَ تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ أي تترلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة
﴿ والله سميع عليم ﴾ بما تقولون في ألسنتكم وضماثركم . وقوله تعالى : ﴿ إذ همّت
طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ الآية روى البخاري : عن جابر بن عبد الله قال فينا نزلت :
﴿ إذ همّت طائفتان ... ﴾ قال : نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة ﴿ والله وليها ﴾
﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ أي يوم بدر، وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من رمضان
من سنة اثنتين من الهجرة وهو يوم الفرقان الذي أعزّ الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه
الشرك ، وخرّب محله وحزبه ، هذا مع قلة المسلمين يومئذ وكان عددهم ثلاثمئة وثلاثة
عشر رجلاً فيهم فارسان وسبعون بعيراً ، والباقيون مشاة والعدة قليلة . وكان العدو بين
التسعمئة إلى الألف في سوانح الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسوّمة ، والحلي
الزائد فأعز الله رسوله وتزيله وقبيله ، وأخزى الشيطان وجيله . ولهذا قال تعالى ممتناً على
عباده المؤمنين وحزبه المتقين . ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ أي قليل عددكم ،
لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد ، ولهذا قال تعالى في الآية
الأخرى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً - إلى - غفور رحيم ﴾
وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ أي تقومون بطاعته - وبدر محلة بين مكة
والمدينة تعرف ببئرها منسوبة إلى رجل حفرها اسمه (بدر)

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ
آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴾ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم
مِّنْ قَوَرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ

بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * (١٢٦) لَيَقْطَعَ
طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * (١٢٧) لَيْسَ
لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * (١٢٨)
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن
يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * (١٢٩)

اختلف المفسرون في هذا الموعد ، هل كان يوم بدر أو يوم أحد ؟ والأصح يوم
بدر لقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهو متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾
وهذا عن الحسن البصري وغيره واختاره ابن جرير . قال الربيع بن أنس : أمد الله
المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف . وقاتل الملائكة إنما كان
يوم بدر والله أعلم .

وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمَدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ
مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَلِّينَ ﴾ هذا يوم بدر . وقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ يعني
تصبروا على لقاء عدوكم وتتقوني وتطيعوا أمري وقوله تعالى : ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ
هَذَا ﴾ قال الضحاك أي من غضبهم ووجههم وقوله تعالى : ﴿ يَمُدُّكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ
آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ أي لهم علامات في نواحي خيولهم وقال قتادة وعكرمة
« مسوِّمين » أي بسيف القتال . وكان سيما الملائكة عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم
وسيما نواحي خيولهم الصوف الأبيض وعن أبي هريرة : بالعن الأحمر . وقوله تعالى :
﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم
بأنزالهم إلا بشارة لكم وتطيباً لقلوبكم وتطميناً ، وإلا فلإنما النصر من عند الله الذي لو
شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، من غير احتياج إلى قتالكم لهم ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ
لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّلَّوَالِئِ لِبَعْضٍ مِّن شَأْنِهِمْ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وَمَا
جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أي
هو ذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره والأحكام . ثم قال تعالى : ﴿ لَيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أمركم بالجهاد ، والجلاد ، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير .
ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين فقال تعالى : ﴿ لَيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ أي
ليهلك أمة ﴿ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا ﴾ أي يرجعوا ﴿ خَائِبِينَ ﴾ في آمالهم .

ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له ، فقال تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ بل الأمر كله إلی كما قال تعالى : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم ثم ذكر بقية الأقسام فقال ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ فيهديهم بعد الضلالة ﴿ أو يعذبهم ﴾ في الدارين على كفرهم ولهذا قال : ﴿ فإنهم ظالمون ﴾ أي يستحقون ذلك روى البخاري عن سالم عن أبيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر ٥٥٥ [اللهم العن فلاناً وفلاناً ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية] فنزلت هذه الآية : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ فتب عليهم كلهم . ثم قال تعالى : ﴿ والله ما في السموات وما في الأرض ﴾ الآية .. أي الجميع ملك له ، وأهلها عبيد بين يديه ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، والله غفور رحيم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَغْيًا وَأَعِدُوا لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١٣١) ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٣٢) ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُسْتَقِينَ ﴾ (١٣٣) ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣٤) ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ فَاغْنَاهُ عَنْ ذُنُوبِهِ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١٣٦)

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة ، كما كانوا في الجاهلية يقولون : إذا حل أجل الدين ، إما أن تقضي وإما أن تربى . فإن قضاءه وإلا زاد في المدة وزاده الآخر في القدر . وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً ؛ وأمر عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والآخرة ، ثم نوءدهم بالنار وحذرهم منها ؛ فقال تعالى ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ ثم نذبههم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارة إلى نيل القربات . فقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ أي كما أعدت النار للكافرين ، وقد قيل أن معنى قوله تعالى : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ تنبيهاً إلى اتساع طولها ، كما قال في صفة الجنة : ﴿ بطائنها من استبرق ﴾ فما ظنك بظواهرها وقيل بل عرضها كطولها لأنها قبة فيه تحت العرش والشيء المقرب المستدير عرضه كطوله وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح : ٥٥٦ ﴿ إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفها عرش الرحمن ﴾

وروى أحمد في مسنده : ٥٥٧ ﴿ أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فأين النار فقال النبي ﷺ [سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار ؟] وروى البزار عن أبي هريرة قال : ٥٥٨ [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أرأيت قوله تعالى : ﴿ جنة عرضها السموات والأرض ﴾ فأين النار ؟ قال : « أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء ، فأين النهار ؟ » قال : حيث شاء الله ، قال : وكذلك النار تكون حيث شاء الله » يعني : فكما أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان ، وإن كنا لا نعلمه وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة عن البزار .

• ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ أي في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض وفي جميع الحال والأحوال كما قال تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية ﴾ والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مرضيه . وقوله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم . وقد ورد في بعض الآثار ٥٥٩ ﴿ يقول الله تعالى : يا ابن آدم أذكرني إذا غضبت ، أذكرك إذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك ﴾ رواه ابن أبي حاتم . وروى

الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ٥٦٠ ﴿ ليس الشديد بالصُّرْعَةِ ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ﴾ وقد رواه الشيخان .

• روى الإمام أحمد عن حارثة بن قدامة السعدي أنه سأل رسول الله ﷺ ، فقال : ٥٦١ [يا رسول الله ، قل لي قولاً ينفعني وأقلل عليّ عليّ أعيه ؛ فقال رسول الله ﷺ : « لا تغضب » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً كل ذلك يقول : « لا تغضب »] .

• روى الإمام أحمد عن عطية بن سعد السعدي - وقد كانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٦٢ [« إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تنطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ »] وهكذا رواه أبو داود .

• روى أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ ٥٦٣ [أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً »]

• روى ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٦٤ [ما تجرع عبد من جرعةٍ أفضل أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله]

وقوله تعالى : ﴿ والعافين عن الناس ﴾ أي يعفون عن ظلمهم في أنفسهم ، فلا يبقى فيها موجدة على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ فهذا من مقامات الإحسان ، وفي الحديث ٥٦٥ [ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله]

• وروى الحاكم في مستدركه من حديث موسى بن عقبه بسنده عن عباده بن الصامت عن أبي كعب أن رسول الله ﷺ قال : ٥٦٦ [من سره أن يشرف له البنيان ، وترفع له الدرجات ، فليعفُ عمن ظلمه ، ويعطِ من حرمته ، ويصل من قطعه] ثم قال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ أي إذا صدر منهم ذنب ، اتبعوه بالتوبة والاستغفار ، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ عن النبي ﷺ قال : ٥٦٧ [« إن رجلاً أذنب ذنباً فقال : رب إنني أذنبت ذنباً فاغفره لي ؛ فقال الله عز وجل : عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إنني عملت ذنباً فاغفره ؛ فقال تبارك وتعالى : علم عبدي أن له رباً

(٣ - آل عمران - ج ٤): يتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة مع عدم الإصرار ٣١٣

يغفر الذنب ويأخذه ، قد غفرت لعبدي . ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره لي ؛ فقال عز وجل : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذه به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره ، فقال الله عز وجل : عبدي علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذه به ، أشهدكم أنني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء . » [أخرجاه في الصحيحين من حديث اسحق بن أبي طلحة ، بنحوه .

• ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة ، لما رواه أحمد بن حنبل عن علي رضي الله عنه قال : ٥٦٨ [كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء منه ، وإذا حدثني عنه غيره استحلفه فإذا حلف لي صدقته ؛ وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ ، قال : « ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ، فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له »] رواه علي المدني أيضاً والحميدي وابن أبي شيبة وأهل السنن وابن حبان في صحيحه والبخاري والدارقطني من طرق عن عثمان بن المغيرة به وقال الترمذي : هو حديث حسن . وبالحملة فهو حديث حسن وهو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنهما .

• ويشهد لصحة هذا الحديث ما في الصحيحين ٥٦٩ [عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ ثم قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه »] فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين عن سيد الأولين والآخرين ، ورسول رب العالمين ، كما دل عليه الكتاب المبين ، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين .

• وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : ٥٧٠ [قال إبليس : يا رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني] .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ أي لا يغفرها أحد سواه . كما روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع ٥٧١ [أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ؛ فقال النبي ﷺ « عرف الحق لأهله »] . وقوله تعالى : ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ أي تابوا ولم يستمروا على المعصية

ويعصروا عليها ولو تكرّر الذنب منهم تابوا منه كما روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن مولى لأبي بكر عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٧٢ [« ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة »] وهو حديث حسن . وقوله تعالى : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أن من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ ونظائر هذا كثيرة جداً . وقوله تعالى : ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ﴾ أي جزاؤهم على هذه الصفات ﴿ مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي من أنواع المشروبات ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ بمدح تعالى الجنة .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ (١٤٣)

يؤاسي الله عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد ، وقتل منهم سبعون ، بقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي قد جرى نحو هذا على من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم ، والدائرة على الكافرين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هذا بيان للناس ﴾ يعني القرآن

فيه أخبار الغابرين مع أعدائهم جليّة ﴿ وهدى وموعظة ﴾ يعني القرآن ، فيه خبر ما قبلكم ، وهدى لقلوبكم ، وموعظة أي زاجر عن المحارم والمآثم ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين ﴿ ولا تنهوا ﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى ﴿ ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون . ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ أي إن كنتم قد أصابتمكم جراح وقُتِلَ منكم طائفة ، فقد أصاب أعداءكم كذلك جراح وقتل . ﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس ﴾ فقد ر عليكم فوز أعدائكم عليكم ، وإن كانت العاقبة لكم لحكمة نعلمها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ^(١) وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ قال ابن عباس : في مثل هذا الذي ^(٢) من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ يعني يقتلون في سبيله ويذلون مهجهم في مرضاته ﴿ والله لا يحب الظالمين ولیمحص الله الذين آمنوا ﴾ أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب والآ رفع درجاتهم بحسب ما أصيبوا به . وقوله تعالى : ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بطروا وبغوا ، فيكون ذلك سبب دمارهم وفنائهم . ثم قال تعالى : ﴿ أم حسبم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ أي حسبم أن تدخلوا الجنة ، دون أن تمتحنوا بالقتال والشدائد ويرى الله منكم المجاهدين الصامدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء . وقوله تعالى : ﴿ ولقد كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ أي قد كنتم تمنّون لقاء العدو ، وتودّون مناجزتهم فها قد حصل لكم الذي طلبتموه ، فدونكم فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٥٧٣ ﴿ لا تمنّوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فقد رأيتموه ﴾ وقت التحام الصفوف . ﴿ وأنتم تنظرون ﴾

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَلْقَلْبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا

(١ - و ٢) قلت : أن الله جل وعلا عندما يقول (ليعلم) ليس معناه أن علمه بهم ، متوقف على نتيجة أعمالهم فأنه خلقهم وما يعملون « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ولكن ليقم الحجة عليهم من أعمالهم خير أكانت أو شرأ فيجزئهم بما يستحقون . وهو الذي يعلم السرا وأخفى وهو عالم بما سيكون وما كان وما هو كائن قبل أن يخلق الأرض والسموات بخمسين ألف عام .

بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ
الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * (١٤٥) وَكَأَيُّنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ
مَعَهُ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا
اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ
قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ
الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * (١٤٨)

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد ، وقتل من قتل منهم ، وقيل أن الشيطان نادى : ألا إن محمداً قد قتل ، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وأنه يجوز عليه ذلك كما أخبرنا الله بمثله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام ، وقد حصل بين المسلمين ضعف وتأخر عن القتال ففي ذلك أنزل الله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه . قال ابن أبي نجيج عن أبيه : أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار يتشحط في دمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم . رواه البيهقي في دلائل النبوة .

ثم قال تعالى منكرأ على من ضعف : ﴿ أفلم مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ أي تفهقتم ؟ ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ أي الذين قاموا بالطاعة وقاتلوا عن دينه واتبعوا رسوله حياً وميتاً .

قال البخاري عن ابن شهاب أخبرني أبو سلمة أن عائشة رضي الله عنها ، أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه ، أقبل على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتميم رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب حبرة : فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد ميتتها وقال الزهري : وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس وقال : أجلس يا عمر ؛ قال أبو بكر :

أما بعد : فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . قال الله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل - إلى قوله - وسيجزى الله الشاكرين ﴾ قال فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها . وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال ، والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ففرقت حتى ما تقلتي رجلاي وحتى هويت إلى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾ أي لا يموت أحدٌ إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له ، ولهذا قال : ﴿ كتاباً مؤجلاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ وفي هذه الآية تشجيع للجناء على القتال فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤتيه منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤتيه منها ﴾ أي من عمل للدنيا فحسب ، ينال ما قدره الله له ، وما له في الآخرة من نصيب ، ومن عمل لآخرفته أعطاه الله منها وما قسم له في الدنيا . كما قال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزدله في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤتيه منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ أي سنعطيه من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم . ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين عما وقع في نفوسهم يوم أحد : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ﴾ قيل معناه : كم من نبي قُتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير هذا على قراءة من قرأ : ﴿ قتل معه ربيون كثير ﴾ لأن الله عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل فعلمهم الله على فرارهم وترك القتال ، فقال لهم : ﴿ أفئن مات أو قتل ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم و ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ وقيل وقيل ... ولكن قول ابن اسحق في السيرة موافق والله أعلم - وهو : « وكأين من نبي أصابه القتل ومع ربيون أي جماعات فما وهنوا بعد نبيهم ، وما ضعفوا عن عدوهم ، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم وذلك الصبر ﴾ والله يحب الصابرين ﴿ فجعل قوله تعالى : ﴿ معه ربيون كثير ﴾ حالاً ، وقد نصر هذا القول السهيلي وبالع في وله اتجاه لقوله تعالى : ﴿ فما وهنوا لما أصابهم ﴾ الآية ... ، وقد حكاه الأموي في مغازيه عن كتاب محمد بن إبراهيم ولم يحك غيره . وقوله تعالى : ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ وقال قتادة والربيع : ﴿ وما ضعفوا ﴾ بقتل نبيهم

﴿ وما استكانوا ﴾ أي فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله .

وقوله تعالى : ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فأتاهم الله ثواب الدنيا ﴿ أي النصر والظفر والعاقبة ﴾ وحسن ثواب الآخرة ﴿ أي جمع لهم ذلك مع هذا . ﴾ والله يحب المحسنين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشِّرِ الْمَشْكُورِينَ ﴿ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ (١٥٣)

يحذر تعالى عباده المؤمنين طاعة الكافرين والمنافقين ، فان طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به ، والتوكل عليه ، فقال تعالى : ﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم ؛ مع ما لهم من العذاب في الآخرة ، فقال تعالى : ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم

ينزل به سلطاناً وأواهم النار وبئس مئوى الظالمين ﴿٤﴾ .

وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : ٥٧٤ :
[أعطيت خمساً لم يُعْطَهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي : نصرتُ بالرعب مسيرة شهر ،
وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحللت لي الغنائم ، وأعطيتُ الشفاعة ، وكان
النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة] .

وروى العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾
قال : قذف الله الرعب في قلب أبي سفيان فرجع إلى مكة ، فقال النبي ﷺ ٥٧٥ :
[إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً ، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب] رواه ابن
أبي حاتم . وقوله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ قال ابن عباس
وعدهم الله النصر .

لما واجه المسلمون المشركين كان الظفر والنصر أول النهار ، فلما حصل ما حصل
من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالطاعة والثبات
لقوله تعالى : ﴿ إذ تحسونهم ﴾ أي تقتلونهم ﴿ بإذنه ﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿ حتى
إذا فشلتم ﴾ أي جبنتم قال ابن عباس : الفشل الجبن ، ﴿ وتنازعتم في الأمر وعصيتهم ﴾
كما وقع للرماة ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ من الظفر بهم أول الأمر .

﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا هزيمة المشركين
﴿ ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ ثم نصرهم عليكم ليختبركم
﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع ^(١) ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ أي لم
يستأصلكم بما خالفتهم أمر رسول الله ﷺ فعفا عنكم والله يتفضل على المؤمنين برحمته
ويخصهم بها لإيمانهم به وبرسوله .

روى البخاري عن البراء قال ٥٧٦ : [لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ
جيشاً من الرماة وأمرهم عليهم عبد الله بن جبير ، وقال : « لا تبرحوا ، ان رأيتمونا ظهرنا
عليهم فلا تبرحوا ، وان رأيتموا ظهورنا علينا فلا تعينونا » فلما لقيناهم هربوا حتى

(١) قلت : لقد اجتهد الرماة من جهة وغرهم الدنيا من جهة أخرى فخالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم
بينما كان أمر رسول الله صريحاً (... لو رأيتمونا تحطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم) وهذه دلالة صريحة
على لزوم التقيد بأمر المعصوم دون أي اجتهد فيه . ففي الاتباع الخير كله ، وفي الابتداء الشر كله .

رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة . فقال عبدالله بن جبیر : عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبتوا... فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلًا . فأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ « فقال لا تجيبوه » فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : « لا تجيبوه » فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال له : كذبت يا عدو الله أبقى الله لك ما يحزنك ؛ قال أبو سفيان : أعلُّ هبل ، فقال النبي ﷺ ، « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا الله أعلى وأجل » . قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبي ﷺ : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ؛ وستجدون مثلة لم أمر بها ولم تسؤني [

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما كان يوم أحد هزم المشركون ، فصرخ إبليس : أي عباد الله أخراكم ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم ، فبصر حذيفة ، فإذا بأبيه اليمان فقال : أي عباد الله أبي أبي قال : قالت : فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ؛ فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله عز وجل .

قال ابن اسحق : حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أحد بني عدي بن النجار قال : انتهى أنس ابن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار قد القوا ما بأيديهم ؛ فقال : ما يُخْلِيكم ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه .

روى البخاري عن أنس بن مالك أن عمه أنس بن النضر ، غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال النبي ﷺ لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ، ليرينَّ الله ما أجد ، فلقى يوم أحد فهزم الناس فقال : اللهم أني أعترذ اليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ اليك مما جاء به المشركون ؛ فتقدم بسيفه فلقى سعد بن معاذ فقال : أين ياسعداني أجد ريح الجنة دون أحد فمضى فقتل ، فما عُرِفَ حتى عرفته أخته بشامة أو بينانه ، وبه بضعة وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ورواه مسلم .

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال ٥٧٧ : [ان النساء كنَّ يوم أحد خلف

المسلمين يجهزون على جرحى المشركين ، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبرّ أنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به ، أفرد النبي ﷺ في تسعة : سبعة من الأنصار ، ورجلين من قريش ، وهو عاشرهم ﷺ ؛ فلما أرقهوه قال : رحم الله رجلاً ردّهم عنا « قال : فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل فلما أرقهوه أيضاً قال : « رحم الله رجلاً ردّهم عنا » فلم يزل يقول ذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « ما أنصفنا أصحابنا » فجاء أبو سفيان فقال : أعلّ هُبَل ؛ فقال رسول الله ﷺ : قولوا : « الله أعلى وأجل » فقالوا : الله أعلى وأجل . فقال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ : « قولوا الله مولانا والكافرون لا مولى لهم ، فقال أبو سفيان يوم بيوم بدر ، فيوم علينا ويوم لنا ، ويوم نساء ويوم نسر ، حنظلة بحنظلة ، وفلان بفلان فقال رسول الله ﷺ لا سواء . أما قتلانا فأحياء يرزقون ، وأما قتلاكم ففي النار يعذبون . فقال أبو سفيان : لقد كان في القوم مثله ، وإن كانت لعن غير ملائنا ما أمرت ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ولا ساءني ولا سرتني قال فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه ، وأخذت هند كبده فلاكتها... فلم تستطع أن تأكلها . فقال رسول الله ﷺ : « أكلت شيئاً ؟ » قالوا : لا . قال : « ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة في النار » قال : فوضع رسول الله ﷺ حمزة فضلى عليه ، وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جانبه فضلى عليه ، فرفع الأنصاري وترك حمزة حتى جيء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فضلى عليه ثم رفع وترك حمزة حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة [. تفرد به أحمد .

وقوله تعالى : ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون في الجبل هاربين من أعدائكم وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب والرسول يدعوكم في أخراكم ﴿ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى الرجعة والعودة والكرّة . ويدعو الناس ٥٧٨ : [إليّ عباد الله إليّ عباد الله] قال ابن عباس ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً جاهدوا دونه ﷺ وفيهم طلحة الذي بقي منهم وقتل الآخرون فاستأذن طلحة فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيب أنامله فقال : حسن^(١) فقال رسول الله ﷺ ٥٧٩ : « لو قلت بسم

(١) كلمة يقولها من أصابه عل حين غفلة ما آله ، أو أحرقه . كقول بعضنا في هذا الزمن : (إلخ ...)

٣٢٢ (٣- آل عمران - ج ٤) الرسول ﷺ يقتل أبي بن خلف ، بحربه في غزوة أحد

الله وذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء [ثم صعد رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون . وقد روى البخاري عن قيس بن أبي حازم ، قال ٥٨٠ : رأيت يد طلحة شلاء ، وقى بها النبي ﷺ ، يعني يوم أحد - وفي الصحيحين من حديث معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي عثمان النهدي ، قال ٥٨١ : [لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ إلا طلحة بن عبيد وسعد] وقال الحسن بن عرفة عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن أبي وقاص ، يقول : ٥٨٢ [نزل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال : إرم فذاك أبي وأمي]

وأخرجه البخاري عن سعد بن أبي وقاص ٥٨٣ : [أنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ قال سعد : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولي النبل ويقول « إرم فذاك أبي وأمي » حتى أنه لناولي السهم ليس له نصل فأرمني به .]

وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه قال : ٥٨٤ [رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ ، وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام]

وقال أبو الأسود عن عروة عن الزبير ٥٨٥ : [كان أبي بن خلف ، أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ، ليقتلن رسول الله ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته ، قال : « بل أنا أقتله إن شاء الله » فلما كان يوم أحد ، أقبل أبي في الحديد مقتعاً وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار بقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير . وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة ، وطعنه فيها بحربه فوقع إلى الأرض عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم . فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور فقالوا : ما أجزعك إنما هو خدش ؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ بل أنا أقتل أياً » ثم قال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لما اتوا أجمعون ، فمات إلى النار ﴿ فسحقاً لأصحاب السعير ﴾]

روى البخاري عن ابن عباس . قال ٥٨٦ : ﴿ إشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ بيده في سبيل الله ، واشتد غضب الله على قوم أدموا وجه رسول الله ﷺ

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٨٧ (اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ - وهو حينئذ يشير إلى ربايته - واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله .)

وقال ابن اسحق : أصيبت رباعية رسول الله ﷺ وشجّ في وجنته وكلمت شفته ، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص ، فحدثني صالح بن كيسان عن حدثه ، عن سعد بن أبي قاص ٥٨٨ ، قال : [ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وإن كان ما علمته لسيء الخلق مبغضاً في قومه ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ واشتد غضب الله على من دمتى وجه رسول الله ﷺ]

قوله تعالى : ﴿ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ﴾ أي فجزاكم غماً على غم . وكذا قوله تعالى ﴿ وَأَلْصَبْتَكُمْ فِي جَذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أي على جذوع النخل . فالغم الأول الحرمان من غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم وما أصاب المسلمين من القتل والجراح يومئذ ، بعد النصر الذي أحرزوه بادئ الأمر ، والذي ما فاتهم أخيراً إلا بمعصية أمر الله وخلاف أمر رسول الله ﷺ . والغم الثاني ظنهم أن النبي ﷺ قد قتل وميل العدو عليهم وإشرافه وعلوه عليهم فوق الجبل .

وقوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي على ما أتاكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ من الجراح والقتل قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ سبحانه وبحمده لا إله إلا هو جل وعلا .

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَوَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي

قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يمتن الله تعالى على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمانة ، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم . والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال في سورة الأنفال في قصة بدر ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾ الآية ... روى أبي حاتم عن ابن مسعود قال : النعاس في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان وروى البخاري عن أنس عن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وآخذه ، ويستط وآخذه هكذا رواه في المغازي معلقاً . ورواه في كتاب التفسير مسنداً عن شيان ، عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال : غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد قال فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه . وفي هذا يقول تعالى :

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً يغشى طائفةً منكم ﴾ يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق . وهم الحازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز لـه مأموله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من من القلق والجزع والخوف ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ﴾ إلى آخر الآية . واعتقد هؤلاء أن انتصار المشركين أصبح فاصلاً ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهكذا شأن أهل الشك تحصل لهم مثل هذه الظنون الشنيعة ثم أخبر تعالى أنهم : ﴿ يقولون ﴾ في تلك الحال ﴿ هل لنا من الأمر شيء ﴾ فقال تعالى : ﴿ قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ ثم فسّر ما أخفوه في أنفسهم ، بقوله تعالى ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ .

روى ابن اسحق عن الزبير قال : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا وذقته في صدره ، قال فوالله أني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعُه إلا كالحلم يقول : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ﴾ فحفظتها منه . وفي ذلك أنزل الله تعالى ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أي هذا قدر قدره الله عز وجل ، وَحُكِّمَ حَتْمٌ لا محيد عنه ولا مناص منه . وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن من المنافق في الأقوال والأفعال ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ أي ببعض ذنوبهم السابقة ، كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة ، الحسنة بعدها ، وإن من جزاء السيئة ، السيئة بعدها . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (١٥٨)

ينهي تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار ، في اعتقادهم الفاسد في قولهم عن اخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم . فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ أي عن اخوانهم ﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًى ﴾ أي في الغزو ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا ﴾ أي في البلد ، ﴿ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ في السفر أو في الغزو . وقوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ، ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم . ثم رد تعالى عليهم ﴿ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ ﴾ أي بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ، فلا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره ولا يزداد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء إلا بقضائه وقدره ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي علمه وبصره نافذ في جميع مخلوقاته ، ولا يخفى

عليه من أمورهم شيء ، وقوله تعالى ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو ممت لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجميع حطامها الفاني . وإن كل من مات فمرجه اليه تعالى ، فيجزيه بعمله إن خيراً كان أو شراً . فقال تعالى : ﴿ ولئن ممت أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١٥٩) إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٦١) أَفَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١٦٤)

يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ ، ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان قلبه على أمتهم المتبعين لأمره التاركين لزجره وأطاب لهم لفظه ﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أي رحمة من الله . وقال الحسن البصري : هذا خلقت محمد ﷺ بعثه الله به وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾

أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب عليهم ، لانفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك وألان جانبك لهم تأليفاً - لقلوبهم كما قال عبدالله بن عمرو : إني أرى صفة رسول رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة : انه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح

وقال تعالى : ﴿ فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث ، تطيباً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم - يوم بدر في الذهاب الى العير ، فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن نقول إذهب ، فنحن معك وبين يديك ، وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون ، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج الى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم . وشاورهم يوم الأحزاب في المصالحة على ثلث ثمار المدينة فأبى سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية في أن يعيل على ذراري المشركين ، فقال له الصديق : إنا لم نجيء لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين ، فأجابه إلى ما قال .

وقال في قصة الإفك ٥٨٩ [اشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنا (١) أهلي ورموهم ، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه إلا خيراً] ، وكان يشاورهم في الحروب ونحوها . وقد قال ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ٥٩٠ : [المستشار مؤتمن] وقال أيضاً عن جابر . قال رسول الله ﷺ ٥٩١ : [اذا استشار أحدكم أخاه فليشِر عليه] وقوله تعالى : ﴿ فإذا عزم فتوكل على الله ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ هذه الآية كما تقدم من قوله ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال تعالى : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما كان لنبي أن يغفل ﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا : لعل رسول الله ﷺ أخذها فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان لنبي أن يغفل ﴾ أي يخون . وهذا تنزيه له صلوات الله وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة

في أداء الأمانة ، وقسم الغنيمة وغير ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة حديث : روى الامام احمد عن أبي مالك الأشجعي ، عن النبي ﷺ قال : ٥٩٢ [أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض ، تجدون الرجلين جارين في الأرض - أو في الدار فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً ، فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة .]

حديث آخر : روى الامام أحمد عن المستورد بن شداد يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال]

حديث آخر : روى الامام أحمد عن أبي حميد الساعدي قال : ٥٩٤ (استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزدي يقال له ابن التقيّة على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي . فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فقال : « ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم وهذا أهدي لي ؟ أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدي إليه أم لا ؟ والذي نفسي بيده لا يأتي أحدكم منها بشي إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ، إن كان بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ^(١) » ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة لإبطيه ، ثم قال : « اللهم هل بلغت » ثلاثاً [أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة .

حديث آخر - : روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : ٥٩٥ [قام فينا رسول الله ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : « لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، فيقول : يا رسول الله أغثني ؛ فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة ، فيقول : يا رسول الله أغثني ؛ فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك ، لا ألفين أحدكم على رقبته صامت ^(٢) ، فيقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك » [أخرجاه من حديث أبي حيان .

حديث آخر - : عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ

(١) تيعر : تصيح .

(٢) الصامت : المال : من الذهب والفضة .

٥٩٦ [ردوا الخياط والمخيط ، فان الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة] .

حديث آخر - : روى أبو بكر بن مردويه عن بريدة عن النبي ﷺ قال ٥٩٧ : [إن الحجر يرمى به في جهنم فيهوي سبعين خريفاً ما يبلغ قعرها ويؤتى بالغلول فيقذف معه ثم يقال لمن غل به إئت به ، فذلك قوله تعالى ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾]

• روى أبو داود عن سمرة بن جندب قال ٥٩٨ : [كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالاً فينادي بالناس ، فيجوزوا بغنائمهم ، فيخسسه ويقسمه ، فجاء رجل يوماً بعد النداء بزمام من شعر فقال : يا رسول الله ، هذا كان مما أصبناه من الغنيمة ، فقال : « أسمعت بلالاً ينادي » ثلاثاً قال نعم . قال « فما منعك أن تجيء ؟ » فاعتذر إليه فقال « كلا أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك »]

وقوله تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ أي لا يستوي من اتبع شرع الله فاستحق رضوانه وثوابه ، وأجير من وويل عقابه ، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه ومأواه جهنم وبئس المصير. وهذا كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هم درجات عند الله ﴾ يعني أهل الخير وأهل الشر درجات ، درجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار كقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ الآية ... ولهذا قال تعالى : ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي وسيؤقتهم إياها ، وقوله تعالى : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد ﴾ وهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه ولهذا قال تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ يعني القرآن ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يأمهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لتزكو نفوسهم ، وتطهر من الدنس والخبث في حال شركهم وجاهليتهم ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ يعني القرآن والسنة . ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي من قبل هذا الرسول ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي لفي غي وجهل ظاهر جلي بين لكل أحد .

﴿ أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦٥) وَمَا

أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهَ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَا كُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَغُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى : ﴿ أولمّا أصابتكم مصيبة ﴾ هي ما أصيب منهم يوم أحد من القتل منهم ﴿ قد أصببتم مثلئها ﴾ يعني يوم بدر فإن المسلمين قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين أسيراً ﴿ قلتم أنتي هذا ﴾ أي من أين جرى علينا هذا ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم ، يعني بذلك الرماة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ثم قال تعالى : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فليذن الله ﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين ، كان بقضاء الله وقدره وله الحكمة بذلك ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾ يعني بذلك أصحاب عبدالله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه أثناء الطريق وكانوا ثلث الناس وقال عبدالله بن أبي : أطاعهم فخرج وعصاني ووالله لاندري علام تقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب . ولحقهم عبدالله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة ، يقول : يا قوم أذكركم الله أن لا تتخذوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم قالوا: لو نعلم أنكم تقتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم ، قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم ، ومضى رسول الله ﷺ

قال الله عز وجل : ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾ يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته ،

(٣-آل عمران-ج ٤) إذا كان القعود عن الجهاد يدفع الموت، فادفعوه عنكم أيها القاعدون ٣٣١

ومنه قولهم هذا ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ فإنهم يتحققون أن المشركين جاءوا من بلاد بعيدة ليثأروا من المسلمين ما أصيب به أشرفهم يوم بدر ، وإن القتال كائن بينهم لا محالة. ولهذا قال تعالى : ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ ثم قال : ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل . قال الله تعالى : ﴿قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من الموت ، فينبغي أنكم لا تموتون ، والموت لا بد آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين .
قال مجاهد عن جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شُيْءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ (١٧٥)

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار ، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار .

٣٣٢ (٣-آل عمران-ج ٤): شهداء بئر معونة، بلغ أحدهم رسالة رسول الله ﷺ وقتلوا جميعاً

روى محمد بن جرير عن إسحق بن أبي طلحة ٥٩٩ [قال حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل بئر معونة ، قال : لا أدري أربعين أو سبعين وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء ففقدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء ؟ فقال - أراه أبو ملحان الأنصاري - أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتأى أمام البيوت ثم قال : يا أهل بئر معونة : إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فآمنوا بالله ورسوله . فخرج إليه رجل من كسر البيت برمحه . فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا صاحبه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل] .

• وقال ابن اسحق : حدثني أنس بن مالك ٦٠٠ : [أن الله أنزل فيهم قرآناً/بلغوا عنا قومنا أننا قد لقينا ربنا فرضي عنا ، ورضينا عنه / ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زماناً ، وأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾]

• وقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال : ٦٠١ [إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ فقال : أما إنا قد سألنا رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا أي شيء؟ فنسحق ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة ، تركوا .]

حديث آخر - : روى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ ٦٠٢ : [ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلاَّ الشهيد ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة .]

حديث آخر - : وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما ٦٠٣ [إن أبا جابر وهو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه قتل يوم أحد شهيداً .]

(٣-آل عمران - ج ٤) : أرواح الشهداء في أجواف طير في الجنة ، ونسمة المؤمن طائر فيها ٣٣٣

حديث آخر - : روى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٤ :
[أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : تمنّ ، فقال له : أردُّ إلى الدنيا فأقتل فيك مرة
أخرى . قال : أني قضيت أنهم إليها لا يرجعون .]

حديث آخر - : روى البخاري عن ابن المنكدر ٦٠٥ : [سمعت جابراً قال لما قتل
أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونني
والنبي ﷺ لم ينه ؛ فقال النبي ﷺ « لا تبكيه - أو ما تبكه - ما زالت الملائكة تظله
بأجنحتها حتى رفع »] وقد أسنده مسلم والنسائي من طرق ...

حديث آخر - : روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٦ :
[لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار
الجنة ، وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب
ما كلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا
يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ،
فأنزل الله هذه الآيات : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم
يرزقون ﴾ وما بعدها ...]

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن محمد بن إدريس الشافعي عن مالك بن أنس
الأصبحي عن الزهري عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : قال
رسول الله ﷺ ٦٠٧ : [نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى
جسده يوم يبعثه] .

ففي هذا الحديث البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها
وتأكل من ثمارها وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة
وهو حديث عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب الأربعة
المتبعة .

أما أرواح الشهداء فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح المؤمنين فنسأل الله الكريم
المنان أن يميّتنا على الإيمان . وقوله تعالى : ﴿ فرحين بما آتاهم الله ﴾ أي من النعمة والغبطة
﴿ ويستبشرون ﴾ أي ويسرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من
جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم . قال سعيد بن جبیر لما دخلوا
الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما

عرفناه من الكرامة التي أخبر بها رسول الله ﷺ ، فأخبرهم أي ربهم : أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك فذلك قوله تعالى : ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ وقد تقدم في الصحيحين ذكر أصحاب بئر معونة ...

ثم قال تعالى : ﴿ ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أي أنهم لا يخافون ممّا أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم . ثم قال تعالى : ﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل . وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ قال محمد بن اسحق استبشروا أي سروا لما عاينوا من وفاء الموعد وجزيل الثواب وقوله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد ، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تتموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ، ويرى أن بهم قوة وجلداً . ولما يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد إلاّ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، ليخلف على أخواته السبع لا رجل فيهن . فانتدب المسلمون على ما فيهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ قال بن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما رجع المشركون من أحد قالوا : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بثما صنعتم ، أرجعوا فسمع رسول الله ﷺ ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ .

ولما بلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه ، قذف الله في قلبه الرعب ، فلقي غيراً من التجار فقال : ردوا محمداً ولكم من الجمل كذا وكذا . وأخبروهم أني قد جمعت جمعاً ولاني راجع إليهم . فجاء التجار فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك فقال النبي ﷺ : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة قال : قال رسول الله ﷺ حين بلغه رجوعهم ٦٠٨ [والذي نفسي بيده لقد سوّمت لهم حجارة لو أصبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب] .

وقوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ﴾ أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفهم بكثرة الأعداء فما اكثرثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به ، ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾

روى البخاري عن ابن عباس : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قالها ابراهيم عليه

السلام حين ألقى في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل : ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فاقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ أي لما توكلوا على الله ، كفاهم ما أهمهم ورجعوا إلى بلدهم ﴿ بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ مما أضمر لهم عدوهم . ﴿ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ قال : هذا أبو سفيان ، قال لمحمد ﷺ موعدكم بيدر حيث قتلتم أصحابنا . فقال محمد ﷺ « عسى » فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدرآ فوافقوا السوق فيها ، فابتاعوا ؛ فذلك قول الله عز وجل : ﴿ فاقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ قال وهي غزوة بدر الصغرى، رواه ابن جرير .

ثم قال تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾ أي يخوفكم أوليائه ، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وشدة ؛ قال الله تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ فإني كافيكم وناصركم ، كما قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه - إلى قوله - قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ .

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٦) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٧٧) ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١٧٨) ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٩)

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَا لَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ وذلك من شدة حرصه عليه السلام على الناس إذ كان يحزنه مبادرة الكفار ، إلى المخالفة والعناد والشقاق فقال تعالى : ﴿ ولا يحزنك ذلك ﴾ . إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ﴾ أي حكمته فيهم كذلك ﴾ ولهم عذاب عظيم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ أي استبدلوا هذا بهذا ﴾ لن يضروا الله شيئاً ﴾ أي ولكن لا يضررون إلا أنفسهم ﴾ ولهم عذاب أليم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ كقوله : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهر نفوسهم وهم كافرون ﴾

ثم قال تعالى ﴿ ما كان الله ليزر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة ، يعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين فظهر به إيمانهم وصبرهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به أستار المنافقين ، فظهرت خيانتهم لرسول الله ﷺ . قال السري : قالوا : إن كان محمد صادقاً فليخبرنا عن يؤمن به منا ومن يكفر به فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان الله ليزر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ أي حتى يخرج المؤمن من الكافر ، روى ذلك ابن جرير .

ثم قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليطالعكم على الغيب ﴾ أي إنكم لا تعلمون الغيب حتى يميز المؤمن من الكافر ﴿ ولكن الله يمتحنهم ﴾ من رسله من يشاء ﴾ كقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول ... ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما أنا لهم من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ﴾ أي لا يحسبن البخل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في

(٣ - آل عمران - ج ٤) : الذي يبخل بركة أمواله يمثل كتفه ثعباناً يأخذ بشدقيه ٣٣٧

دينه ، وربما كان في دنياه ، ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة ، فقال : ﴿ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٩ : [من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثّل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك] ثم تلا هذه الآية ﴿ ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرّ لهم ﴾ إلى آخره [الآية]

قال العوفي عن ابن عباس نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها ، رواه ابن جرير ، والصحيح الأول وان دخل هذا في معناه . وقوله تعالى : ﴿ والله ميراث السموات والأرض ﴾ أي ﴿ فانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل . فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم . ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي بنيانكم وضمايركم .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ * (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَبِيدِ * (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى
يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ
فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ * (١٨٤)

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرصاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ قالت اليهود : يا محمد ، إنفقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله سبحانه ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾

٣٣٨ (٣ - آل عمران ج ٤) : قال اليهود إن الله فقير وهم أغنياء ، فسيلقون وبال قولهم

الآية ... وقوله تعالى : ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله عز وجل ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ أي هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله وسيجزئهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونقول ذو قوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أي يقال لهم ذلك ، تقرعاً وتوبيخاً وتحقيراً .

وقوله تعالى : ﴿ الذين قالوا إن الله عهد الينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ يقول تعالى مكذباً زعمهم بأن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته ، فَتُجِبَّلَتْ منه . أن تنزل نار من السماء تأكلها قاله ابن عباس وغيره .

قال الله عز وجل ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿ وبالذي قلتم ﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة . ﴿ فلم تقتلتموهم ﴾ أي قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة وقتلتموهم - ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إنكم تتبعون الحق وتتقادون للرسول - ثم قال تعالى : مسلماً لنبية محمد ﷺ ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات وهي الحجج والبراهين القاطعة . ﴿ والزبر ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿ والكتاب المنير ﴾ أي الواضح الجلي .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١٨٥) لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٨٦)

يخبر تعالى جميع خلقه بأن كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى : ﴿ كل من عليها

(٣-آل عمران ج ٤) : كل نفس ذائقة الموت - أمر المؤمنون بالصبر حتى يؤذنوا بالجهاد ٣٣٩

فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴿ فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت ، والجنّ والانس يموتون وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخراً كما كان أولاً، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فانه لا يبقى أحد على وجه الأرض. فاذا انتهت البرية أقام الله القيامة وحاسب الخلائق حساباً عادلاً. ولذا قال تعالى: ﴿ ولما توفّون أجوركم يوم القيامة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ أي من جنبّ النار وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦١٠ [موضع سوط في الجنة ، خير من الدنيا وما فيها] قال ثم تلا هذه الآية : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ [وقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة كما قال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ وفي الحديث ٦١١ [والله ما الدنيا في الآخرة ، إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر بم ترجع إليه] والمعنى أن الدنيا هي متاع متروكة ، أوشكت والله الذي لا آله الا هو أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله . قال قتادة : وقوله تعالى : ﴿ لتبْلُوْا في أموالكم وأنفسكم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولتبلّوتكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ إلى آخر الآيتين ... أي لا بد أن يتبلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويتبلى المؤمن على قدر دينه ﴿ ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ يخبر تعالى المؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر بما سينالهم من الأذى من الكتابيين والمشركين ويأمرهم أن يقابلوه بالصبر والصفح حتى يفرج الله فقال تعالى مسلّياً لهم : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد ٦١٢ قال : [كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ؛ قال الله تعالى : ﴿ ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ قال وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمر الله به حتى أذن الله له فيهم] هكذا ذكره مختصراً .

فلما غزا رسول الله ﷺ بدرأ فقتل الله به صنديد كفار قريش . قال عبدالله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : (هذا أمر قد توجه) فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فكل من قام بحق أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر فلا بد أن يؤذى فما له من دواء إلا الصبر في الله والاستعانة به . والرجوع إلى الله .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُشِّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ * (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * (١٨٨) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (١٨٩) ﴿

يوبخ الله ويهدد أهل الكتاب، الذين أخذ الله عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس . فيكونوا على أهبة من أمره . فإذا أرسله الله تابعوه ، فكنتموا ذلك وتعوّضوا عما وعدوا من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف من الحظ الدنيوي السخيف فبشت الصفقة والبيعة ، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ؛ فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئاً ، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال ٦١٣ : [من سئل عن علم فكتمه ، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار] . وقوله تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ الآية ، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا ، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ ٦١٤ [من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة] وفي الصحيحين أيضاً ٦١٥ [المتشع بما لم يعط كلابس ثوبي زور]

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري : ٦١٦ [إن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ ، كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلّفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾] وكذا رواه مسلم .

وقد روى ابن مردويه عن ثابت بن قيس الأنصاري قال : ٦١٧ [يا رسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكة قال : لم ؟ قال : نهي الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم

(٣-آل عمران ج ٤) : المخلوقات في السماء والأرض دالّة لأهل العقول على الخلاّق العظيم ٣٤١

يفعل ، وأجديني أحب الحمد ، ونهى الله عن الخيلاء وأجديني أحب الجمال ، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهوري الصوت ، فقال رسول الله ﷺ « أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة . ؟ فقال بلى يا رسول الله فعاش حميداً ، وقتل شهيداً يوم مسيلمة الكذاب] .

وقوله تعالى ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ أي لا تحسب أنهم ناجون من العذاب ، بل لا بد لهم منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ والله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير ﴾ أي هو مالك كل شيء والقادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فانه العظيم الذي لا أعظم منه ، والتقدير الذي لا أقدر منه .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿ (١٩٤) ﴿

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي هذه في ارتفاعها وانساعها وهذه في انخفاضها وكثافتها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة ، من سيارات وثوابت ، وبحار وقفار وحيوان ونبات ومعادن ومنافع مختلفات الطعوم والألوان والروائح . ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أي تعاقبهما وتعارضهما من طول وقصر واعتدال ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم . ولهذا قال تعالى : ﴿ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي العقول التامة الزكية التي تدرك حقائق الأشياء ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال

الله فيهم : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون .
﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ثم وصف تعالى أولي الألباب ، فقال :
الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن عمر بن
حصين : أن رسول الله ﷺ قال ٦١٨ : [صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع
فعل جنبك] أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وألسنتهم ﴾ ويتفكرون
في خلق السموات والأرض ﴾ أي يفهمون ما فيها من الحكم الدالة على عظمة الخالق ،
وعلمه وحكمته واختياره ورحمته .

قال سفيان بن عيينة : الفكرة نورٌ يدخل قلبك . وربما تمثل بهذا البيت .

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن ابن عباس : أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكير ، خير من قيام ليلة والقلب
ساه . وكان ابن عمر إذا أراد أن يتعهد قلبه ، يأتي الحربة فيقف على بابها فينادي بصوت
حزين فيقول : أين أهلك ؟

ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقال الحسن عن عامر بن
عبد القيس ، قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ
يقولون : إن ضياء الإيمان : أو نور الإيمان التفكير .

وقد ذمَّ الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته ،
فقال : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض ... إلى قوله : ... وهم مشركون ﴾
ومدح عباده المؤمنين ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق
السموات والأرض ﴾ قائلين : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ أي ما خلقت هذا الخلق
عبثاً ، بل بالحق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا ، وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى .
ثم نزهه عن العبث فقالوا : ﴿ سبحانك ﴾ عن أن تخلق شيئاً إلا بالحق والعدل ، يا من
هو منزّه عن النقائص والعيب والعبث ^(١) ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ بحولك وقوتك ويسرنا
لأعمال ترضى عنها وعنا فتهدينا بها إلى جنات النعيم ، وتجيرنا من عذابك الأليم ثم قالوا :
﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴾ وما

(١) قلت : أن الله منزّه ولا شك عن فعل الباطل والعبث والعيب والنقيصة ولكنه هو الخالق لكل شيء وشتان
بين فعله وخلقه لأن فعله صفة من صفاته ولكن خلقه ليسوا صفاته .

(٣ - آل عمران - ج ٤) : ويل لمن قرأ (إن في خلق السموات ...) ولم يتفكر بها ٣٤٣

للظالمين من أنصار ﴿ أي يوم القيامة ، لا مجبر لهم منك ، ولا محيد لهم عنك . ﴾ ربنا إنما سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ﴿ أي داعياً يدعو للإيمان وهو الرسول ﷺ أي يقول آمنوا بربكم فآمنوا ، أي فاستجبنا له واتبعناه ﴾ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴿ أي بسبب إيماننا واستجابتنا لنبيك وأتباعه ، أغفر لنا ذنوبنا واسترها ﴾ وكفر عنا سيئاتنا ﴿ فيما بيننا وبينك ، ﴾ وتوفنا مع الأبرار ﴿ أي ألحقنا بالصالحين . ﴾ ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ﴿ أي على السنة رسلك ﴾ ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴿ أي لا تخزنا علناً على رؤوس الخلائق يوم القيامة الذي وعدت ، فإنك لا تخلف الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك وهو المثل بين يديك .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذ قام من الليل لتهجده . وروى البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال ٦١٩ : [كنت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قد فظطر إلى السماء فقال : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب ﴾ الآيات . ثم قام فتوضأ واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة . ثم أذن بلال فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى بالناس الصبح .] وهكذا رواه مسلم ، ورواه أبو داود من وجوه أخر عن غمرة .

روى ابن مردويه عن عطاء ، قال ٦٢٠ : [إنطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر : زرعياً تردد حباً . فقال ابن عمر : ذرينا أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ فبككت وقالت : كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ، ثم قال « ذريني أتعبد لربي عز وجل » قالت : فقلت والله إنني لأحب قربك ، وإنني أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلوة الصبح . قالت : فقال : يا رسول الله ، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال « ويحك يا بلال ، » وما يمنعني أن أبكي ، وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب ﴾ ثم قال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » قال الحسن بن عبد العزيز عن الأوزاعي قيل له : ما غاية التفكير فيهن ؟ قال : يقرؤهن وهو يعقلهن .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تُدْخِلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (١٩٥)

روى سعيد بن منصور بسنده إلى أم سلمة قالت : ٦٢١ [يا رسول الله لا نسع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ إلى آخر الآية ... وقالت الانصار : هي أول ظعينة قدمت علينا .] وقد رواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة ثم قال : صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه .

ومعنى الآية : إن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا ما سألو مما تقدم ذكره ، فاستجاب لهم عقب ذلك بقاء التعقيب كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ هذا تفسير للإجابة ، أي قال لهم مخبراً أنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه ، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى ؛ وقوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ، ﴿ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترا به . وقد ثبت في الصحيحين : ٦٢٢ [ان رجلاً قال : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلْتُ في سبيل الله صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، أيكفر الله عني خطاياي ؟ قال : « نعم » ثم قال : « كيف قلت ؟ » فأعاد عليه ما قال . فقال « نعم » إلا الذي قاله لي جبريل أنفاً]

(٣ - آل عمران - ج ٤) : لَا يَغْتَرُّ بِمَا عَلَيْهِ الْكَفَّارُ مِنَ التَّرَفِ ، فَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ٣٤٥

ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سِيئاتِهِمْ وَلَا دُخْلَ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن ، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أضافه ونسبه إليه ليدل على أنه العظيم الكريم الذي لا يعطي إلا جزيلًا كثيرًا .
وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا

﴿ لَا يَغْتَرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ (١٩٨)

يقول تعالى : لا يغترَّ ظاهرك بما عليه الكفار من الترف والنعمة والسرور ، إنما هو استدراجٌ فعمَّا قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مرتنين بأعمالهم السيئة ، لأن ما هم فيه ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رَوَّيَا ﴾ أي قليلًا ، وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا ، وذكر أن مآلهم إلى النار ، قال بعده : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ روى ابن مردويه عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ قال : ٦٢٣ [إِنَّمَا سَمَّوْا الْأَبْرَارَ لِأَنَّهُمْ بَرُّوْا الْآبَاءَ وَالْأَبْنَاءَ كَمَا أَنَّ لَوَالِدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا كَذَا لَوْلَدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ .]

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿ (٢٠٠)

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله أي مطيعون له متذللون بين يديه ، لا يشتركون بآيات الله ثمناً قليلاً. أي لا يكتفون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى ؛ وقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وقد قال تعالى في سورة القصص : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ الآية وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلاً كعبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس ؛ وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق ، كما قال تعالى : ﴿ لَنَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - فَأَتَانَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ... ﴾ الآية . وهكذا قال هنا : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ الآية ؛ وقد ثبت في الحديث ٦٢٤ [أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما قرأ سورة كهيعص بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطارقة والقساوسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم .] وثبت في الصحيحين ٦٢٥ [أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال : « إِنْ أَخَاكُمْ بِالْحَبْشَةِ قَدْ مَاتَ ، فَصَلُّوا عَلَيْهِ » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه] وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك ، قال : ٦٢٦ [لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ « اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ » فقال بعض الناس : يَا مَرْغَبُ إِنْ نَسْتَغْفِرُ لَعَلَّجَ مَاتَ بِأَرْضِ الْحَبْشَةِ ، فَتَرَلْتُ : ﴿ وَانْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ الْيَكْم وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ الآية .]

وروى ابن جرير عن جابر قال : ٦٢٧ [قال لنا رسول الله ﷺ حين مات النجاشي « إِنْ أَخَاكُمْ أَصْحَمَةٌ قَدْ مَاتَ » فخرج رسول الله ﷺ فصلى كما صلى على الجنائز فكبر أربعاً . فقال المنافقون : يصلي على عالج مات بأرض الحبشة فأنزل الله تعالى : ﴿ وَانْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ [الآية ... وقال ابن أبي نجيج عن مجاهد : ﴿ وَانْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب . وقال الحسن البصري قال هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه ، وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ واتباعهم محمداً ﷺ . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي

موسى ، قال : ٦٢٨ [قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يأتون أجرهم مرتين » فذكر منهم « رجلاً من أهل الكتاب آمن بنية وآمن بي »] وقوله تعاله تعالى : ﴿ لا يشتركون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المردولة منهم ، بل يبذلون ذلك مجاناً ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ أي سريع الإحصاء رواه ابن أبي حاتم عن مجاهد . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ قال الحسن البصري : أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضرأ ولا لشدة ولا لرخاء حتى يموتوا مسلمين ، وإن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم ، وكذلك قال غير واحد من علماء السلف ؛ وأما المراقبة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات ، وقيل : انتظار الصلاة بعد الصلاة .

وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : ٦٢٩ [ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ، إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة ، بعد الصلاة فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط] روى ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، قال : أقبل عليّ أبو هريرة يوماً فقال : أتدري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ ؟ قلت : لا . قال : أما أنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت في قوم يعمرن المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها ثم يذكرون الله بها فعليهم أنزل ﴿ اصبروا ﴾ أي على الصلوات الخمس ﴿ وصابروا ﴾ أنفسكم وهواكم ، ﴿ ورابطوا ﴾ في مساجدكم ، ﴿ وأتقوا الله ﴾ فيما عليكم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾

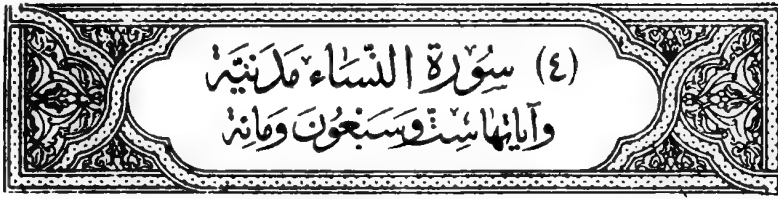
وقيل : المراد بالمراقبة هنا مراقبة الغزو في نخور العدو ، وحفظ ثغور الأسلام ، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين ، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك ، وذكر كثرة الثواب فيه ^(١) . فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي : أن رسول الله ﷺ ، قال : ٦٣٠ [رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها .]

حديث آخر : روى مسلم عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ انه قال : ٦٣١

(١) قلت : والمراد يشمل القولين : الصلاة ، والمراقبة على ثغور المسلمين .

[رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان] وقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم وأحوالكم كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : ٦٣٢ [اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن] ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة . وقال ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول الله عز وجل ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ يقول : اتقوني فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني .

انتهى اختصار تفسير سورة آل عمران ، والله الحمد والمنة ، ونسأله الموت على الكتاب
والسنة ، آمين



(نزلت بعد سورة الممتحنة)

قال العوفي عن ابن عباس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وكذا روى ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير ، وزيد بن ثابت

روى الحاكم في مستدركه عن معن بن عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود قال : ان في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ الآية ... و ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ الآية ... ؛ و ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ و ﴿ لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك ﴾ الآية (١) ... ثم قال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه فقد اختلف في ذلك ثم روي من طريق صالح المري عن قتادة عن ابن عباس قال : ثمانى آيات نزلت في سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت : أولهن ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب الله عليكم والله عليم حكيم ﴾ والثانية : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ والثالثة ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ثم ذكر قول ابن مسعود سواء يعنى في الخمسة الباقية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا • (١)

يقول تعالى أمر خلقه بتقواه ، وهي عبادته وحده لا شريك له ، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ، وهي آدم عليه السلام ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه، وفي الحديث الصحيح : ٦٣٣ [ان المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شئني في الضلع اعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن استمتمت بها استمتمت بها وفيها عوج] . وقوله : ﴿ وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ﴾ أي وذراً منها أي من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم ، وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به الأرحام ﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه. قال الضحاك : واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بربوها وصلوها : ﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال : ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ وفي الحديث الصحيح ٦٣٤ [أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] وهذا أمر بمراقبة الرقيب ، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض ، ويحثهم على ضعفائهم ، وقد ثبت في صحيح مسلم : ٦٣٥ [أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر - وهم مجتابو النمار أي من عريهم وفقرهم - قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ حتى ختم الآية. ثم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ ثم حضهم على الصدقة فقال : تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من صاع بره ، من صاع تمره] وذكر تمام الحديث . وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة (١)

﴿ وَأَتُوا اللَّيْثَامِي أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدَلُوهَا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي اللَّيْثَامِي فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَتِلْكَ

* ليس في هذه الآية حجة لمن يميزون التوشل بالهريقين.. إذ ليس المقصود السؤال بالأرحام ، وإنما المراد صلة الأرحام .

(١) وهذا نص خطبة الحاجة : راجع « التمهيد » من المجلد الأول من هذا المختصر فهو مفتتح بصلاة الحاجة التي أولها : (إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونموذ بالله من شرور أنفسنا ... الخ) .

وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ
أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٢﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ
لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم ، كاملةً موفرةً ، وينهى عن أكلها
وضمها إلى أموالهم . ولهذا قال : ﴿ ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ قال سعيد بن جبير :
لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم . وقال السدي : كان أحدهم يأخذ
الشاة السمينه من مال اليتيم ، ويجعل مكانها الشاة المهزولة ويقول شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم
الجيد ويطرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم . وقوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم
إلى أموالكم ﴾ ، أي لا تخطوها فتأكلوها جميعاً . وقوله تعالى : ﴿ إنه كان حوباً كبيراً ﴾
أي إثمًا عظيماً قاله ابن عباس وجماعة من التابعين . وفي الحديث المروى في سنن أبي داود :
٦٣٦ [اغفر لنا حوبنا وخطايانا] والمعنى أن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ
كبير فاجتنبوه . وقوله تعالى : ﴿ وإن خفتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحوا ما طاب لكم
من النساء مثنى ... ﴾ أي إذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمة ، وخاف أن لا يعطيها مهر
مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء ، فإنهن كثير ولم يضيق الله عليه .

قال البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وإن خفتُمْ
أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ قالت : يا ابن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في
ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها
مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن أعلى ستهن
في الصداق ، وأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة : قالت
عائشة وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : ﴿ ويستفتونك في
النساء ﴾ قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ رغبة
أحدكم عن يتيمة إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها
وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال .

وقوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن ، إن
شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء ثلاثاً ، وإن شاء أربعاً . وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة

عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، لأن ذلك من خصائصه عليه الصلاة والسلام .

روى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه ٦٣٧ [أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتته عشر نسوة فقال له النبي ﷺ : « اختر منهن أربعاً » فلما كان في عهد عمر طلق نساءه وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر فقال : إني لأظن الشيطان فيما يسرق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك ، ولعلك لا تلبث إلا قليلاً . وأيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أو لأورثن منكم ولأمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال] وهكذا رواه الشافعي وغيره إلى قوله « اختر منهن أربعاً » وباقي الحديث في قصة عمر من أفراد أحمد وهي زيادة حسنة وهي مضاعفة لما علّل به البخاري هذا الحديث فيما حكاه عنه الترمذي أن البخاري يقول هذا الحديث غير محفوظ - أي ينفي الزيادة وهذا التعليل فيه نظر والله أعلم - والاسناد الذي قدمناه من مسند أحمد رجاله ثقات على شرط الشيخين . وهناك أحاديث عن أبي داود ، وابن ماجه ، والشافعي شواهد لحديث غيلان كما قاله البيهقي .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي أن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهما ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة ، أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهما ، ولكن يستحب ، فمن فعل فحسن ، ومن لا فلا حرج ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أي لا تجوروا . يقال عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار. وفي الحديث الموقوف على عائشة على الصحيح ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أي لا تجوروا قاله ابن أبي حاتم . وقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نَحْلَةً ﴾ وعن ابن عباس : النحلة المهر ، وقيل فريضة مسماة والنحلة في كلام العرب الواجب يقول : لا تنكحها إلا بشيء واجب لها ، ولا ينبغي تسمية الصداق كذباً بغير حق ، وإن الرجل عليه دفع المهر عن طيب نفس ، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً . ولهذا قال : ﴿ فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ وقال هشيم عن سيار عن أبي صالح : كان الرجل إذا زوج بنته أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك ونزل ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نَحْلَةً ﴾ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

﴿ وَلَا تَوُثُّوا أَلْسِنَتَكُمْ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا

وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا
الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا
فَلْيَسْتَغْفِرْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ
أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس
قياماً، تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها . ومن ههنا يؤخذ الحجرُ على السفهاء وهم
أقسام : فتارة يكون الحجرُ للصَّغَر ، فإن الصغير مسلوبُ العبرة . وتارة يكون للجنون ،
وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للمفلس وهو المديون ضاق ماله عن
وفاء دينه، فإذا سأل الدائنون الحاكمَ الحجرَ عليه ؛ حجر عليه . وعن ابن عباس ، في قوله
تعالى : ﴿ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم ﴾ قال : هم بنوك والنساء ، وقال الضحاك : هم
النساء والصبيان قال سعيد بن جبیر : هم اليتامى . وقال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال
قال رسول الله ﷺ ٦٣٨ [إن النساء سفهاء إلاَّ التي أطاعت قيِّمَها] وقيل هم الخدم
وشياطين الأنس . ورجل كان له على رجل دين فلم يُشْهَدْ عليه . قال العبرة الأخيرة ابن
جرير عن أبي موسى من حديث له وقوله تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا
لهم قولا معروفا ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول : لا تعتمد إلى مالك وما
خوَّلَكَ الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تنظر إلى ما في أيديهم ولكن امسك
مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم . وهذه الآية
الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ومن تحت الحجر بالفعل من الإنفاق في الكساي
والأرزاق بالكلام الطيب وتحسين الأخلاق . وقوله تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى ﴾ أي اختبروهم
﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ يعني الحلم وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي
يكون منه الولد ، وفي الصحيحين : ٦٣٩ [عن ابن عمر ، قال : عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ
ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يحزني وعُرِضَتْ عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس
عشرة سنة فأجازني] . قال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث : إن هذا هو الفرق
بين الصغير والكبير .

وقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ قال الفقهاء : إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه ، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليّه ؛ وقوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوها إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية ﴿ إِسْرَافًا وَبِدَارًا ﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ عنه ولا يأكل منه شيئاً وقال ابن أبي حاتم عن عائشة : ﴿ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه ، بقدر قيامه عليه . واختلفوا هل يرد إذا أيسر ؟ والصحيح : لا . لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً ، ولأن الآية أباحت الأكل من غير بدل . وروى احمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : ليس لي مال ولي يتيّم ؟ فقال : ٦٤٠ [كل من مال يتيّمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالاً ومن غير أن تقي مالك - أو قال - تفدي مالك بماله « شك حسين أحد الرواة - وإذا استغنى استغف] وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم فسلموا إليهم أموالهم ﴿ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم ، لثلاث يقع من بعضهم جحود لما قبضه وتسلمه ثم قال تعالى : ﴿ وَكَفَى بِاللّٰهِ حَسِيبًا ﴾ أي محاسباً وشاهداً ورقياً على الأولياء في كل أحوالهم فلتسلم كاملة غير منقوصة . ولهذا ثبت في صحيح مسلم : ٦٤١ [أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمّن على اثنين ولا تكلمن مال يتيّم . »]

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (٧)

وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴿ (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٩) إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً ﴿ (١٠) ﴾

قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً فأنزل الله ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ الآية . ؛ أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى ، يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدي به إلى الميت من قرابة ، أو زوجية أو ولاء . فإنه لحمة كلحمة النسب . وروى ابن مردويه عن جابر قال : أتت أم كحة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن لي ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ الآية ، وسيأتي هذا الحديث عند آتي الميراث بسياق آخر ... وقوله تعالى : ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾ قيل : المراد وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ فليرضخ لهم من التركة نصيب ، وإن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام ، وقيل يستحب . واختلفوا هل هو منسوخ أم لا ؟ على قولين : فقال البخاري عن ابن عباس في الآية ، قال : هي محكمة وليست بمنسوخة هي قائمة يعمل بها . وعن مجاهد ، هي واجبة على أهل الميراث ما طابت بها أنفسهم . وهكذا روي عن ابن مسعود وأبي موسى وعبد الرحمن بن أبي بكر وجماعة من التابعين ...

• وعن ابن عباس : ... إنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصي لهم رواه ابن أبي حاتم .

• قال سفيان الثوري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ﴿ وإذا حضر القسمة .. ﴾ قال : منسوخة وعنه أيضاً قال : نسختها الآية التي بعدها : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم ﴾ وقال العوفي عن ابن عباس كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض ، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض فاعطي كل ذي حق حقه . وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم .

والمعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون ، واليتامى والمساكين ، قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم يائسون لا شيء يُعْطَوْنَهُ فأمَر الله تعالى ، وهو الرؤف الرحيم ، أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون برأ بهم وصدقة عليهم وإحساناً إليهم وجبراً لكسرهم . كما قال تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ وذم الذين ينقلون المال خفية خشية أن يطلع عليهم المحابيج وذوو الفاقة كما أخبر عن أصحاب الجنة ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه ، ولهذا جاء في الحديث ٦٤٢ [ما خالطت الصدقة مالاً إلا أفسدته] وقوله تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من

خلفهم ... ﴿ الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذا في الرجل يحضره الموت ، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب فينظر لورثته كما كان يجب أن يصنع بورثته إذا خشي الضيعة عليهم . وثبت في الصحيحين ٦٤٣ [أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده ، قال : يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة أفأتصدق بثلي مالي ؟ قال : « لا » قال فالشطر ؟ قال « لا » قال : فالثلث ؟ قال : « الثلث ، والثلث كثير » ثم قال رسول الله ﷺ « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس »]

وقيل المراد بالآية فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً ﴾ وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً . أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذرايرهم إذا وليتهم ، ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلماً إنما يأكل في بطنه ناراً ولهذا قال : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فانما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة وقد ثبت في الصحيحين في جملة السبع الموبقات التي أمرنا رسول الله ﷺ أن نجتنبها ... « وأكل مال اليتيم » روى ابن مردويه عن أبي هريرة ٦٤٤ [إن رسول الله ﷺ قال « يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً » قيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : « ألم تر أن الله قال : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾ الآية ...

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُّسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنِ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (١١)

هذه الآية والتي بعدها ، والآية التي هي خاتمة هذه السورة هنَّ آيات علم الفرائض وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك ، ولنذكر منها ما هو متعلق بالمقصود . وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة فموضعه . كتب الأحكام والله المستعان . وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض ، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك .

روى ابو داود وابن ماجه عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً ٦٤٥ [العلم ثلاثة ، وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة] قال ابن عينية : إنما سمي الفرائض نصف العلم ، لأنه يتبلى به الناس كلهم .

وروى البخاري عن جابر بن عبدالله قال : ٦٤٦ [عادي رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين ، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً ، فدعا بماء فتوضأ منه ، ثم رش علي فأفقت ، فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله ؟ فنزلت : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾] وكذا رواه مسلم والنسائي ورواه الجماعة كلهم من حديث سفيان بن عينية .

حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية : روى أحمد عن جابر قال : ٦٤٧ [جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله هاتان بنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيدا ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ، ولا ينكحان إلا ولهما مال فقال : « يقضى الله في ذلك » فنزلت آية الميراث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : « اعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك] والظاهر أن حديث جابر الأول - الذي رواه البخاري آنفاً - إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي ، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات ، ولم يكن له بنات ، وإنما كان يورث كلاله ، ولكن ذكرنا الحديث ها هنا تبعاً للبخاري فإنه ذكره ها هنا ، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ أي بأمرهم بالعدل فيهم ففي الجاهلية كان الميراث للذكور دون الإناث فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث وفاوت بين الصنفين فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة فناسب أن يعطي ضعفي ما تأخذه الأنثى ، ويستنبط من هذه أن الله أرحم بخلقه من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم في هذه الآية فعلم أنه أرحم بهم منهم .

روى البخاري عن ابن عباس ، قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والرابع ، وللزوج الشطر والرابع .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ قال البعض : ... قوله تعالى : ﴿ فَوْقَ ﴾ زائدة !!! وهذا ممتنع فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه . ثم قوله تعالى : ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ لو كان المراد ما قالوه ... لقال : فلهما ثلثا ما ترك . وإنما استفيد كون الثلثين للبتين ، من حكم الأختين في الآية الأخيرة ، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين ، فإذا ورث الأختان الثلثين ، فَلَا تَنْ يَرِثُ الْبَنَاتُ الْثَلَاثِينَ بالطريق الأولى وقد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ ، حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين ، فدل الكتاب والسنة على ذلك . وأيضاً فإنه قال ﴿ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ فلو كان للبتين النصف لنص عليه أيضاً فلما حكم به للواحدة على انفرادها دل على أن البنتين في حكم الثلاث والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ إلى آخره ، الأبوان لهما في الأثر أحوال « أحدها » أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس ، فان لم يكن للميت إلا بنت واحدة ، فرض لها النصف ، وللأبوين لكل واحد منهما السدس ، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب ، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب .

« الحال الثاني » : أن ينفرد الأبوان بالميراث فيفرض للأُم الثلث ، والحالة هذه أخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض ، فيكون قد أخذ ضعفي ما حصل للأُم وهو الثلثان ، فلو كان معهما زوج أو زوجة يأخذ الزوج النصف والزوجة الربع . ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد ذلك على ثلاثة أقوال : أصحها : أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين ، لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما وقد جعل الله لها النصف مما جعل للأب ، فتأخذ ثلث الباقي ، ويأخذ الأب الباقي في ثلثيه . هذا قول عمر وعثمان وأصح الروايتين عن علي ، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت ، وهو قول الفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة وجمهور العلماء .

الحال الثالث : وهو اجتماعهما مع الأخوة ، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم ، فلمنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس ، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب ، أخذ الأب الباقي .

وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الأخوة عند الجمهور . وقوله تعالى : ﴿ فان كان له أخوة فلائمه السّدد ﴾ أضروا بالأّم ولم يرثوا ، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ويحجبها ما فوق ذلك وقوله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصي بها أو دين ﴾ أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدّين مقدم على الوصية ، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة .

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه وأصحاب التفسير من حديث مروي عن علي ابن أبي طالب ، قال : ٦٤٨ [إنكم تقرأون : ﴿ من بعد وصية يوصي بها أو دين ﴾ وان رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية ، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه ، دون أخيه لأبيه] ثم قال الترمذي : لا نعرفه إلا من حديث الحارث ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم (قلت) لكن كان حافظاً للفرائض ، معتنياً بها وبالحساب ، فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ أي إنما فرضنا للآباء والأبناء وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية . وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الاسلام من كون المال للولد ، وللأبوين الوصية كما تقدم عن ابن عباس . إنما نسخ الله ذلك إلى هذا . ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم لأن الإنسان قد يأتيه النفع الديني أو الأخروي أو كلاهما من أبيه ، مالا يأتيه من ابنه ، وقد يكون بالعكس ولذا قال : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ أي إن النفع متوقع ومرجو من هذا ، كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضنا لهذا ولهذا ، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ فريضة من الله ﴾ أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث ، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض من الله حكم به وقضاه . والله عليم حكيم الذي يضع الأشياء في محالها ، ويعطي كلاً ما يستحقه بحسبه ، ولهذا قال : ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يُوْصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ تَوْصُونَ



بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم ، إذا متن عن غير ولد فإن كان لمن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين ، وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية وبعده الوصية ثم الميراث ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء .

وحكم أولاد البنين وإن سفلوا كحكم أولاد الصلب . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ﴾ إلى آخره ... وسواء في الربع أو الثمن ، الزوجة والزوجتان والائتسان والثلاث والأربع يشتركن فيه . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ ﴾ الخ الكلام عليه كما تقدم - آنفاً - وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ﴾ والكلالة كما عرفها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : أقول فيها برأبي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، الكلالة من لا ولد له ولا والد ، ومروي كذلك عن عمر وهكذا قال علي وابن مسعود ، وصح عن غير واحد عن ابن عباس وزيد بن ثابت وبه يقول الشعبي والنخعي والحسن وقتادة وجابر بن زيد والحكم ، وقال به السلف والخلف وأهل المدينة ، وأهل الكوفة والبصرة وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف بل جميعهم وقد حكي الإجماع عليه غير واحد . وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ ﴾ أي من أم كما هو في قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبي وقاص ، وكذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه عنه قتادة ﴿ فلكل واحد منها السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه : (أحدها) أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم و (الثاني) أن ذكورهم ولانثهم في الميراث سواء . و (الثالث) لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلاله فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن و (الرابع) أنهم لا يزدادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وانثهم . وقال ابن أبي حاتم ، عن الزهري قال : قضى عمر أن ميراث

الأخوة من الأم بينهم للذكر مثل حظ الأنثى ؛ قال الزهري : ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ ، وهذه الآية هي التي قال الله تعالى فيها ﴿ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَثِ ﴾ واختلف العلماء في المسألة المشتركة وهي زوج وأم أو جدة ، واثنان من ولد الأم ، وواحد أو أكثر من ولد الأبوين ، فعلى قول الجمهور ، للزوج النصف وللأم أو الجدة السدس ، ولولد الأم الثلث ، ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو أخوة الأم ، وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر ، فأعطى الزوج النصف ، والأم السدس ، وجعل الثلث لأولاد الأم . فقال له أولاد الأبوين : يا أمير المؤمنين ، هب أن أبانا كان حماراً ، ألسنا من أم واحدة ؟ فشرّك بينهم وصح الشريك عن عثمان ، وهو إحدى الروایتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم ، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضي ومسروق وطاووس ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي ، وعمر بن عبد العزيز والثوري وشريك ، وهو مذهب مالك والشافعي واسحق ابن راهويه ، وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم ، بل يجعل الثلث لأولاد الأم ، ولا شيء لأولاد الأبوين ، والحالة هذه لأنهم عصبه . وقال وكيع بن الجراح : لم يختلف عنه في ذلك . وهذا قول أبي بن كعب ، وأبي موسى الأشعري . وهو المشهور عن ابن عباس وهو مذهب الشعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن ، والحسن ابن زياد ، وزفر بن الهزيل ، والإمام أحمد ويحيى بن آدم ، ونعيم بن حماد وأبي ثور وداود الظاهري ، واختاره أبو الحسين بن اللبان الفرضي رحمه الله في كتابه الإيجاز .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مَضَارٍ ﴾ أي لتكن وصيته على العدل لا على الإضرار والجور والحيف بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه ، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى في ذلك ، كان كمن ضاد الله في حكمه وشرعه . ولهذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبي ﷺ ٦٤٩ قال : [الإضرار في الوصية من الكبائر]

وروي موقوفاً على ابن عباس ، وذلك عن النسائي وابن أبي حاتم وابن جرير وقال : والصحيح الموقوف . ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث هل هو صحيح أم لا^(١) على قولين (أحدهما) : لا يصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت في الحديث أن رسول الله

(١) قلت : أي اقرار الموصي بشيء دون باقي الورثة بمعنى أنه يخص أحدهم بشيء دون الآخرين .

عليه السلام قال : ٦٥٠ [إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث] وهذا مذهب مالك وأحمد وأبي حنيفة والقول القديم للشافعي رحمهم الله وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار ، وهو مذهب طاوس وعطاء وعمر بن عبد العزيز وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه واحتج : بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها قال . وقال بعض الناس لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة ، وقد قال النبي ﷺ ٦٥١ [إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث] وقال الله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ فلم يخص وارثاً ولا غيره ، إنتهى قول البخاري . (١) فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً في نفس الأمر ، جرى فيه هذا الخلاف ، ومتى كان حيلةً ووسيلةً إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم فهو حرام بالإجماع وبنص هذه الآية الكريمة : ﴿ غير مضار وصية من الله والله عليم حلیم ﴾ ثم قال تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ (١٤) ﴾

أي هذه هي الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه ، هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تتجاوزوها ، ولهذا قال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ أي فيها فلم يزد بعض الورثة ، ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين . ﴾ أي لكونه غير ما حكم الله ، وضاداً لله في حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكمه به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المعين

(١) هذا قول مجرد للبخاري رحمه الله ولكن فيما يبدو والله أعلم أن حجة خصومه أقوى ؛ لأن الله يقول « غير مضار » والرسول يقول « لا وصية لوارث » إلا أن يكون الإقرار ناتجاً عن أن الموصي له ، له أنعاب خاصة على الموصي فخصه بشيء لقامها .

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾

كان الحكم في ابتداء الإسلام، أن المرأة اذا ثبت زناها بالبيّنة العادلة ، حبست في بيت ، فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال ﴿واللاتي يأتين الفاحشة﴾ يعني الزنا ﴿من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة﴾ منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو التناسخ لذلك . قال ابن عباس رضي الله : كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور ، فنسخها بالجلد أو الرجم وكذا روى عن جماعة التابعين أنها منسوخة ، وهو أمر متفق عليه - روى الامام أحمد عن عبادة بن الصامت ٦٥٢ [كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ، أثر عليه وكرب لذلك ، وتغير وجهه ، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم فلما سرّي عنه قال : « خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً » ، الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر ، الثيب جلد مئة ورجم بالحجارة ، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة »] وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق ...

وذهب ابن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث ، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني ، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا : لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية واليهوديين ، ولم يجلدهم قبل ذلك ، فدلّ على أن الجلد ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قولهم ، والله أعلم . وروى الطبراني عن ابن عباس ٦٥٣ قال : [لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ « لا حبس بعد سورة النساء »]

وقوله تعالى : ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي بالشم والتعير والضرب بالنعال ، وكان الحكم كذلك ، حتى نسخ الله تعالى بالجلد

والرجم ، وقال عكرمة وغيره : نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا ، وقال السدي : نزلت في الفتيان قبل أن يتزوجوا . وقال مجاهد : نزلت في الرجلين إذا فعلا - لا يكتفي ، وكأنه يريد عمل قوم لوط والله أعلم ، وقد روى أهل السنن عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ ٦٥٤ : [من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به] وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ أي أقبلما وصلحت أعمالهما ﴿ فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا ﴾ أي لا تعفوهما بعد ذلك ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ وقد ثبت في الصحيحين ٦٥٥ [إذا زنت أمة أحدكم ، فليجلدها الحد ولا يترّب عليها] أي لا يعيّرهما بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت .

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ (١٨) ﴾

يقول سبحانه وتعالى : إنما يقبل الله التوبة من عمل السوء بجهالة ثم يتوب ولو بعد معاينة الملك يقبض روحه قبل الغرغرة قال مجاهد وغير واحد وكل من عصى الله خطأ أو عمداً ، فهو جاهل حتى يتزع عن الذنب . وقال أبو صالح عن ابن عباس : من جهالته عمل السوء ﴿ ثم يتوبون من قريب ﴾ عن ابن عباس : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت ، وقال الضحاك مكان دون الموت فهو قريب وقال الحسن : ما لم يغرغر وقال عكرمة : الدنيا كلها قريب .

﴿ ذكر الأحاديث في ذلك ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ٦٥٦ [ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر] ورواه الترمذي وابن ماجه .

روى ابن مردويه عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ ٦٥٧ يقول [ما

من عبد مؤمن يتوب قبل الموت بشهر إلا قبل الله منه أدنى من ذلك ، وقبل موته بيوم وساعة يعلم الله منه التوبة والإخلاص إليه إلا قبل منه [.

روى أبو بكر بن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦٥٨ : [ان الله يقبل توبة عبده ما لم يغفر] .

روى الامام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ٦٥٩ [قال ابليس : يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ؛ فقال الله عز وجل : وعزتي وجلالي لا أزال اغفر لهم ما استغفروني] .

فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل ، وهو يرجو الحياة فلأن توبته مقبولة ولهذا قال الله تعالى ﴿ فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ﴾ وأما متى غرغرت النفس صاعدة في الغلاصم فلا توبة مقبولة حينئذ ، ولات حين مناص . ولهذا قال تعالى :

﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ كما حكم على أهل الأرض بعدم قبول توبتهم إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها في قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه ، لا ينفعه ندمه ولا توبته ، ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ أولئك أعدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ أي موجعاً شديداً مقيماً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا

مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

قال البخاري عن ابن عباس : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا قال : إذا مات الرجل ، كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها ؛ فترت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا ﴾ هكذا ذكر البخاري وأبو داود والنسائي وابن مردويه وابن أبي حاتم وغيرهم أحاديث وأخبار بنفس المال . وقال ابن جريج : ٦٦٠ قال عكرمة [أنزلت في كبيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس ، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت ، فجنح عليها ابنه ، فجاءت رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ، فأنزل الله هذه الآية .] وقال السدي عن أبي مالك : كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبًا ، فإن كان له ابن صغير ، أو أخ ، حبسها حتى يشب ، أو تموت فيرثها فإن هي انفلتت فأتت أهلها ولم يلق عليها ثوبًا ، نجت . فأنزل الله ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا .. ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ ولا تعضلوهن لثذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ أي تضارّوهن وفي العشرة ، لترك لكم ما أصدقتموها أو بعضه أو حقًا من حقوقها عليكم ، أو شيئًا من ذلك على وجه القهر لها والإضرار . قال عبدالله بن المبارك : يعني قوله تعالى : ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا ﴾ في الجاهلية ، ﴿ ولا تعضلوهن ﴾ في الإسلام . وقوله تعالى : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وجماعة التابعين ، يعني بذلك الزنا ، يعني إذا زنت فللك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها ، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها وقيل : أنها النشوز والعصيان وقال ابن جرير : إنه يعم ذلك كله : الزنا والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك ، يعني هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها ، وهذا جيد والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ أي طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم ، كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله ؛ كما قال تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن — بالمعروف ﴾ وقال رسول الله ﷺ : ٦٦١ [خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي]

وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ويوسعهم نفقته ، ويصاحك نساءه ، حتى أنه كان يسابق عائشة يتودّد إليها بذلك . يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام يوتسهم بذلك ﷺ ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ أي فعسى إن صبرتم على إمساكنهن مع الكراهة فيه أن يكون في ذلك خير كثيراً لكم في الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس في هذه الآية : هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولداً ويكون فيه خير كثير . وقوله تعالى ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثمًا مبيناً ﴾ أي إذا أراد أحدكم مفارقة زوجته ، والزواج من غيرها فعليه أن يسترد من مهرها شيئاً ولو كان قنطاراً من المال . وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل . وقد كان عمر نهى عن كثرة الإصداق ، ثم رجع عن ذلك .

روى ابن المنذر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال قال عمر بن الخطاب : [لا تغالوا في مهر النساء فقالت امرأة : ليس ذلك لك ، إن الله يقول : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾ - من ذهب - قال وكذلك هي في قراءة ابن مسعود فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً ، فقال عمر : إن امرأة خاضعت عمر فخضعت له . [وقد ثبت في الصحيحين ٦٦٢ :] أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعهما : الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ قالها ثلاثاً فقال الرجل : يا رسول الله : ما لي ؟ - يعني ما أصدقها - قال : لا مال لك ، إن كنت صدقت ، فهو بما استحلت من فرجها ، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها . [وفي سنن أبي داود عن نضرة بن أبي نضرة ٦٦٣ :] أنه تزوج امرأة بكرراً في خدرها فإذا هي حامل من الزنا فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ف قضى لها بالصداق وفرّق بينهما وأمر بجلدها ، وقال : « الولد عبد لك والصداق في مقابلة البضع . » ولهذا قال تعالى . ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ . روي عن ابن عباس أن المراد بذلك العقد . وعنه أيضاً قال : ﴿ إمساكاً بمعروف أو تسريحاً بإحسان ﴾ وقوله هو قوله ﷺ ٦٦٤ : [أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلّتم فروجهن بكلمة الله] وعن الربيع بن أنس : إن كلمة

الله هي الشاهد في الخطبة . وفي صحيح مسلم : عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها ٦٦٥ : [... واستوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فرجهن بكلمة الله .]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم ... ﴾ الآية ... يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكريمةً لهم ، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده ، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها ، وهذا أمر مجمع عليه . وقال ابن جرير عن ابن عباس : قال : كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله ، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين فأنزل الله تعالى :

﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ و ﴿ وان تجمعوا بين الأختين ﴾ على أن هذا الأمر حرام في هذه الأمة ، مبشع غاية التبشع ولهذا قال تعالى ﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾ إن الله تعالى قال : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ فزادها ها هنا : ﴿ ومقتاً ﴾ أي بغضاً أي هو أكبر في نفسه ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته فإن الغالب ، أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهاتهن لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع ، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبشس طريقاً لمن سلكه من الناس فمن تعاطاه بعد هذا ، فقد ارتد عن دينه ، ويقتل ويصير ماله فيثاً لبيت المال كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن البراء بن عازب قال : ٦٦٦ [مرّ بي عمي الحارث بن عمير ، ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له أي عم ابن بعثك النبي ؟ قال : بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن اضرب عنقه]

وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو شبهة ، واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع ، أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بَيْنَهُنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا

دَخَلْتُمْ بَيْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * (٢٤) ﴿٢٤﴾

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع ، والمحارم بالصهر . كما قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : حرمت عليكم سبع نسباً وسبع صهراً . وقرأ : ﴿ حرمت عابكم امهاتكم وبناتكم وأخواتكم ﴾ الآية ... وعن ابن عباس ايضاً قال : يحرم من النسب سبع ومن الصهر سبع . ثم قرأ : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ فهنَّ النسب . وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى : ﴿ وبناتكم ﴾ فانها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل وقد حكى عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتاً شرعية فكما لم تدخل في قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ فإنها لا تترث بالإجماع فكذلك لا تدخل في هذه الآية ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وأمهاتكم اللاتي أَرْضَعْنَكُمْ وَأخواتكم من الرضاعة ﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك . ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ٦٦٧ [أن رسول الله ﷺ قال « إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة »] وفي لفظ مسلم ٦٦٨ [يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب] دون استثناء ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة . فذهب ذاهبون إلى أن مجرد الرضاع يحرم اعموم هذه الآية وهذا قول مالك ويروى عن ابن عمر وبعض التابعين وقال آخرون لا يحرم أقل من ثلاث

رضعات لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة ٦٦٩ [أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تحرم المصّة ولا المصتان] وذهب إلى هذا الإمام أحمد وغيره وهو مروي عن علي وعائشة وأم الفضل وغيرهم وقال آخرون : لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : ٦٧٠ [كان فيما أنزل من القرآن «عشر رضعات معلومات يحرم من » ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفي النبي ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن] وروى عبد الرزاق عن عائشة نحو ذلك وفي حديث سهلة بنت سهيل ، ٦٧١ [أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة خمس رضعات] وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات . وبهذا قال الشافعي وأصحابه . ثم ليعلم انه لا بد ان تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين ، على قول الجمهور . وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ يرضعن اولادهن حولين كاملين ﴾^(١) ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحل ، كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط ، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو قول لبعض السلف على قولين . تحرير هذا في كتاب الأحكام الكبير^(٢) وقوله تعالى : ﴿ وامهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها سواء دخل بها أو لم يدخل بها ، وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمرها ، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ في تزويجهن فهذا خاص بالربائب وحدهن بخلاف من فهم أن عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال : لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها . لقوله ﴿ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾

روى ابن جرير عن علي (رض) في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها ، أيتزوج بأمرها ؟ قال هي بمنزلة الربيبة . وحدثنا ابن بشار عن زيد بن ثابت قال : إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها ، ولكن جمهور العلماء على أن الربيبة لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد على البنت وقال ابن عباس : إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت ، لم تحل له أمها وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً والله الحمد والمنة .

(١) راجع سورة البقرة : الأحاديث رقم ٣٦٣ - ٣٦٧ .

(٢) للمفسر ابن كثير رحمه الله .

قال ابن جريج والصواب قول من قال : الأم ^(١) من المبهمات ، لأن الله تعالى لم يشترط معهن الدخول كما اشترط مع أمهات الرائب مع أن ذلك أيضاً لإجماع الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه . وقد روي بذلك عن النبي ﷺ خبر غريب وفي إسناده نظر وهو ما حدثني به ابن المثنى بسنده عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال ٦٧٢ : [إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالبنت أو لم يدخل فإذا تزوج بالأم فلم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج الابنة .] وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه ، فإن في إجماع الحجة على صحة القول به مستغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره .

وأما قوله تعالى : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم ﴾ فالجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل ، أو لم تكن في حجره ، قالوا : وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له . كقوله تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ وفي الصحيحين ٦٧٣ : [إن أم حبيبة قالت : يا رسول الله أنكح أختي بنت أبي سفيان ، وفي لفظ مسلم : عزة بنت أبي سفيان ، قال : « أو تحبين ذلك ؟ » قالت : نعم لست بك بمخلية ، وأحب من شاركني في خير أختي ، قال « فإن ذلك لا يحل لي » قالت : فيأنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة ، قال : « بنت أم سلمة ؟ » قالت نعم . قال : إنها لم تكن ربييتي في حجري ما حلت لي ، إنها لبنت أخي من الرضاعة ، أَرْضَعْنِي وَأَبَا سلمة ثوية . فلا تعرض عليّ بناتكن ولا أخواتكن »] وفي رواية البخاري ٦٧٤ : [أنها لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي ... ^(٢)] فجعل مناط التحريم تزوجه أم سلمة وحكم بالتحريم بذلك ^(٣) وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف .

وقد قيل : بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل ، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم ، وقد ثبت عن علي بن أبي طالب أنه قال بهذا واحتج بمفهوم الآية : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم ﴾ وهو قول غريب جداً ، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري

(١) قلت : المقصود بالأم : أم الزوجة . وبأمهات الرائب : الزوجات اللاتي هن بنات من أزواج آخرين ومعنى المبهمات أي عامة في المدخول بها وغير المدخول بها فتحرم بمجرد العقد عليها أي عل البنت .

(٢) قلت : والمعنى : وكيف وأني متزوج أم سلمة ... وهي ربييتي في حجري ... ؟ زيادة على كونها ابنة أخي من الرضاع .

(٣) بل بالجهتين معاً : كونها ابنة أخيه من الرضاع ، وكونها ربييته في حجره . .

وأصحابه وحكي عن مالك واختاره ابن حزم ، وروى الذهبي عن ابن تيمية رحمه الله إنّه إستشكله وتوقف في ذلك والله أعلم .

وروي عن قتادة: بنت الربيبة وبنت ابنتها، لا تصلح وإن كانت أسفل ببطون كثيرة، ومعنى قوله تعالى : ﴿ اللّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ أي نكحتموهن وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم إبتنتها عليه ، إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها .

وقوله تعالى : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم ، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين يتبنونهم في الجاهلية ، كما قال تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ﴾ الآية ... قال عطاء : كنا نحدث - والله أعلم - أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد ، قال المشركون في ذلك ، فأنزل الله تعالى ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ ونزلت ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ ونزلت . ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد : إن هؤلاء الآيات مبهمات : ﴿ وحلائل أبنائكم ﴾ ﴿ وأمّهات نسائكم ﴾ وروى عن جماعة من التابعين نحو ذلك (قلت) معنى مبهمات أي عامة في المدخول بها وغير المدخول ، فتحرم بمجرد العقد عليها ، وهذا متفق عليه ، فإن قيل : من أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة كما هو قول الجمهور ، ومن الناس من يحكيه إجماعاً وليس من صلبه ، فالجواب من قوله ﷺ ٦٧٥ « [يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب]

وقوله تعالى : ﴿ وإن تجمعوا بين الأخنتين ﴾ أي وحرّم عليكم الجمع بين الأخنتين معاً في التزويج ، وكذا في ملك اليمين ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ إلا ما كان في جاهليّتكم فقد عفونا عنه وغفرناه ، قال ابن ماجة عن أبي خراش الرعيني ، قال ٦٧٦ [قدمت على رسول الله ﷺ وعندي أختان تزوجتهما في الجاهلية فقال ٦٧٧ : [إذا رجعت فطلق إحداهما] (قلت) فيحتمل أن أبا خراش هذا هو الضحاك بن فيروز الديلمي ، والله أعلم . روى ابن مردويه عن الديلمي قال : قلت يا رسول الله ، إن تحتي أختين . قال ٦٧٨ : [طلق أيهما شئت] فالديلمي المذكور أولاً هو الضحاك بن فيروز الديلمي رضي الله عنه ، وكان من جملة الأمراء باليمن الذين تولّوا قتل الأسود العنسي المتنبئ لعنه الله .

وأما الجمع بين الأخنتين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية وقال الإمام مالك عن ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأخنتين في ملك

اليمن ، هل يجمع بينهما فقال عثمان : أحلتها آية وحرمتها آية ، وما كنت لأمنع ذلك فخرج من عنده ، فلقي رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فسأله عن ذلك فقال : لو كان لي من الأمر شيء ، ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالا^٢ . وقال مالك قال ابن شهاب : أراه علي بن أبي طالب .

قال أبو عمر بن عبد البر عن إياس بن عامر ، سألت علي بن أبي طالب فقلت : إن لي أختين مما ملكت يميني اتخذت إحداهما سرية فولدت لي أولاداً ثم رغبت في الأخرى فما أصنع ؟ فقال علي رضي الله عنه . تعتق التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى... (إلى أن قال) انه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدد ، أو قال إلا الأربع ، ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله عز وجل من النسب . ثم قال أبو عمر : هذا الحديث : رحلة رجل و لم يصب من أقصى المغرب والمشرق إلى مكة غيره لما خابت رحلته . قال أبو عمر وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس ولكن اختلف عليهم ، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار ... وقد أجمع المسلمون على أن معنى : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم .. ﴾ أن النكاح وملك اليمن في هؤلاء كلهم سواء .

وقوله تعالى : ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيماكنكم ﴾

أي وحرم عليكم من الأجنبية المحصنات وهن المزوجات إلا ما ملكت أيماكنكم ، يعني إلا ما ملكتموهن بالسي فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن فإن الآية نزلت في ذلك روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال ٦٧٩ : [أصبنا سبياً من سبي أوطاس ، وهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن وهن أزواج ، فسألنا النبي ﷺ ، فترلت هذه الآية ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيماكنكم ﴾ فاستحللنا فزوجهن .] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ورواه مسلم في صحيحه .

وقد روى الطبراني عن ابن عباس : أنها نزلت في سبايا خيبر . وذكر مثل حديث أبي سعيد ، وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة طلاقها ومن ابن مسعود قال : إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببضعها وعن ابن عباس : بيعها طلاقها ، وكذا قال أبي بن كعب وجابر بن عبد الله وعن ابن عباس قال : طلاق الأمة ست : بيعها طلاقها وعتقها طلاقها ، وهبتها طلاقها وبرأها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها .^(١)

(١) قلت : وأين السادة فلتحرر الرواية وراوها ابن جرير عن يعقوب عن ابن علية عن خلود عن عكرمة عن ابن عباس . أقول ولعلها : بيعها طلاقها ، أي بيع زوجها والله أعلم .

روى عبد الرزاق عن ابن المسيب قوله : ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ قال : ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك ، فبيعها طلاقها .

وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً . فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقها ... واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخزج في الصحيحين وغيرهما : فلأن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقها ولم يفسخ نكاحها من زوجها مغيث بل خيرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء ، فاختارت الفسخ وقصتها مشهورة ، فلو كان بيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء ما خيرها النبي ﷺ فلما خيرها دل على بقاء النكاح ، وإن المراد من الآية : المسيئات فقط والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم يعني الأربع فالزموا كتابه وحدوده وشرعه وما فرضه . وقوله تعالى : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ أي ما عدا من ذكرن من المحارم ، هن لكم حلال .

وقوله تعالى : ﴿ أن تبغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع ، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي ولهذا قال ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ﴾ أي كما تستمتعون بهن فاتوهن مهورهن في مقابلة ذلك كما قال تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ بعد ذلك وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء أنه أبيع ثم نسخ مرتين وقال آخرون أكثر من ذلك وقال جماعة بإباحتها للضرورة ، ولكن الجمهور على خلاف ذلك والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : [نبي رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة ، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر] ٦٨٠ وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني ، عن أبيه ٦٨١ [أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال « يا أيها الناس : إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء ، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً »] وفي رواية مسلم ٦٨٢ : [في حجة الوداع] وله ألفاظ موضعها كتب الأحكام .

وقوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيت به من بعد الفريضة ﴾ قال ابن جرير عن المعتمد بن سليمان عن أبيه قال زعم الحضرمي أن رجلاً كانوا يفرضون المهر ، ثم

عسى أن يدرك أحدهم العسرة ، فقال تعالى ﴿ ولا جناح عليكم فيها الناس ﴾ فيما تراصم به من بعد الفريضة ﴿ يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ ، واختار هذا القول ابن جرير وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِيْنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٥)

يقول تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طَوْلاً ﴾ أي سعة وقدرة ﴿ أن ينكح المحصنات المؤمنات ﴾ أي الحرائر العفائف المؤمنات ﴿ فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ أي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن المؤمنون. ولهذا قال تعالى : ﴿ من فتياتكم المؤمنات ﴾ قال ابن عباس وغيره فلينكح من إماء المؤمنين ثم اعترض بقوله تعالى : ﴿ والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور ؛ ثم قال تعالى : ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾ فدل على أن السيد هو وليّ أمته لا تتزوج إلا بإذنه ، وكذلك هو وليّ عبده ليس له أن يتزوج إلا بإذنه كما جاء في الحديث ٦٨٣ : [أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر] أي زان . فإن كان مالك الأمة امرأة ، زوجها من يزوج المرأة بإذنها لما جاء في الحديث ٦٨٤ : [لا تزوج المرأة المرأة ، ولا المرأة نفسها ، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها] .

وقوله تعالى : ﴿ وآتوهن أجورهن بالمعروف ﴾ أي وادفعوا مهورهن عن طيب نفس منكم ولا تبخسوا منه شيئاً استهانةً بهن ، لكونهن إماء مملوكات ، وقوله تعالى :

﴿محصنات﴾ أي عفاف عن الزنا لا يتعاطيه ؛ ولهذا قال ﴿غير مسافحات﴾ أي الزواني المعلنات ﴿ولامتخذات أهدان﴾ يعني أخلاء ، فقد نهى الله عن تزويجها ما دامت كذلك . وقوله تعالى :

﴿فلإذا أحصنَّ فإن آتبن بفاحشةٍ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾
اختلف القراء في ﴿أحصنَّ﴾ قيل المراد بالإحصان ههنا الإسلام والأظهر - والله أعلم - التزويج لأن سياق الآية يدل عليه . يقول سبحانه تعالى ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ والله أعلم . والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله تعالى : ﴿فلإذا أحصنَّ﴾ أي تزوّجن كما فسرہ ابن عباس وغيره .

وقد وقع خلاف على حدّ الأمة إذا زنت ، فالجمهور يقولون : إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة أو كافرة ، مزوجة أو بكراً مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنى من الإمام ، وقد اختلف أجوبتهم عن ذلك ، فأما الجمهور فقالوا : لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم . وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإمام ، فقدمنها على مفهوم الآية فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن علي (رض) أنه خطب ٦٨٥ فقال : [يا أيها الناس أقيموا الحد على إماءكم من أحصن منهن ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت ، فأمرني أن أجلدّها ، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدتها أن أقتلها فذكرت ذلك لنيي الله ﷺ فقال : «أحسنتم تركها حتى تتماثل»] .

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ٦٨٦ : [إذا زنت أمة أحدكم فتيّن زناها ، فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثالثة فتيّن زناها فليبعها ولو بجبل من شعر .] ولمسلم ٦٨٧ [إذا زنت ثلاثاً فليبعها في الرابعة] وروى مالك بسنده إلى عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة المخزومي قال : أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قريش فجلدنا من ولائد الامارة خمسين خمسين من الزنا .

وقيل إنه ليس على الأمة حد قبل الإحصان وإنما تضرب تأديباً وعمدتهم مفهوم الآية وهو من مفاهيم الشرط وهو حجة عند أكثرهم فقدم على العموم عندهم ؛ وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد ٦٨٨ [أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ؟

قال : إن زنت فحدوها ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم بيعوها ولو بضعفير [أخرجاه وأصرح من ذلك ما رواه سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ٦٨٩] ليس على أمة جلد حتى تحصن - يعني حتى تزوج فإذا أحصنت بزواج فعليها نصف ما على المتحصنات [ولكن قال ابن خزيمة رفعه خطأ إنما هو من قول ابن عباس وكذلك قال البيهقي وقيل ... وقيل ... والله أعلم بالصواب ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك لمن خشي العنت منهم ﴾ أي إنما يباح نكاح الإمام بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا ، وشق عليه الصبر عن الجماع ، وعنت بسبب ذلك كله ، فله حينئذ أن يتزوج بالأمة وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا فهو خير له لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها ... ولهذا قال تعالى : ﴿ وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴾ وهذه الآية عامة في الحرائر والإماء ، كما قال الجمهور. والله أعلم .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿ (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿ (٢٨) ﴾

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها ﴿ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ يعني طرائقهم الحميدة ﴿ ويتوب عليكم ﴾ أي من الآثم والمحارم ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله ، وقوله تعالى : ﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ أي يريد اتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ أي في شرائعه وأوامره أن تميلوا عن الحق إلى الباطل أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم . ولهذا أباح الإمام بشروط ﴿ وخلق

(١) قلت : والراجع - والله أعلم - قول الجمهور لورود الأحاديث الصحيحة في حدها خمسين جلدة فيمن أحصنت أو لم تحصن كما تقدم من حديث علي رضي الله عنه لأن حديث علي وعمر قضيا أعيان .

الإنسان ضعيفاً ﴿ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وعزمه وهمته وقال طاوس : أي في أمر النساء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿ (٣٠) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿ (٣١) ﴿

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أكل أموال بعضهم بعضاً بالباطل ، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار ^(١) ، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل ، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا. حتى قال ابن جرير عن ابن عباس: في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول إن رضىته أخذته وإلا رددت معه درهماً قال : هو الذي قال الله عز وجل فيه : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن علقمة عن عبد الله في الآية ، قال : إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها، وتسبوا بها في تحصيل الأموال ، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية : بيعاً أو عطاءً يعطيه أحد أحداً. وقال ابن جرير عن ميمون بن مهران قال : قال رسول الله ﷺ ٦٩٠ : [البيع عن تراض ، والخيار بعد الصفقة ولا يحل لمسلم أن يغش مسلماً ^(٢)] ، ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال ٦٩١ : [البيعان بالخيار ما لم يتفرقا]

(١) قلت : من أنواع الربا ما هو مشهور تعامله في زماننا هذا كبيع التقييط والبيعتين فيبيعة بأن يبيع بالخاضر بعشرة ولأجل بائنا عشر وما أشبه . وكذلك عمل اليا نصيب فهو قمار صرف .

(٢) هذا حديث مرسل ميمون تابعي .

(٤- النساء -ج ٥): النهي عن ضرب النفس بحديدة، أو تحسّي السم، انتحاراً أو تدجيلاً ٣٧٩

وفي لفظ البخاري ٦٩٢ : [إذا تابع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا] وقال بذلك أحمد والشافعي وأصحابهما وجمهور السلف والخلف ، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد ، إلى ثلاثة أيام بحسب ما يتبين فيه مال البيع ولو إلى سنة في القرية ونحوها ، كما هو المشهور عن مالك رحمه الله . وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي بارتكاب محارم الله ، وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿ إن الله كان بكم رحيماً ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص رض ٦٩٣ أنه قال : [لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال : احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن أغتسلت أن أهلك . فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح قال : فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال : « يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ » قال : يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن أغتسلت أن أهلك ، فذكرت قول الله عز وجل : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾ فتيمنت ثم صليت ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً .] وهكذا رواه أبو داود ، وذكر نحوه ، وهذا والله أعلم أشبه بالصواب . وقال أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس أن عمرو بن العاص ... وذكر نحوه ثم أورد عنه هذه الآية الكريمة من حديث الأعمش بسنده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦٩٤ : [من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يجأها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً] (١) وهذا الحديث ثابت في الصحيحين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ﴾ ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتدياً فيه ظالماً في تعاطيه ، أي عالماً بتحريمه ، متجاسراً على انتهاكه ﴿ فسوف نصليه ناراً ﴾ الآية وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السم وهو شهيد .

وقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ أي إذا اجتنبت كبائر الآثام التي نهيت عنها ، كفرتنا عنكم صفائر الذنوب وأدخلناكم الجنة ، ولهذا قال : ﴿ وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر :

روى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله ﷺ ٦٩٥ : [أندري ما يوم الجمعة ؟] قلت : هو اليوم الذي جمع فيه أباكم قال : « لكن أدري ما يسوم الجمعة ، لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ، ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضي الإمام

(١) فما يقول أهل الطرق الذين يضربون أنفسهم بالحديد (الشيش) ويزعمون أنهم يتحدون السم إهداء منهم أن هذه من (الكرمات ...!!؟) زعموا ... ألا فليتبوا إلى الله ، وإلا فإن الحاتمة السيئة تنتظرهم ، وفار جهنم ترتقبهم ، كما في الحديث أعلاه .

صلاته إلا كانت كفارة له ما بينها وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة [وقد روى البخاري من وجه آخر عن سلمان نحوه .

روى أبو جعفر عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا ٦٩٦ : [خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « والذي نفسي بيده » ثلاث مرات ثم أكب فأكب كل رجل منا يبكي لا ندري ماذا حلف عليه ، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشري ، فكان أحب إلينا من حمر النعم فقال : « ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويُخرج الزكاة ، ويحْتَنِبُ الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ، ثم قيل له : أدخل بسلام . »] وهكذا رواه النسائي والحاكم في مستدركه وابن حبان في صحيحه ثم قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

تفسير هذه السبع : وذلك بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وسلم قال ٦٩٧ : [« اجتنبوا السبع الموبقات » قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »]

فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفي ما عداهن ... كما سنورده من الكبائر الواردة في أحاديث يحتج بها ، ومن أقوال بعض الصحابة والتابعين مثل التعرُّب بعد الهجرة وهو أن يهاجر الرجل حتى إذا وقع سهمه في الفيل ووجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع أعرابياً كما كان ، وعقوق الوالدين ، واستحلال البيت الحرام قبلتنا أحياء وأمواتاً ، والذي يستسخر ^(١) وبكاء الوالدين من العقوق وقول الزور أو شهادة الزور وقتل الولد وشرب الخمر واليمين الغموس وأن يسب الرجل أباه فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه ، ومن أقوال بعض الصحابة : كالجمع بين الصلاتين بلا عذر وترك الصلاة ، والأمن من مكر الله ، واليأس من روح الله ، والزنا والسرقه ، والاضرار بالوصية ، والغلول والذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً فقد قال رسول الله ﷺ : فأين تجعلون الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً إلى آخر الآية .

ومن أقول بعض السلف : وفراق الجماعة ، ونكث الصفقة ، ومنع فضول الماء بعد الري ومنع طروق الفحل إلا يجعل والبهتان . قال أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي في

(١) إما إنها من السخرية والاستهزاء بالناس .. أو من السخرة بأن يكلف الناس عملاً يعملونه له بلا أجر ولكن أميل إلى أنها من السخرية والاستهزاء بالناس . أو لملها الأثنتان والله تعالى أعلم .

كتابه الشرح الكبير في كتاب الشهادات : ثم اختلف الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم في الكبائر ، وفي الفرق بينها وبين الصغائر . ول بعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه أحدها : انها المعصية الموجبة للحد والثاني : انها المعصية التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد ، بنص كتاب أو سنة ، وهذا أكثر ما يوجد لهم . وإلى الأول أميل ، لكن الثاني أوفق لما ذكره عند تفسير الكبائر . والثالث ، قال إمام الحرمين في الإرشاد وغيره : كل جريمة تنبئ بقلّة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة ، فهي مبطلّة للعدالة . والرابع ، ذكر القاضي أبو سعيد الهروي : أن الكبيرة كل فعل نص الكتاب على تحريمه وكل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره . وترك كل فريضة مأمور بها على الفور ، والكذب في الشهادة والرواية واليمين هذا ما ذكره على سبيل الضبط ثم قال :

وفصل القاضي الروياني فقال : الكبائر سبع : قتل النفس بغير الحق ، والزنا ، والواطء ، وشرب الخمر ، والسرقه ، واخذ المال غصباً ، والقذف ، وزاد في الشامل على السبع المذكورة : شهادة الزور ، أضاف إليها صاحب العدة : أكل الربا ، والإفطار في رمضان بلا عذر ، واليمين الفاجرة وقطع الرحم ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم ، والخيانة في الكيل والوزن ، وتقديم الصلاة على وقتها وتأخيرها عن وقتها بلا عذر ، وضرب المسلم بلا حق ، والكذب على رسول الله ﷺ عمداً ، وسب الصحابة ، وكتمان الشهادة بلا عذر ، وأخذ الرشوة ، والقيادة بين الرجال والنساء ، والسعاية عند السلطان ، ومنع الزكاة ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة ، ونسيان القرآن بعد تعلّمه ، وإحراق الحيوان بالنار ، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب ، واليأس من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ويقال : الوقعة في أهل العلم وحنلة القرآن ، ومما يعد من الكبائر - الظهار ، وأكل لحم الخنزير والميتة إلّا عن ضرورة ثم قال الرافعي : وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال . (قلت) وقد صنف في الكبائر مصنفات منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبدالله الذهبي الذي بلغ نحواً من سبعين كبيرة . وإذا قيل : إن الكبيرة ما توعّد عليها الشارع بالنار بخصوصها كما قال ابن عباس وغيره وما يتبع ذلك اجتمع منه شيء كثير ، وإذا قيل كل ما نهى الله عنه فكثير جداً والله أعلم .

قال ابن عباس لما ذكروا عنده الكبائر وقالوا هي سبع فقال هي أكثر من سبع وسبع قال فلا أدري كم قالها من مرة . وقال ابن أبي حاتم عن طاوس قال : قلت لأبن عباس : ما السبع الكبائر قال : هي إلى السبعين اقرب منها إلى السبع .

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٣٢)

روى الإمام أحمد عن مجاهد قال : قالت أم سلمة : ٦٩٨ (يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزو ، ولنا نصف الميراث فانزل الله : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [ورواه الترمذي وغيره ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحاكم في مستدركه عن مجاهد قال : قالت أم سلمة : ٦٩٩] يا رسول الله لا نقاتل فنستشهد ، ولا نقطع الميراث فنزلت الآية ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ انْتَى ﴾ [الآية . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال : ولا يتمنى الرجل فيقول : [ليت لو أن لي مال فلان وأهله ، فمنى الله عن ذلك ولكن يسأل الله من فضله .] وهو الظاهر من الآية ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح : ٧٠٠ [لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق فيقول رجل لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء] فإن هذا شيء غير ما نهى عنه الآية وذلك أن الحديث حصص على تمنى مثل نعمة هذاء والآية نهت عن تمنى عين نعمة هذا ، يقول تعالى ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي في الأمور الدنيوية والدينية .

ثم قال تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ أي كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، قاله ابن جرير ، وقيل : المراد بذلك في الميراث أي كل يرث على حسبه . قال ابن عباس . ثم أرشدتهم إلى ما يصلحهم فقال : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض . فالتمني لا يجدي شيئاً ولكن سلوني من فضلي أعطكم فإني كريم وهاب . وروى أبو نعيم عن ابن عباس : قال قال رسول الله ﷺ : ٧٠١ [سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل وإن أحب عباد الله إلى الله الذي يحب الفرج] . ثم قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه وبمن يستحق الفقر فيفقره ، وبمن يستحق الآخرة فيقيضه الله لأعمالها ، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ
وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ (٣٣)

قال ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ أي
ورثة ، والمعنى : ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبه يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم
له . وقوله تعالى : ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ أي والذين تحالفتم بالأيمان
المؤكد فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة ، وقد كان هذا في
ابتداء الاسلام ، ثم نسخ . روى البخاري عن ابن عباس : ٧٠٢ [﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾]
قال ورثة ﴿ والذين عقدت أيمانكم ﴾ الآية كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث
المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم ؛ فلما
نزلت هذه : ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ مما ترك الوالدان والأقربون ﴿ نسخت . ثم قال : والذين
عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم [فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول : وترثني
وأرثك ، وكان الأحياء يتحالفون ، فقال رسول الله ﷺ : ٧٠٣ [كل حلف في الجاهلية
أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة ولا عقد ولا حلف في الإسلام] ثم نسخ
الميراث بالحلف وبقي تأثير الحلف بعد ذلك وهكذا رد الميراث إلى ذوي الرحم والعصبة
كما قال ابن عباس آنفاً : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قرابته وذو رحمه حتى
نسخ ذلك . وفي هذا رد على من يقول أن هذه الآية محكمة غير منسوخة .

﴿ الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ
بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي
الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً ﴾ (٣٤)

يقول تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ أي الرجل رئيس المرأة وكبيرها والحاكم ، عليها ومؤدبها إذا اعوجت . ﴿ بما فضل الله بعضكم على بعض ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء والرجل خير من المرأة ، ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال ، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ : ٧٠٤ [لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة] رواه البخاري وكذا منصب القضاء وغير ذلك ﴿ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهم ، في كتابه وسنة نبيه ﷺ ولما كان الرجل أفضل من المرأة ناسب أن يكون قيساً عليها . كما قال تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ الآية وعليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته وطاعته ، أن تكون محسنة لأهله ، حافظة لماله . وكذا قال مقاتل والسدي والضحاك .

روى ابن مردويه عن علي ، قال : ٧٠٥ [أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بأمرأة له فقالت : يا رسول الله إن زوجها فلان بن فلان الأنصاري وأنه ضربها فأثر في وجهها فقال رسول الله ﷺ « ليس له ذلك » فأنزل الله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ أي في الأدب فقال رسول الله ﷺ « أردت أمراً وأراد الله غيره »] وقوله تعالى : ﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ قال الشعبي : الصداق الذي أعطاهما ألا ترى أنه لو قذفها لاعتها ، ولو قذفته جلدت . وقوله تعالى : ﴿ فالصالحات ﴾ أي من النساء ﴿ قانتات ﴾ أي مطيعات لأزواجهن ﴿ حافظات للغيب ﴾ أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله . وقوله تعالى : ﴿ بما حفظ الله ﴾ أي المحفوظ من حفظه الله روى ابن جرير بسنده إلى أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٠٦ [خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك] قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ إلى آخرها . وقوله تعالى : ﴿ واللاتي يخافون نشوزهن ﴾ أي والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن ، والمرأة الناشزة المترفعة على زوجها ، الناكرة لأمره ، المعرضة عنه المبغضة له ، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه ، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته ، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال وقد قال رسول الله ﷺ : ٧٠٧ [لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها] وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ٧٠٨ [إذ دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه ، لعنتها الملائكة حتى تصبح] ورواه مسلم . ولهذا قال تعالى : ﴿ واللاتي يخافون نشوزهن فاعظوهن ﴾

وقوله تعالى : ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ قال ابن عباس : يعظها فإن هي قبلت، وإلا هجرها في المضجع وعن ابن عباس، الهجر هو : أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره .

وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : ٧٠٩ [يارسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه قال : أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت] وقوله تعالى : ﴿واضربوهن﴾ أي اذا لم يرتدعن بالوعظة ولا بالهجران ، فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح . كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ في حجة الوداع : ٧١٠ [واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان ، ولكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فان فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف] قال الفقهاء : الضرب غير المبرح : أن لا يكسر فيها عضواً ولا يؤثر فيها شيئاً .

وقوله تعالى : ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي إذا أطاعت زوجها في جميع ما يريد منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك وليس له ضربها ولا هجرانها . وقوله تعالى : ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ أي فإنه تعالى وليهن إذا بغى الرجال على النساء من غير سبب سيتقم من ظلمهن وبغى عليهن .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (٣٥)

ذكر حال نشوز الزوجة ، ثم شرع بذكر حال نفور الزوجين فقال تعالى : ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ أي حكماً خفّة من أهل المرأة وحكماً ثقة من قوم الرجل . ليجتمعا فينظرا في أمرهما ، ويفعلا ما في المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق ؛ وتشوّف الشارع إلى التوفيق . ولهذا قال تعالى : ﴿إن يريدَا إصْلَاحًا يوفِّقُ اللَّهُ بينهما﴾ فينظر الحكمان فإن كان الرجل هو المسيء حجبا عنه امرأته ، وقصره

على النفقة ، وإن كانت المرأة هي المسببة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة ، فإن اجتمع رأيهما على التفريق أو التجميع ، فأمرهما جائز . فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره الآخر ، ثم مات أحدهما فإن الذي رضي يرث الذي لم يرصّ ولا يرث الكاره الراضي - رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس . قال عبد الرزاق عن ابن عباس : بعثت أنا ومعاوية حكيمين ، قال معمر بلغني أن عثمان بعثهما وقال لهما : إن رأيتم أن تجمعا جمعتما وإن رأيتم أن تفرقا ففرقا . وروى عن علي رضي الله عنه بمثله ، وقد أجمع العلماء : على أن الحكمين لهما الجمع والتفرقة حتى قال إبراهيم النخعي : إن شاء الحكماء أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا . وهو رواية عن مالك ومن قال بأن الحكمين يحكمان في الجمع لا في التفرقة ومأخذهم قوله تعالى : ﴿ إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ ولم يذكر التفريق وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والتفرقة بلا خلاف . وقد اختلف الأئمة في الحكمين ، هل هما منصوبان من جهة الحاكم ، فيحكمان وإن لم يرصّ الزوجان ؟ أو هما وكيلان من جهة الزوجين ؟ على قولين والجمهور على الأول لقوله تعالى : ﴿ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ فسمّاهما حكيمين ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه وهذا ظاهر الآية . وقال ابن عبد البر : وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر .



وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

يا أمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآتات والحالات ، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته . كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : ٧١١ [أتدري ما حق الله على العباد ؟ قال الله ورسوله أعلم ، قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً] ثم قال « أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين ، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود ، وكثيراً ما يقرن الله بين عبادته

(٤ - النساء - ج ٤): برّ والدك، أكرم جارك، لا تمنع قوت عيالك، لا تسبل إزارك. ٣٨٧

والإحسان إلى الوالدين كقوله : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ وكقوله ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ ثم عطف عليهما الإحسان إلى القربات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث : ٧١٢ [الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة] ثم قال تعالى : ﴿ واليتامى ﴾ وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم والإنفاق عليهم فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم ثم قال تعالى : ﴿ والمساكين ﴾ وهم المحاويع من ذوي الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفائتهم ، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تم به كفائتهم وتزول به ضرورتهم وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة - رقم ٩ - وقوله تعالى : ﴿ والجار ذي القربى والجار الجنب ﴾ قال ابن عباس : والجار ذي القربى الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب الذي ليس بينك وبينه قرابة

• روى الامام أحمد عن عبدالله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : ٧١٣ [ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه] أخرجاه في الصحيحين ورواه الترمذي وابو داود . وروى أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : ٧١٤ [خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره]

• روى الإمام أحمد عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ ٧١٥ [إن لي جارين فإلى أيتهما أهدي ؟] قال : « إلى أقربهما منك باباً » ورواه البخاري .

وقوله تعالى : ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ وعن علي وابن مسعود أنهما قالوا : هي المرأة وقوله تعالى : ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر وسيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة وبالله الثقة وعليه التكلان .

وقوله تعالى : ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ وصية بالآرقاء ، لأن الرقيق ضعيف الخيلة أسير في أيدي الناس وقد ثبت قوله ﷺ في مرض الموت : ٧١٦ [الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم]

وروى مسلم عن عبدالله بن عمرو ٧١٧ [أنه قال لقهрман له : هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟] قال : لا قال : فانطلق فأعطهم ، فإن رسول الله ﷺ قال : « كنى بالمرء إثمًا ان يجبس عمن يملك قوتهم » [وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ أي مختالاً في نفسه ، معجباً متكبراً فخوراً على الناس ، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير وهو عند الله حقير . وروى ابن أبي حاتم عن رجل من بني الهجيم قال : قلت يا رسول الله ، أوصني . قال : ٧١٨ [إياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة] .

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذاماً للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم من الأرقاء، ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً. وقد قال رسول الله ﷺ [وأي داء أدوأ من البخل] ! وقال ٧٢٠ [إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة، فقطعوا. وأمرهم بالفجور، ففجروا.]

وقوله تعالى: ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ فالبخل جحودٌ لنعمة الله، ولا يظهر عليه في ملبسه أو في مأكله أو في بذله ولهذا توعده بقوله: ﴿وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ والكفر هو السر، فالبخل يستر نعمة الله عليه، فهو كافر لنعمة الله عليه، وفي الحديث ٧٢١ [إن الله إذا أنعم نعمةً على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه] . إن سياق الآية البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء وكذلك الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس﴾ فإنه ذكر المسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون السمعة؛ وأن يمدحوا بالكرم لا لوجه الله. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدهان: هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه؟ فقال: لا، انه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ولهذا قال تعالى: ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية؛ أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح، وعدو لهم عن فعل الطاعات على وجهها، الشيطان، فإنه سؤل لهم وأملى لهم. وقارنهم فحسّن لهم القبائح. ولهذا قال

تعالى : ﴿ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴾ الآية أي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة ، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص ، والإيمان بالله رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله ، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجه التي يحبها الله ويرضاها ؟ وقوله تعالى : ﴿ وكان الله بهم عليماً ﴾ أي وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة ، وبمن يستحق التوفيق فيوفقه ويلهمه رشده ، فيعمل صالحاً يرضاه ، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن جنابه الأعظم ، فيخسر الدنيا والآخرة نعوذ بالله من ذلك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (٤٢)

ينبغي تعالى أنه لا يظلم أحداً يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة بل يوفيهما له ويضاعفها له إن كانت حسنة ، كما قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل وفيه : ٧٢٢ [فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار وفي لفظ أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقول أبو سعيد : إقرأوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾] وقوله تعالى : ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال : قلت : ٧٢٣ [يا أبا هريرة سمعت إخواني بالبصرة يزعمون أنك تقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة » فقال أبو هريرة : والله بل سمعت نبي الله ﷺ يقول : « إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية : ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾] . وقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ ينبر تعالى عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه فكيف يكون الأمر يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد ، يعني الأنبياء عليهم الصلاة

٣٩٠ (٤ - النساء - ج ٥) : يتمنى الكفار يوم القيامة، أن تغيبهم الأرض... من هول الحميم

والسلام كما قال تعالى : ﴿ وأشرقَت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ الآية .

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٢٤ [« إقرأ عليّ » فقلت يا رسول الله أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال « نعم إني أحب أن أسمع من غيري » فقرأت سورة النساء حتى أثبت إلى هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فقال : « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان] ورواه هو ومسلم من حديث الأعمش به .

روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٢٥ [شهيد عليهم ما دمت فيهم فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم] وقوله تعالى : ﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ أي لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ وقوله تعالى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئاً . وقال ابن جرير عن سعيد بن جبيرة ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له : سمعت الله عز وجل يقول - يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا - ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فلأنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الاسلام ، قالوا تعالوا فلنجد ، فقالوا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فحتم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ . فذلك قوله : ﴿ يود الذين كفروا وعصوا ... ﴾ الآية ...

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَيْرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (٤٣) ﴿﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول ، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب، إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مكث ؛ وقد كان هذا قبل تحريم الخمر ، كما دل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ الآية . (١) فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات حتى نزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم متبهون ﴾ فقال عمر : انتهينا انتهينا . وفي رواية إسرائيل عن عمر بن الخطاب في قصة تحريم الخمر فذكر الحديث وفيه : فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي ٧٢٦ [إن لا يقربن الصلاة سكران] . لفظ أبي داود

وذكر ابن أبي شيبة في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : ٧٢٧ [نزلت في أربع آيات ، صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين ، وأناساً من الأنصار ، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ، ثم افتخرنا فرفع رجل لحى بعير ففرز بها أنف سعد فكان سعد مغرور الأنف وذلك قبل تحريم الخمر فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾] الآية الحديث بطوله عند مسلم ورواه أهل السنن إلا ابن ماجه

روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : ٧٢٨ [صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمرة منا ، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً قال فقرأ : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ؛ فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾] وكذا رواه الترمذي وقال حسن صحيح وفي رواية ابن جرير أن القاريء كان عبد الرحمن بن عوف وفي رواية أخرى له أنه كان علي بن أبي طالب والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول ، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها .

روى الامام أحمد عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٢٩ [إذا نعت أحدكم وهو يصلي فلينصرف وليم حتى يعلم ما يقول] انفراد بأخرجاه البخاري دون مسلم ورواه النسائي وفي بعض الفاظه ٧٣٠ [فلهذه يذهب يستغفر فيسب نفسه] وقوله تعالى : ﴿ ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا ﴾ أي لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل ، تمرّ به مرأً ولا تجلس . قاله ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : ٧٣١ [ناوليني الخمرة من المسجد فقلت : إني حائض فقال : إن حيضتك ليست في يدك] وله عن أبي هريرة مثله وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد والنساء في معناها ، والله أعلم . وقال بعضهم يجوز مرور الحائض إذا امتنّ التلوّث حال المرور ، وإلا فلا . واحتج أكثر الأئمة من هذه الآية على حرمة المكث في المسجد للجنب حديث آخر في معنى الآية قال ابن أبي حاتم عن علي ﴿ ولا جنباً إلا عابري سبيل ﴾ قال : لا يقرب الصلاة ، إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء .

ويستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٣٢ [الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر حجج فإذا وجدت الماء فأمسه بشرتك فإن ذلك خير لك] وقال ابن جرير بعد حكايته القولين : والأولى قول من قال : ﴿ ولا جنباً إلا عابري سبيل ﴾ أي إلا عابري طريق فيه (١) ، وذلك انه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب ، في قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴾ إلى آخره فكان معلوماً بذلك إن قوله تعالى : ﴿ ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا ﴾ لو كان معنياً به المسافر ، لم يكن لإعادة ذكره في قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴾ معنى مفهوم وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك ، وهذا الذي نصره هو قول الجمهور وهو الظاهر من الآية . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ حتى تغتسلوا ﴾ دليل لما ذهب إليه أبو حنيفة ومالك والشافعي أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمّم إن عدم الماء ، أو لم يقدر على استعماله . وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد لما روى هو وسعيد بن منصور في سننه بسند صحيح ، أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك ، روى سعيد بن منصور عن عطاء بن يسار قال : ٧٣٣ [رأيت رجالاً من الصحابة أصحاب

رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون ، إذا توضأوا وضوء الصلاة [وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَا مَسَمَ الْنِّسَاءُ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ أما المرض المبيح للتيمم ، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شئنه أو تطويل البرء ومن العلماء من جوز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية . والسفر معروف ، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ هو الحدث الأصغر ، وأما قوله : ﴿ أَوْ لَا مَسَمَ الْنِّسَاءُ ﴾ فقريء لمستم ولا مستم ، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين : (أحدهما) أن ذلك كناية عن الجماع لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا ﴾ روى ابن أبي حاتم [عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَا مَسَمَ الْنِّسَاءُ ﴾ قال : الجماع . وروى علي وأبي بن كعب وجماعة من التابعين نحو ذلك وروى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس إن اللبس والمس والمباشرة : الجماع ، ولكن الله يكتفي بما شاء بما شاء . (والثاني) وقال آخرون عن الله تعالى بذلك كل لمس يبد أو بغيرها من أعضاء الإنسان وأوجب الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه وعن عبدالله مسعود قال : اللبس ما دون الجماع وعنه أيضاً قال : القبلة من المس وفيها الوضوء وكان يقول : [﴿ أَوْ لَا مَسَمَ الْنِّسَاءُ ﴾ هو الغمز وعن ابن عمر أنه كان يتوضأ من قبلة المرأة وروي كذلك عن ابن عمر وغيره وأبي عثمان النهدي ، وأبي عبيدة يعني ابن عبدالله بن مسعود وغيرهم من التابعين . وروى عن عمر بن الخطاب نحو ذلك (قلت) ولكن رويناه عنه من وجه آخر أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي ولا يتوضأ فالرواية عنه مختلفة والقول بالوضوء من المس هو قول الشافعي وأصحابه ومالك والمشهور عن أحمد بن حنبل . قال ناصروه : قد قريء في هذه الآية : لا مستم ولمستم واللبس يطلق على الجس باليد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي جسوه وفي الحديث الصحيح : ٧٣٤ [واليد زناها اللبس] وثبت في الصحيحين : ٧٣٥ [ان رسول الله ﷺ نهي عن بيع الملامسة] ^(١)

(١) قلت : لا خلاف في أن من معاني اللبس الجس باليد ؛ ولكن هل هو مختصر على ذلك فقط ؟ الجواب : لا ... فتارة يعني الجس باليد أو بغيرها وتارة يعني الجماع ... فإذا كان يعني مرة الجس باليد فليس معناه أنه لا يعني شيئاً آخر محتملاً أن يكون ، بل هو قد يعني شيئاً آخر يوجب السباق والسياق . فقوله تعالى : -

واستأنسراً أيضاً بالحديث الذي رواه أحمد عن معاذ - ومفاده - ^{٧٣٦} [ان رجلاً أصاب امرأة فعل معها كل شيء إلا الجماع فسأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال رسول الله ﷺ توضأ ثم صل] قال معاذ فقلت يا رسول الله : أله خاصة أم للمؤمنين عامة فقال : بل للمؤمنين عامة [ورواه الترمذي وقال ليس بمتصل ورواه النسائي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلًا فقالوا : فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها وأجيب بأنه منقطع بين أبي ليلى ومعاذ ثم يحتمل أنه انما أمره بالوضوء والصلاة المكتوبة كما تقدم في حديث الصديق ^{٧٣٧} [ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر الله له] ثم قال ابن جرير : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : عني الله بقوله تعالى : « أو لامستم النساء » الجماع دون غيره من معاني اللمس لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ انه قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ ثم قال عن عروة عن عائشة قالت : ^{٧٣٨} [كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ] ثم روى ابن جرير عن حبيب عن عروة عن عائشة ^{٧٣٩} [إن رسول الله ﷺ قبل بعض نسائه ولم يتوضأ قلت : من هي إلا أنت فضحكت] وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن جماعة من مشايخهم وقد ضعفه بعض أهل الحديث فقال من قال أن حبيباً لم يسمع من عروة وقال آخرون أن حبيباً ما حدثنا إلا عن عروة المزني وأبلغ من ذلك : ما رواه الامام أحمد من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وهذا نص في كونه عروة بن الزبير ويشهد له قوله : من هي إلا أنت فضحكت . . . ثم روى ابن جرير عن أم سلمة ^{٧٤٠} [أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يحدث وضوء] ثم روى أيضاً عن زينب الأسهمية عن عائشة عن النبي ﷺ ^{٧٤١} [انه كان يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ] وقد رواه الإمام أحمد عن زينب الأسهمية عن عائشة عن النبي ﷺ به .

وقوله تعالى : ﴿ فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ فالتيمم في اللغة هو القصد والصعيد قيل هو كل ما صعد على وجه الأرض فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات وهو قول مالك وقيل ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة وهذا مذهب أبي حنيفة وقيل هو التراب فقط وهو قول الشافعي وأحمد وأصحابهما ، واحتجوا

= أولاً بمس النساء « فقد يعني الجنس باليد ويعني الجماع فمن أجل تحديد المعنى نرجع إلى فهم من نزلت عليه هذه الآية صلى الله عليه وسلم وكيف طبقها ؟ فمن تحرى معاني هذه الآية يجد أن القرآن عني باللمس الجماع وكذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل عائشة وما توضأ كما ثبت ذلك عنه عليه الصلاة والسلام . وقال الشافعي : إذا صح هذا الحديث فأنا أقول به . وقد صح ...

بقوله تعالى : ﴿ فتصحب صعيداً زلقاً ﴾ أي تراباً أملس طيباً ، وبما ثبت في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله ﷺ ٧٤٢ [فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثَ : جَعَلَتْ صَفُونَا كَصَفُوفِ الْمَلَائِكَةِ وَجَعَلَتْ لَنَا الْأَرْضَ كُلَّهَا مَسْجِداً ، وَجَعَلَتْ تَرَبُّثَنَا لَنَا طَهُوراً إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ] قالوا فخصص الطهورية بالتراب في مقام الأمتان ، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه . والطيب ههنا قليل الحلال ، وقليل الذي ليس بنجس ، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث أبي قلابة عن عمرو بن نجدان عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ ٧٤٣ [الصعيد الطيب طهور المسلم إن لم يجد الماء عشرَ حجج فإذا وجده فليمسه بشرته فإن ذلك خير له] وقال ابن عباس : [أطيب الصعيد تراب الحرث] ورفع ابن مردويه في تفسيره .

وقوله تعالى : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ التيمم بدل الوضوء في التطهير به ، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه ، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع ، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال : فمنهم من قال : أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين . والقول الثاني : أن يمسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين . والقول الثالث أن يمسح الوجه والكفين بضربة واحدة وهذا هو الأصح لحديث عمار فقد روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه ٧٤٤ [أن رجلاً أتى عمر ، فقال : إني أجنبت فلم أجد ماءً فقال عمر : لا تصل ، قال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبتنا فلم نجد ماءً فأما أنت فلم تصل وأما أنا فتمسكت في التراب فصليت ، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له فقال « إنما كان يكفيك ، وضرب النبي ﷺ بيده الأرض ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه »] روى أحمد عن عمار ، [أن رسول الله ﷺ ٧٤٥ قال في التيمم « ضربة للوجه والكفين »]

وقد خص الله تعالى أمة عبده ورسوله محمد ﷺ بمشروعية التيمم دون سائر الأمم كما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ ٧٤٦ [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ] وفي لفظ : « فعنده مسجده وطهوره » [ثم ذكر بقية الحديث ... وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ أي ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم ؛ أن شرع لكم التيمم ، وأباح لكم فعل الصلاة به ، إذا فقدتم الماء ، توسعة عليكم ورخصة لكم . وفي هذه الآية تنزيه الصلاة ، أن تفعل على هيئة ناقصة ، من سكر حتى

يصحوا المكلف ويعقل ما يقول ، أو جنابة حتى يغتسل ، أو حدث حتى يتوضأ إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء فإنه تعالى قد أَرخص في التيمم رحمة ورأفة وتوسعة .

سبب مشروعية التيمم :

روى البخاري عن عائشة ، قالت : ٧٤٧ [خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش ، انقطع عقد لي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ، أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام ، فقال حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء ؟ وليس معهم ماء ؟ قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر ، وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده في خاصرتي ولا يمنعي من التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذي فقام رسول الله ﷺ على غير ماء حين أصبح ، فأنزل الله آية التيمم ، فتميموا فقال أسيد بن حضير : ما هي بأول بركتكم ما آل أبي بكر ؛ قالت : فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته [وقد رواه البخاري أيضاً عن قتيبة ، ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنِمْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنِمْ وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٤٦)

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى ، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ﷺ ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا ويريدون أن

تضلوا السبيل ﴿ أي يودون لو تكفرون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى ﴾ والله أعلم بأعدائكم ﴿ أي هو أعلم بهم ويحذركم منهم ﴾ ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴿ أي ولياً لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره . ثم قال تعالى ﴿ من الذين هادوا ﴾ من هنا لبيان الجنس كقوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل ﴾ ويقولون سمعنا ﴿ أي سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه ، وهذا أشد في الكفر والعناد ويصدون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من العقوبة وقولهم : ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ أي أسمع ما نقول لا سمعت . وهذا استهزاء منهم واستهتار عليهم لعنة الله . ﴿ وراعنا لياً بألستهم وطعنا في الدين ﴾ أي يوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك ، وانما يريدون الرعونة بسبهم النبي ، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا ﴾ ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود: أنهم يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه لياً بألستهم وطعنا في الدين ، يعني بسبهم النبي ﷺ . ثم قال تعالى : ﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرونا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة عنه ، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ قليلاً ما يؤمنون ﴾ المقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آوَوْا الْكِتَابَ آمِنُوا بَمَا نُنَزِّلُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدِّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٤٧) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (٤٨) ﴿

يأمر تعالى أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الاخبار التي بأيديهم من البشارات . ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله تعالى : ﴿ من قبل أن نطمس وجوهاً فتردها على أدبارها ﴾ قال بعضهم : معناه أن نطمس وجوها

فطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعلُ أبصارهم من ورأهم . فيمشون القهقري وهذا أباغ في العقوبة . وهذا مثل ضربه الله تعالى لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة يهرعون ويمشون القهقري على أدبارهم .

وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية فقد روى ابن جرير عن عيسى بن المغيرة قال تذاكرنا عند ابراهيم إسلام كعب ، فقال أسلم كعب زمان عمر أقبل وهو يريد بيت المقدس فمر على المدينة ، فخرج إليه عمر فقال : يا كعب أسلم . فقال : أستم تقولون في كتابكم : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ وأنا قد حملت التوراة ، قال بفرکه عمر ثم خرج حتى انتهى إلى حمص ، فسمع رجلاً من أهلها حزينا وهو يقول : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فتردها على أدبارها ﴾ الآية قال كعب : يا رب أسلمت . مخافة أن تصيبه هذه الآية ثم رجع فأتى أهله في اليمن ثم جاء بهم مسلمين ، وكذا رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر من وجه آخر ... وقوله تعالى : ﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ يعني الذين اعتدوا في سببهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردة^(١) وخنازير^(٢) وسيأتي بسط قصتهم في سورة الاعراف إن شاء الله . وقوله تعالى : ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أي إذا أمر بأمر فانه لا يخالف ولا يمانع . ثم أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ، ويغفر ما دون ذلك أي من الذنوب لمن يشاء من عباده ، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة نذكر ما تيسر منها :

الحديث الاول : روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ : ٧٤٨ [الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفره الله ، وظلم يغفره الله ، وظلم لا يترك الله منه شيئاً ؛ فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك ، وقال ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم ؛ وأما الظلم الذي لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعض من بعض .]

الثاني - : روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : ٧٤٩ [إن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك ، إلاّ دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال « وإن زنى وإن سرق » قلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : « وإن زنى وإن سرق » ثلاثاً ثم قال في الرابعة : « على رغم أنف أبي ذر » قال فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو

(١) راجع سورة البقرة الآية ٦٥ و ٦٦ . من هذا المختصر ، وراجع سورة الاعراف الآية : ١٦٦ وقرأ التعليق

يقول : وإن رغم أنف أبي ذر وكان أبو ذر يحدث بهذا بعدُ ويقول : وإن رغم أنف أبي ذر . [أخرجاه من حديث حسين به .

الثالث - : وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده عن جابر : ٧٥٠ [أن النبي ﷺ قال : « لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب » قيل : يا نبي الله ، وما الحجاب ؟ قال : « الإشرak بالله ما من نفس تلقى الله لا تشرك به شيئاً إلا حلت لها المغفرة من الله تعالى ، إن شاء أن يعذبها وإن شاء أن يغفر لها » ثم قرأ نبي الله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾]

الرابع - : روى الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : ٧٥١ [قال الله عز وجل : من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب ، غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئاً]

وعن ابن عمر قال : كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا ﷺ يقرأ ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال ﷺ : ٧٥٢ [أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمي يوم القيامة] وإن المغفرة مشروطة بالتوبة فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه ولهذا قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ أي بشرط التوبة (١) وقوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : ٧٥٣ [قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك »] وذكر تمام الحديث وروى ابن مردويه عن عمران بن حصين : ٧٥٤ [أن رسول الله ﷺ قال : « أخبركم بأكبر الكبائر ، الإشرak بالله » ثم قرأ : ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ « وعقوق الوالدين » ثم قرأ : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٤٩) أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ

(١) قلت : حتى أن الشرك نفسه يغفره الله إذا تاب صاحبه منه في الحياة ولكن الذي لا يغفره الله أبداً هو الشرك الذي مات عليه صاحبه وسيخلد في جهنم أبداً لا يخفف عنه العذاب كلما نضج جلده بدله الله جلداً غيره ليزوق العذاب .

الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾

قال الحسن وقتادة نزلت هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ في اليهود والنصارى حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وفي قولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . على أنها وإن كانت قد نزلت بخصوص اليهود والنصارى إنما هي أيضاً عامة في كل من يمتدح أو يزكي نفسه أو غيره وهي . في ذم التمداح والتزكية ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : ٧٥٥ [أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب] وفي الصحيحين عن أبي بكرة : ٧٥٦ [أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل فقال : « ويحك قطعت عنتك صاحبك » ثم قال : « إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحدا »]

روى الإمام أحمد عن معبد الجهني قال : كان معاوية قلما كان يحدث عن النبي ﷺ قال وكان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ يقول ٧٥٧ [من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإن هذا المال حلو خضر . فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه ؛ وإياكم والتمداح فإنه الذبح] وسيأتي الكلام على ذم التمداح والتزكية عند قوله تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ ^(١) ولهذا قال تعالى : ﴿ بل الله يزكي من يشاء ﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها ثم قال تعالى : ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ ولو بمقدار فتيل وهو ما يكون في شق النواة أو ما فتلت بين أصابعك وقوله تعالى : ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ أي في تزكية اليهود والنصارى أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وقولهم ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ وقولهم : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ واتكلمهم على أعمال آبائهم الصالحة ، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله تعالى : ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ الآية ثم قال تعالى : ﴿ وكفى

(٤ - النساء - ج ٥): نكرر قولنا: أن الطاغوت: هو كل ما عبد من دون الله (برضاه...) ٤٠١

به إثمًا مبینًا ﴿ أي وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراءً ظاهراً . وقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ أما الجبت : فكلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك . وفي الحديث : ٧٥٨ [الطيرة والعيافة والطرق من الجبت] ورواه الإمام أحمد في مسنده عن قبيصة بن مخارق إنه سمع النبي ﷺ قال : ٧٥٩ [إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت] وقال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط في الأرض ^(١) أما الطاغوت فقد تكلمنا عنه في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته وذلك عند قوله تعالى ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ^(٢) روى ابن أبي حاتم عن أبي الزبير انه سمع جابر بن عبد الله انه سئل غن الطواغيت فقال هم كهان تنزل عليهم الشياطين وقال الإمام مالك : هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل وقوله تعالى : ﴿ ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنوبر المنبت من قومه كيزع أنه خير منا...! ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية قال بأنتم خير . قال فنزلت : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ونزلت ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب - إلى - نصيراً ﴾ . وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين ، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق ، فكفى الله شرهم ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ * (٥٣) أَمْ يَخْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * (٥٥)

(١) ولعله الذي تسميه (المندل) الرمي في زماننا هذا وهو علم خبيث كاذب يزعم أصحابه أنهم يستكشفون به الغيبات . وهم أكذب الناس وأجهلهم .
(٢) الآية رقم ٢٥٦/ و ٢٥٧/ من سورة البقرة المجلد الأول من هذا المختصر .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ ﴾ وهذا استفهام إنكارى ، أي ليس لهم نصيب من الملك ثم وصفهم بالبخل ، فقال : ﴿ فَإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أي لانهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف ، لما أعطوا أحداً من الناس ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً ولا ما يملأ النقيير ، وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين . ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل . قال ابن عباس : نحن الناس دون الناس ^(١) قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ أي فقد جعلنا في بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة ، وأنزلنا عليهم الكتب وحكموا فيهم بالسّنن وهي الحكمة ، وجعلنا منهم الملوك . ومع كل هذا فمنهم من آمن ومنهم من كفر وأعرض وصد الناس عن الإيمان بأنبيائهم وهم من جنسهم فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل ؟ ﴿ وَكَفَى بِهِمْ سَعِيرًا ﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ، ومخالفتهم كتب الله ورسله

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿ (٥٧) ﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الآية أي ندخلهم ناراً دخولاً يحيط بكل ذرة من أجسامهم مع دوام العقوبة والنكال . فقال : ﴿ كَلِمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ قال الأعمش عن ابن عمر : إذا احترقت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها بيضاً أمثال القراطيس

(١) أي المقصود بالناس في هذه الآية هم العرب من دون الناس فإن اليهود كانوا يظنون أن النبي الذي سيأتي هو منهم فلما أتى من العرب ، حسدوه على هذه النعمة العظمى . اللهم أو زعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا بهذا النبي الكريم ، ونتمسك ببدهاء ، والحمد لك أولاً وآخراً .

(٤- النساء - ج ٥) : الكفار تبدل جلودهم في النار في الساعة مئة مرة جزاء كفرهم ٤٠٣

رواه ابن أبي حاتم ٧٦٠ [وقراً رجل عند عمر هذه الآية فقال عمر : أَعِدْهَا عَلَيَّ ، فَأَعَادَهَا فقال معاذ بن جبل : عندي تفسيرها : تبدلُ في ساعة مائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعت رسول الله ﷺ] . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري من تحتها الأنهار في جميع فجاجها ، خالدون فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ، ولا ييغون عنها حولاً . وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أي من الحيض والنفاس ، والأذى والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة . وقوله تعالى : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ أي ظلاً عميقاً غزيراً طيباً أنيقاً . روى ابن جرير عن شعبة ، قال سمعت الضحاك يحدث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : ٧٦١ [إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها - شجرة الخلد]



﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٥٨)

يأمر تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وفي حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : ٧٦٢ [أدِّ الأمانة إلى من ائتمنتك ، ولا تخن من خانك] رواه الإمام أحمد وأهل السنن وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان ، من حقوق الله عز وجل على عباده كالصلاة والزكاة والصيام ، والكفارات والنذور ، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه ، لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك ، مما ياتمون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمر الله تعالى بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه يوم القيامة ؛ كما ثبت في الصحيح ٧٦٣ [أن رسول الله ﷺ قال : [لتؤدَّن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاء الجماء من القرناء] وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة حاجب الكعبة المشرفة وسبب نزولها فيه لما أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه قال ابن اسحق : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة ، فقال : ٧٦٤ [لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج] وذكر بقية

الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذٍ إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه علي ابن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال يا رسول الله ، أجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ « أين عثمان بن طلحة ؟ » فدُعِيَ له فقال له : « هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم وفاء وبر » [إن هذه الآية وإن كانت قد نزلت في رد مفتاح الكعبة لأنه كان أمانة سلمه عثمان بن طلحة لرسول الله ﷺ ، ثم رده إليه كما في الحديث آتفاً ، فحكمها أي حكم هذه الآية عام في كل أمانة يأتمنها الإنسان . ولهذا قال ابن عباس : هي للبر والفاجر ، أي هي أمر لكل أحد برّد الأمانات إلى أهلها .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ؛ وفي الحديث ٧٦٥ [إن الله مع الحاكم ما لم يجرُ فإذا جار وكله إلى نفسه] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أي سميعاً لأقوالكم ، بصيراً بأفعالكم . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿ ويضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه ويقول ٧٦٦ [هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها ويضع أصبعه] . رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه ، وابن مردويه في تفسيره . وأبو يونس هذا مولى أبي هريرة واسمه سليم بن جبير .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٥٩)

روى البخاري عن ابن عباس ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ قال : ٧٦٧ [نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية ...] وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجة وروى الامام أحمد عن علي قال : ٧٦٨ [بعث رسول الله ﷺ سريةً واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، فلما خرجوا

وجد عليهم في شيء ، قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا بلى . قال فاجمعوا لي حطباً ، ثم دعا بنارٍ فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها ، فادخلوها . قال فرجعوا إلى رسول الله ﷺ ، فأخبروه . فقال لهم : « لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً إنما الطاعة في المعروف » [أخرجه في الصحيحين من حديث الأعمش به وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : ٧٦٩] السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة [أخرجه

وروى البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : ٧٧٠] إسمعوا وأطيعوا وإن أمركم عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة [. روى ابن جرير عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ٧٧١] سيليكم ولايةٌ بعدي ، فيليكم البرُّ ببرِّه والفاجرُ بفجوره فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق ، وصلّوا وراءهم فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساءوا فلكم وعليهم [وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ٧٧٢] من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلامات ميتة جاهلية [رواه مسلم والبخاري . وقوله تعالى : ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ من قال هم الأمراء ومن قال هم العلماء والظاهر والله أعلم ، أنها عامة في كل أولى الأمر ، من الأمراء والعلماء . وفي الحديث الصحيح المتفق على صحته ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ انه قال : ٧٧٣] من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعني ومن عصى أميرى فقد عصاني [، فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ولهذا قال تعالى : ﴿ أطيعوا الله ﴾ أي اتبعوا كتابه ، ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي خذوا بسنته . ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله ، كما تقدم في الحديث ، إنما الطاعة في المعروف . وقوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ أي إلى الكتاب والسنة وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة . كما قال تعالى : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم وهذه الآية فيها دلالة على أن من لم يتحاكم

في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك ، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر . وقوله تعالى : ﴿ ذلك خير ﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي وأحسن عاقبةً وما لاً وأحسن جزاءً .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً ﴾ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴾ (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقاً ﴾ (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً ﴾ (٦٣)

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وهو مع ذلك يتحاكم إلى غير الكتاب والسنة . وهكذا فإن هذه الآية دامة لمن عدل عن حكم الله ورسوله وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا . ولهذا قال تعالى ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾ إلى آخرها . وقوله تعالى : ﴿ يصدّون عنك صدوداً ﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً ، كالمستكبرين عن ذلك كما قال تعالى عن المشركين : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ ثم قال تعالى في ذم المنافقين : ﴿ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴾ أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ ثم جاءوك يخلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴾ أي يعتذرون إليك ويخلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك إلا للمدافعة والمصانعة لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة . ثم قال تعالى : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك فانه لا

(٤ - النساء - ج ٥) : جواز التوسل بالرسول ﷺ في حياته، وامتناع ذلك بعد وفاته ٤٠٧

تخفى عليه خافية فاكتف به يا محمد فيهم فانه عالم بظواهرهم وبواطنهم . ولهذا قال له: ﴿ فَأعرض عنهم ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم. ﴿ وعظهم ﴾ أي وانهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿ وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ أي وأنصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَئِلُوا تَسْلِيماً ﴾ (٦٥)

يقول تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول الا ليطاع ﴾ أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم وقوله تعالى : ﴿ بإذن الله ﴾ قال مجاهد : أي لا يطع أحد إلا بإذني ، يعني لا يطيعه إلا من وفقته لذلك ، كقوله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ أي عن أمره وقدره ومشيبته وتسليطه إياكم عليهم . وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ﴾ يرشد تعالى العصاة ، والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ (١)

(١) قلت : يستدل بعض من المسلمين بهذه الآية على جواز التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وهذا كما يبدو خطأ واضح . لأن الآية صريحة في أن من أذنب ذنباً ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك حال حياته فاستغفر الله عند رسول الله ثم سأل رسول الله أن يستغفر له فإذا فعل ذلك ، غفر الله له ذنبه باستغفاره هو ، أي المذنب ، ثم استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم له . هذا هو معنى الآية ... فأين هذا من فهم من يجيزون التوسل به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ... ؟؟؟!! ولو أمعنوا جيداً في الآية لرأوا أنهم ينقصهم عنصر هام وهو : استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ... وهذا غير ممكن وقوعه اليوم !! إذ كيف يستغفر لهم بعد ما توفي وانقطع عمله؟ إن عنصر الشفاعة الذي كان قائماً حال حياته ... لم يعد قائماً بعد وفاته ... والقياس بينهما قياس مع الفارق . أما حديث العتيبي الذي يستدلون به أيضاً فهو حديث غير صحيح البتة لما فيه من علل ذكرناها في كتابنا : « التوصل إلى حقيقة التوسل » والله الموفق للصواب

وقوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ يقسم تعالى بنفسه المقدسة انه لا يؤمن أحد حتى يحكمكم الرسول ﷺ في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ، وينقادون إليه في الظاهر والباطن ، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة كما ورد في الحديث : ٧٧٤ [والذي نفسي بيده ، لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به] . روى البخاري عن عروة قال : ٧٧٥ [خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة ، فقال النبي ﷺ « اسق يا الزبير ثم ارسل الماء إلى جارك » فقال الأنصاري : يا رسول الله إن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال : « اسق يا زبير . ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك » فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، وكان أشار عليهما ﷺ بأمرٍ لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ الآية .] ورواه أحمد منقطعاً بين عروة وبين أبيه الزبير فإنه لم يسمع منه والمقطوع به أنه سمعه من أخيه عبدالله كما رواه ابن أبي حاتم أن عروة حدثه أن عبدالله بن الزبير حدثه الزبير بن العوام وساق الحديث ... وهكذا رواه النسائي ورواه أيضاً ابن أبي حاتم — عن سعيد بن المسيب ... ٧٧٦ [قال نزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة] هذا مرسل ولكن فيه فائدة تسمية الأنصاري ... « ذكر سبب آخر لتزول هذه الآية » :

روى الحافظ أبو اسحق ابراهيم بن عبد الرحمن عن ضمرة قال : ٧٧٧ [إن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ ففضى للمحق على المبطل فقال المقضي عليه : لا أرضى ، فقال صاحبه : فما تريد ؟ قال : أن نذهب إلى أبي بكر الصديق ، فذهبا إليه ، فقال الذي قضى له : قد اختصمنا إلى النبي ﷺ ففضى لي ، فقال أبو بكر : انما على ما قضى به رسول الله ﷺ ، فأبى صاحبه أن يرضى فقال : نأتي عمر بن الخطاب ، فقال المقضي له : قد اختصمنا إلى النبي ﷺ ففضى لي عليه ، فأبى أن يرضى ، فسأله عمر بن الخطاب ، فقال : كذلك ، فدخل عمر منزله وخرج والسيف في يده قد سلّه ، فضرب رأس الذي أبى أن يرضى فقتله . فأنزل الله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ الآية] .

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اقْتُلُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَوْ اقْتُلُوا أَوْ أَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴾ (٦٦) وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٦٧) وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (٦٨) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (٧٠) ﴿

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبوه من المناهي لما فعلوه ، لأن طابعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر ، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن ، فكيف بما كان ويكون ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم ﴾ الآية وروى ابن أبي حاتم عن الأعمش قال : ٧٧٨ [لما نزلت ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم ﴾ الآية قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ : لو فعل ربنا لفعلنا فبلغ النبي ﷺ فقال : « لَلْإِيمَانُ أَثْبَتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهِ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي »] وروى ابن أبي حاتم عن شريح ابن عبيد قال : ٧٧٩ [لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم ﴾ الآية أشار رسول الله ﷺ هذه بيده إلى عبدالله بن رواحة فقال « لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل »] يعني ابن رواحة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه ، ﴿ لكان خيرا لهم ﴾ أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي . ﴿ وأشد تثبيثا ﴾ قال السدي : أي وأشد تصديقا ﴿ وإذا لا تيناهم من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ أجرا عظيما ﴾ يعني الجنة ، ﴿ ولهديناهم صراطا مستقيما ﴾ أي في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ أي من عمل بما أمره الله به ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله يسكنه الله دار كرامته ويجعله مرافقا للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة من الصديقين فالشهداء فالصالحين ، الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم ، ثم أثني عليهم تعالى فقال : ﴿ وحسن أولئك رفيقا ﴾

٤١٠ (٤- النساء - ج ٥) : جزاء من يطع الله ورسوله مرافقة الأنبياء والصديقين... في الجنة

وروى البخاري عن عائشة ، قالت : ٧٨٠ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من نبي يمرض إلا خيرٌ بين الدنيا والآخرة » وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحةٌ شديدة فسمعتة يقول : ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ فعلمت أنه خيرٌ ؛] وكذا رواه مسلم وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر : ٧٨١ [اللهم الرفيق الأعلى] ثلاثاً ثم قضى - بأبي هو وأمي - عليه أفضل الصلاة والسلام .

روى أبو بكر بن مردويه عن عائشة ، قالت : ٧٨٢ [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، إنك لأحب إليّ من نفسي ، وأحب إليّ من أهلي وأحب إليّ من ولدي ؛ وإنّي لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي وموتك ، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾) وثبت في صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي ، أنه قال : ٧٨٣ [كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيت بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سل » فقلت يا رسول الله : أسألك مرافقتك في الجنة فقال « أو غير ذلك » قلت : هو ذاك . قال « فأعني على نفسك بكثرة السجود »]

قال تعالى : ﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ أي من عند الله برحمته وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿ وكفى بالله عليم ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ
انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ
مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿ (٧٢)
وَلَمَنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ
مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿ (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ (٧٤) ﴿

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ الْحِذْرِ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّأَهُبَ لَهُمْ بِإِعْدَادِ الْأَسْلِحَةِ وَالْعُدَدِ ، وَتَكْثِيرِ الْعَدَدِ بِالنَّفِيرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ ثَبَاتٌ ﴾ أَيُّ جَمَاعَةٍ بَعْدَ جَمَاعَةٍ ﴿ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ يَعْنِي كُلَّكُمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ لِمَنْ لِيُسَبِّطَنَّ ﴾ أَيُّ لِيَتَخَلَّفَنَّ عَنْ الْجِهَادِ وَيُطَيِّئَ غَيْرَهُ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنْ سُلُولٍ - قَبْضَهُ اللَّهُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِ إِخْبَارًا أَنَّهُ يَقُولُ : إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الْجِهَادِ ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مَصِيبَةٌ ﴾ أَيُّ قِتْلٍ وَشَهَادَةٍ وَغَلَبِ الْعَدُوِّ لِحُكْمَةِ اللَّهِ ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ أَيُّ حَاضِرًا وَقَعَةَ الْقِتَالِ ، يَعْدُ ذَلِكَ مِنْ نَعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَمْ يَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِي الصَّبْرِ أَوْ الشَّهَادَةِ إِنْ قُتِلَ . ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ نَصْرٍ وَغَنِيمَةٍ ﴿ لِيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ أَيُّ كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ بِأَنْ يُسْهِمَ لِي مَعَهُمْ وَهَذَا مُنْتَهَى مَرَادِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ ﴾ أَيُّ الْمُؤْمِنُ النَّافِرُ ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ يَبِيعُونَ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِكُفْرِهِمْ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيُّ كُلِّ مَنْ قُتِلَ أَوْ غَلِبَ فَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَثْوَةٌ عَظِيمَةٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ٧٨٤ [وَتَكْفُلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرِ أَوْ غَنِيمَةٍ .]

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿ (٧٦) ﴾

يُخَرِّضُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ، وَعَلَى السَّعْيِ فِي اسْتِغَاثِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ الْمُتَبَرِّمِينَ مِنَ الْمَقَامِ بِهَا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ أَيُّ مَكَّةَ ﴿ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ أَيُّ سَخَرْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ وَلِيًّا وَنَصِيرًا .

روى البخاري عن ابن عباس قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾ أي المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان. ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧٧) أَيْنَ مَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَعَالٍ هُوَ لَاءَ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونُ يُفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٧٩)

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة ، وإن لم تكن ذات النصب وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم ، وبالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرقون شوقاً إلى قتال أعدائهم ليستفوا منهم ولكنهم كانوا قليلي العدد والعدد ، وهم في البلد الحرام ، ولذا فلم يشرع الجهاد إلا في المدينة التي صارت دار منعة وأنصار ، ولما أمروا بالجهاد جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي أخرت فرضه إلى مدة أخرى . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ٧٨٥ [أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة ،

قال : « إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا
فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُوا أَيديكم ﴾ [الآية ورواه النسائي والحاكم
وابن مردويه من حديث علي بن الحسن بن شقيق به . وقال السدي : لم يكن عليهم إلا
الصلاة والزكاة فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال ، فلما فرض عليهم القتال : ﴿ إذا فريق
منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا
إلى أجل قريب ﴾ وهو الموت . قال الله تعالى : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن
اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ أي من أعمالكم بل توفونها أوفى الجزاء وهذه تسلية لهم عن
الدنيا وترغيب لهم في الآخرة ، وتحريض لهم على الجهاد ، وكان أبو مصهر ينشد :

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له من الله في دار المقام نصيبُ
فإن تُعجِبِ الدنيا رجالاً فإنها متاع قليل والزوال قريبُ

وقوله تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ أي أنتم
ميتون حتماً جميعاً كما قال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ فكلُّ له أجل محتوم ومُقام
مقسوم .

وقوله تعالى : ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ أي حصينة منيعة فلا يغني حذر ولا
تحصن من الموت كما قال زهير بن أبي سلمى :

ومن هاب أسباب المنايا ، ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وقوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ أي خصب ورزق وثمار وزروع وأولاد ونحو
ذلك ﴿ يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة ﴾ أي قحط وجذب ونقص في الثمار
والزروع ﴿ يقولوا هذه من عندك ﴾ أي من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك كما
قال تعالى عن قوم فرعون ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطبروا
بموسى ومن معه ﴾ وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الاسلام ظاهراً وهم
كارهون له في نفس الأمر ، فعندما تصيبهم حسنة كالخصب في الزروع والمواشي والخيول
وتلد نساؤهم الغلمان قالوا : ﴿ هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة ﴾ كالجذب والضرر
في الأموال والأولاد تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا : ﴿ هذه من عندك ﴾ بتركنا ديننا
واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أي
الجميع بقضاء الله وقدره وهو نافذ في البر والفاجر ، والمؤمن والكافر . قال ابن عباس قل كل
من عند الله أي الحسنة والسيئة . ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة

عن شك وريب ، وقلة فهم وعلم ، وكثرة جهل وظلم ﴿ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ أي من فضله ومنه وكرمه ولطفه ورحمته ، ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ أي فمن قبلك ، ومن عملك أنت ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ وفي الصحيح ٧٨٦ [والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ، ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياهم] روى ابن أبي حاتم عن مطرف بن عبد الله قال : ما تريدون من القدر أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء : ﴿ وَإِنْ تَصْبِهِمْ حَسَنَةً ... - إِلَى قَوْلِهِ - مِنْ عِنْدِكَ ﴾ ؟ أي من نفسك والله ما وكلوا إلى القدر وقد أمروا وإليه يصيرون ؛ وهذا كلام متين قوي في الرد على القدرية والجبرية أيضاً ، ولبسطة موضع آخر . وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ أي تبلغهم شرائع الله وما يحبه ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه . وكفى بالله شهيداً ﴿ أَيُّ عَلَى لِنَاكَ مَرْسَلٌ مِنْهُ وَهُوَ شَهِيدٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، وَعَالَمٌ بِمَا تُبَلِّغُهُمْ آيَاهُ ، وَبِمَا يَرُدُّونَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ كَفَرًا وَعِنَادًا .

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ * (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ * (٨١)

ينبغي تعالى بأن من أطاع عبده ورسوله محمداً ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصي الله وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٧٨٧ [من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصي الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصي الأمير فقد عصاني] وهذا الحديث في الصحيحين عن الأعمش به . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ أي ما عليك إلا البلاغ من اتبعك سعد ونجا وكان لك من الأجر نظير ما حصل له . ومن تولى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء . كما جاء في الحديث : ٧٨٨ [من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه] وقوله

تعالى : ﴿ ويقولون طاعة ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ، ﴿ فإذا برزوا من عندك ﴾ أي خرجوا ﴿ بيّت طائفة منهم غير الذي تقول ﴾ أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك ؛ فقال تعالى : ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين والمعنى أنه تعالى عالم بما يسرون من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه بعد إظهار الطاعة وسيجزئهم على ذلك . كما قال تعالى : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي أصفح واحلم ، ولا تكشفهم ، ولا تخف منهم ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله كيلاً ﴾ أي كفى به ناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأتاب .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٣)

يأمر تعالى بتدبر القرآن وتفهم معانيه وينهاهم عن الإعراض عنه وعن مفاهيمه المحكمة والفاظه البليغة ونحبراً لهم بأنه لا اختلاف ولا اضطراب فيه ولا تعارض لأنه حق نزل من حق ثم قال : ﴿ ولو كان من عند غير الله ﴾ أي لو كان مختلفاً كما يقول المشركون والمنافقون سرّاً ، لوجدوا فيه تضاداً كثيراً والمعنى أنه سالم من الاختلاف فهو من عند الله كما أخبر عن الراسخين في العلم إذ قالوا : ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ أي محكمه ومتشابهه حق فَرَدُّوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا وأما الزائفون رَدُّوا المحكم إلى المتشابه فعَوَّوا . روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ٧٨٩ [لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجرة . إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضباً حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : « مهلاً يا قوم بهذا أهلكتم الأمم من قبلكم ،

باختلافهم على انبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً إنما نزل يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه » [ورواه مسلم والنسائي من حديث حماد بن زيد . وقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ إنكار على من يبادر إلى إفشاء الأمور قبل تحققها فقد روى مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٧٩٠ [كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع] وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال : ٧٩١ [بش مطية الرجل زعموا] ومن المتفق على صحته ٧٩٢ [أن عمر بن الخطاب بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك . فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ فاستفهمه : أطلقت نساءك فقال « لا » فقلت الله أكبر ...] وعند مسلم ٧٩٣ [فقلت : أطلقتهن ؟ فقال : لا] فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ونزلت هذه الآية : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر [ومعنى يستنبطونه أي يستخرجونه من معادنه . وقوله تعالى : ﴿ لا تبعم الشيطان إلا قليلاً ﴾ يعني كلكم . قاله قتادة ولكن قال ابن عباس : يعني المؤمنين وهذا أصح والله أعلم .

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِتًا ﴿ (٨٥) وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيدًا ﴾ (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَضَدُّ مَنْ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿ (٨٧) ﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه ومن نكل عنه فلا عليه

(٤-النساء-ج ٥): يأمرك الله رسوله بتحريض المؤمنين على الجهاد ليكف بأس الكافرين ٤١٧

منه ولهذا قال: ﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي اسحق قال : ٧٩٤ [قلت للبراء : ^(١) الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة ؟ قال لا ، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال : ﴿ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾ إنما ذلك في النفقة ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ وحررض المؤمنين ﴾ أي على القتال ورجبهم فيه كما قال يوم بدر وهو يسوي الصفوف ٧٩٥ [قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض] ومن ذلك ما رواه البخاري ٧٩٦ [... إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ؛ فإذا سألت الله فأسأله الفردوس فانه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة] وقوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبث همهم على مناجزة الأعداء ، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وقوله تعالى : أشد بأساً وأشد تنكيلاً أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى . ﴿ ذلك لو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضهم ببعض ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ من يشفع شفاعاً حسنة يكن له نصيب منها ﴾ أي من يسعى في أمر فيرتب عليه خير كان له نصيب من ذلك ﴿ ومن يشفع شفاعاً سيئة يكن له كفل منها ﴾ أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيتة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال : ٧٩٦ [اشفعوا تؤجروا ،] ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء وقال مجاهد بن جبر : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض .

وقوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مقبلاً ﴾ أي حفيظاً وقيل شهيداً وحسيباً وقوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا أفضل مما سلم أو ردوا عليه بما سلم فالزيادة مندوبة والمائلة مفروضة . روى ابن جرير عن سلمان الفارسي قال : ٧٩٧ [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله فقال : « وعليك السلام ورحمة الله » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله فقال رسول الله ﷺ « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال له : وعليك » فقال

(١) ابن عازب . (٢) راجع سورة البقرة عند تفسير الآية رقم /١٩٥/ .

له الرجل يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، أذاك فلان وفلان فسلمنا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت علي فقال : « إنك لم تدع لنا شيئاً قال الله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ فرددناها عليك » . [

وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة ، : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام ، رد عليه مثل ما قال فأما أهل الذمة فلا يبدؤون بالسلام ولا يزدون بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ٧٩٨ [إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم : السام عليكم فقل : وعليك]

قال ابن عباس : من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً ، ذلك بأن الله يقول : ﴿ فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وعن الحسن البصري ، قال : السلام تطوع والرد فريضة ، وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة ، أن الرد واجب على من سلم عليه فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله في قوله ﴿ فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وجاء في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده إلى أبي هريرة ، قال : ٧٩٩ [قال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »] وقوله تعالى : ﴿ الله لا إله الا هو ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات وتضمن قسماً لقوله تعالى : ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ وهذه اللام موطة للقسم ، فقوله : ﴿ الله لا إله الا هو ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعدته ووعيده فلا إله الا هو ولا رب سواه .

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا



نَصِيرًا * (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * (٩٠) سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُذِّوا إِلَى الْقِتَّةِ أَرَكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَغْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * (٩١)

يقول تعالى منكرًا على المؤمنين اختلافهم في المنافقين على قولين : روى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت ٨٠٠ [أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين : فرقة تقول تقتلهم وفرقة تقول : لا .. هم المؤمنون فانزل الله تعالى : ﴿ فمالكم في المنافقين فتين ﴾ فقال رسول الله ﷺ : إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكبر خبث الحديد] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة وقد ذكر محمد بن اسحق بن يسار في وقعة أحد أن عبدالله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش ، رجع بثلاثمائة وبقي النبي ﷺ في سبعمائة .

وقوله تعالى : ﴿ والله أركسهم ﴾ أي ردّهم وأوقعهم في الخطأ وقوله تعالى : ﴿ بما كسوا ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ أي لا طريق له إلى الهدى ، وقوله تعالى : ﴿ ودّوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء ﴾ أي لشدة عدائهم يودون لكم الضلالة لتستروا وإياهم فيها ولهذا قال : ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا ﴾ أي تركوا الهجرة ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ﴾ أي لا توالوهم ولا تستنصروهم على أعداء الله ما داموا كذلك ، ثم استثنى الله من هؤلاء ، فقال : ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ أي الذين لحأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة ، أو عقد ذمة ، فاجعلوا حكمهم كحكمهم ، وفي

٤٢٠ (٤-النساء-ج ٥): إن لم يعتزل المنافقون شياطينهم ويصلحوا...أقتلوهم حيث وجدتموهم

صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية : فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم ، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه وعهدهم . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : نسخها قوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ أو جاؤكم حصرت صدورهم ﴾ الآية ؛ هؤلاء قوم آخرون من المستنين من الأمر بقتلهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف ضيقة صدورهم ، مبغضين أن يقتلوكم ولا يهون عليهم أن يقاتلوا فومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم ﴾ ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴾ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم ﴾ أي المسالمة ﴾ فما جعل الله لكم عليهم سيلاً ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك ، وهؤلاء الجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضرُوا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن قتل العباس وأمر بأسره . وقوله تعالى : ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ﴾ الآية ... هؤلاء في الظاهر كن تقدمهم ولكن النية مختلفة ، فهؤلاء منافقون يظهرون الاسلام ليأمنوا بذلك عند المسلمين على دماءهم وأموالهم وذرايعهم ، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك كما قال تعالى : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ﴾ وقال تعالى ههنا ﴿ كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ﴾ قال السدي : الفتنة ها هنا الشرك . وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيُسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا وها هنا فأمر بقتلهم ان لم يعتزلوا ويصلحوا ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ﴾ ، المهادنة والصلح ﴿ ويكفوا أيديهم ﴾ أي عن القتال ، ﴿ فخذوهم ﴾ أسراء ﴿ وأقتلوهم حيث ثقتموهم ﴾ أي اين لقيتموهم ، ﴿ وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾ أي بيناً واضحاً .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

وَأِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ
وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ
اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً
فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً
عَظِيماً * (٩٣) ﴿٩٣﴾

يقول تعالى : ليس لمؤمن أن يقتل اخاه المؤمن بوجه من الوجوه ، كما ثبت في
الصحيحين عن ابن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال ٨٠١ : [لا يحل دم امرئ مسلم يشهد
أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلاّ باحدى ثلاث النفس بالنفس ، والسيب الزاني ،
والتارك لدينه المفارق للجماعة] ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد
الرعية أن يقتله وانما ذلك إلى الإمام أو نائبه ؛ وقوله تعالى (إلاّ خطأ) قالوا : هو استثناء
منقطع .

وسبب نزول هذه الآية فقال مجاهد وغير واحد : نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخى
أبي جهل لأمه وهي أسماء بنت مخزومة . وذلك أنه قتل رجلاً يعذبه مع أخيه على الإسلام
وهو الحارث بن يزيد الغامدي ، فأضمر له عياش السوء ، فأسلم ذلك الرجل وهاجر
وعياش لا يشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه ، فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله ، فأنزل
الله هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ﴾
هذان واجبان في قتل الخطأ ، أحدهما الكفارة ، لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان
خطأً ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكفارة ، ولا يجزئ الصغير
الكافر حتى يكون قاصداً للإيمان والجمهور على أنه متى كان مسلماً أجزأ إن كان كبيراً
أو صغيراً .

روى أحمد عن رجل من الأنصار : ٨٠٢ [أنه جاء بأمة سوداء فقال يا رسول الله
إن عليّ عتق رقبة مؤمنة فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعقتها ، فقال رسول الله ﷺ
« أشهدين أن لا إله إلا الله » قالت : نعم . قال : « أشهدين أني رسول الله ؟ » قالت :
نعم قال « أتؤمنين بالبعث بعد الموت ! » قالت : نعم قال : « أعقتها » [وهذا اسناد

صحيح وجهالة الصحابي لانضره وفي موطأ مالك ، ومسند الشافعي وأحمد وصحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي من طريق هلال بن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم ٨٠٣ : [أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ : « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال : « من أنا ؟ » قالت : رسول الله ﷺ ، قال : « أعتمتها فإنها مؤمنة »] ^(١) وقوله تعالى : ﴿ ودية مسلمة إلى أهله ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتل عوضاً لهم عما فاتهم من قتلهم . وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله ؛ قال الشافعي رحمه الله : لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة - والعاقلة عصبّة القاتل أو قرابته من قبل الأب - فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : ٨٠٤ [أقتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنيها غرة عبد أو أمة وقضى بدية المرأة على عاقلتها ،] وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ المحض في وجوب الدية لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً لشبهة العمد أما الخطأ الذي مر ذكره آنفاً في قوله : هو الواجب الثاني ففيه الدية أخماس كما رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود قال ٨٠٥ : [قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكوراً وعشرين بنت لبون ، وعشرين جذعة وعشرين حقة] لفظ النسائي ؛ وقال الترمذي : لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وروي موقوفاً عن عبد الله بن مسعود وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر قال : ٨٠٦ [بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون : صابناً صباباً ، فجعل خالد يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فرفع يديه وقال « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » وبعث علياً فودى قتلاهم ، وما أتلّف من أموالهم حتى ميلغة الكلب] وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال .

وقوله تعالى : ﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ أي إلا أن يتصدق أهل القتل فيعفوا عن الدية فلا تجب وقوله تعالى : ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أي إذا كان القتل مؤمناً وأولياؤه كفار أهل حرب فلا دية لهم ، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير . وقوله تعالى : ﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ الآية فإن كان القتل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتلهم ، فإن كان مؤمناً فدية كاملة ، وإن كان

(١) قلت : فما بال الذين يقولون - والعباذ بالله - « إن الله في كل مكان » ولا يخفى ما في هذا الكلام من معاني الحلول والاتحاد والوحدة تعالى الله عن ذلك وهناك من يقول : « أن الله ليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف وليس هو في داخل الكون ولا في خارجه » وهذا كما لا يخفى ، وصف للمعدوم والعباذ بالله . والتولان من دسائس اليهود لعنهم الله

كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء ، وقيل : يجب في الكافر نصف دية المسلم ؛ وقيل : ثلثها كما هو مفصل في كتب الأحكام . ويجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما ، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف ، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا ، على قولين ...

وقوله تعالى : ﴿ توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين ، واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام : هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار ، على قولين أحدهما : نعم كما في الظهار ولم يذكره هنا لأن هذا مقام تهديد وتحذير فلا يناسب ذكر التسهيل والترخيص . والثاني لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجباً لما أخر بيانه عن وقت الحاجة ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ قد تقدم تفسيره غير مرة هذا قتل الخطأ أما بيان حكم القتل العمد ، فقال : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾ وهذا تهديد شديد ووعد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ وقال تعالى والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٠٧ [أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء] وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٠٨ [لا يزال المؤمن معقناً^(١) صالحاً ما لم يصب دماً حراماً ، فإذا أصاب دماً حراماً بلع^(٢)]

وفي الحديث الآخر : ٨٠٩ [لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهه الله في النار]

وفي حديث آخر : ٨١٠ [لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم] وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً لقوله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ﴾ وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء ، وقد روى هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة . ومن ذهب إلى ذلك أيضاً زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة

(١) معقناً : أي مسرعاً في سيره .

(٢) « بلع » بالتخفيف والتشديد ، أي انقطع من الأعياء والوهن .

ابن عبد الرحمن وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك نقله ابن أبي حاتم - وهناك بعض أحاديث في الباب قد لا تبلغ مبلغ الاحتجاج بها .

والذي عليه جمهور السلف والخلف : ان القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل فإن تاب وأتاب وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته قال الله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ إلى قوله - ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين ، وقال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك ما عدا الشرك إذا مات عليه قال الله تعالى : ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وهذه الآية مذكورة في هذه السورة الكريمة قبل قوله تعالى (١) : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ... ﴾ وبعدها لتقوية الرجاء والله أعلم . وثبت في الصحيحين : ٨١١ [خبر الاسرائيلي الذي قتل مئة نفس ثم سأل عالماً هل لي من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه ، فهاجر إليه فمات في الطريق فقبضته ملائكة الرحمة ...] وإذا كان هذا في بني اسرائيل فلأن تكون التوبة مقبولة في هذه الأمة ، بطريق الأولى والأحرى ، لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم ، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة . وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد من قوله تعالى : ﴿ ... خالداً فيها ... ﴾ والله أعلم بالصواب وبتقدير دخول القاتل في النار . أما على قول ابن عباس ومن وافقه انه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً ، بل الخلود هو المكث الطويل . وقد تواترات الأحاديث عن رسول الله ﷺ عليه وسلم أنه : ٨١٢ [يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان] وأما حديث معاوية : ٨١٣ [كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً] فعسى للرجعي ، فإذا انتفى الرجعي في هاتين الصورتين ، لا تنفي وقوع ذلك في أحدهما وهو القتل لما ذكرنا من الأدلة ، وأما من مات كافراً ، فالنص أن الله لا يغفر له ألبتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين . وهي لا تسقط بالتوبة بل بردها إليهم ولا فرق بين المقتول والمسروق منه والمغصوب منه والمقذوف وسائر حقوق الآدميين ، فإن تعذر رد الحقوق فلا بد من المطالبة يوم القيامة ، ولكن لا يلزم من وقوع

المطالبة وقوع المجازاة فقد يُعطى من أعمال القاتل الصالحة ما يفي حق المقتول ، ويبقى فضل يدخل به الجنة أو يعرض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم ، ولقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة ، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه قال الله تعالى : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ الآية ... ثم هم يخبرون بين : أن يقتلوا ، أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلفة أثلاثاً : ثلاثون حقّه ، وثلاثون جذعة ، وأربعون خلفه ، كما هو مقرر في كتاب الأحكام . واختلف الأئمة في الكفارة هل تجب عليه كما وجبت على القاتل خطأً وهي عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ، على أحد القولين . ففي ذلك قولان أحدهما أن ما عليه كفارة ولا سبيل إلى ذلك لأن قتل العمد أعظم من أن يكفر فلا كفارة فيه . لكن الذين أوجبوا الكفارة فقد احتجوا بما رواه الإمام أحمد قال بسنده إلى واثلة بن الأسقع ، قال : أتى النبي ﷺ نفرٌ بن بني سليم فقالوا : ٨١٤ [إن صاحباً لنا قد أوجب ، قال : « فليعتق رقبة يفدي الله بكل عضو منها عضواً منه من النار »]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٩٤)

عن ابن عباس ، قال : لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له ، فقال : السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غنيمته ؛ فنزلت (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) .

وقد ورد ^(١) في ترجمة : أن أخاه فزاراً هاجر إلى رسول الله ﷺ ، عن أمر أبيه بإسلامهم وإسلام قومهم ، فلقبته سرية لرسول الله ﷺ في عمارة الليل ، وكان قد قال لهم إنه مسلم ، فلم يقبلوا منه فقتلوه فقال أبوه : فقدمت على رسول الله ﷺ فأعطاني ألف دينار ودية أخرى ، وسيرني ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

وروى البخاري عن ابن عباس قال : (قال رسول الله ﷺ للمقداد : إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار ، فأظهر إيمانه فقتلته ؟ ! وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة من قبل .) هكذا رواه البخاري مختصراً معلقاً .

روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : ٨١٥ [مرَّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ يرعى غنماً له فسلم عليهم فقالوا : لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه ، وأتوا بغنمه النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله ... ﴾ إلى آخرها] كما روى البخاري عن ابن عباس : ٨١٦ [﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ قال ابن عباس : كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون ، فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته ؛ فأنزل الله في ذلك : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً ﴾] قال ابن عباس : عرض الدنيا تلك الغنيمة . وقوله تعالى : ﴿ فعند الله مغام كثيرة ﴾ أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر لكم الإيمان فتغافلتم عنه ، واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا منه ما أخذتموه فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا . وقوله تعالى : ﴿ كذلك كنتم من قبل فمَنَّ الله عليكم ﴾ ، أي كنتم مثل هذا الذي يُسرَّ إيمانه ، ويخفيه من قومه كما تقدم في الحديث آنفاً . وكما قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ﴾ قال سعيد ابن جبير في قوله تعالى : ﴿ كذلك كنتم من قبل ﴾ أي تخفون إيمانكم في المشركين ﴿ فمَنَّ الله عليكم ﴾ أي تاب عليكم . وقوله تعالى ﴿ فتيبنا ﴾ تأكيد لما تقدم وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ قال سعيد بن جبير : هذا تهديد ووعيد .

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى
وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٩٥) دَرَجَاتٍ
مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٩٦)

٨١٧ [روى البخاري عن البراء قال : لما نزلت ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين .. ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً^(١) فكتبها ، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته

فأنزل الله ﴿ غير أولي الضرر ﴾ [روى البخاري أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي ٨١٨] أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد قال: فأقبت حتى جالستُ إلى جنبه، فأخبرنا : أن زيدا بن ثابت أخبره : أن رسول الله ﷺ أُملي عليّ : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴾ فجاء ابن أم مكتوم وهو بجليها عليّ ، قال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى ؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وكان فخذه على فخذي فنقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي ثم سُرّي عنه ، فأنزل الله ﴿ غير أولي الضرر ﴾ تفرد به البخاري دون مسلم وروى من وجه آخر عند أحمد ورواه أبو داود ورواه عبد الرزاق .

روى الترمذي عن ابن عباس قال : ٨١٩ [لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر ، ولما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم : إنا أعميان يا رسول الله ، فهل لنا رخصة ؟ فترلت : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة ﴾ فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجاتٍ منه ﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر . (هذا لفظ الترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

فقوله ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون ﴾ كان مطلقاً ؛ فلما نزل بوحى سريع : ﴿ غير أولي الضرر ﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرض ، عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين ، قال ابن عباس : غير أولي الضرر وكذا ينبغي أن يكون ، كما ثبت في صحيح البخاري من طريق زهير بن معاوية ، عن حميد عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : ٨٢٠ [إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعهم من واد إلاّ وهم معكم فيه ، قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم حبسهم العذر .] وهكذا رواه أحمد وأبو داود وقوله تعالى: ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين بل هو فرض على الكفاية . (١) قال تعالى : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ بما فضلهم به من

(١) قلت : هذا في حالة الهجوم أما في حالة الدفاع وهجوم العدو الكافر علينا فالجهاد فرض عين على كل مسلم على الشكل الذي يطبق ولو بكلمة ... كل بحسب عذره وطاقته وتحمله والله أعلم. أما المخلفون عن الجهاد وهم يستطيرونهم من الله عذاب أليم .

الدرجات في غرف الجنان والمغفرة والرحمة والبركة إحساناً منه وتكريماً . ولهذا قال : ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : ٨٢١ [ان في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿ (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿ (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِزْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ (١٠٠) ﴿



روى البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال : قطع على أهل المدينة بعث ، فاكتتبت فيه ، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته ، فنهاني عن ذلك أشد النهي ، قال : ٨٢٢ [أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ ، يأتي السهم يرمي به فيصيب أحدهم ، فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل ، فأنزل الله . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [رواه الليث عن أبي الأسود . فقلوله تعالى : ﴿ ... ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي بترك الهجرة ﴿ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ أي لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد ، ولا الذهاب في الأرض ﴿ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾ الآية روى أبو داود عن سمرة بن جندب أما بعد : قال رسول الله ﷺ : ٨٢٣ [من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله] وقال : ٨٢٤ [لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ

للعباس « افد نفسك وابن أخيك » فقال : يا رسول الله ، ألم نصل إلى قبلك ، ونشهد شهادتك ، قال يا عباس « إنكم خاصمتم فخصمتم » ثم تلا عليه هذه الآية ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة ﴾ [الآية رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ إلا المستضعفين ﴾ إلى آخر الآية هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة ، وذلك أنهم لا يقدرّون على التخلص من أيدي المشركين ، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال : ﴿ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ﴾ يعني طريقاً . وقوله تعالى : ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ أي بترك الهجرة و ﴿ عسى ﴾ من الله موجبة ﴿ وكان الله عفواً غفوراً ﴾ . روى البخاري عن أبي هريرة قال : [بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال قبل أن يسجد : ٨٢٥ :] اللهم أنج عياش بن ربيعة ، اللهم أنج سلمة بن هشام ، اللهم أنج الوليد بن الوليد ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم أشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف [روى البخاري عن ابن عباس ﴿ إلا المستضعفين ﴾ قال : كنت أنا وأمي ممن عذر الله عز وجل . وقال عبد الرزاق عن ابن عباس ، كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان . وقوله تعالى : ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُرَافِئاً كثيراً وسعة ﴾ وهذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين ، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة ، وملجأً يتحصن فيه ، والمرافم مصدر تقول العرب : راغم فلان قومه مراغمّاً ومُراغمةً وقال ابن عباس : المرافم : التحول من أرض إلى أرض ، وقوله تعالى ﴿ وسعة ﴾ يعني الرزق . وقوله تعالى : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ أي من يخرج من منزله ناوياً الهجرة إلى الله ورسوله ، ثم مات . فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٢٦ [إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه] وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم أكمل بذلك العابد المئة ... الذي قبض في طريق هجرته فقبضته ملائكة الرحمة . (١) وفي رواية أنه لما جاءه الموت ناءً بصدرة إلى الأرض التي هاجر إليها .

روى الامام أحمد عن عبد الله بن عتيك ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [٨٢٧] من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله ثم قال وأين المجاهدون في سبيل الله فخرج عن دابته فمات ، فقد وقع أجره على الله ، أو لدغته دابة فمات ، فقد وقع أجره على الله أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال : ٨٢٨ [خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فترلت : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ﴾ (الآية ...

روى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٢٩ [من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمراً فمات ، كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات ، كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة] وهذا حديث غريب من هذا الوجه .

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ (١٠١) ﴿

يقول تعالى : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض ﴾ أي سافرت كما قال تعالى : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ أي تخففوا فيها إما من كميتها بأن نجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية . واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك : فمن اشترط أن يكون السفر في طاعة ^(١) ، ومنهم من لم يشترط ذلك ... على أن يكون السفر مباحاً يعني في الأمور المباحة فخرج من ذلك السفر في المعصية وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة . ومن قال : يكفي مطلق السفر حتى ولو كان في معصية . وهذا قول أبو حنيفة والثوري وداود لمعوم الآية وخالفهم الجمهور ^(٢) . وأما قوله تعالى : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ... فإن في ابتداء الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ،

(١) كما هو مروي عن ابن عمر ، وعطاء ، ويحيى عن مالك في رواية عنه نحوه .

(٢) ما دامت الآية عامة فعل المخالفين الدليل .

(٤-النساءج ٥): القصر: صدقة تصدقها الله على عباده، فلا تردوها - القصر عزيمة ٤٣١

بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام أو في سرية خاصة ، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله. والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له^(١) كقوله تعالى : « ولا تكرر هوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً »^(٢) . روى الامام أحمد عن يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب قلت له : قوله - تعالى - ٨٣٠ [فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا] وقد أمن الناس ؟ فقال لي عمر رضي الله عنه : عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » [وهكذا رواه مسلم وأهل السنن وقال الترمذي حديث حسن صحيح . وقال علي بن المديني : هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر ولا يحفظ إلا من هذا الوجه ورجاله معروفون .

روى ابو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس ، قال : ٨٣١ [صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ، ونحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين] وهكذا رواه النسائي والترمذي وروى البخاري عن يحيى بن أسحق عن أنس قال : ٨٣٢ [خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة قلت : أقمتم بمكة شيئاً ؟ قال : أقمنا بها عشرأ] وهكذا أخرجه بقية الجماعة عن يحيى بن اسحق الحضرمي به .

روى البخاري عن حارثة بن وهب قال : ٨٣٣ [صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمكة ركعتين] روى البخاري عن عبدالله بن عمر قال : ٨٣٤ [صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين وأبي بكر وعمر وعثمان صدرأ من إمارته ثم أتمها] وكذا رواه مسلم^(٣)

فهذه الأحاديث دالة صريحاً على أن القصر ليس من شروطه الخوف . ولهذا قال من قال من العلماء ان المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية .^(٤) وهو قول مجاهد والضحاك والسدي واعتضدوا أيضاً بما رواه الامام مالك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ٨٣٥ [فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ، فأقرت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر]^(٥) وقد روى هذا الحديث البخاري ومسلم وأبو داود

(١) وهذه قاعدة أصولية .

(٢) أي لا يفهم من ذلك أنه اذا لم يردن تحصناً يكرهن على البغاء !!

(٣) قلت : اعتذر لعثمان رضي الله عنه بأنه تزوج في منى ، فاعتبر نفسه مقيماً ، فأتى .

(٤) لأن الكمية في الأساس ركعتان كما في حديث عائشة : (فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ... فأقرت صلاة السفر وزيدت في صلاة الحضر) .

(٥) وهذا يدل على ان الركعتين في السفر عزيمة لا رخصة . وقد قال بعض أهل العلم أنها سنة مؤكدة

والنسائي أربعتهم عن مالك به . قالوا : فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي الثنتين ، فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية ؟ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ وأصرح من ذلك دلالة على هذا ... ما رواه الامام أحمد عن عمر رضي الله عنه ، قال : ٨٣٦ [صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر ، على لسان محمد ﷺ] . وهكذا رواه النسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من طرق عن زبيد الياامي به وهذا إسناد على شرط مسلم . اعترض يحيى بن معين على صحة هذه الحديث لأنه يقول : أن عبد الرحمن بن أبي ليلى الذي روى الحديث المتقدم عن عمر لم يسمع من عمر ولكن ثبت في مقدمة مسلم في صحيحه سماع ابن أبي ليلى عن عمر في الحديث المتقدم وفي غيره وهو الصواب إن شاء الله . لا سيما وقد روى هذا الحديث موصولاً إلى عمر هكذا : عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة عن عمر وقد روى مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي عوانه الوضاح عن عبدالله الشكري ، زاد مسلم والنسائي وأبو بوب بن عائذ كلاهما عن بكير بن الاخنس عن مجاهد عن عبدالله بن عباس ، قال : ٨٣٧ [فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة . فكما يصلي في الحضر قبلها وبعدها فكذلك يصلي في السفر] ولا ينافي ما تقدم عن عائشة رضي الله عنها إنما اتفق على أن صلاة السفر ركعتان وأنها تامة غير مقصورة كما هو مصرح به في حديث عمر رضي الله عنه ^(١) ، فإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف ، ولهذا قال : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ الآية ولهذا قال بعدها : ﴿ وإذا كنتم فيهم فأقمتم لهم الصلاة ﴾ الآية فبين المقصود من القصر ها هنا ، وذكر صفته وكيفيته ، ولهذا لما عقد البخاري كتاب صلاة الخوف صدره بقوله : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ إلى قوله - ان الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ وهكذا قال جووير عن الضحاك في قوله : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ قال : ذاك عند القتال يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه .

قال السدي : إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر ، فهي تمام التقصير لا يحل إلا أن يخاف من الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة فالتقصير ركعة . وقال مجاهد : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعسفان ، والمشركون

(٤ - النساء - ج ٥) : صلاة الخوف : للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة ٤٣٣

بضجنان فتواقفوا ، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم ، وسجودهم ، وقيامهم معاً جميعاً فهم بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم واثقالهم ؛ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير واختاره بعد ما حكى كثيراً من الأقوال وقال : وهو الصواب .

وروى ابن جرير عن سماك الحنفي قال : ٨٣٨ [سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال : ركعتان تمام غير قصر ، إنما القصر في صلاة المخافة ، فقلت : وما صلاة المخافة ؟ فقال : يصلي الإمام بطائفة ركعة ، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلي بهم ركعة فيكون للإمام ركعتان ولكل طائفة ركعة ركعة .] (٥)

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (١٠٢)

صلاة الخوف أنواع كثيرة ، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة ، وتارة يكون في غير صوبها ، والصلاة تارة تكون رباعية ، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب ، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر ، ثم تارة يصلون جماعة ، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرון على الجماعة بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ورجالاً وركباناً ، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة ومن العلماء من قال : يصلون والحالة

(٥) هذا الحديث وإن كان موقوفاً على ابن عمر إلا أن له حكماً المرفوع إذ ليس له أن يقول فيه برأيه لا سيما وإن الأحاديث الصحيحة تؤيد ما قاله ابن عمر .

هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم^(١) وبه قال أحمد ابن حنبل وجماعة من التابعين . وعن محمد بن نصر المروزي أنه يرى رد الصبح إلى ركعة واحدة في الخوف وإليه ذهب ابن حزم أيضاً . وقال ابن راهويه : أما عند المسابقة فتجزئ ركعة واحدة تومىء بها إماماً . وقال آخرون : يكفي تكبيرة واحدة وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت المكي حتى قال : فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه يعني بالنية . رواه سعيد بن منصور في سننه قاله أعلم . ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر فصلهما بعد الغروب ثم صلى بعدها المغرب ، ثم العشاء وأما الجمهور فقالوا : هذا منسوخ بصلاة الخوف فإنها لم تكن نزلت بعد ؛ فلما نزلت ، نُسِخَ تأخير الصلاة لذلك ، وهو الصواب

وقوله تعالى ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف وهذه حالة غير الأولى ، فإن تلك قصرها إلى ركعة كما دل عليه الحديث^(٢) فرادى ورجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبلها . ثم ذكر حال الاجتماع والالتزام بإمام واحد . وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب صلاة الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة فلولا أنها واجبة ما ساغ ذلك .

أما سبب نزول هذه الآية قال ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال : ٨٣٩ [سأل قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ ثم انقطع الوحي فلما كان بعد ذلك بحول ، غزا النبي ﷺ فصلى الظهر ؛ فقال المشركون لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم ، هلاً شددتم عليهم ؟ فقال قائل منهم : إن لهم أخرى مثلها في أثرها ، قال : فأنزل الله تعالى بين الصلاتين : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ فنزلت صلاة الخوف ، [وهذا سياق غريب جداً ولكن لبعضه شاهد من رواية أبي عياش الزرقى واسمه زيد بن الصامت رضي الله عنه عند الإمام أحمد وأهل السنن ، فقال الإمام أحمد عن ابن عياش الزرقى قال : ٨٤٠ [كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان ، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر ، فقالوا : لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، قال : فنزل جبريل

(١) راجع الحديث رقم ٨٣٧ . * : هذا من كلامي

(٢) حديث ابن عباس نفسه

بهذه الآيات بين الظهر والعصر : ﴿واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ قال : فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح ، قال : فصفنا خلفه صفين ، قال : ثم ركع فركعنا جميعاً ثم رفع فرفعنا جميعاً ، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم ركع فركعوا جميعاً ، ثم رفع فرفعوا جميعاً ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ثم سلم عليهم ، ثم انصرف قال فصلها رسول الله ﷺ مرتين : مرة بصفتان ، ومرة بأرض بني سليم . [ورواه أحمد وأبو داود والنسائي وعبد العزيز بن عبد الصمد كلهم عن منصور به ، وهذا اسناد صحيح وله شواهد من البخاري ومسلم وابن أبي حاتم .

وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قول الله تعالى : ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم﴾ أي بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٠٤)

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها ، ولكن ها هنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما لا يوجد في غيرها ، كما قال تعالى في الأشهر الحرم ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ وإن كان منهياً عنه في سائر الأشهر ولكن في الأشهر الحرم أكد لحرمتها وعظمتها ، ولهذا قال تعالى : ﴿فإذا قضيت الصلاة فادكروا الله قِيَامًا وَقُعُودًا

وعلى جنوبكم ﴿ أي في سائر أحوالكم ثم قال تعالى : ﴿ فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ﴾ أي فإذا أمنتُم وذهب الخوف فأتُموا الصلاة وأقيموها بأركانها .

وقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ أي مفروضاً ووقتها كوقت الحج ^(١) قاله ابن عباس وقيل منجماً كلما مضى نجم جاء نجم أي كلما مضى وقت جاء وقت .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تنهوا في ابتغاء القوم ﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل قاتلوهم وأرصدوهم ﴿ إن تكونوا تأمنون فإنهم يأمنون كما تأمنون ﴾ أي يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وترجون من الله ما لا ترجون ﴾ أي ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد وهم لا يرجون شيئاً من ذلك فأنتم أولى منهم بالجهاد وأشد رغبة فيه لتعلاوا كلمة الله ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه ويمضيه ، في أحكامه الشرعية والكونية وهو المحمود على كل حال .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (١٠٥) وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴿ (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ﴾ (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ﴿ (١٠٨) هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ (١٠٩)

(١) أي إذا خرج وقتها لم يعد الوقت الثاني وقتها إنما هو وقت الصلاة التي تليها لذا فليس لمخرج الصلاة عن وقتها صلاة يصلحها في الوقت ... الآخر إنما قد ارتكب إثماً عظيماً نرجو الله أن يغفره بالتوبة النصوح ، والعزم على عدم العودة إلى إخراجها عن وقتها ، وإن القول بقضاء الفائت سبب للناس إخراج الصلاة عن وقتها بل وتكها والعياذ بالله .

يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي هو حق من الله وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه ؛ وقوله تعالى : ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية وبما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال : ٨٤١ [ألا أنما أنا بشر وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له . فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها .] ورواه الامام أحمد قريباً منه وزاد ابو داود على رواية أحمد : ٨٤٢ [إنما أقضي بينكما برأي فيما لم يتزل عليّ فيه]

وقد روى ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس : ٨٤٣ [إن نفرًا من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته ، فسرقت درع لأحدهم ، فأظنّ بها رجل من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده . فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا : يا نبي الله أن صاحبنا بريء وإن صاحب الدرع فلان ، وقد أخطأنا بذلك علماً ، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس ، وجادل عنه ، فانه إن لم يعصمه الله بك يهلك ، فقام رسول الله ﷺ ، فبرأه وعذره على رؤوس الناس ^(١) . فأنزل الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً . واستغفر الله أن الله كان غفوراً رحيماً ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ الآية .]

ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ الآيتين ، يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين : أي عن السارق والذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ، ولا يستخفون من الله وهذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم ويجاهرون الله بها ، لأنه مطلع على سرائرهم ، ولهذا قال : ﴿ وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ﴾ تهديد لهم ووعد ثم قال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ﴾ الآية أي هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدى لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر وهم متعبدون بذلك فماذا يكون

(١) وهذا دليل على عدم معرفة الغيب من أحد ، حتى ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما أطلعه الله عليه . فلينته المبطلون . . .

صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم ؟ أي لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلاً ولهذا قال : ﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ ١١٠ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ ١١١ ﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ ١١٢ ﴾ ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿ ١١٣ ﴾ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وََمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿ ١١٤ ﴾

يخبر تعالى عن كرمه أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان. فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس انه قال في هذه الآية : اخبر الله عباده بعفوه وكرمه ومغفرته ، فمن اذنب ذنباً صغيراً أو كبيراً ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . رواه ابن جرير

وقال ابن مردويه عن كعب بن ذهل الأزدي ، قال سمعت أبا الدرداء يحدث قال : كان رسول الله ﷺ إذا جلسنا حوله وكانت له حاجة فقام إليها وأراد الرجوع ، ترك نعليه في مجلسه أو بعض ما عليه وانه قام فترك نعليه ، قال ابو الدرداء : فأخذ ركوة من ماء فاتبعته فمضى ساعة ثم رجع ولم يقض حاجته ، فقال : ٨٤٤ [إنه أتاني آت من ربي فقال : انه : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ يُجْزَى بِهِ ﴾ فقلت : يا رسول الله وإن زنى وإن سرق ، ثم استغفر ربه غفر له ؟ قال « نعم » ثم قلت الثانية ، قال « نعم » . قلت الثالثة قال : « نعم » وإن زنى وإن سرق ثم استغفر الله ، غفر الله له على رغم أنف أبي

الدرء . قال فرأيت أبا الدرداء يضرب أنف نفسه بأصبعه [هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه بهذا السياق وفي اسناده ضعف ^(١)]

وقوله تعالى : ﴿ ومن يكسب إثماً فإنّما يكسبه على نفسه ﴾ الآية كقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ الآية يعني أنه لا يغني أحد عن أحد وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي من علمه وحكمته ، وعدله ورحمته كان ذلك ، ثم قال : ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً ﴾ الآية يعني كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح وهو لبيد بن سهل ، وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة ، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ ، ثم هذا التقرير عام فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم فعليه مثل عقوبتهم .

وقوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لمهت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء ﴾ قال الإمام ابن أبي حاتم عن قتادة الأنصاري ... وذكر قصة بني أبيرق فأنزل الله تعالى : ﴿ لمهت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء ﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه ، يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ولأموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ، ولم يكن الأمر كما أنهو إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ ثم امتنّ عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ، وعصمته له ، وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهي السنة ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ أي قبل نزول ذلك عليك كقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿ (١١٥) ﴾

٤٤٠ (٤ - النساء - ج ٥) من يترك سنة الرسول ويتبع غيرها ، جزاؤه جهنم وساءت مصيراً .

يقول تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ﴾ يعني كلام الناس ﴿ إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك ، كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مردويه عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ ٨٤٥ [كلام ابن آدم كله عليه لاله ، إلا ذكر الله عز وجل ؛ أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر]

روى الإمام أحمد عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٨٤٦ [« ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيمني خيراً ؛ أو يقول خيراً »] وقالت : « لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : « في الحرب ، والإصلاح بين الناس . وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها »] وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ . وقد رواه الجماعة سوى ابن ماجه .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ ٨٤٧ [« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام ، والصلاة ، والصدقة »] قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « إصلاح ذات البين » قال « وفساد ذات البين هي الخالقة » [ورواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

وقال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله ﴾ أي مخلصاً محتسباً ﴿ فسوف تؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً واسعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق ، والشرع في شق ، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح . وقوله تعالى : ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ هذا ملازم للصفة الاولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون المخالفة لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريعاً لهم ، وتعظيماً لنبيهم ؛ وقد وردت احاديث كثيرة صحيحة في ذلك . ومن العلماء من ادعى تواتر معناها . والذي عول عليه الشافعي رحمه الله تعالى في الاحتجاج على كون الإجماع حجة ، تحرّم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروّي والتفكير وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها ، ومنهم من استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك . ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله تعالى : ﴿ نولّه ما تولى ﴾ ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴿ أي إذا سلك طريق غير المؤمنين جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره . وتزينها

استدراجاً له كما قال تعالى : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة وما بعد الحق الا الضلال .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿ (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿ (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرُهُمْ فَلَيُبْتِكُنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَأَمْرُهُمْ فَلَيَغْيِرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ (١١٩) يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿ (١٢٠) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿ (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿ (١٢٢) ﴿

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة^(١) وقوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق وضل عن الهدى وبعد عن الصواب ، وأهلك نفسه وخسرهما في الدنيا والآخرة وفاته سعادتهما .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا ﴾ وقال ابن جرير عن الضحاك في الآية قال المشركون للملائكة ، بنات الله ؛ وإنما نعبدكم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : فاتخذوهن أرباباً وصوراً وهن جوارى فحكموا وقلدوا وقالوا : هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبد ، يعنون الملائكة ، وهذا التفسير شبيه بقوله تعالى : ﴿ افرايتم اللات والعزى ﴾

الآيات ... وقوله تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ لعنه الله ﴾ أي طرده من رحمته ؛ وقال تعالى حكايةً عنه : ﴿ لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴾ أي معيّنًا مقدراً معلوماً ﴿ ولا ضلّتهم ﴾ أي عن الحق ﴿ ولا منيّتهم ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة ، وأعدّهم الأمانى ، وأمرهم بالتسوية وأغرهم من أنفسهم ؛ وقوله تعالى : ﴿ ولا مرّهم ﴾ فليتيكّن آذان الأنعام ﴿ يعني تشقيقتها وجعلها سمة ﴾ ، وعلامة للبحيرة ، والسائبة ، والوصيلة . ^(١) ﴿ ولا مرّهم فليغيرن ﴾ خلق الله ﴿ كخصي الدواب والوشم وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : ٨٤٨ [لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل ثم قال ألا لعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وعن ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ ولا مرّهم فليغيرن ﴾ خلق الله ﴿ أي دين الله عز وجل ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ أي لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله (ص : ٨٤٩) كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء ثم قال تعالى : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ يعدهم ويمنيّتهم وما يعدّهم الشيطان إلا غروراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان ... ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم ومنّاهم ﴿ مأواهم جهنم ﴾ أي مألهم يوم القيامة ﴿ ولا يجدون عنها محيصاً ﴾ أي مخلص منها ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء فقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه ﴿ سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار

(١) البحيرة : هي التي يمنع درها للطاوغيث فلا يخلبها أحد من الناس . والسائبة : كانوا يسيبونها لأنهم لا يحمل عليها شيء . والوصيلة : الناقة البكر ت بكر في أول نتاج الإبل بل تشفى بعد بآثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيثهم إن وصلت أحدهما بالآخرى ليس بينهما ذكر (ابن كثير) من سورة المائدة الآية (١٠٣) .

(٤- النساء - ج ٥): مجرد الدعوى لا يحق حقاً ولا يبطل باطلاً، إلا ببرهان من الله ٤٤٣

خالدين فيها أبداً ﴿ أي بلا زوال ولا انتقال ﴾ ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي واقع لا محالة ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً أي خبراً لا إله الا هو ولا رب سواه وكان رسول الله ﷺ يقول : ٨٥٠ [إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .]

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ (١٢٦)

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم . وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ﴾ والمعنى أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال أنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك ، حتى يكون له من الله برهان والعبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على السنة الرسل الكرام ولهذا قال : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ وقد روي أن هذه الآية شقت على كثير من الصحابة

• روى الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق انه قال : ٨٥١ [يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به ؟ فقال رسول الله ﷺ « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ، ألست

تنصب ، ألت تخزن ، ألت تصيك اللأواء ؟ قال : بلى قال : « فهو مما تجزون به » [ورواه سعيد بن منصور به ورواه ابن حبان به .

• روى ابن جرير عن عطاء بن أبي رباح قال : ٨٥٢ [لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : جاءت قاصمة الظهر ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما هي المصيبات في الدنيا »]

روى سعيد بن منصور عن أبي هريرة قال : ٨٥٣ [لما نزلت : ﴿ من يعمل سوءً يجز به ﴾ شق ذلك على المسلمين ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « سدّوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها »] وهكذا رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وقوله تعالى : ﴿ ولا يحمد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ إلا أن يتوب فيتوب الله عليه رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكراً وأُنثى وهو مؤمن ^(١) ﴾ الآية ، لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا أو الآخرة ، والصفح والعفو والمسامحة ، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ، ذكراً منهم وإنائهم بشرط الإيمان وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار التقير وهو النقرة التي في ظهر نواه التمرة ، وقد تقدم الكلام على الفتيل وهو الحيط الذي في شق النواة ، وهذا التقير وهما في نواة التمرة ، والقطمير وهو اللقافة التي على نواة التمرة والثلاثة في القرآن . ثم قال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ﴾ أي أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيماناً واحتساباً ، ﴿ وهو محسن ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . وهذان الشرطان لا يصح عمل بدونهما . والصواب دائماً يكون متابعاً للشرعة فمن تابع الشريعة وصح ظاهره بذلك وكان باطنه مخلصاً وصحيحاً كظاهره كان عمله مقبولاً ، ولكن إذا فقد الأخلاص كان منافقاً ، وإذا فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ومتى جمعهما كان عمله عمل المؤمنين الذي يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم ، الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكلية لا يصدّه عنه صاد .

(١) قلت : وهكذا فإن الإيمان أساس كل عمل وبدونه لا يقبل أي عمل صالح . ولو كان زنة السموات والأرض قال الله تعالى : « وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » .

وقوله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه ، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له ، فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه ، كما وصفه به في قوله تعالى : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال كثير من علماء السلف : أي قام بجميع ما أمر به ، وفي كل مقام من مقامات العبادة فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ، ولا كبير عن صغير وقال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ الآية والآية بعدها . وقال البخاري عن عمرو بن ميمون قال : إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم إبراهيم . وقد ثبت في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها ، قال : ٨٥٤ [أما بعد ، أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ولكن صاحبكم خليلُ الله] وجاء من طريق جندب ابن عبد الله بسنده إلى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : ٨٥٥ [إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً] . وقوله تعالى : ﴿ والله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك ^(١) لا راداً لما قضى ، ولا معقّب لما حكم ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته . وقوله تعالى : ﴿ وكان الله بكل شيء محيطاً ﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . (وهو عليٌّ على خلقه ، بائن عنهم ﴾ الرحمن على العرش استوى ﴾)

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

(١) قلت : ولكن رغم كل ما في القرآن الكريم من نصريح بأن لله ملك السموات والأرض، تسمع من حلقات الذكر البدئية اليوم، أصواتاً منكورة تقول : (عبد القادر الجلاّني المتصرف بالأكوان) ونسوا ان المتصرف في الأكوان (هو القادر) جل وجللا (عبد القادر) اللهم نعوذ بك من الكفر ومن سوء المنقلب .

قال البخاري عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية : ﴿ ويستفتونك في النساء... ﴾ قالت : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها ، فأشركه في ماله حتى في العلق ، فيرغب أن ينكحها ، ويكره أن يزوجه رجلاً فيشركه في ماله بما شركه ، فيعضلها . فزلت هذه الآية وكذلك رواه مسلم . والمقصود : ان الرجل اذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها ، فتارة يرغب في أن يتزوجها ، فأمره الله تعالى أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء ، فقد وسع الله عز وجل . وهذا المعنى في الآيات الأولى التي في أول السورة .^(١) وتارة لا يكون له رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر ، فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركه في ماله الذي بينه وبينها ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية وهي قوله تعالى : ﴿ في يتامى النساء ﴾ كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقى عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدّر أحد أن يتزوجها أبداً ، فإن كانت جميلة وهويها ، تزوجه وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه . وقال في قوله تعالى : ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات وذلك قوله تعالى : ﴿ لا تؤتوهن ما كتب لهن ﴾ فنهى الله عن ذلك وبين لكل سهم سهمه فقال تعالى : ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ صغيراً أو كبيراً قال سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ إن كانت ذات جمال ومال نكحتمها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات جمال فأنكحها واستأثرت بها . وقوله تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليم ﴾ نهيجاً على فعل الخيرات وامثالاً للأوامر ، وأنه تعالى عالم بجميع ذلك ، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه .

﴿ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١٢٨)

فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدَرُوا مَا كَأْمُلَعَةً وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً * (١٣٠) ﴿١﴾

ينجر تعالى مشرعاً من حال الزوجين : تارة في حال نفور الرجل عن المرأة ، وتارة في حال اتفائه معها ، وتارة في حال فراقه لها . فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر أو يعرض عنها ، فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه وله أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ، ولا عليه في قبوله منها . ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ والصلح خير ﴾ أي من الفراق . ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها فصالحته على أن يمسكها وترك يومها لعائشة ، فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك ^(١) .

روى ابو داود الطيالسي عن ابن عباس قال : ٨٥٦ [خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، لا تطلقني وأجعل يومي لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية : ﴿ وإن امرأة خافت... ﴾ قال ابن عباس : فما اصطالحا عليه من شيء فهو جائز] ورواه الترمذي وقال حسن غريب وفي الصحيحين عن عائشة قالت : ٨٥٧ [لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة] وفي صحيح البخاري عن عائشة نحوه .

روى البخاري عن عائشة : الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول : أجعلك من شأني في حل ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وإن امرأة خافت... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والصلح خير ﴾ أي صلحها على ترك بعض حقها لازوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زمعة وقد فعل ﷺ ذلك لتنامي به أمته في مشروعية ذلك وجوازه فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام . ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال تعالى : ﴿ والصلح خير ﴾ بل الطلاق بغض إليه سبحانه وتعالى . وقوله تعالى : ﴿ وإن تحسنا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ وإن تتجشما مشقة الصبر على ما تكرهون منهن وتقسما لهن كأمثالهن فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم أوفر الجزاء . وقوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ أي لن تستطيعوا أيها الناس المساواة بين النساء من جميع الوجوه فإنه وإن وقع

(١) وقصده صلى الله عليه وسلم تعليم أمته وإلا فهو الرؤوف الرحيم بسائر أمته فكيف بزوجه نداء أبي وأمي بقصدها من إسكانها ، بناء الزوجية بينهما لتضمن لنفسها الجنة ، لأن نساء يحشرن معه

القسم الصوري ليلةٌ ليلةٌ فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع . قاله ابن عباس وجماعة من التابعين وقال ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة قال : نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ... ﴾ في عائشة ، يعني أن النبي ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها ؛ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت : ٨٥٨ [كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب]

وقوله تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ أي لا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿ فتذروها كالمعلقة ﴾ لا ذات زوج ولا مطلقة . روى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٨٥٩ [من كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما ^(١) ، جاء يوم القيامة وأحد شقبي ساقط] وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن . وقوله تعالى : ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ أي إن أصاحتم في أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض ثم قال تعالى : ﴿ وإن يفرقا بغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ وهذه الحالة الثالثة وهي حالة الفراق وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيها عنها ويغنيها عنه ويعوض لكل خيراً ﴿ وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ أي واسع الفضل ، عظيم المِنَّة ، حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿١٣٢﴾
إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾
وَالْآخِرَةُ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

(١) ليس الميل هنا ، الميل القلبي ... فهذا بيد الله تعالى ، ولا يستطيع أحد أن يبدي فيه ولا يعيد ، إنما الميل المنهجي عنه في هذا الحديث : هو الميل في المعاملة ؛ كأن ينام هنا ليلة ، وينام هناك أكثر ، أو يشتري لهذه أشياء من مأكول وكساء دون الأخرى ، فلا يعدل في المعاملة ... فهذا الذي يأتي يوم القيامة ، وشق ساقط . والله أعلم .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما ولهذا قال : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ﴾ أي وصيناكم بما وصيناكم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له ، ثم قال : ﴿ وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض ﴾ الآية . كقوله تعالى : ﴿ فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني غني عن عباده ﴾ حميد ﴿ أي محمود في جميع ما يقدره ويشترعه ؛ وقوله تعالى : ﴿ والله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كيلاً ﴾ أي هو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب الشهيد على كل شيء . وقوله تعالى : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تولوا يبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ قال بعض السلف : ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره . وقال تعالى : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ أي : يا من ليس له هم إلا الدنيا ، إعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة وإذا سأله من هذه وهذه أعطاك وأعناك كما قال تعالى : ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ الآية فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله ، إلى الذي بيده الضر والنفع ، وهو الله سبحانه لا إله إلا هو الذي قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا ومن يستحق هذا . ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَغْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١٣٥)

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، وأن تناصروا فيه . وقوله تعالى : ﴿ شهداء لله ﴾ أي أدوا شهادتكم لله وابتغاء وجهه تعالى ، فحينئذ تكون صحيحة غير محرقة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ولو على أنفسكم ﴾ أي أشهد الحق ولو عادت مضرتك عليك ، فإن الله سيجعل لمن اطاعه فرجاً من كل ضيق . وقوله تعالى : ﴿ أو الوالدين والأقربين ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والدك وقرابتك فلا تراعيهم واشهد الحق وإن تضرروا ، فإن الحق حاكم على كل أحد .

وقوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ أي لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لنفقره فالله أولى بهما منك . وقوله تعالى : ﴿ فلا تتبعوا الهوى ﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصية والبغض على ترك العدل في أموركم بل الزموا العدل كما قال تعالى ﴿ ولا يجرمكم شأن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ أي لا تعدلوا هو أقرب للتقوى ﴿ وقوله تعالى : ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ أي تحرفوا الشهادة وتغيروها . واللي هو التحريف وتعمد الكذب . كما قال تعالى : ﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها . كما قال تعالى : ﴿ ومن يكتنمها فإنه آثم قلبه ﴾ ، وقال النبي ﷺ [خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها] وقوله تعالى : ﴿ فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أي سيجازيكم على كتمانها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿ ١٣٦ ﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل وتثبيته ، والاستمرار عليه كما يقول المؤمن في صلاته : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي بصرتنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه فأمرهم بالإيمان به وبرسوله . وقوله تعالى : ﴿ والكتاب الذي نزل على رسوله ﴾ يعني القرآن ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة .

(٤ - النساء - ج ٥) : إن من تردّد بين الإيمان والكفر، ثم مات كافراً لا يغفر له . ٤٥١

وقال في القرآن نَزَلَ لَأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة ، فكانت تنزل جملة واحدة لهذا قال تعالى : ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعد عن القصد كل البعد .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ (١٣٧) ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٣٨) ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (١٣٩) ﴿ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَعَيْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (١٤٠)

يخبر تعالى عن دخل في الإيمان ثم تردّد بين الإيمان والكفر ثم ازداد كفرًا حتى مات . فإنه لا يغفر الله له لأنه لم يمت إلا وقد زاد كفرًا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ثم ازدادوا كفرًا ﴾ قال : تبادوا على كفرهم حتى ماتوا ، وعن علي رضي الله عنه أنه قال : يستتاب المرتد ثلاثاً ثم تلا هذه الآية : ﴿ ان الذين آمنوا ثم كفروا - إلى قوله - سبيلاً ﴾ ثم قال : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾ يعني إن المنافقين من هذه الصفة ، فأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، لأنهم أظهروا أنهم مع المؤمنين ثم قالوا للكفار إنما نحن معكم إنما نحن مستهزئون ، أي بالمؤمنين ، في إظهارنا لهم الموافقة فأنكر الله عليهم بقوله تعالى : ﴿ أيبغون عندهم العزة ﴾ ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ولن جعلها له كما قال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله

٤٥٢ (٤- النساء - ج ٥): لا تجلسوا في مجلس يستهزأ فيه بآيات الله، وإلا فإنكم مثلهم .

وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴿ والمقصود طلب العزة من الله والإقبال على عبوديته ، والأنظام في جملة عبادته المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا والآخرة . ويناسب هذا ما رواه الإمام أحمد عن أبي ربحانة أن النبي ﷺ قال : ٨٦١ [من انتسب إلى تسعة أباء كفار يريد بهم عزاً وفخراً ، فهو عاشرهم في النار] تفرد به أحمد .

وقوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم وأقررتموهم ^(١) على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه فهذا قال تعالى : ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ في المأثم كما في الحديث : ٨٦٢ [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر] وقوله تعالى : ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ﴾ أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم .

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِرْ عَلَيْكُمْ وَنَنْفَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (١٤١)

يخبر تعالى عن المنافقين ينتظرون زوال دولتكم وظهور الكفار عليكم وذهاب دينكم ﴿ فان كان لكم فتح من الله ﴾ أي نصر وغنيمة ﴿ قالوا ألم نكن معكم ﴾ أي يتوددون للمؤمنين بهذه المقالة ﴿ وإن كان للكافرين نصيب ﴾ أي انتصر الكافرون كما وقع يوم أحد فإن الرسل تبلى ثم تكون العاقبة لهم ﴿ قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ أي ساعدناكم باطناً فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم وما ذاك إلا لضعف إيمانهم قال تعالى : ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ أي

(١) قوله : (وأقررتموهم) الإقرار على الكفر كفر وإن جلس مع المستهزين أو لم يجلس . وما أظن أن في الآية معنى الإقرار إنما فيها مجرد الاستمرار في الجلوس مع المستهزين مع استطاعة القيام وهجر المجلس نعم ان مجرد الاستمرار في الجلوس حكمه أنه مثلهم تغليظاً له لرضائه عن البقاء في مجلس يستهزأ فيه بآيات الله .

أيها المنافقون يعلم الله بواطنكم ، فلا تغتروا بما له تعالى من الحكمة في جريان حكم الشريعة عليكم ظاهراً، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم . وقوله تعالى : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ قال ابن عباس : ذاك يوم القيامة أي فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً كما قال رضي الله عنه ويحتمل أن يكون المعنى : أي لن يجعل للكافرين في الدنيا سبيلاً على المؤمنين بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة ^(١) وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على منع بيع العبد المسلم للكافرين ، لما في صحة إبقائه من التسليط لهم عليه والإذلال ، وفي هذا يكون للكافر على العبد المسلم سبيل ، ويكون هذا العمل مخالفاً للآية المتقدمة ولذلك حرم بيع العبد المسلم للكافر .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَافُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٤٢)
مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿ (١٤٣) ﴾

قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ ^(٢) وقال ههنا : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ ولا شك أن الله لا يخادع فإنه العالم بالسرائر ولكن المنافقين لقلّة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرّت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً ، فكَذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة ، وأن أمرهم يروج عنده . كما قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ الآية ؛ وقوله تعالى : ﴿ وهو خادعهم ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الوصول إلى الحق في الدنيا وكذلك يوم القيامة وقد ورد في الحديث : ٨٦٣

(١) قلت : إن الله تعالى لن يجعل للكافرين حجة ولا نصراً عليهم أي على المؤمنين ما داموا مؤمنين حقاً وإن الله يضيع من دولة المسلمين بقدر ما يضيع أهلها من دينهم فإن حكموا بما أنزل الله في جميع شئونهم العامة والخاصة كان الله معهم وقواهم على أعدائهم وإلا فحالتنا اليوم تدل على أن الله تعالى نصر علينا اليهود ، لأننا حاربناهم في جميع أحكامهم، فسلط علينا أحقر عباده وقهرنا بهم لتعظف وانهزموا ونعود إلى ديننا أنعميم
(٢) قلت : راجع سورة البقرة الآية رقم ٩/

٤٥٤ (٤ - النساء - ج ٥) : المتخلفون عن المساجد همَّ الرسول أن يُحرقَ عليهم بيوتهم

[إن الله يأمر بالعبء إلى الجنة فيما يبدو للناس ويعدل به إلى النار] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى ﴾ الآية . هذه صفات المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى لأنها لانيّة لهم فيها ولا إيمان ولا خشية ، ولا يعقلون معناها ، وهذه صفة ظواهرهم . ثم ذكر صفة بواطنهم الفاسدة ، فقال تعالى : ﴿ يَرَاوُنَ النَّاسَ ﴾ أي لا إخلاص لهم ، إنما يصلون أمام الناس تقيّة لهم ومصانعةً ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يروّون فيها كصلاتيّ العشاء والصبح . كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٨٦٤ [أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر . ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبواً ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم انطلق معي برجالٍ معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرقَ عليهم بيوتهم بالنار] وفي رواية : ٨٦٥ [والذي نفسي بيده لو علم أحدهم أنه يجد عرقاً سمياً أو ممراتين حسنتين ، لشهد الصلاة ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ أي في صلاتهم لا يخشون ولا يعقلون ، بل هم ساهون لاهون معرضون . وقد روى مالك عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٦٦ [تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان ، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها الا قليلاً] وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث اسماعيل بن جعفر وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ مَذْبُذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ أي لا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً ، ولا مع الكافرين . كذلك إنما ظواهرهم مع المؤمنين ، وبواطنهم مع الكافرين . ومنهم الخبيث بين الإيمان والكفر فتارة يميل إلى هؤلاء وطوراً يميل إلى أولئك . روى ابن جرير عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : ٨٦٧ [مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ، لا تدري أيهما تتبع] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَضِللِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ أي ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ والمنافقون الذين ضلوا عن سبيل النجاة فلا هادي لهم ، ولا منقذ لهم ممام فيه فإنه تعالى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
 الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١٤٤)
 إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
 إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ
 فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا
 عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ
 اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، وذلك بمصاحبتهم
 ومصادقتهم ومناصحتهم ، وإسرار المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين إليهم . كما قال
 تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ
 اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ أي يحذركم الله عقوبته في
 ارتكابكم نهي . ولهذا قال هنا ﴿ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ أي حجة
 عليكم في عقوبته إياكم ، وعن ابن عباس : [كل سلطان في القرآن حجة] وهذا إسناد
 صحيح . وكذا قال جماعة من التابعين . ثم أخبر تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ
 مِنَ النَّارِ ﴾ أي يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ . وعن ابن عباس : أي في أسفل
 النار وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه سئل عن المنافقين فقال : يُجْعَلُونَ فِي تَوَابِيتٍ
 مِنْ نَارٍ تُطَبَّقُ عَلَيْهِمْ فِي أَسْفَلِ دَرَكٍ مِنَ النَّارِ . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ أي ينقذهم من أليم
 العذاب . ثم أخبر تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾
 أي بدّلوا الرياء بالإخلاص فيفنعهم العمل الصالح وإن قل . روى ابن أبي حاتم عن معاذ
 ابن جبل أن رسول الله ﷺ قال : ٨٦٨ [أخلص دينك يكفك القليل من العمل] ﴿ فَأُولَئِكَ
 مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي في زمرة هم ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ثم قال تعالى
 بقوله : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾ أي إن أصلحتم العمل ، وآمنتم بالله
 ورسوله ، فهو غني عما سواه ، وإنه إنما يعذب العباد بذنوبهم . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا
 عَلِيمًا ﴾ أي يشكر له عمله ، ويعلم ما في قلبه ويحازيه على ذلك أوفر الجزاء .



﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾ (١٤٨) إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿ (١٤٩) ۞

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أُرخص له يدعو على من ظلمه وذلك قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ وإن صبر فهو خير له . روى أبو داود عن عائشة قال سُرِقَ لها شيء ، فجعلت تدعو عليه ، فقال النبي ﷺ : ٨٦٩ [لا تسبخي عنه] ^(١) .

وقال الحسن البصري : لا يدعُ عليه وليقل : اللهم أعني عليه ، واستخرج حقي منه . وقبل في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفرّ عليه وعن مجاهد قال : ضاف رجل رجلاً فلم يؤدّ إليه حق ضيافته ، فلما خرج أخبر الناس فقال : ضفت فلاناً فلم يؤدّ إليّ حق ضيافتي . قال فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم حتى يؤدي الآخر إليه حق ضيافته .

روى الامام أحمد عن المقدم بن أبي كريمة ، عن النبي ﷺ أنه قال : ٨٧٠ [أيما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً ، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله] ومن هذا الحديث وأمثاله ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة .

وقد روى الحافظ البرار عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : ٨٧١ [إن لي جاراً يؤذيني فقال له « أخرج متاعك فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق ، فكل من مر به قال له مآلك ؟ قال : جاري يؤذيني ، فيقول : اللهم عنه اللهم أخزه قال : فقال الرجل : إرجع إلى منزلك والله لا أؤذيك أبداً] وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أي أن تظهروا الخير أو تخفوه أو تعفوا عمن أساء إليكم فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه . فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم . ولهذا قال تعالى :

(١) أي : لا تنسبني بمعنى لا تدعي عليه .

﴿ عفواً قديراً ﴾ وفي الحديث الصحيح : ٨٧٢ [ما نقص مال من صدقة ، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١٥٢)

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله ، من اليهود والنصارى ، حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان ، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض ، بمجرد التشبهى والعادة ، وما ألفوا عليه آباءهم ، لا عن دليل قادم إلى ذلك ، بل بمجرد الهوى والعصية . فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى كفروا بمحمد ﷺ وآمنوا بغيره من الأنبياء ، والسامرية لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى والمجوس يقال أنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت ، ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم والله أعلم . والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ﴾ أي في الإيمان ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أي طريقاً ومسلكاً . ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به ، لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله ، لآمنوا بنظيره . ومن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه ، أو نظروا حق النظر في نبوته .

وقوله تعالى : ﴿ وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته . كما كان يفعله كثير من أصحاب اليهود في زمان رسول الله ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله

من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه ، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي ، الموصول بالذل الأخروي . وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وكل نبي بعثه الله كقوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ﴾ الآية ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل فقال : ﴿ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لذنوبهم .

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْقَاتِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾

وقال محمد بن كعب القرظي والسدي وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة . قالوا ذلك على سبيل التعنت والكفر وقد سألوا موسى أكبر مما سألوك ، فقد قالوا : ﴿ أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ أي بطغيانهم وبغيهم وهذا مفسر في سورة البقرة عنه قوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ... ﴾ ^(١)

وقوله تعالى : ﴿ ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أي على يني موسى عليه السلام بمصر وما كان من اهلاك عدوهم فرعون وجنوده في اليم ، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ ثم ذكر تعالى قصة اتخذهم العجل مبسوطه في سورتي الأعراف ^(٢) وطه ^(٣) بعد

ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل وقال تعالى : ﴿ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُم الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ ، وذلك حين امتنعوا عما جاءهم به موسى عليه السلام رفع الله على رؤوسهم جبلاً ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ ... ﴾ الآية ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي أمرنا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً ويقولوا حطة أي اللهم حطّ عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه ، فلم يقولوا ه ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم فيه ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أي شديداً فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل كما هو مبسوط في سورة الأعراف ^(١) وسيأتي حديث صفوان بن عسال في سورة الإسراء عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ ^(٢) وفيه : وعليكُم خاصة يهود أن لا تعدوا في السبت .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿ (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿ (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (١٥٩) ﴿

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها ، مما أوجب لعنتهم وطردهم ، وإبعادهم عن الهدى ، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ، وكفرهم بآيات الله أي حججه وبراهينه ، والمعجزات التي شاهدها على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقوله تعالى : ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ وذلك لكثرة أجرامهم واجترائهم على أنبياء الله ، فلأنهم قتلوا جماعاً غيراً من الأنبياء عليهم السلام ﴿ وقولهم قلوبنا غلف ﴾ قال ابن عباس وجماعة من التابعين : أي في غطاء . أي كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول ، لأنها في غُلفٍ وأكْتة . وقيل أن معناه : إنهم ادَّعوا أن قلوبهم غلفٌ للعلم أي أوعية للعلم قد حوته وحصلته ، رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . فقال الله تعالى راداً عليهم : ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ فعكس عليهم ما ادعوه من كل وجه . وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة : ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ أي تمرّت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان . ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني أنهم رموها بالزنا وكذلك قال جماعة من السلف وهو ظاهر من الآية . أي أنها حملت بولدها من ذلك ، زاد بعضهم : وهي حائض فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء ، كقول المشركين : ﴿ يا أيها الذي تزّل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه ، أنه لما بعث الله عيسى بن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يرى بها الأكفرة والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه ، فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل . ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يسكنهم في بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام ، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا فيه إلى ملك دمشق في ذلك الزمن وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته اليونان وأنهى اليهود إلى هذا الملك أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه ^(١) فغضب الملك ، وكتب إلى نائبه بالقدس ان يقبض على هذا المذكور وأن

(١) قلت : وهذا شأن كل السادة عند الحكام في أي زمان يشون على المصلحين بأنهم يفسدون على الحاكم رعاياه ليجعلوا منه عدواً شخصاً للمصلحين والأنبياء . فيستثيرون غضبه ويصاؤون من وراء ذلك إلى مبتغاهم من المصلحين بمنهم من الدعوة أو قتلهم ... وما إلى ذلك .

يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، فلما وصل الكتاب أمثل والي بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام ، وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر ، ويقال انه كان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت ، فحصره هنالك فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : (أيكم يلقي عليه شبيهي وهو رفيقي في الجنة ؟ فانتدب لذلك شاب منهم ، فكانه استصغره عن ذلك ، فاعادها ثانية وثالثة ، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب ، فقال : أنت هو وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو وفتحت روزنة من سقف البيت ، وأخذت عيسى سِنَّةً من النوم ، فرفع إلى اسماء وهو كذلك ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوْفِكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾^(١) الآية فلما رفع خرج أولئك نفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ، ظنوا أنه عيسى ، فأخذوه في الليل وصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه ، وأظهر اليهود ، أنهم سعوا في صلبه ، وتبجحوا بذلك ، وسلم لهم طوائف النصارى ذلك بلجلهم وقلة عقولهم ، ما عدا من كان في البيت مع المسيح ، فإنهم شاهدوا رفعه .

وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود ، أن المصلوب هو عيسى عليه السلام . وقد أوضح الله الأمر وجلّاه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم فقال تعالى وهو أصدق القائلين ، المطلع على الأسرار والسرائر ، والعالم بما كان وما سيكون : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ أي رأوا شبهه فظنوه إياه ولهذا قال ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ يعني بذلك من ادّعى أنه قتله من اليهود ، ومن سلمه إليهم من جهال النصارى ، ولهذا قال : ﴿ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ أي منيع الجانب ، لا يرام جنبه ، ولا يضام من لاذبابه ، حكيماً في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ما ملخصه لا يختلف عما ورد آنفاً من خبر عيسى ورفعته إلى السماء إلى أن قال : ... وافترقوا - أي جماعة عيسى - ثلاث فرق ، فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان ابن الله فينا ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبدالله

ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون ؛ فظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس . ورواه النسائي وكذا ذكره غير واحد من السلف ، انه قال لهم : أتكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني ، وهو رفيقي في الجنة . أما الحواريون فكانوا اثني عشر رجلاً : فرطوس ، ويعقوبس ، ويلاونخس أخو يعقوب ، واندرائس ، وفيلبس ، وابن يلما ، ومنتا ، وطوماس ، ويعقوب بن حلقايا ، ونداوسيس ، وقتايا ، وليودس ركريا يوطا^(١)

وقال ابن اسحق : وكان فيما ذكر لي رجل اسمه سرجس وكانوا ثلاثة عشر رجلاً رجلاً سوى عيسى عليه السلام جحدته النصارى ؛ وذلك أنه هو الذي شبه لليهود مكان عيسى قال : فلا أدري هو من هؤلاء الأثني عشر أو كان ثالث عشر . وكان هو الذي صلبوه وشبه لهم به . وكان الذين قبضوا عليه لا يعرفون عيسى ، حتى جعلو ليودس ركريا يوطا ثلاثين درهماً على أن يدهم عليه ويعرفهم إياه فقال لهم : إذا دخلتم عليه فإني سأقبله ، وهو الذي أقبل فخذوه فلما دخلوا ، وقد رفع عيسى ورأى سرجس في صورة عيسى فلم يشك أنه هو ، فأكب عليه فقبله فأخذوه وصلبوه . ثم أن ليودس ركريا يوطا ندم على ما صنع فاختنق بجبل حتى قتل نفسه وهو ملعون في النصارى . وبعض النصارى يزعم أن ليودس ركريا يوطا هو الذي شبه لهم فصلبوه وهو يقول : إني لست بصاحبكم أنا الذي دلتكم عليه والله اعلم أي ذلك كان . وهكذا فقد رفع عيسى إلى السماء حياةً .

وقوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم : يعني قبل موت عيسى يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال ، فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الإسلام الحنيفية ، دين إبراهيم عليه السلام .

« ذكر من قال ذلك »

عن ابن عباس وعن سعيد بن جبير : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ قال : قبل موت عيسى عليه السلام وفي قول له أيضاً مثل ذلك عن العوفي . وقال ابو مالك : ذلك عند نزول عيسى وقبل موته عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا

(١) ولكن المنقول عن الكتب اليونانية الموعول عليها نصه هكذا : سمان الملقب بطرس ، واندرائس ويعقوب بن زبدي ، ويوحنا ، وفيلبس ، ورتولماوس ، وتوما ، ومثى المشار ، ويعقوب ابن حلفي ، ولباس الملقب تداوس ، وسمعان القناوي ، ويهوذا الأسخريوطي ، أمه .

آمن به وهذا القول هو الحق ، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان ، وقيلت تفاسير شتى في تفسير هذه الآية ولكن أولى الأقوال بالصحة القول الأول وهو انه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام . وهذا هو الصحيح ، لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادّعت اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شبه لهم ، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ثم إنه رفعه إليه وإنه باقٍ حيٌّ ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلّت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريباً ، فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف . والمراد بهذا الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته في السماء وانه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، ليكذب هؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه ، وتصادمت وتعاكست ، وتناقضت ، وخلت من الحق ، ففرط هؤلاء اليهود ، وأفرط هؤلاء النصارى ، تنقصه اليهود بما رموه به وأمه من العظام ، وأطراه النصارى بحيث ادّعوا فيه ما ليس فيه ، فرفضوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً ، وتترّده وتقدس لا آله الا هو .

أحاديث مختارة صحيحة واردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض

من السماء آخر الزمان قبل يوم القيامة وانه يدعو إلى عبادة

الله وحده لا شريك له

* روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٧٣ [« والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها »] ثم يقول أبو هريرة إقرأوا ان شئتم : [وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً]

وكذا رواه مسلم وأخرجه البخاري ومسلم ورواه ابن مردويه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٧٤ [يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، يقتل

٤٦٤ (٤ - النساء - ج ٦) : المسيح الحق عيسى بن مريم ... يقتل المسيح الدجال الأعور .

الدجال ، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ويفيض المال وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين » قال أبو هريرة : أقروا إن شتم ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا يؤمنن به قبل موته ﴾ موت عيسى بن مريم ، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات [.

• طريق أخرى : روى الامام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٨٧٥ [ليهائن عيسى بن مريم بفتح الروحاء بالحج أو العمرة أو ليشننها جميعاً] كذا رواه مسلم منفرداً به .

• قال البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٧٦ [كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم وإمامكم منكم] .

• طريق أخرى : روى الامام أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ٨٧٧ [الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإن أولى الناس بعيسى بن مريم ، لأنه لم يكن نبي بيني وبينه ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصران ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ؛ فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الاسلام ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الاسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال ، ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر ، والذئب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ، ويصلي عليه المسلمون .] وكذا رواه أبو داود .

• حديث آخر : روى مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان قال : ٨٧٨ [ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا فقال : « ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل قال : غير الدجال أخوفي عليكم ... إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم . إنه شاب قطط ^(٢) عينه طافية ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج من خلة بين الشام والعراق ، فعات يميناً وعات شمالاً ، ياعباد الله فاثبتوا قلنا : يا رسول

(١) الأخوة لعلات : أمهاتهم شتى وأبوهم واحد . (٢) قصير شعر الرأس اجدهد .

الله فما لبثه في الأرض ؟ قال أربعون يوماً يوم كسنة ، ويوم كشهرا ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا : يا رسول الله وذلك اليوم الذي كسنة ، أتكفيها فيه صلاة يوم ؟ قال : لا... أقدروا له قدره. قلنا : يا رسول الله وما إسرعه في الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح فيأتي على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ، ويستجيبيون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبث ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى ، وأسبغه ضروعاً ، وأمدته خواصر ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم فيصبحون محلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتنبذه كنوزها كيعاسيب النحل ، ثم يدعو رجلاً ممتلاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعو فيقبل ، ويتهلل وجهه ويضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام ، فيترل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه كجمان اللؤلؤ ، ولا يحل لكافر يجدر بريح نفسه إلا مات. ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى عليه السلام قوماً قد عصمهم الله منه فيمنسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بآلهم ، فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون. فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويحضر بني الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم ، خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب بني الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النصف في رقابهم فيصبحون قرى^(١) كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأ زهمهم وننتهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم . حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة^(٢) ثم يقال للأرض : أخرجي ثمرك وردي بركتك . فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويبارك الله

(١) يعني ملكي والنصف : دود يكون في أنوف الأبل والغنم . والمعنى أن الله يرسل عليهم الدود في رقابهم فيهلكهم هلكت واحدة . (٢) الزلفة بالتحريك : المرأة .

في الرسل^(١) حتى أن اللقمة من الإبل لتكفي الفئام. فبينما هم كذلك، إذ بعث الله رجلاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة] ورواه الإمام أحمد، وأهل السنن

• روى أحمد عن مجمع بن جارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ٨٧٩ [يقتل ابن مريم، المسيح الدجال بباب لد-أو إلى جانب لد-] وكذا رواه الترمذي وقال هذا حديث صحيح فأما أحاديث ذكر الدجال فقط. فكثيرة جداً، وهي أكثر من أن تحصى لانتشارها، وكثرة روايتها في الصحاح والحسان والمسانيد وغير ذلك.

• روى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: ٨٨٠ [أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة، ونحن نتذاكر الساعة فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى بن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو تحشر - الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا.]

الدجال يهودي وجنوده من اليهود

وفي بعض حديث لعبد الرحمن المحاربي عن اسماعيل بن رافع قال: ٨٨١ [... فقالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: «هم قليل وجلتهم يومئذ بيت المقدس، وإمامهم رجل صالح^(٢) فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم، فرجع ذلك الإمام يمشي القهقري ليتقدم عيسى عليه السلام، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول: تقدم فصل فأنها لك أقيمت. فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتح وراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى وتاج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هارباً، فيقول عيسى: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيدركه عند باب لد الشرقي فيقتله، ويهزم الله اليهود فلا يبقى شيء مما خلق الله تعالى يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك شيء لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة، إلا الغرقة - فلأنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال أقتله ..]

(١) الرسل بالتحريك: القطيع. الجذع أرسال. واللقمة: ذات اللبن. والفئام: الجماعة. (٢) هو المهدي المنتظر من نسل فاطمة.

وهكذا فقد تقدم كثير من الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة ، وابن مسعود ، وعثمان بن أبي العاص ، وأبي أمامة ، والنورس بن سميان وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ومجمع بن جارية ، وأبي شريحة ، وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم وفيها دلالة على صفة نزول عيسى عليه الصلاة والسلام ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية وإن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح ، فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم في الصحيحين فتراح علل أهل الكتاب وترفع شبههم من أنفسهم ، ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعين لعيسى عليه السلام ولهذا قال تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ﴾ الآية ؛ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وإنه لعلم الساعة ﴾ وقرئ : ﴿ لعلم ﴾ بالتحريك أي أمانة ودليل على اقتراب الساعة وذلك لأنه ينزل بعد خروج الدجال فيقتله الله على يديه ؛ كما ثبت في الصحيح إن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء ، ويهلك الله ببركة دعائه يأجوج ومأجوج وقد قال تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق ﴾ الآية .

﴿ صفة عيسى عليه السلام ﴾

روى مسلم عن ابن عمر قال :

قال رسول الله ﷺ : ٨٨٢ [وأراني الله عند الكعبة في المنام ، وإذا رجل آدم كأحسن ما ترى من آدم الرجال ، تضرب لفته بين منكبيه ، رجل الشعر ، يقطر رأسه ماءً ، واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هو المسيح بن مريم - ثم رأيت وراءه رجلاً جعداً قططاً أعور العين اليمنى ، كأشبه من رأيت بابل قطن ، ^(١) واضعاً يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا قالوا المسيح الدجال] .

روى عن ابن عمر [أنه - أي عيسى - يمكث سبع سنين] وتوفيقاً بين هذا القول وبين من يقول أربعين سنة فإنه يحتمل أن يكون المراد ببلثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه ، وبعد نزوله ؛ فإنه رفع وله ثلاث وثلاثون سنة في الصحيح .

(١) قال الزهري : ابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية .

وفي حديث عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة : ٨٨٣ [أن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة ثم يُتوفى ويصلي عليه المسلمون .] رواه الإمام أحمد وكذا رواه أبو داود وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة عيسى بن مريم من تاريخه عن بعض السلف انه يدفن مع النبي ﷺ في حجرته والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ قال قتادة ، يشهد عليهم انه قد بلغهم الرسالة من الله وأقر بعبوديته لله عز وجل وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة ﴿ واذا قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس - إلى قوله - العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ فَيُظْلَمُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرُّبُوعَ وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿ (١٦١) لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيماً ﴾ (١٦٢)

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبه من الذنوب العظيمة ، حرم عليهم طيبات كان أحلتها لهم كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس انه قرأ : طيبات كانت أحلت لهم . والمراد أن جميع الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حراماً لإسرائيل على نفسه من لحوم الإبل ، وألبانها ، ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة كما قال في سورة الأنعام : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرماً عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بغيبيهم ولنا لصادقون ^(١) ﴾ أي إنما حرمنا عليهم ذلك ، لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيبيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله

كثيراً ﴿أي صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق وهذه سجية لهم ، متصفون بها من قديم الدهر وحديثه ، ولهذا كانوا أعداء الرسل ، وقتلوا خلقاً من الأنبياء ، وكذبوا عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما .

وقوله تعالى : ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾ أي أن الله تعالى قد نهاهم عن الربا فأخذوه محتالين عليه بأنواع الجبل وصنوف من الشبه ، وأكلوا أموال الناس بالباطل ، قال تعالى: ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ ثم قال تعالى : ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ أي الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع وقد تقدم الكلام في ذلك في سورة آل عمران^(١) ، ﴿والمؤمنون﴾ عطف على الراسخين وخبره ﴿يؤمنون﴾ بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ﴿قال ابن عباس : أنزلت في عبدالله بن سلام ، وثعلبة بن سَعْيَةٍ ، وأسد بن سَعْيَةٍ ، وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الاسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمد ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿والمقيمين الصلاة﴾ هكذا هو في جميع مصاحف الأئمة وكذا هو في مصحف أبي بن كعب وهو منصوب على المدح ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ قال : وهذا سائق في كلام العرب . كما قال الشاعر : لا يبعدن قومي همو . أسد العداة وآفة الجزر . النازلين بكل معترك . والطيبون معاقد الأزر . وقوله تعالى : ﴿والمؤتون الزكاة﴾ أي زكاة الأموال ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي يصدقون بأنه لا إله إلا هو ، ويؤمنون بالبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها . وقوله تعالى : ﴿أولئك﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿ستؤتيهم أجراً عظيماً﴾ يعني الجنة .



﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾
وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى
وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴿١٦٣﴾
وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ
وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴿١٦٥﴾

ذكر الله سبحانه أنه أوصى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوصى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال : ﴿ انا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ - إلى قوله - ﴿ وآتيناه داود زبوراً ﴾ والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام وسندكر ترجمة كل نبي من هؤلاء الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام عند قصصهم . سورة الأنبياء إن شاء الله وبه الثقة، وعليه التكلان . روى محمد بن اسحق عن ابن عباس : قال سكن وعدي بن زيد : يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ إلى آخر الآيات .

وقوله تعالى : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ أي من قبل هذه الآية ، يعني في السور المكية وغيرها وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله تعالى على اسمائهم في القرآن وهم : آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد ﷺ .

روى الحافظ أبو بكر البزار عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٨٤ [إني لخاتم ألف نبي أو أكثر ، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال ، وإني قد بينت لي ما يبين لأحد منهم وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور] وقوله تعالى : ﴿ ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ أي خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين ففي حديث أبي ذر أنهم ٨٨٥ : [مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً] قال قلت يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال « ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب » قلت : فمن كان أولهم ؟ قال « آدم » قلت : أنبي مرسل ؟ قال : « نعم ، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قبلاً » ثم قال : « يا أبا ذر ، أربعة سريانيون : آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس ، وهو أول من خط بقلم ، ونوح ، وأربعة من العرب : هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر ، وأول أنبياء بني إسرائيل موسى ، وآخرهم عيسى ، وإن أول الرسل آدم وآخرهم محمد » [... رواه محمد بن حسين الآجري بطوله . ورواه الامام أحمد عن أبي أمامة أن أبا ذر سأل النبي ﷺ فذكر أمر الصلاة والصيام والصدقة وفضل آية الكرسي ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وأفضل الشهداء ، وأفضل الرقاب ونبوة آدم وأنه مكلم وعدد الأنبياء والمرسلين كنحو ما تقدم .

وقال عبدالله بن الإمام أحمد : وجدت في كتاب أبي بخطه بالسند إلى أبي الوداك قال : قال أبو سعيد هل تقول الخوارج بالدجال ؟ قال : لا ، فقال : قال رسول الله ﷺ [إنِّي خاتم الف نبي أو أكثر ، وما بُعثَ نبيٌّ يتبع إلا وقد حذر أمته منه ، وإنِّي قد بين لي فيه ما لم يبين ، وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري ، معه من كل لسان ، ومعه صورة الجنة الخضراء يجري فيها الماء ، وصورة النار سوداء تدخن]

وقوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ وهذا تشریف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ، ولهذا يقال له الكليم ، وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن عبد الجبار بن عبدالله ٨٨٧ قال : [جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال سمعت رجلاً يقرأ : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ أي قرأ لفظ الجلالة بالنصب فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر . قرأت على الأعمش ، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب ، وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب ، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ [أي لفظ الجلالة بالرفع ، إنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ لفظ الجلالة بالنصب وموسى بالرفع لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه ، وكان هذا الذي قرأ لفظ الجلالة بالنصب من (المعتزلة) الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ عن بعض المشايخ : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ فقال له يا ابن اللخناء ، كيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ ؟ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل .

وقوله تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين ﴾ أي يبشرون من أطاع الله بالخيرات وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب . وقوله تعالى : ﴿ لئلاً يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴿ أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبطارة والندارة ، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه ، لئلا يبقى لمعتذر عن رسوله حجة ﴾ ولولا أننا لهلكناهم بعذاب من قبله لقاتلوا ربنا لولا أرسلت إليهم رسلاً ففتنهم آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ الآية ... وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ٨٨٨ [لا أحد أغبر من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل

ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين [وفي لفظ آخر : أنزل رسله وأنزل كتبه .]

﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ كُتُبًا يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿ (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿ (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿ (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧٠)

لما تضمن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية اثبات نبوته ﷺ ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب ، قال الله تعالى : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك ، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم ، ولهذا قال : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع عليه عباده من البينات والهدى والفرقان وما يرضاه الله ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل أو ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾

روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن ، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : قد أخذت علم الله ، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل . ثم يقرأ قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَأْتُهُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَأْتُهُ يَشْهَدُونَ ﴾ أي بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك

مع شهادة الله بذلك ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ قال محمد بن اسحق عن ابن عباس قال : ٨٨٩ [دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود ، فقال لهم : « إني لأعلم والله أنكم لتعلمون أني رسول الله » فقالوا : ما نعلم ذلك فأنزل الله عز وجل : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾ الآية] .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً ﴾ أي كفروا فلم يتبعوا الحق وصدوا الناس عنه ، وضلوا أي بعدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين الظالمين لأنفسهم بانتهاك المحارم ، بأنه لا يغفر لهم ﴿ ولا يهديهم طريقاً ﴾ أي سبيلاً إلى الخير ﴿ إلاّ طريق جهنم ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ الآية ... ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم ﴾ أي قد جاءكم محمد صلوات الله عليه وسلامه بالهدى ودين الحق من الله عز وجل ، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيراً لكم . ثم قال : ﴿ وان تكفروا فإن الله ما في السموات والأرض ﴾ أي فهو غني عنكم وعن إيمانكم ، ولا يتضرر بكفرانكم كما قال تعالى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وقال هاهنا : ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بمن يستحق منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿ حكيماً ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (١٧١) ﴿

ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فلهم تجاوزوا الحد في عيسى عليه السلام حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه ، بل غلوا في أتباعه وأشباعه ممن زعم أنه على دينه ، فادّعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه ،

سواء كان حقاً أو باطلاً ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ اتخذوا أبحارهم ورباهم أرباباً من دون الله ﴾ الآية... روى الإمام أحمد عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله ﷺ قال ٨٩٠ : [لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله] ورواه البخاري بهذا اللفظ . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا فقال رسول الله ﷺ ٨٩١ [أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهويَنَّكم الشيطان ، أنا محمد بن عبدالله ، عبدالله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل] تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبةً وولداً ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً ، وتتره وتقدس وتوحد في شؤونده وكبرياته وعظمته ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه. قال الله له كن فكان ، ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم ، خلقه بالكلمة ^(١) التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم ، فنفخ فيها من روحه بإذن الله عز وجل فكان عيسى بإذنه عز وجل وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها ، فتزلت حتى وبلحت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم ، والجميع مخلوق لله عز وجل ، ولهذا قيل لعيسى : إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه ، وإنما هو ناشيء عن الكلمة التي قال له بها كن فكان . والروح التي أرسل بها جبريل . قال تعالى : ﴿ ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ﴾ روى البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال ٨٩٢ : [من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق ،

(١) قلت : نعم هو مخلوق بالكلمة وليس هو الكلمة ، لأن الكلمة هي (كن) وكلمة كن عندما يقولها الله فهي إذاً من كلامه تعالى ، وكلامه غير مخلوق . وعيسى عليه السلام هو مخلوق لله وعبده ورسوله . وبهذا وضع أن عيسى عليه السلام ليس هو نفس (كن) إنما هو مخلوق تحت أمر (كن) فكان . وفي هذا سقطت حجة من يحتج على من يحرم الحلف بغير الله : (بأنه لا يجوز الحلف بكلام الله ، لأنه إذا جاز ذلك ، لحاز الحلف بعيسى لأنه كلمة الله) ، وهذا كما لا يخفى مردود بالحجة الآتية أي أن عيسى ليس هو كلمة (كن) إنما كان بـ (كن) فإذا اتضح هذا ... فإنه يجوز الحلف بكلام الله لأنه كلامه ، وهو صفة له سبحانه . أما عيسى عليه السلام ، لا يجوز الحلف به لأنه مخلوق خلق بـ (كن) وليس هو (كن) والحمد لله على توفيقه .

أدخله الله الجنة على ما كان من العمل [وقال الوليد عن جنادة زاد ٨٩٣ : [من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء] وكذا رواه مسلم فقوله تعالى في الآية والحديث ﴿ وروح منه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي من خلقه ومن عنده وليس من التبعض كما يقول النصارى - عليهم من الله ما يستحقون - بل هي لابتداء الغاية . وأضيف الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقصة والبيت إلى الله في قوله تعالى : ﴿ ناقة الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ وطهر بيتي للطائفين ﴾ .

وكما روي في الحديث الصحيح ٨٩٤ [فأدخل على ربي في داره] أضافها إليه إضافة تشريف وهذا كان من قبيل واحد . وقوله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد ، لا صاحبة له ولا ولد ، وإن عيسى عبده ورسوله ولا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾ وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ . الآية . والنصارى - عليهم من الله ما يستحقون - ليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد فمنهم من يعتقد المسيح إلهاً ، ومنهم من يعتقد شريكاً ، ومنهم من يعتقد له ولداً وهم طوائف ، أراؤهم مختلفة وأقوالهم غير مؤتلفة ؛ ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً .

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بترك الاسكندرية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير أيام قسطنطين ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبط ولا ينحصر فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً ، فكانوا أحزاباً كثيرة : كل خمسين منهم على مقالة ، وعشرون على مقالة ، ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، فلما رأى قسطنطين عصابة منهم قد زادوا على الثلاثة بثمانية عشر وتوافقوا على مقالة فأخذها الملك قسطنطين ونصرها وأيدها... وبحق ما عداها من الأقوال ، وبني لهم الكنائس ووضعوا لهم كتباً وقوانين واتباع هؤلاء هم الملكانية . ثم اجتمعوا مجعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية ، ثم مجعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية ، وكل هؤلاء يشتون الأقانيم الثلاثة في المسيح ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدوا ، أو ما اتحدوا أو امتزجا ، أو حل فيه على ثلاث مقالات ، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى . ونحن نكفر الثلاثة . ولهذا قال تعالى : ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ أي يكن خيراً لكم ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ﴾ أي تعالى وتقدس عن ذلك ﴿ له ما في السموات وما

في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴿ أي الجميع ملكه وخلقه ، وجميع ما فيهما عبيده ، وهم تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد كما قال في الآية الأخرى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ﴾ الآية ..

﴿ لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿ (١٧٣) ﴿

﴿ لن يستنكف ﴾ أي لن يستكبر ويمتنع ﴿ المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ إنما ذكر الملائكة هنا لأنهم اتخذوا أيضاً آلهة مع الله كما اتخذ المسيح ، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه . كما قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ الآيات . ولهذا قال : ﴿ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ، ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف . ولهذا قال : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه ﴿ وأما الذين استنكفوا واستكبروا ﴾ أي امتنعوا عن طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك . ﴿ فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿ (١٧٥) ﴿

يخاطب الله تعالى جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعدر ، والحجة المزيله للشبه ، ولهذا قال ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ أي ضياء واضحاً على الحق وهو القرآن . ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم ، وقال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن ﴿ فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثواباً ، ومضاعفةً ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريقاً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة ، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ٨٩٥ [القرآن صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين] .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُو هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيْهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ ١٧٦ ﴾

روى البخاري عن البراء قال : آخر سورة نزلت ﴿ براءة ﴾ ، وآخر آية نزلت : ﴿ يستفتونك . ﴾

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال ٨٩٦ : [دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل قال : فتوضأ ثم صب عليّ أو قال : صبوا عليه ، فعقلت . فقلت : إنه لا يرثي إلا كلاله فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة ورواه الجماعة من طريق ابن عينة . وفي بعض الألفاظ : فترلت آية الميراث : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله ﴾ الآية . وكان معنى الكلام - والله أعلم - يستفتونك عن الكلاله ﴿ قل الله يفتيكم ﴾ فيها ، فدل المذكور على المتروك .

وقد تقدم الكلام على الكلالة واشتقاقها ، وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، ولهذا فسرّها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ومنهم من يقول : الكلالة من لا ولد له ، كما دلت عليه الآية : « إن امرؤ هلك ليس له ولد » وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه : الجذ والكلالة وباب من أبواب الربا. روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال ٨٩٧ : [ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألت عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري ، وقال : يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء] هكذا رواه مختصراً وأخرج مسلم مطولاً أكثر من هذا وكان المراد بآية الصيف ، أنها نزلت في فصل الصيف والله أعلم ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهّمها ، فإن فيها كفاية نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها .

وذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته : ألا أن الآية التي نزلت في أول سورة النساء ^(١) في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد ، والآية الثانية ^(٢) أنزلها في الزوج والزوجة والأخوة من الأم ، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الأخوة والأخوات من الأب والأم ^(٣) . والآية التي ختم بها سورة الأنفال ^(٤) أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، مما جرت الرحمة من العصبية ، رواه ابن جرير .

﴿ ذكر الكلام على معناها ﴾

وبالله المستعان وعليه التكلان . قوله تعالى : ﴿ إن امرؤ هلك ﴾ أي مات ﴿ ليس له ولد ﴾ ، تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد ، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد وهو رواية عن عمر بن الخطاب بأسناد صحيح من رواية ابن جرير . ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق : أنه الذي لا ولد له

(١) راجع النساء الآية ١١ . (٢) راجع النساء الآية / ١٢ . (٣) النساء الآية رقم / ١٧٦ . (٤) الأنفال : الآية رقم / ٧٥ .

ولا والد . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً لأنه يحجبها بالإجماع ، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً ، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية .

روى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت ٨٩٨ [أنه سئل عن زوج ، وأخت لأب وأم ، فأعطى الزوج النصف . والأخت النصف ، فكُلِّم في ذلك فقال : حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك] تفرد به أحمد من هذا الوجه . وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت : ترك بنتاً وأختاً إنه لا شيء للأخت لقوله تعالى : ﴿ إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للأخت .

وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة : للبنت النصف بالفرض ، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بغير هذه الآية وهذه الآية نصت أن يفرض لها في هذه الصورة ، وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه البخاري عن الأسود قال ٨٩٩ : [قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت والنصف للأخت ثم قال سليمان : قضى فينا ولم يذكر على عهد رسول الله ﷺ] وفي صحيح البخاري أيضاً عن هزيل بن شرحبيل ٩٠٠ قال : [سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة ، وابنة ابن ، وأخت . فقال : للابنة النصف ، وللأخت النصف ، وأت ابن مسعود فسيتابغي ... فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ... !!! أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ : النصف للبنت ، ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين ، وما بقي فللأخت . فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم .]

وقوله تعالى : ﴿ وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله ، وليس لها ولد أي ولا والد ، لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً ، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ أو أم ، وصرف الباقي إلى الأخ ، لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ٩٠١ : [الحقوا الفرائض بأهلها ، فما أبقت الفرائض فلاؤي رجل ذكر] وقوله تعالى : ﴿ فإن كانتا اثنتين

فلهما الثلثان مما ترك ﴿ أي فإن كان لمن يموت كلالة أختان ، فرض لهما الثلثان وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنيتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك)
وقوله تعالى : ﴿ وإن كانوا أخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴾

هذا حكم العصابات من البنين ، وبنو البنين والأخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم ، أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين . وقوله تعالى : ﴿ يبين الله لكم ﴾ أي يفرض لكم فرائضه ويحد لكم حدوده ويوضح لكم شرائعه . وقوله تعالى : ﴿ أن تضلوا ﴾ أي لثلاثا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيهما من الخير لعباده ، وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى .

ولقد روي عن عمر بن الخطاب أن الكلالة من لا ولد له ثم رجع إلى قول أبي بكر الصديق . قال ابن جرير : وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول : هو ما عدا الولد والوالد . وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه ، وهو مذهب الأربعة والفقهاء السبعة ، وقول علماء الأمصار قاطبة ، وهو الذي يدل عليه القرآن ، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله تعالى : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم ﴾ والله تعالى أعلم .

تم بعونه تعالى المجلد الأول وسيليه المجلد الثاني وأوله سورة المائدة .

فهرس المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية

- التمهيد : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره .
ترجمة المفسر الإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير .
الكلمات التشجيعية التي تفضل بها أصحاب السماحة والفضيلة العلماء .
تعريف من دار الإفتاء والأشراف على الشؤون الدينية الموقرة في المملكة .
كلمة العلامة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة .
كلمة سماحة الشيخ عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ الرئيس العام لهيئات الأمر بالمعروف بالحجاز .
كلمة العلامة المحقق الدكتور الشيخ تقي الدين الهلالي المدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة .
كلمة علامة الشام سماحة الشيخ بهجة البيطار رحمه الله وغفر له .
كلمة سماحة مولاي أحمد علي العدلوني الحسني ، مفتي مراكش والجبل الأطلس .
كلمة سماحة الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية .
كلمة العلامة محمد فهم أبو عيبة رئيس بعثات الأزهر الشريف ببلبنان .
كلمة فضيلة الشيخ محمد أمين المصري المشرف على قسم الدراسات العليا في كلية الشريعة بمكة المكرمة رحمه الله وغفر له .
كلمة علامة اليمن فضيلة الشيخ محمد سالم البيحاني رحمه الله وغفر له .

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

- ١ اختصار مقدمة المفسر الإمام ابن كثير ... الحمد لله الذي فتح كتابه بالحمد .
- ٥ (١) سورة الفاتحة : مكية وآياتها سبع
- ٦ اختصار تفسير سورة الفاتحة : أسماؤها
- ٧ ما أنزل الله في التوراة والإنجيل والزمبور والقرآن مثل الفاتحة
- ٨ الفاتحة ، وخواتيم سورة البقرة ، نوران لم يؤتتهما نبي قبل نبينا ﷺ
- ٩ تجب قراءة الفاتحة في الصلاة ، بالسرية لا بالهيرية خلف الإمام
- ١٠ الاستعاذة تدرأ الشيطان . وإن الرسول واظب عليها
- ١١ فضل بسم الله الرحمن الرحيم ، وبركتها ، ومحال تلاوتها
- ١٢ (الله) : علم على الرب ، وهو الاسم الأعظم
- ١٣ الرحمن والرحيم إسمان مشتقان ، والرحمن أشد مبالغة في الرحمة
- ١٤ الرحمن : اسم الله تعالى ، وليس لمخلوق أن يتسمى به
- ١٥ ما من دعاء في القرآن والسنة ، إلا وسبقه توسل مشروع
- ١٦ المغضوب عليهم : هم اليهود ، والضالون : هم النصارى
- ١٧ الفاتحة توسل إلى الله بأسمائه وصفاته وبأفراده بالعبادة ثم سؤاله الهداية
- ١٨ هداية القلوب ، أو إضلالها من خصائص الله وحده
- ١٩ المؤمن على الدعاء بمرتلة الداعي تماماً
- ٢٠ (٢) اختصار سورة البقرة : مدنية وآياتها ٢٨٦/ نزلت بعد سورة : المطففين .
- ٢١ سورتا البقرة وآل عمران : تحاجان عن أهلها يوم القيامة
- ٢٢ كتاب الله تعالى ، كله هدى ونور للمتقين
- ٢٣ أولى صفات المؤمنين : الإيمان بالغيب ثم الصلاة والزكاة -
- ٢٤ وجوب الإيمان بالكتب السماوية جميعاً ، ويجمع من نزلت عليهم
- ٢٥ جزاء الكفار والمنافقين ، وصفاتهم
- ٢٦ المنافقون : يظهرون الإيمان ، ويبطنون الكفر
- ٢٧ من أدخل مرض النفاق إلى قلبه ، زاده الله مرضاً
- ٢٨ إذا نهيت المنافق عن فساده ، أنكره ... !! وادعى الإصلاح ... !!!
- ٢٩ يدعون الإيمان عند المؤمنين ، ويعتدرون لرؤسائهم بأنهم يستهزؤون
- ٣٠ اشتروا الضلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ... !!!

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

- ٣١ المنافقون يعرفون الحق ، ويرتكسون في الكفر متحيرين
- ٣٢ يا أيها الناس : إن الذي خلقكم ورزقكم ، هو أحق أن تعبدوه
- ٣٣ رب العالمين يتحدث إلى الثقلين أن يأتوا بسورة من القرآن
- ٣٤ فإن لم تستطيعوا فاحذروا النار التي أعدت للكافرين
- ٣٥ البشارة للمؤمنين العاملين ، بالجنة وما فيها من النعيم المقيم
- ٣٦ الذي خلق البموضة ، لا يستنكف عن أن يضرب المثل بها
- ٣٧ كيف تكفرون بالذي خلقكم ، ويميتكم ، ويحييكم ... ؟!!!
- ٣٨ خلق الله الأرض ، ثم خلق السموات السبع
- ٣٩ المخلوق لا يصلح خليفة للخالق ... (اقرأ التعليق)
- ٤٠ الملائكة علموا من نوعية طينة آدم ... أن ذريته ستفسد وتسفك الدم
- ٤١ علم الله آدم أسماء كل شيء ، مما عجز الملائكة عن معرفتها
- ٤٢ أمر الله الملائكة بالسجود ، فسجدوا جميعاً ، إلا إبليس لعنه الله
- ٤٣ خلق الله حواء من آدم ، ونهاهما عن أكل شجرة معينة من الجنة
- ٤٤ أكلتا من الشجرة بغواية الشيطان ، فأهبط الله الجميع بعضهم لبعض عدوً
- ٤٥ الكلمات التي تلقاها آدم : « قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا (اقرأ التعليق) »
- ٤٦ الكلمات ، هن توسل إلى الله بالاعتراف بالذنوب وطلب المغفرة منه تعالى
- ٤٧ أخبر الله بأنه سيبعث الأنبياء ، ويزول الكتب ، فمن اتبع الحق نجا
- ٤٨ يذكر الله بني إسرائيل بنعمه ، وألا يلبسوا الحق بالباطل
- ٤٩ على الداعي الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر إن ائتمر به أو لم ياتمر
- ٥٠ الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر
- ٥١ لا شفاعاة ولا فدية للكافرين ، ولا نجاة لهم من النار
- ٥٢ إمتنان الله على اليهود بإنجائهم من إزدلال فرعون لهم
- ٥٣ أهل (الحلول والوحدة والاتحاد) يشفقون على فرعون ... لماذا ... ؟!!!
- ٥٤ إمتنان الله على بني إسرائيل بعفوه عنهم بعدما عبدوا العجل !!
- ٥٥ توبتهم : أن قتل بعضهم بعضاً فكشف عن سبعين ألف قتيل !!
- ٥٦ رؤية المعجزات والحوارق لا تسقط التكليف
- ٥٧ ذكر ما امتن الله عليهم في التيه من المن والسلوى

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

- ٥٨ . فضيلة أصحاب محمد على أصحاب موسى ، والأنبياء جميعاً بصبرهم وطاعتهم .
- ٥٩ . بدّل اليهود شكر الله على النعم ، بالاستهزاء !!! فاستحقوا الرجز والعذاب . .
- ٦٠ . استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ... ؟!!!!
- ٦١ . ضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، وألزموا ... شرعاً وقدرأ
- ٦٢ . أمة محمد : هم من آمن به قبل بعثته وبعدها
- ٦٣ . لم يؤمن بنو إسرائيل حتى كاد الجبل أن يسقط عليهم
- ٦٤ . العاصون والذين ما نهوهم ... مسخوا قرده ، أما الناهون فقد نجوا
- ٦٥ . شدّد بنو إسرائيل على أنفسهم فشدد الله عليهم
- ٦٦ . أدّاهم عنادهم إلى شراء بقرة بملء جلدها ذهباً !!!
- ٦٧ . إحياء القليل بضربه ببعض أجزاء البقرة ... تنبيه وحجة لله على المعاد
- ٦٨ . ان الحجارة ألين من قلوب بني اسرائيل ، لتكذيبهم بالحق بعد رؤيته
- ٦٩ . لعن الله اليهود ، يحرفون الكلم عن مواضعه وهم يعلمون
- ٧٠ . كانوا يستفتحون بمحمد ﷺ ، ولما أرسله الله ، جمحدوه !
- ٧١ . زعم اليهود ان النار لا تمسهم إلا مدة عبادتهم العجل !!
- ٧٢ . إعراض بني إسرائيل عن الميثاق الذي أخذه الله عليهم
- ٧٣ . ينقضون ميثاقهم مع الله ابتغاء عرض الدنيا
- ٧٤ . عامل بنو إسرائيل الأنبياء أسوأ معاملة ، تكديباً وتقتيلاً
- ٧٥ . قلوبهم غلف عن الحق ، مغضوب عليها ، ومطبوعة على الكفر
- ٧٦ . حرفوا التوراة وكفروا بمحمد ، فباعوا بغضب على غضب
- ٧٧ . إن كنتم تؤمنون بأنبيائكم ، وتستغنون بهديهم ، فلم قتلتموهم ؟
- ٧٨ . دعاهم الرسول للمباهلة ، والدعاء على أكذب الطائفتين ... فنكلوا !
- ٧٩ . من آمن بنبي واحد يلزمه الإيمان بجميع الأنبياء
- ٨٠ . من عادى ملائكة الله وأنبياءه فقد عادى الله تعالى
- ٨١ . كتموا ما في التوراة من البشارة ببعثة محمد ﷺ
- ٨٢ . هجروا التوراة وأقبلوا على تعليم السحر ، واتهموا سليمان بأنه ساحر
- ٨٣ . ما كان سليمان ساحراً ، ولا أنزل الله السحر على الملوك
- ٨٤ . حاشا أن يأمر الله الملوك ، بتعليم السحر للناس

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

- ٨٥ قصة كوكب الزهرة موضوعة ومكذوبة (أنظر التعليق)
- ٨٦ تأثير السحر منحصر فقط في التفرقة بين الزوجين
- ٨٧ الساحر يُقتل ولا يستتاب ، النهي عن التورية السيئة القصد
- ٨٨ شدة عداوة المشركين وأهل الكتاب للمؤمنين ، وشرعية نسخ الأحكام
- ٨٩ اليهود أنكروا النسخ مع وقوعه في التوراة وما بعدها
- ٩٠ النهي عن التشبه باليهود في كثرة السؤال تعتاً
- ٩١ الأمر بالعفو والصفح ، ثم نسخ بآية السيف
- ٩٢ الشرط في العمل المتقبل ، أن يكون خالصاً لله ، وموافقاً للشرعية
- ٩٣ قریش هي المقصودة في الآية : (ومن أظلم ممن منع مساجد الله)
- ٩٤ ليس المراد من عمارة المساجد زخرفتها ، بل عمارتها بالصلوات
- ٩٥ نسخ استقبال بيت المقدس ، والأمر باستقبال الكعبة
- ٩٦ الولد لا يكون إلاً من شيتين متناسبين والله لا نظير له فكيف يلد أو يولد
- ٩٧ تشابهت قلوب المشركين وأهل الكتاب بسؤالهم عما لا حاجة لهم به
- ٩٨ تبرأ رسول الله ﷺ من أبويه لما أخبر بأنهما من أهل النار
- ٩٩ لا يسمع يهودي ولا نصراني ، بمحمد ﷺ ثم لا يؤمن به إلاً دخل النار
- ١٠٠ كان إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً لا يهودياً ولا نصرانياً
- ١٠١ الظالمون الكافرون لا ينالون عهد الله ، ولا يكونون أئمة
- ١٠٢ مقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم ﷺ لبناء الكعبة
- ١٠٣ أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من الشرك والأصنام
- ١٠٤ كما حرّم إبراهيم مكة ودعا لأهلها ، حرّم محمد المدينة ودعا لأهلها
- ١٠٥ قصة هاجر وابنها إسماعيل
- ١٠٦ استئذان قبيلة « جرهم » بالتزول بجوار « زمزم »
- ١٠٧ أتى جبريل بالحجر الأسود من السماء وسلّمه إبراهيم ، فوضعه مكانه
- ١٠٨ حرك رجل بعثلته حجراً من أساس الكعبة ، فانفضت مكة !!
- ١٠٩ رفع رؤساء قریش (الحجر الأسود) في ثوب ، ثم حملة الرسول ووضعه مكانه
- ١١٠ علم جبرائيل إبراهيم مناسك الحج جميعاً
- ١١١ محمد أفضل الخلق ، لا أول الخلق ، إنما القلم هو الأول

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

- لا يترك دين إبراهيم إلّا من ظلم نفسه ١١٢
- لا ينفعكم انتسابكم للأنبياء إذا لم تهتدوا بهديهم ١١٣
- لا تفريق بين الرسل ، ويجب الإيمان بالجميع ١١٤
- اليهود كتبوا شهادة التوراة بأن الدين هو الإسلام وأن محمداً رسول الله ١١٥
- أول صلاة صليت إلى الكعبة كانت صلاة العصر ١١٦
- حديث الآحاد تثبت به العقيدة ، وخطأ من ينكر ذلك (إقرأ التعليق) ١١٧
- محمد وأمته يشهدون يوم القيامة للأنبياء بتبليغ رسالاتهم ١١٨
- أمة محمد كانت على كمال الطاعة والانقياد لأمر الله وأمر رسوله ١١٩
- الأمر باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض ١٢٠
- علماء أهل الكتاب يتكاثمون علمهم بصحة رسالة محمد ﷺ ١٢١
- البيت قبله مشاهده ، والمسجد قبله أهل الحرم ، والحرم قبله أهل الأرض . . . ١٢٢
- أيها المؤمنون ، قابلوا نعمة الله بالإسلام ، بالشكر له تعالى ، وشكره طاعته . . ١٢٣
- ما مثل الصلاة ... تعين على الصبر عن المحرمات وفي المصائب ١٢٤
- المسترجعون عند المصائب هم المهتدون ١٢٥
- السعي بين الصفا والمروة ، ركن في الحج ، مع استحضار الذلة والخشوع ١٢٦
- كتم أهل الكتاب صفة محمد ، فجوزوا باللعن من كل لاعن ١٢٧
- من خلق وأنعم وحده ، لزم أن يكون المعبود وحده لا شريك له ١٢٨
- وجود المخلوقات يدل على الخالق ١٢٩
- ليس أضل ممن يدعو من لا يستجيب له ١٣٠
- خلق الله عباده مؤمنين ، إنما ردّتهم الشياطين عن دينهم ١٣١
- الأكل الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة ، والحرام بالعكس ١٣٢
- من اضطر ، فلم يأكل ، ولم يشرب ، ثم مات ... دخل النار ١٣٣
- من كتم الحق لعرض دنيوي له عذاب أليم ١٣٤
- المتقون هم المؤمنون الموفون بعهد الله في جميع أوامره ١٣٥
- البر من آمن ، وتصدّق من أحبّ ماله إليه ١٣٦
- يأمر الله بالعدل في القصاص : النفس بالنفس — لا يقتل مسلم كافر ١٣٧
- يقتل الجماعة بالواحد ، من قتل بعد أخذ الدية يقتل حتماً ١٣٨

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

- ١٣٩ الوصية للوالدين والأقربين منسوخة بآية الميراث .
- ١٤٠ الوصية الشرعية لا تبدل ، ومن بدلها يأثم . ورفع الجنف ليس تبديلاً .
- ١٤١ كان الصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، فنسخ بصوم شهر رمضان .
- ١٤٢ في رمضان ، نزلت صحف وكتب الأنبياء ، والقرآن نزل في ليلة القدر / ٢٧ / منه .
- ١٤٣ المقيم بصوم ، والمريض والمسافر يفطران .
- ١٤٤ دين الله يسر ، ولا يجب التتابع في قضاء صيام المعذور .
- ١٤٥ وجوب خفض الصوت في الذكر ، دعاء غير الله شرك ، (اقرأ التعليق) .
- ١٤٦ للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة .
- ١٤٧ أحل الطعام والشراب والرفث في ليل رمضان حتى الفجر .
- ١٤٨ استحباب السحور ، المصباح جنباً بصوم ، تعجيل الفطر ، لا وصال في الصوم .
- ١٤٩ الاعتكاف في المسجد ... وأحكامه .
- ١٥٠ حكم الحاكم ملزم في الظاهر ، للحاكم أجره ، وعلى المحتال وزره .
- ١٥١ من قاتلكم في الحرم فقاتلوه ، وإذا انتهوا فانتهاوا .
- ١٥٢ أمر الله بالعدل حتى بالمشركين ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثله .
- ١٥٣ التهلكة: بترك الجهاد ، والإقامة في الأهل والولد ، وليست التهلكة بالهجوم على الأعداء .
- ١٥٤ الشروع بالعمرة والحج ، ملزم .
- ١٥٥ دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة .
- ١٥٦ هدي الشاة لواحد ، والإبل والبقر لسبعة ، محل الحلق وفديته .
- ١٥٧ على المتمتع بأشهر الحج الهدي . فدية حلق الرأس لمن به أذى .
- ١٥٨ من لم يجد الهدي فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة في الوطن .
- ١٥٩ التمتع للأفاقيين لا لأهل الحرم .
- ١٦٠ المتأخر أفضل ، والمتعجل لا إثم عليه ، تحريم الرفث والفسوق والجدال في الحج .
- ١٦١ التزوّد للحج بخير الزاد ... وحلّ المتاجرة فيه .
- ١٦٢ الإفاضة بعد الغروب ، والإكثار من ذكر الله في المزدلفة وصلاة الفجر فيها .
- ١٦٣ الدفع من مزدلفة بعد الإسفار الشديد ، والشكر على نعمة الهداية .

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

- الإكثار جداً من الدعاء والذكر وطلب المغفرة والرحمة ١٦٤
- الإكثار من ترديد (ربنا آتانا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة) ١٦٥
- الإكثار من التكبير ، إلى عصر آخر أيام التشريق ، رمي الجمار ١٦٦
- المنافقون : ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ١٦٧
- ريح صهيب ... يتخلى عن ماله ، ويهاجر ابتغاء مرضات الله ١٦٨
- المؤمن الكامل ، من يأخذ بكافة الأوامر ، ويترك كافة الزواجر ١٦٩
- هل ينتظر الكفار يوم القيامة ... حتى يؤمنوا ... ؟!!! ١٧٠
- إذا سخر الكفار من المؤمنين ، فالعاقبة للمؤمنين يوم القيامة ١٧١
- ضل أهل الكتاب عن الحق ، واهتدى إليه المسلمون ، ذلك فضل الله ١٧٢
- لا بد من الابتلاء والامتحان ، فلنصبر ... ألا إن نصر الله قريب ١٧٣
- الجهاد فرض ، فمن لم يجاهد ، أو يحدث نفسه بالجهاد ، مات ميتة جاهلية ١٧٤
- القتال في الشهر الحرام كبير ... إنما الشرك والصد عن المسجد الحرام أكبر ١٧٥
- غفر الله للسرية التي قاتلت المشركين في رجب الشهر الحرام ١٧٦
- إثم الخمر والميسر ، أكبر من نفعهما ١٧٧
- فصل مال اليتيم ، عن ماله وليه . ثم إباحة خلطه بماله ١٧٨
- لا تجوز المصاهرة بين المؤمنين والمشركين ألبتة ١٧٩
- يحرم إتيان الحائض ، وكفارة ذلك دينار ١٨٠
- لا يحل وطء الحائض حتى تطهر ، ثم تغتسل ١٨١
- لا يكون الحرث إلا موضع البذر - تبرئة الأثمة (رض) ١٨٢
- لا تجعلوا أيمانكم مائعة للبر والصلة ... الحلف بغير الله شرك ١٨٣
- لا يمين في معصية ، ولا غضب ولا قطيعة رحم ، ولا فيما لا يملك ١٨٤
- لا يجوز الإيلاء أكثر من أربعة أشهر ، فإذا الرجعة وإما الطلاق ١٨٥
- لا تصبر المرأة أكثر من أربعة أشهر على فراق بعليها ١٨٦
- إختلاف السلف والخلف في المراد في معنى القروء ١٨٧
- كان بعليها أحق بردها ولو طلقها مئة مرة ما دامت في العدة (وذلك في الجاهلية) ١٨٨
- قصر الله الطلاقات إلى ثلاث ، وأباح الرجعة مرتين ، ونهى عن الإعضال ١٨٩
- لا خلع إلا في حالة نشوز المرأة ، ولا تعطيه أكثر مما أعطاه ١٩٠

الصفحة

- الخلع فسخ لا طلاق ، وكل شيء أجازته المال ليس بطلاق ١٩١
- عدة المختلعة حيضة واحدة ، ولا رجعة في الخلع ١٩٢
- ليس للمختلع أن يطلقها في العدة لأنها بانت منه ١٩٣
- الزوج الثاني ، يجب أن يكون زوجاً حقيقياً لا محلاً ١٩٤
- المحلل والمحلل له ملعونان ، وعملية (التجحيش) زنى صريح ١٩٥
- الطلاق والعناق والنكاح ، لا هزل فيهن ، وهزلن جد ١٩٦
- ليس لأهل الزوجة منعها إذا أرادت الرجوع إلى زوجها ١٩٧
- الرضاع بعد الستين لا يحرم ، ورضاع مولى أبي حذيفة من الخصائص ١٩٨
- لا تُحرم الأم ولدًا الرضاع ، لإضراراً بأبيه ، ولا ينتزعه منها ليضرها ١٩٩
- عدة الوفاة : تشمل المدخول بها وغير المدخول بها ، والحامل حتى تضع ٢٠٠
- الأمة والحرّة متساويتان في العدة ، لأن الخلقة البشرية واحدة ٢٠١
- الحداد على الزوج أربعة أشهر وعشر ، وسواه ثلاثة أيام فحسب ٢٠٢
- لا عقد في عدة الوفاة ، ويلمّح بالخطبة ، ولا تخطب المطلقة في عدتها ٢٠٣
- المتعة للطلقة التي لم يُدخَلَ بها ، ولم يفرض لها مهر ٢٠٤
- الطلاق قبل المسّ يوجب نصف المهر ٢٠٥
- صلاة العصر هي الصلاة الوسطى — كيفية رد السلام في الصلاة ٢٠٦
- صلاة الحضر أربع ، وفي السفر ثنتان وفي الخوف واحدة ٢٠٧
- للزوجة المتوفى عنها زوجها السكنى والنفقة سنة ، من مال زوجها إن شاءت ٢٠٨
- العدة واجبة في بيت الزوج أربعة أشهر وعشرا ٢٠٩
- إذا دخل الوباء بلدًا ، فلا يخرج منه ، ولا يدخله أحد ٢١٠
- انفقوا في سبيل الله ، فالله يضاعف الحسنة إلى ألفي ألف حسنة ٢١١
- طلب بنو إسرائيل ملكاً عليهم ، فلما اختاره الله لهم ، تكبروا عليه ٢١٢
- لما رأوا الملائكة تهبط بالثابوت ، إلى طالوت ، اطاعوه وآمنوا بشمعون ٢١٣
- عدد جنود طالوت كعدد المؤمنين في بدر ٢١٤
- نصر الله المؤمنين ، وتولى داود النبوة والملك ٢١٥
- لا يفضل نبي على نبي بمجرد العصبيّة ، بل بدلالة الكتاب والسنة ٢١٦

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

٢١٧	آية الكرسي : أفضل وأعظم آية في كتاب الله تعالى
٢١٨	آية الكرسي : مشتملة على عشر جمل مستقلة
٢١٩	طريقة السلف أصح طريقة في فهم الصفات بلا تكييف ولا تشبيه
٢٢٠	آية : (لا إكراه في الدين ..) منسوخة بآية السيف
٢٢١	الطاغوت : هو كل ما عبد من دون الله (برضاه)
٢٢٢	الإيمان بلا آله إلا محمد رسول الله ، هو العروة الوثقى
٢٢٣	الذي ادعى الربوبية ، لم يستطع ان ينقذ نفسه من بعوضة أهلكته !!!
٢٢٤	معجزة عملية أراها الله عزيزاً عليه السلام على أحقية البعث والمعاد
٢٢٥	الاطمئنان القلبي ، أعلى درجات الإيمان
٢٢٦	إطمئنان قلب إبراهيم برؤيته كيفية إحياء الله الموتى
٢٢٧	يتضاعف أجر المنفق في سبيل الله إلى سبعمائة ، وزيادة
٢٢٨	المنُّ بالصدقات قولاً كان أو فعلاً ، يبطلها
٢٢٩	مثل نهاية الكافر ، كالرجل الهرم الذي فقد أهله وماله
٢٣٠	الإفناق يجب أن يكون من أطيب مالك وطعامك
٢٣١	الشیطان يخوف من الفقر ، والله يعدُّ المنفق خلفاً لنفقته
٢٣٢	إبداء الصدقات حسن ، إنمّا إخفاؤها أحسن
٢٣٣	تجوز الصدقة للمحاويج من كل دين
٢٣٤	تصدق لوجه الله ، ولا تسل في أي يد وقعت صدقتك
٢٣٥	يُبعث أكل الربا من قبره كأنته المصروع والمجنون
٢٣٦	من تاب عن الربا يعف الله عنه ، ومن عاد فالنار تنتظره
٢٣٧	ملعون أكل الربا ومؤكله وكاتبه ، وشاهده
٢٣٨	مال الربا محقوق في الدنيا ، ومعذَّب عليه في الآخرة
٢٣٩	أعلن الله الحرب على المرابين ، وللتائب رأس المال
٢٤٠	من تجاوز عن معسر ، يظل الله يوم لا ظل إلا ظله
٢٤١	السلف أو السلم : يجب أن يكون معلوم الكيل والوزن والأجل
٢٤٢	ليكتب بينكم كاتب بالعدل ، وأشهدوا شاهدين
٢٤٣	الإشهاد على البيع — شهادة خزيمة رضي الله عنه بشهادة رجلين

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

- ٢٤٤ لا يضار كاتب ولا شهيد ، الرهون ... (اقرأ التعليق)
- ٢٤٥ عند الائتمان لا بأس أن لا تكتبوا ... - لا تكتبوا الشهادة
- ٢٤٦ كانت المحاسبة على حديث النفس فقال ﷺ : قولوا سمعنا وأطعنا
- ٢٤٧ قالوا : سمعنا وأطعنا ... فنسخت وصارت المحاسبة على العمل
- ٢٤٨ للنفس ما كسبت من خير ... وعليها ما اكتسبت من شر
- ٢٤٩ ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به ... واعف واغفر وارحم
- ٢٥٠ (٣) سورة آل عمران . مدنية وآياتها مائتان نزلت بعد الأنفال
- ٢٥١ القرآن : فارق بين الهدى والضلال - الذي يخلق هو المستحق للعبادة
- ٢٥٢ محكم القرآن : ناسخه ومنسوخه ، حلاله وحرامه ، وحدوده
- ٢٥٣ ما يعلم حقيقة المتشابه إلا الله - الخوارج -
- ٢٥٤ ليس في القرآن اختلاف لأنه من عند الله
- ٢٥٥ قلوب العباد بيد الله - أموال الكفار وقود أهلها في جهنم
- ٢٥٦ لم يعتبر اليهود بوقعة بدر - تقليل المشركين والمسلمين في أعين كل
- ٢٥٧ حب النساء للإعفاف والأولاد - والخيل أجر ، ووزر ، وستر
- ٢٥٨ التوسل بالأعمال الصالحة مشروع ، أما بذوات المخلوقين فممنوع
- ٢٥٩ نزول الله تعالى آخر الليل إلى السماء الدنيا حقيقة بلا كيف
- ٢٦٠ كل من اتخذ ديناً غير الإسلام فلن يقبل منه
- ٢٦١ مجرد السماع بالرسول الأعظم ، يوجب اتباع دينه ، ومن كفر بالنار مواعده
- ٢٦٢ إعراض اليهود والنصارى عما في كتابيهما من الإيمان بمحمد ﷺ
- ٢٦٣ تحويل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي ﷺ
- ٢٦٤ التقية باللسان لا بالعمل ، وهي باقية إلى يوم القيامة
- ٢٦٥ أوقف الله محبته عن عباده ، حتى يتابعوا نبيّه محمداً على شريعته
- ٢٦٦ مريم البتول تنذرنا أمها لخدمة بيت المقدس / وجوب العقيدة / الاسم
- ٢٦٧ كرامة الأولياء حق ... على أن لا تخالف نصوص الشريعة الإسلامية
- ٢٦٨ حمل زوجة زكريا ، وولادتها بيحيى ، وهي عجوز عاقر !!!
- ٢٦٩ ليس يحيى / حصوراً / أي عتيلاً / بل معناه : معصوماً من الذنوب
- ٢٧٠ مريم بنت عمران من أكل نساء العالمين ، طهراً وكرامة وتقوى

الصفحة

- ٢٧١ الملائكة تبشر مريم بعيسى الذي سيخلق بكلمة / كُنْ / من الله
- ٢٧٢ قال الله : (يخلق ما يشاء) ولم يقل يفعل ، لئلاً تبقى لمبطل شبهة
- ٢٧٣ كان عيسى يخلق الطير ، ويحيي الميت ، ويشفي الأعمى والأبرص بإذن من الله
- ٢٧٤ مسؤولية اليهود عن وشايتهم لصلب عيسى قائمة ... ولو أن المصلوب شبيهه
- ٢٧٥ أنام الله المسيح ورفعته إليه مكرماً ، وأنقذه من أيدي اليهود القذرة
- ٢٧٦ ذلك هو عيسى قول الحق ، وحاشا أن يتخذ الله ولدأ سبحانه
- ٢٧٧ إذا كنتم تؤلهون المسيح ، لأنه بلا أب ، فآدم بلا أم ولا أب ؟! فلم لا تؤلهونه ؟!
- ٢٧٨ إمتناع وفد نجران عن المباهلة ، لئلا كدهم من نبوة محمد ﷺ
- ٢٧٩ نصارى نجران أول من أَدَّى الجزية إلى رسول الله ﷺ
- ٢٨٠ كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل يدعو به إلى الإسلام
- ٢٨١ دعوى كل من اليهود والنصارى ، أن ابراهيم كان على دينهم
- ٢٨٢ اليهود يكتُمون ما في توراتهم من ذكر محمد ﷺ والإيمان به
- ٢٨٣ الله يكذب اليهود في دعواهم : بأنه أحل لهم أموال العرب
- ٢٨٤ لا نصيب في الآخرة ، لمن يشتري بعهد الله ثمناً قليلاً
- ٢٨٥ يكذب اليهود على الله ، وهم يعلمون أنهم يكذبون
- ٢٨٦ الرسل : لم يأمرُوا بعبادة أحد إلاَّ الله تعالى وحده لا شريك له
- ٢٨٧ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا
- ٢٨٨ لا يقبل الله من أحد ديناً ... إلا الإسلام
- ٢٨٩ الشرك والكفر لا يغفران ، إلا إذا تيب منهما قبل الموت
- ٢٩٠ من مات كافراً ، لا ينفعه أي خير فعله في الدنيا
- ٢٩١ اليهود يسألون الرسول ... وقد عاهدوه إن أجابهم بالحق ... أن يسلموا
- ٢٩٢ اليهود ينكرون النسخ ، والنسخ موجود في توراتهم ... ؟!!!
- ٢٩٣ الكعبة أول بيت وضع لعبادة الله وحده
- ٢٩٤ من دخل الحرم ... كان آمناً ما دام فيه
- ٢٩٥ الاستطاعة : هي امتلاك الزاد والراحلة ، وعلى المسلم أن يتعجَّل للحج
- ٢٩٦ يعنّف الله أهل الكتاب ، لصدّهم عن سبيل الله ، وينهى عن طاعتهم
- ٢٩٧ حق التقوى : طاعته سبحانه ، وذكره وشكره

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

- ٢٩٨ كان العرب أعداء ، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام
- ٢٩٩ الخير كل الخير : إتباع القرآن ، والسنة الصحيحة ، والدعوة إلى الحق
- ٣٠٠ يوصينا الله بعدم الفرقة والاختلاف ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٣٠١ هذه الأمة في خير ، ما دامت تأمر بالمعروف ، وتنهي عن المنكر
- ٣٠٢ أمة محمد ﷺ ثلثا أهل الجنة ، وهم أكثر أتباع الأنبياء
- ٣٠٣ ترك العرب الإسلام ، فصاروا سخرية الأمم ... فهل يعودون إليه ؟
- ٣٠٤ من اليهود من آمن برسول الله ، واستقاموا ، فاستحقوا من الله الثناء
- ٣٠٥ مهما أنفق الكافر من الخيرات ، لا يثاب عليها في الآخرة بسبب كفره
- ٣٠٦ على المسلمين ألا يتخذوا بطانة من المنافقين ولا الكافرين
- ٣٠٧ الله يحفظ المؤمنين من كيد المنافقين
- ٣٠٨ القلة المؤمنة الصابرة ، تغلب الكثرة الكافرة الفاجرة
- ٣٠٩ الصبر والتقوى والطاعة ، سبب لنجدة الملائكة عند لقاء العدو
- ٣١٠ كان الرسول ﷺ يلعن بعض الكفار فنهاه الله عن ذلك
- ٣١١ إذا ذكرت الله عند غضبك ، ذكرك الله عند غضبه
- ٣١٢ من عمل ذنباً فذكر الله فاستغفر ، غفر الله ذنبه
- ٣١٣ يتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة ، مع عدم الإصرار
- ٣١٤ ما أصر من استغفر - مواساة الله للمؤمنين يوم أحد
- ٣١٥ النهي عن تمني لقاء العدو ، وإذا وقع اللقاء ... فالثبات والصبر
- ٣١٦ لا ينهزم الجيش إذا قتل القائد ، بل يقاتل حتى النصر
- ٣١٧ الإقدام والإحجام ، لا ينقصان من العمر ولا يزيدان فيه
- ٣١٨ من أطاع الله واستعان به يلقي له الرعب في قلوب أعدائه
- ٣١٩ النصر مشروط بالطاعة ، فلما خالفوا الرسول ، انقلب النصر إلى هزيمة
- ٣٢٠ ما تصنعون بالحياة بعد محمد ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه
- ٣٢١ الرسول ﷺ يصلي على حمزة / رض / سبعين مرة
- ٣٢٢ الرسول ﷺ يقتل أبي بن خلف ، بحربه في غزوة أحد
- ٣٢٣ اشتد غضب الله على من دمى وجه رسول الله ﷺ
- ٣٢٤ النعاس في الجهاد من الله تعالى ، وفي الصلاة من الشيطان

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

- الحياة والموت ، وزيادة العمر ونقصانه ، بقضاء الله وقدره ٣٢٥
- الموت في سبيل الله ، ثوابه خير مما يجمعون ٣٢٦
- من حسن خلق الرسول ﷺ استشاراته لأصحابه تطبيقاً لقلوبهم ٣٢٧
- لا تغل أرض جارك ، الوالي لا يقبل الهدية ، المجاهد لا يقل من الغنائم ٣٢٨
- الغلول : أخذ شيء من الغنائم ، قبل توزيعها من الإمام بدون علمه ٣٢٩
- ارتداد ابن سلول عن القتال يوم أحد بثلاث الجيش ٣٣٠
- إذا كان القعود عن الجهاد يدفع الموت ، فادفعوه عنكم أيها القاعدون ٣٣١
- شهداء بئر معونة ، بلغ أحدهم رسالة رسول الله ﷺ وقتلوا جميعاً ٣٣٢
- أرواح الشهداء في أجواف طير في الجنة ، ونسمة المؤمن طائر فيها ٣٣٣
- رعب المشركين وهربهم ، لعلمهم بلحوق المؤمنين بهم ، أخذاً بثارات أحد ٣٣٤
- أخلف المشركون مواعدهم ببدر ، وحضر المؤمنون ، ورجعوا بنعمة من الله ٣٣٥
- الله يملئ للكافر ليزداد إثماً ، فلا يحسن ذلك خيراً له ٣٣٦
- الذي يبخل بزكاة أمواله ، يمثل كثره ثعباناً يأخذ بشدقيه ٣٣٧
- قال اليهود : إن الله فقير وهم أغنياء ، فسيلقون وبال قولهم ٣٣٨
- كل نفس ذائقة الموت — أمر المؤمنون بالصبر حتى يؤذنوا بالجهاد ٣٣٩
- تهديد أهل الكتاب لكتمانهم نبوته ﷺ فعلى العلماء إفشاء العلم ٣٤٠
- المخلوقات في السماء والأرض دالة لأهل العقول على الخلاق العظيم ٣٤١
- التفكر يورث الإيمان العميق بالحجة والبرهان ٣٤٢
- ويل لمن قرأ : (ان في خلق السموات ...) ولم يتفكر بها ٣٤٣
- من أودى في الله وهاجر إليه ، جزاؤه الجنة ٣٤٤
- لا يفتر بما عليه الكفار من الترف ، فالعاقبة للمتقين ٣٤٥
- إذا آمن الكتاني فله أجران ، لإيمانه بنبيه ، وبمحمد ﷺ ٣٤٦
- الصلاة رباط في السلم ، والجهاد رباط على ثغور المسلمين وحياتهم ٣٤٧
- من اتقى الله خالياً ... أفلح يوم لقائه ٣٤٨
- (٤) سورة النساء . مدنية وآياتها /١٧٦/ نزلت بعد سورة الممتحنة
- في هذه السورة الكريمة آيات خير مما طلعت عليه الشمس ٣٤٩
- اتقوا الله ، وصلوا الأرحام ، فإن الله يراقبكم ويحصي أعمالكم ٣٥٠

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

٣٥١	إذا أراد الولي نكاح يتيمته ، فليعطها مهر مثلها
٣٥٢	لا زواج فوق أربع ، وجوب العدل بينهن ، ممنوع أكل المهور
٣٥٣	السفهاء : الصغار ، المجانين قليلو الدين ، المفلسون
٣٥٤	ولي اليتيم الغني ، يستعفف . والفقير يأكل بالمعروف
٣٥٥	إبطال عوائد الجاهلية بعدم توريث النساء والأطفال ، والأمر بتوريثهم
٣٥٦	أقصى الوصية الثلثان . أكل مال اليتيم ظلماً وإنما يأكل ناراً
٣٥٧	الفرائض نصف العلم — للذكر مثل حظ الأنثيين
٣٥٨	النساء فوق اثنتين لمن الثلثان وإن واحدة فلها الثلث
٣٥٩	أجمع العلماء سلفاً وخلفاً أن الدين مقدّم على الوصية
٣٦٠	الكلالة : من لا ولد له ولا والد ، أوجه ميراث الأخوة لأم
٣٦١	المسألة الحمّارية — الإضرار في الوصية من الكبائر
٣٦٢	لا وصية لوارث — من غير حكم الله ، فقد ضادّ الله
٣٦٣	كان حد الزنا الحبس في البيوت ... فنسخ جلدأ أو رجماً
٣٦٤	حد عمل قوم لوط ، قتل الفاعل والمفعول به — لا توبة عند الغرغرة
٣٦٥	من مات على كفره وشركه ، لا ينفعه ندم ولا توبة
٣٦٦	لا تعاجزوا النساء ليتركن لكم مهورهن ، وعاشروهن بالمعروف
٣٦٧	لا يجوز استرداد المهر بعد المفارقة ولو كان قنطاراً
٣٦٨	لا تنكحوا ما نكح آبائكم ، لا تجمعوا بين الأختين ، لا تقربوا الزنى
٣٦٩	الرضاعة تحرّم ما يحرم النسب والولادة ، ولا تحرم إلا خمس رضعات
٣٧٠	العقد على البنات يحرم الأمهات . والدخول بالأمهات يحرم البنات
٣٧١	الربية حرام على الرجل إن كانت في حجره أو لم تكن
٣٧٢	تحريم زوجات الأبناء من الأصلاب ، والجمع بين الأختين حرائر أو إماء
٣٧٣	ذوات الأزواج محرمات ، إلاّ السبايا ... فحلّال بعد الاستبراء
٣٧٤	والحلّال من النساء ما وراء ما ذكر من المحرمات
٣٧٥	نكاح الأمة بإذن سيدها ، أو بإذن ولي سيدها
٣٧٦	حدّ المملوك نصف الحر ولا رجم عليه
٣٧٧	تخفيف الله عنا بإباحة نكاح الإماء لضعفنا

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

- ٣٧٨ الأكل بالحيل التي يسمونها (شرعية) أكل لأموال الناس بالباطل
 ٣٧٩ النهي عن ضرب النفس بحديدة ، أو تحسّي السم إنتحاراً أو تدجيلاً
 ٣٨٠ إجتنب الكبائر يكفّر الصغائر — الموبقات السبع وما يلتحق بهن من الكبائر
 ٣٨١ الكبائر كل ما توعدّ عليها الشارع بالنار ، فلنتقها بطاعته .
 ٣٨٢ لا تمنى ما بيد غيرك من النعم ، وأسأل الله من فضله ، يعطك
 ٣٨٣ كان المهاجري يرث الأنصاري ، والحليف حليفه ، فنسخ بالورثة الأقربين .
 ٣٨٤ إذا نشزت الزوجة ، توعظ وتهجر وتضرب ضرباً غير مبرح .
 ٣٨٥ الحكمان ينفذان ما يريانه من المصلحة توفيقاً أو تفريقاً
 ٣٨٦ إذا اختلف الحكمان فلا عبرة بقول الآخر — وحدوا الله ، لا يعذبكم
 ٣٨٧ برّاً والديك ، أكرم جارك ، لا تمنع قوت عيالك ، لا تسبل إزارك
 ٣٨٨ البخل من الشيطان وهو مهلك ، وانه جحود وكفر بنعمة الرب .
 ٣٨٩ إن الله تعالى يضاعف الحسنة إلى ألفي ألف حسنة .
 ٣٩٠ يتعنى الكفار يوم القيامة ، أن تغيبهم الأرض ، من هول الحميم .
 ٣٩١ السكران قد يكفر ولا يدري . فلا يقربن الصلاة سكران .
 ٣٩٢ جواز مرور الجنب والحائض في المسجد عابراً سبيلاً لا ما كئناً فيه .
 ٣٩٣ التيمم لفقدان الماء في الحضر والسفر والخوف مرض أو ازدياده .
 ٣٩٤ المقصود من (لامستم) الجماع .. ولمس الأجنبية لا ينقض الوضوء .
 ٣٩٥ التيمم ضربة واحدة يمسح وجهه وكفيه ، وهذا فعل الرسول ﷺ
 ٣٩٦ التيمم رخصة ورحمة وتوسعة ورأفة — أسباب مشروعيته —
 ٣٩٧ اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه ، يتلفظون شيئاً ويقصدون شيئاً آخر
 ٣٩٨ سبب إسلام كعب الأحبار — الشرك أعظم الظلم .
 ٣٩٩ مغفرته تعالى للموحدين ، وقد حجها عن المشركين .
 ٤٠٠ لا تدلّوا على الله بأعمال آبائكم الصالحة ... وتعملون عكسها ؟!
 ٤٠١ نكرر قولنا : أن الطاغوت : هو كل ما عبد من دون الله (برضاه)
 ٤٠٢ اليهود يحسدون العرب على النعمة العظمى ، بنبوّة محمد العربي ﷺ
 ٤٠٣ الكفار تبدل جلودهم في النار في الساعة مئة مرة ، جزاء كفرهم .
 ٤٠٤ الرسول يرد مفتاح الكعبة ، لعثمان بن طلحة . والآية عامة في كل أمانة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

- ٤٠٥ الطاعة في معروف . أما في المعصية ، فلا سمع ولا طاعة .
- ٤٠٦ التحاكم للكتاب والسنة دليل الإيمان ، وإلى سواهما دليل الكفر
- ٤٠٧ جواز التوسل بالرسول ﷺ في حياته ، وامتناع ذلك بعد وفاته
- ٤٠٨ عمر يضرب عنق من رفض حكم رسول الله ﷺ
- ٤٠٩ قال بعض أصحاب الرسول : لو أمرنا بقتل أنفسنا لأطعناه
- ٤١٠ جزاء من يطع الله ورسوله ، مرافقة الأنبياء والصديقين ... في الجنة
- ٤١١ إن قُتِلَ المجاهد فله الجنة ، وإن عاد فبالأجر والغنيمة
- ٤١٢ لم يشرع الجهاد في مكة لقلّة عدد المؤمنين وقتئذٍ
- ٤١٣ ولما كتب عليهم القتال في المدينة جزعوا منه !!! فثبتهم الله
- ٤١٤ من أطاع رسول الله فقد أطاع الله ، ومن عصاه عصى الله
- ٤١٥ تمارى الصحابة وارتفعت أصواتهم ، فقال الرسول : بهذا أهلكَتِ الأمم
- ٤١٦ إعملوا بما عرفتم من القرآن ، وما جهلتموه فردُّوه لعالمه
- ٤١٧ يأمر اللهُ رسوله بتحريض المؤمنين على الجهاد ، ليكف بأس الكافرين
- ٤١٨ السلام تطوع والرد فريضة — أفشوا السلام بينكم تحابُّوا
- ٤١٩ لا تتخذوا من المنافقين أولياء ، ولا تستنصروهم على الأعداء
- ٤٢٠ إن لم يعتزل المنافقون شياطينهم ويصلحوا ... اقتلوهم حيث وجدتموهم
- ٤٢١ من قتل مؤمناً خطأً ، فتحريـر رقبة مؤمنة ودية إلى أهلها
- ٤٢٢ الدية على العاقلة — خطأ الإمام أو نائبه يضمنه بيت المال
- ٤٢٣ أحكام الديات : المسلم ، الكافر ، قتل العمد ، الكفارة
- ٤٢٤ كل ذنب يغفر مهما عظم ، إلاّ من مات على الكفر والشرك
- ٤٢٥ أولياء الدم ، يخبرون بين أن يقتلوا أو يعفوا أو يأخذوا دية
- ٤٢٦ من أظهر لكم إيمانه ، فلا تتهموه بالمصانعة ، وتسرعوا بقتله
- ٤٢٧ معذرة أولى الضرر عن الجهاد — فضيلة المجاهدين على القاعدين
- ٤٢٨ النهي عن مساكنة المشركين ، والأمر بالهجرة إلى دار الإسلام
- ٤٢٩ استثناء المستضعفين من الهجرة — من نوى الهجرة فمات ، كتب له أجرها
- ٤٣٠ إن لكل امرئ ما نوى — قصر الصلاة في السفر مطلقاً
- ٤٣١ القصر : صدقة تصدقها الله على عباده فلا تردوها — القصر عزيمة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

- ٤٣٢ صلاة الحضر أربع ، والسفر ثنتان ، والخوف واحدة .
- ٤٣٣ صلاة الخوف : للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة .
- ٤٣٤ صلاة الخوف : نسخت تأخير الصلاة ، وعند المسابقة : ركعة إيماء .
- ٤٣٥ الأمر بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف ، جبراً للرخصة فيها .
- ٤٣٦ وقت الصلاة كوقت الحج ، لا تجوز بعد فواتها ، فويل لمؤخرها .
- ٤٣٧ الرسول لا يعلم ما في القلوب ، وهو يحكم بالظاهر .
- ٤٣٨ من تاب تاب الله عليه ، ولو وزنت ذنوبه السموات والأرض .
- ٤٣٩ من يقترف خطيئة ثم يرم بها بريئاً ، له عذاب عظيم .
- ٤٤٠ من يترك سنة الرسول ويتبع غيرها . جزاؤه جهنم وساءت مصيراً .
- ٤٤١ جعلوا لله بنات ، وعبدوها لتقربهم إلى الله زلفى .
- ٤٤٢ يستحسنون ما استبدعه الشيطان لهم ، ويتخذونها قربات إلى الله .
- ٤٤٣ مجرد الدعوى لا يحق حقاً ، ولا يبطل باطلاً ، إلا ببرهان من الله .
- ٤٤٤ كل ما يصاب به المسلم ، كفارة له ، حتى الشوكة يشاكها .
- ٤٤٥ كما أن إبراهيم وصل إلى مرتبة الخلعة ، كذلك نبينا وصلها ، وقد وفى .
- ٤٤٦ لا تعضلوا البيئاتى اللاتي في حجوركم ، تزوجوهن أو زوجوهن .
- ٤٤٧ إذا خافت المرأة نشوز زوجها ، فلها أن تسقط عنه حقها .
- ٤٤٨ العدل المستحيل بين الزوجات ، هو الميل القلبي أما في المعاملة فممكن .
- ٤٤٩ وصية الله بالتوحيد للأولين والآخرين .
- ٤٥٠ اشهد الحق ، ولو على نفسك والديك والأقربين .
- ٤٥١ ان من تردد بين الإيمان والكفر ، ثم مات كافراً لا يغفر له .
- ٤٥٢ لا تجلسوا في مجلس يستهزأ فيه بآيات الله ، وإلا فإنكم مثلهم .
- ٤٥٣ إذا ظل المؤمنون مؤمنين حقاً ، لا يجعل الله للكافرين عليهم سبيلاً .
- ٤٥٤ المتخلفون عن المساجد ، هم الرسول أن يحرق عليهم بيوتهم .
- ٤٥٥ ما يفعل الله بعذاب عباده إن هم آمنوا وأصلحوا ؟!!!!
- ٤٥٦ لا يجوز دعاء أحد على أحد ، إلا من ظلم ، والعفو خير .
- ٤٥٧ من كفر بنبي واحد ، كفر بالأنبياء جميعاً .
- ٤٥٨ سأل اليهود رسول الله إنزال كتاب من السماء كما أنزلت التوراة .

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

الصفحة

- ٤٥٩ تحيل اليهود دائماً على ارتكاب ما حرّم الله
- ٤٦٠ قذفوا العذراء ، كفروا بالمسيح ، سعوا ليقتلوه ، .. ثم (أوجدوا) من يبرئهم
- ٤٦١ أصغر الحواريين ، يفدي المسيح بنفسه ، فيلقى عليه شبهه ، ويصلب مكانه
- ٤٦٢ الحواريون يشاهدون رفع السيد المسيح إلى السماء حياةً متزهاً مكرماً
- ٤٦٣ سينزل عيسى من السماء إلى الأرض ، وسيحكم بالإسلام
- ٤٦٤ المسيح الحق عيسى بن مريم ... يقتل المسيح الدجال الأعور
- ٤٦٥ فتنة الدجال ، نزول عيسى وقتله الدجال ، يأجوج ومأجوج
- ٤٦٦ الدجال يهودي ... وجنوده يهود ، المهدي يسلم الحكم للمسيح بن مريم
- ٤٦٧ ينزل عيسى ﷺ صباحاً بدمشق ، يكسر الصليب ، ويحكم بالإسلام
- ٤٦٨ يقال : أن المسيح ﷺ سيدفن بجانب محمد ﷺ في حجرته
- ٤٦٩ (المقيمين الصلاة) نصبت على المدح أي مدح الذين آمنوا من اليهود
- ٤٧٠ الزبور نزل على داود ، عدد الأنبياء ... منهم أربعة عرب وسيدهم محمد
- ٤٧١ ما من نبي إلاّ حذر أمته من الدجال الأعور وفتنته
- ٤٧٢ الله يشهد وملائكته بما أنزل على محمد ﷺ
- ٤٧٣ النصارى غلوا في عيسى حتى عبدوه ، واعتقدوا في صحابته العصمة
- ٤٧٤ عيسى ﷺ خلق بكلمة (كن) وليس هو (كن) والفرق ظاهر
- ٤٧٥ لا تقولوا ثلاثة ... بل ولا صاحبة له ولا ولد
- ٤٧٦ المسيح نفسه لن يستنكف أن يكون عبداً لله فما بالكم تؤلّهونه
- ٤٧٧ القرآن هو الدليل القاطع للعذر ، والحجة المزيلة للشبه والنور المبين
- ٤٧٨ عود إلى (الكلالة) وهي : من ليس له ولد ولا والد
- ٤٧٩ بحث الكلالة أيضاً
- ٤٨٠ رجوع عمر بن الخطاب إلى قول أبي بكر في تعريف الكلالة

فهرس الأحاديث المجلد الأول

رقمه	مطلع الحديث النبوي الشريف	الصفحة درجة الحديث
١	ألا أني أوتيت القرآن ومثله معه	٢ صح
٢	اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل	٢ صح
٢	من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار	٢ حسن
٤	من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار . . .	٣ ض
٥	(الحمد لله رب العالمين) أم القرآن ، وأم الكتاب	٦ صح
٦	قسمت الصلاة بيني وبين عبدي	٦ صح
٧	فأتمم الكتاب شفاء من كل سم	٦ صح
٨	وما يدريك أنها رقية	٦ صح
٩	أم القرآن عوض من غيرها ، وليس غيرها عوضاً منها . .	٦ مرسل
٧	خرج رسول الله ﷺ على أبي بن كعب وهو يصلي ، فقال : يا أبي	٧ صح
١٠	يا أبي	١٠
١١	إنها السبع المثاني والقرآن العظيم	٧ ح صح
١٢	كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت .	٧ صح بخ
١٣	بيننا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل إذ يسمع نقيضاً فوقه . .	٨ صح م
٨	من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج - ثلاثاً - غير تمام	٨ صح م
١٤	لا صلاة لمن يقرأ بفاتحة الكتاب	٨ صح م
١٥	من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج	٨ صح م
١٦	من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج	٨ صح م

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٨		لا تجزى صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن	١٧
٨	ض	من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة	١٨
٩	صح	إنما جعل الإمام ليتؤتم به ، فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا	١٩
٩	صح م	وإذا قرأ فأنصتوا	٢٠
٩	صح	كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر	٢١
١١	صح	قال : سئل رسول الله ﷺ عن (بسم الله الرحمن الرحيم) قال :	٢٢
١١	صح	هو اسم من أسماء الله لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكاً يبتدرونها لقول الرجل : ربنا	٢٣
١١	صح	لك الحمد أول ما نزل به جبريل على محمد ﷺ : يا محمد : قل استعِذ	٢٤
١١	صح	بالسميع العليم من الشيطان الرجيم كنت رديف النبي ﷺ عثر بالنبي ﷺ فقلت تعس الشيطان	٢٥
١١	صح فق	لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان	٢٦
١٢	صح فق	إن الله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة	٢٧
سورة الفاتحة			
١٢	صح	(اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وييدك الخير كله)	٢٨
١٣	صح	قال الله تعالى : (أنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمي)	٢٩
١٣	صح	يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما (أنظر التعليق)	٣٠
١٤	صح م	(لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد)	٣١
١٥	صح	(نصفها لعبدي ولعبدي ما سأل ...)	٣٢
١٧	صح	سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم	٣٣

١٧	صح	سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى . (غير المغضوب عليهم)	٣٤
١٧	صح	إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم	٣٥
١٨	صح فق	إذا أمن الإمام فأمنوا فإن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له	٣٦
١٨	صح م	إذا قال أحدكم في الصلاة (آمين) والملائكة في السماء آمين .	٣٧
١٨	صح	أعطيت (آمين) في الصلاة ، وعند الدعاء ، لم يعط أحد قبلي	٣٨
١٩		(إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا) (التعليق)	٣٩
١٩	صح	لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	٤٠
٢٠		سورة البقرة	
٢٠	صح م	لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة	
٢٠	حسن	لا يدخله شيطان (قال : نعم قال : إذ ذهب فأنت أميرهم	٤١
٢٠	صح بخ	بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده	٤٢
٢١	صح فق	... اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران	٤٣
٢٣	صح فق	بني الاسلام على خمس ...	٤٤
٢٥	صح	يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك	٤٥
٢٥	صح	إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكته سوداء في قلبه ...	٤٦
٢٧	صح فق	أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه	٤٧
٢٧	صح	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله	٤٨
٣٢	صح فق	... أن تجعل لله نداً وهو خلقك	٤٩
٣٢	صح	أتدري ما حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً	٥٠
٣٢	صح	لا يقولنَّ أحدكم ما شاء وشاء فلان ولكن ليقول ما شاء الله...	٥١
٣٣	صح	ثم ... إن رجلاً قال لرسول الله ﷺ ما شاء الله وشئت . قال :	٥٢
		أجعلني لله نداً	٥٣

٣٣	صح	نعم القوم لولا أنكم تنددون تقولون ما شاء الله وشاء فلان	٥٤
٣٤	صح	تجأجت الجنة والنار ..	٥٥
٣٥	صح	اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل (التعليق)	٥٦
٤٠	صح بخ	... فيأتون آدم فيقولون : أنت أبو الناس ، خلقتك الله بيده	٥٧
٤٢	صح بخ	... وأسجد لك ملائكته من حديث الشفاعة المتقدم	٥٨
٤٢	صح	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر	٥٩
٤٣	صح	... قلت يا رسول الله أرايت آدم أنبيأ كان. قال : نعم نبياً رسولاً	٦٠
٤٤	صح م	خير يوم طلعت على الشمس يوم الجمعة ... فيه خلق	
		آدم وفيه	٦١
٤٧	صح م	أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون	٦٢
٤٩	صح	مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض	
		من نار	٦٣
٤٩	صح فق	يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق به أقتابه ..	٦٤
٤٩	صح	إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار ..	٦٥
٥٠	صح	كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة .	٦٦
٥٠	صح	رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي	
		ويدعو	٦٧
٥٠	صح	ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ..	٦٨
٥٢	صح	يا رسول الله : ما العدل ؟ قال : العدل : الفدية ..	٦٩
٥٣	صح	قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم	
		عاشوراء	٧٠
٥٦	صح	... أفلا أكون عبداً شكوراً ... ؟ (التعليق)	٧١
٥٧	صح بخ	الكمة من المن ، وماؤها شفاء للعين	٧٢
٥٩	صح فق	قال الله لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً ...	
		فبدلوا	٧٣
٥٩	صح	الطاعون رجز ، عذاب عذب به من كان قبلكم	٧٤
٦٢	صح	أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبياً .	٧٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٦٢	صح فق	الكبر بطر الحق وغمط الناس	٧٦
٦٤	صح	لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود ... فتستحلّوا محارم الله	
٦٦	مرسل	بأدنى الحيل	٧٧
٦٧	صح فق	إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم	٧٨
٦٧	صح فق	لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها	٧٩
٦٧		أما مررت بوادي عجل ، ثم مررت به خضرأ ؟ قال : بلى .	
٦٧	صح	قال : كذلك النشور	٨٠
٦٧	صح	ان يهودياً قتل جارية على أوضاع لها فرضخ رأسها بين حجرين	٨١
٦٩	صح	هذا جبل يحبنا ونحبه	٨٢
٧٠	صح	إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا	
٧١	صح	وهكذا	٨٣
٧١	صح	سأل اليهود بعد فتح خيبر في جملة ما سألهم ... من أهل النار	٨٤
٧١	صح	إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه	٨٥
٧٢	صح فق	قلت يا رسول الله : أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة في وقتها	٨٦
٧٢	صح	أن رجلاً قال : يا رسول الله من أبر ؟ قال : أملك ...	٨٧
٧٢	صح م	لا تحقرن من المعروف شيئاً وإن لم تجد فالق أخاك بوجه طلق	٨٨
٧٥	صح	إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها	٨٩
٧٥	صح بخ	اللهم أيد حسّان بروح القدس	٩٠
٧٨	صح	حبك الشيء يعمي ويصم	٩١
٧٨	صح	لو أن اليهود تمنّوا الموت لما تّوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار	٩٢

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٨٠	صح	من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب	٩٣
٨٠	صح	إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب	٩٤
٨٠	صح	من كنت خصمه خصمته	٩٥
٨٥	صح	لا يبقى على ظهر الأرض بعد مئة عام من على ظهرها اليوم	٩٦
٨٦	صح م	ان الشيطان ليضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في	
		الناس	٩٧
٨٦	صح	حدث الساحر ضربة بالسيف	٩٨
٨٧	صح	لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما	٩٩
٨٧	صح	بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا	
		شريك له ...	١٠٠
٨٨	صح	لا تقولوا للغب الكرم ، ولكن قولوا (الحبله) ولا	
		تقولوا : عبدي	١٠١
٨٨	صح بخ	الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ...	١٠٢
٩٠	صح	إن أعظم المسلمين جرماً ، من سأل عن شيء ولم يحرم ،	
		فحرم من أجل مسألته	١٠٣
٩٠	صح فق	كان ينهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال	١٠٤
٩٠	صح م	ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم	
		على أنبيائهم	١٠٥
٩٢	صح م	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ	١٠٦
٩٤	صح	ألا لا يحجنّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان	١٠٧
٩٦	صح بخ	قال الله تعالى : كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني	
		ولم يكن له ذلك	١٠٨
٩٦	صح فق	لا أحد يصبر على أذى سمعه من الله ...	١٠٩
٩٨		أنزلت عليّ ﴿ إنا أنزلناك بالحق بشيراً ونذيراً بشيراً	
		بالخئة ﴾	١١٠
٩٨	ض	ليت شعري ما فعل أبواي ليت شعري ما فعل أبواي ...	١١١

رقمه	مطلع الحديث النبوي الشريف	الصفحة درجة الحديث
٩٨	إن رجلاً قال يا رسول الله أين أبي ؟ فقال : في النار (التعليق)	صح م
١١٢	زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال :	صح م
١١٣	إنه كان إذا مر بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تعوذ	صح
١١٤	والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني	صح
١١٥	إن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً ...	صح
١١٦	إنما بنيت المساجد لما بنيت له	صح
١١٧	لأتمس لي غلاماً من غلمانكم يخدمني (وفيه الدعاء لأهل المدينة)	صح فق
١١٨	إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها وحرمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة	صح بخ
١١٩	إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمه الله	صح م
١٢٠	أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل ، أم اسماعيل اتخذت منطقاً	صح بخ
١٢١	هلم إليّ ثوباً ، فأتي به فأخذ الحجر الأسود فوضعه	صح
١٢٢	يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر ، لنقضت الكعبة حتى أزيد	صح م
١٢٣	يغرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة	صح فق
١٢٤	يغرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة يسلبها حليتها ويجردها	صح
١٢٥	(لِيُحَجَّجَنَّ البيت وليُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأوج)	صح بخ
١٢٦	إني عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمجدل في طيته	صح
١٢٧	(التعليق)	
١٢٨	ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام	صح

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١١١	صح	لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم	١٢٩
١١١	ض	وهم بالشام	١٣٠
١١١	صح	إن الله علم الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام (التعليق)	١٣١
١١١	صح	أول ما خلق الله القلم ، وقال أكتب قال ربي وما أكتب ... التعليق	١٣٢
١١٣	صح	وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع	١٣٣
١١٣	صح	... فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس	١٣٤
١١٣		من أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه	١٣٥
١١٤	صح	آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل ، وليسعكم القرآن	١٣٦
١١٧	صح	وصلى معه قوم فعرج رجل منهم فمرّ على أهل المسجد فقال	١٣٧
١١٧	صح	... إنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر قال فتحوّل الرجال	١٣٨
١١٧	صح	إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة القرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة	١٣٩
١١٨	صح	لأنهم لا يحسدوننا على شيء ، كما يحسدوننا على يوم الجمعة	١٤٠
١١٨	صح بح	فيدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم	١٤١
١١٨	صح	فيدعى محمد وأمه ، فيقال لهم هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون نعم	١٤٢
١١٩		إن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها	١٤٣
١٢٠	صح	البيت لأهل المسجد ، والمسجد قبلة أهل الحرم والحرم قبلة أهل الأرض	١٤٤

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٢٠	صح	... وتحوّلوا إلى الكعبة بدل بيت المقدس لما أتاهم الآتي .	١٤٥
١٢٠	صح	أولئك رجال يؤمنون بالغيب	١٤٦
١٢٠	صح	... وكان ﷺ إذا صلى طأطأ رأسه ورمى ببصره إلى الأرض	١٤٧
١٢٠	صح	ولما دخل الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها	١٤٨
١٢٣	صح	يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي .	١٤٩
١٢٣		من أنعم الله على نعمة فإن الله يحب أن يري أثر نعمته على خلقه .	١٥٠
١٢٤	صح	إن رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى	١٥١
١٢٤	صح م	إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت	١٥٢
١٢٤	صح	نسمة المؤمن طائر تعلق من شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده... .	١٥٣
١٢٥	صح	ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون .	
١٢٥	صح	اللهم أجرني	١٥٤
١٢٥	صح	ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها	١٥٥
١٢٥	صح	دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة	١٥٦
١٢٦	صح فق	قالت أرايت قول الله تعالى ﴿ ان الصفا والمروة ﴾	١٥٧
١٢٦	صح م	... نبدأ بما بدأ الله به	١٥٨
١٢٦	صح	إبدأوا بما بدأ الله به	١٥٩
١٢٦	صح	... اسعوا فإن الله قد كتب عليكم السعي	١٦٠
١٢٦	صح	كتب عليكم السعي فاسعوا	١٦١
١٢٦	صح	لتأخذوا عني مناسككم	١٦٢
١٢٦	صح	طعام طعم وشفاء سقم	١٦٣
١٢٧	صح	من سئل علم فكتمه ، ألجمه يوم القيامة بلجام من نار .	١٦٤
١٢٧	صح	ان الكافر يضرب ضربة بين عينيه يسمعها كل دابة غير الثقلين	١٦٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٢٨	صح	لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله	١٦٦
١٢٩	صح	إن قريشاً سألت الرسول ﷺ أن يجعل الله لها الصفا	
١٦٧		ذهباً	
١٢٩	صح	وكيف يسألونك الصفا وهم يرون الآيات ما هو أعظم .	١٦٨
١٣٠	صح م	يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : ان تجعل لله نداً .	١٦٩
١٣١	صح م	يقول الله تعالى : إن كل ما منحت عبدي فهو لهم	
١٧٠		حلال	
١٣١	صح	... يا رسول الله أدعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة	
١٧١		فقال	
١٣٢	صح م	أيها الناس : إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ...	١٧٢
١٣٢	صح	هو الطهور ماؤه الحل ميتته	١٧٣
١٣٢	صح	أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد ، والكبد والطحال	١٧٤
١٣٣	صح	... الحلال ما أحل الله في كتابه ، والحرام ما حرم الله في	
١٧٥		كتابه	
١٣٣	صح	عن عائشة : ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من	
١٧٦		أشجارهم	
١٣٣	صح	... ما أطعمته إذا كان جائعاً ، ولا علمته إذا كان جاهلاً ؟ !	١٧٧
١٣٥	منقطع	إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها	
١٧٨		قلبك	
١٣٥	صح فق	أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى	
١٧٩		وتخشى الفقر	
١٣٦	صح	الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوي الرحم ثنتان صدقة	
١٨٠		وصلة	
١٣٦	صح	لا يتم بعد احتلام	١٨١
١٣٦	صح	ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان .	١٨٢
١٣٦	.	للسائل حق وإن جاء على فرس	١٨٣
١٣٦	.	في المال حق سوى الزكاة	١٨٤

١٣٦	صح	آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف	
١٨٥		وإذا ائتمن خان	
١٣٧	صح	من قتل عبده قتلناه	١٨٦
١٣٧	صح	لا يقتل مسلم بكافر	١٨٧
١٣٧	صح	المسلمون تتكافأ دماؤهم	١٨٨
١٣٨	صح	لا أعاني رجلاً قتل بعد أخذ الدية	١٨٩
١٣٩	صح	إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث	١٩٠
١٣٩	صح فق	ما حق امرئ له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا وصية	١٩١
١٤٠	صح فق	... الثلث والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء	١٩٢
١٤٠	صح	الجنف في الوصية من الكبائر	١٩٣
١٤١	صح فق	يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج	١٩٤
١٤٢		أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت	
١٩٥		التوراة	
١٤٣	صح فق	أن رسول الله ﷺ لما بلغ الكديد لما خرج لغزوة الفتح في	
١٩٦		رمضان أفطر	
١٤٣	صح	خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد	١٩٧
١٤٣	صح	عليكم برخصة الله التي رخص لكم	١٩٨
١٤٣	صح	... ليس من البر الصيام في السفر	١٩٩
١٤٣	صح	فمنا الصائم ، ومنا المفطر فلم يعب الصائم على المفطر ...	٢٠٠
١٤٣	صح	من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الأثم مثل جبال عرفة	٢٠١
١٤٤	صح	إن دين الله يسر	٢٠٢
١٤٤	صح	يسروا ولا تعسروا وسكّنوا ولا تنفروا	٢٠٣
١٤٤	صح	للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة	٢٠٤
١٤٤	صح	إن أعرايياً قال : يا رسول الله أقرئ ربنا فتناجيه ...	٢٠٥
١٤٤	صح	كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصف شرفاً ..	٢٠٦
١٤٥	صح فق	يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب	
٢٠٧		لي	

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٤٥	صح فق	لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل قالوا وكيف يستعجل ...	٢٠٨
١٤٦	صح	ان النبي ﷺ ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ .	٢٠٩
١٤٦	صح	يقول الله تعالى : يا ابن آدم واحدة لك ، وواحدة لي ...	٢١٠
١٤٦	صح	للصائم عند افطاره دعوة مستجابة	٢١١
١٤٦	صح	ثلاثة لا ترد دعوتهم : الامام العادل والصائم حتى يفطر ..	٢١٢
١٤٧	صح	ان الرجل من الصحابة ، إذا كان صائماً فنام قبل أن يفطر ...	٢١٣
١٤٧	صح	ثم إن هناك رجالاً من المسلمين كانوا يختانون أنفسهم أي ...	٢١٤
١٤٧	صح	قلت يا رسول الله : ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود	
		أهما الخيطان ...	٢١٥
١٤٨	صح فق	تسحروا فإن في السحور بركة	٢١٦
١٤٨	صح	إن رسول الله ﷺ سماه : الغداء المبارك	٢١٧
١٤٨	صح فق	لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فإنه ينادي بليل فكلوا	
		واشربوا حتى ..	٢١٨
١٤٨	صح فق	كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام	
		ثم يغتسل ويصوم	٢١٩
١٤٨	صح فق	وفي حديث أم سلمة - عندهما - ثم لا يفطر ولا يقضي	٢٢٠
١٤٨	صح فق	إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر	
		الصائم	٢٢١
١٤٨	صح فق	لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر	٢٢٢
١٤٨	صح فق	لا تواصلوا . قالوا : يا رسول الله إنك تواصل قال فإني	
		لست مثلكم	٢٢٣
١٤٨	صح فق	لا تواصلوا فأیکم أزد أن يواصل فليواصل إلى السحر	٢٢٤
١٤٩	صح فق	كان رسول الله ﷺ يديني إلي رأسه فأرجله وأنا حائض	٢٢٥
١٤٩	صح فق	إنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى	
		توفاه الله ...	٢٢٦

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٤٩	صح فق	ألا إنما أنا بشر ، وإنما يأتيني الخصم ، فلفل بعضكم أن يكون ألحن ..	٢٢٧
١٥٠	صح	... يا رسول الله لم خلقت الأهله فأنزل الله يسألونك عن الأهله ..	٢٢٨
١٥٠	صح	جعل الله الأهله مواقيت للناس ، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ...)	٢٢٩
١٥١	صح م	أغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ...	٢٣٠
١٥١	صح فق	ان هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بجرمة الله ..	٢٣١
١٥٢	صح فق	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها ، عصموا ..	٢٣٢
١٥٢	صح	لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى ..	٢٣٣
١٥٥	صح	عمرة في رمضان تعدل حجة معي ..	٢٣٤
١٥٥	صح	دخلت العمرة في ألحج إلى يوم القيامة ..	٢٣٥
١٥٥	صح فق	... أما ألجنة فأنزعها ، أما الطيب ألذين بك فاغسله . ثم ..	٢٣٦
١٥٥	صح	رحم الله ألملحقين . قالوا ألمقصرين يا رسول الله ؟ فقال في الثالثة ألمقصرين ..	٢٣٧
١٥٥	صح	لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة (التعللق) ..	٢٣٨
١٥٦	صح	من كسر أو وجع أو عرج فقد حلّ وعليه حجة أخرى ..	٢٣٩
١٥٦	صح فق	... حجى واشترطى أن محلى حيث حبستنى ..	٢٤٠
١٥٦	صح فق	أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة ..	٢٤١
١٥٦	صح فق	أهدى النبى ﷺ مرة غنماً ..	٢٤٢

الصفحة درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٥٦	صحيح نق (يا رسول الله : ما شأن الناس حلتوا من العمرة ولم تحل انت من عمرتك ؟)	٢٤٣
١٥٦	صحيح بخ ... ما كنت أرى أن الجهد بلغ منك هذا ... أما تجد شاة ؟	٢٤٤
١٥٧	صحيح ... يؤذيك هوام رأسك ؟ قلت : نعم قال فاحلقه وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة	٢٤٥
١٥٧	صحيح إن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعات	٢٤٦
١٥٧	صحيح فق نزلت آية المتعة في كتاب الله وفعلمناها مع رسول الله ﷺ	٢٤٧
١٥٨	صحيح بخ لم يرخص في أيام التشريق أن يُصَمَّنَ إلا لمن لم يجد الهدي	٢٤٨
١٥٨	صحيح م أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل	٢٤٩
١٥٨	صحيح فق ... فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله	٢٥٠
١٥٨	صحيح م أيها الناس إني كنت قد أذنت لكم في الاستمتاع بالنساء وإن الله قد حرم ذلك	٢٥١
١٥٨	صحيح م رأيت رسول الله ﷺ قائماً بين الركن والباب وهو يقول بنحوه	٢٥٢
١٥٨	صحيح م أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها	٢٥٣
١٥٩	صحيح من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج	٢٥٤
١٥٩	صحيح لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج	٢٥٥
١٥٩	صحيح لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج	٢٥٦
١٥٩	صحيح أيُهلُّ بالحج قبل أشهر الحج فقال - يعني جابر - لا	٢٥٧
١٦٠	صحيح الأشهر المعلومات عن ابن عمر قال : هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة	٢٥٨
١٦٠	صحيح سباب المسلم فسوف وقتاله كفر	٢٥٩
١٦٠	صحيح فق من حج هذا البيت فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه	٢٦٠

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٦٠	صح	انظروا لهذا المحرم ما يصنع !؟	٢٦١
١٦١	صح	من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما	
		تقدم من ذنبه	٢٦٢
١٦١	صح	تزود ما تكف به وجهك عن الناس وخير ما تزودتم به	
		التقوى	٢٦٣
١٦١		جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذين سألتني فلم يجبه حتى...	٢٦٤
١٦٢	صح	ألحج عرفات - ثلاثاً - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع	
		الفجر فقد أدرك ...	٢٦٥
١٦٢	صح	لتأخذوا عني مناسككم	٢٦٦
١٦٢	صح	فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك	٢٦٧
١٦٢		من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع وقد وقف	
		بعرفة قبل ذلك	٢٦٨
١٦٢	صح	... فأختر رسول الله الدعة من عرفة حتى غربت الشمس	٢٦٩
١٦٢	صح	... ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس حتى إذا أسفر	
		كل شيء ... دفع	٢٧٠
١٦٢	صح م	فلم يزل واقفاً - يعني بعرفة - حتى غربت الشمس وبدت	
		الصفرة	٢٧١
١٦٣	صح بخ	كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا	
		ويسمون (الخمس)	٢٧٢
١٦٣	صح	أضللت بعيراً لي بعرفة فذهبت أطلبه فلما أتني ﷺ واقف	٢٧٣
١٦٣	صح فق	إن هذا من الخمس ما شأنه ها هنا	٢٧٤
١٦٤	صح م	إن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله	
		ثلاثاً	٢٧٥
١٦٤	صح فق	إنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين	٢٧٦
١٦٤	صح يح	من الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله	
		إلا أنت ...	٢٧٧
١٦٤	صح فق	... قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر	
		إلا أنت	٢٧٨

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٦٥	صح م	سبحان الله ، لا تطيقه ولا تستطيعه فهـ لا قلت :	
٢٧٩		ربنا آتنا	
١٦٥	صح	إنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركنتين : ربنا آتنا في الدنيا حسنة	٢٨٠
١٦٥		ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول : آمين . . .	٢٨١
١٦٦	صح	يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق ، عيدنا أهل الاسلام	٢٨٢
١٦٦	صح	لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل	٢٨٣
١٦٦	صح	إلا من كان عليه صوم من هدي	٢٨٤
١٦٦	صح	نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق وهي أيام أكل وشرب وذكر الله	٢٨٥
١٦٦	ح مرسل	إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ... ورمي الجمار	٢٨٦
١٦٨	صح	آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر ...	٢٨٧
١٦٨	صح بخ	ان أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم	٢٨٨
١٦٨	صح	إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة	٢٨٩
١٦٨	صح	لما أردت الحجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش : يا صهيب	٢٩٠
١٧٠	مشهور	إن الناس إذا اهتموا لموقفهم من العرصات تشفعوا إليهم بالأنبياء	٢٩١
١٧١	صح	أنفق يا بلال ولا تخشى من ذي العرش إقلالا	٢٩٢
١٧١	صح	إن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما اللهم أعط	٢٩٣

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٧١	صح	يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفئيت	٢٩٤
١٧٢	صح	نحن الآخرون الأولون يوم القيامة . نحن أول الناس دخولا الجنة	٢٩٥
١٧٢	صح فق	اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض	٢٩٦
١٧٢	صح	إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص	٢٩٧
١٧٣		عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيئه ، فينظر إليهم قنطين	٢٩٨
١٧٣	صح	أملك وأباك واختك وأخاك ثم أدناك أدناك	٢٩٩
١٧٣	صح	من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات ميتة جاهلية	٣٠٠
١٧٤	صح	لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا	٣٠١
١٧٤	صح	ان رسول الله ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح	٣٠٢
١٧٤	صح	لأنهم كانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي	٣٠٣
١٧٥	صح	فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه	٣٠٤
١٧٧	صح	وكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن	٣٠٥
١٧٧	صح م	قال رجل يا رسول الله . عندي دينار قال : أنفقه على نفسك قال عندي	٣٠٦
١٧٨	صح م	خير الصدقة ما كان عن ظهر غني . واليد العليا خير من اليد السفلى	٣٠٧
١٧٩	صح	تزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا	٣٠٨
١٧٩	صح	نزلت في عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها	٣٠٩

الصفحة درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٧٩ صح فق	تنكح المرأة لأربع : لما لها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فافطر...	٣١٠
١٧٩ صح م	الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ...	٣١١
١٨٠ صح م	اصنعوا كل شيء إلا النكاح ، فبلغ ذلك اليهود فقالوا :	
١٨٠ صح	ما يريد ...	٣١٢
١٨٠ صح	كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً ...	٣١٣
١٨٠ صح	كان يأمرني رسول الله ﷺ فأغسل رأسه وأنا حائض ...	٣١٤
١٨٠ صح	كنت أتعرق العرق وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ فيضع	
١٨٠ صح	فمه ...	٣١٥
١٨٠ صح	... الذي يأتي امرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف	
١٨٠ صح	دينار ...	٣١٦
١٨٠ صح	إذا كان دماً أحمر فدينار ، وإن كان دماً أصفر فنصف	
١٨١ صح فق	دينار ...	٣١٧
١٨١ صح	كان النبي إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فأتزرت	
١٨١ صح	وهي حائض ...	٣١٨
١٨١ صح	كانت إحداها إذا حاضت اتزرت ودخلت مع رسول	
١٨١ صح بخ	الله ﷺ في شعاره ...	٣١٩
١٨١ صح	كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورأها جاء الولد	
١٨١ صح	أحول فتزلت الآية : نساؤكم ...	٣٢٠
١٨١ صح	إن اليهود قالوا للمسلمين : من أتى امرأة وهي مدبرة جاء	
١٨٢ صح	الولد أحول !!!	٣٢١
١٨٢ صح	مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج ...	٣٢٢
١٨٢ صح	الذي يأتي امرأة في دبرها هي اللوطية الصغرى ...	٣٢٣
١٨٢ صح	نمى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن ...	٣٢٤
١٨٢	أن الذي يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه ...	٣٢٥
١٨٢ صح	ملعون من أتى امرأته في دبرها ...	٣٢٦
١٨٣ صح بخ	لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله ،	
	اللهم ...	٣٢٧

الصفحة درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٨٣	والله لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله ...	٣٢٨
١٨٣	إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ...	٣٢٩
١٨٣	من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل ...	٣٣٠
١٨٣	فليكفر عن يمينه ...	٣٣١
١٨٣	من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله ...	٣٣٢
١٨٤	اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته : كلا والله وبلى والله ...	٣٣٣
١٨٤	مرسل حسن م رسول الله ﷺ يقوم يتصلون : يعني يرمون ...	٣٣٤
١٨٤	لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل ...	٣٣٥
١٨٤	الشهر تسع وعشرون ...	٣٣٦
١٨٥	الشهر تسع وعشرون ...	٣٣٦
١٨٥		
١٨٦	طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان ...	٣٣٧
١٨٧	دعي صلاتك أيام أقرائك ...	٣٣٨
١٨٨	فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن ...	٣٣٩
١٨٩	جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت قول الله عز وجل (فإمساك بمعروف ...)	٣٤٠
١٨٩	... تفسيره التسريح باحسان الثالثة ...	٣٤١
١٨٩	أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة ...	٣٤٢
١٨٩	المختلعات هن المناقات ...	٣٤٣
١٩٠	ان امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله ما أعيب عليه ...	٣٤٣
١٩٠	إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي ، إنها انت رسول الله ﷺ	٣٤٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٩٠	صح	إن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت والله ما اعتب .	٣٤٦
١٩٢	صح	ان امرأة ثابت بن قيس اختلفت زوجها على عهد رسول الله ﷺ ...	٣٤٧
١٩٢	صح	إنها اختلفت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها النبي ﷺ ان تعتد بحیضة	٣٤٨
١٩٣	صح	لا عدة عليك إلا ان يكون حديث عهد بك ، فتمكثين عنده ...	٣٤٩
١٩٣	صح	إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ...	٣٥٠
١٩٤	صح	في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة ...	٣٥١
١٩٤	صح	في الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل ...	٣٥٢
١٩٤	صح فق	ان رجلاً طلق امرأته ثلاثاً فتزوجت زوجاً فطلقها قبل أن يمسه	٣٥٣
١٩٤	صح	الا إن العسيلة الجماع	٣٥٤
١٩٤	صح	لعن الله الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له	٣٥٥
١٩٤	صح	لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وشاهداه وكتابه	٣٥٦
١٩٥	ض	ان رسول الله ﷺ : لعن الله المحلل والمحلل له	٣٥٧
١٩٥	صح	الا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال : هو المحلل	٣٥٨
١٩٥		لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له	٣٥٩
١٩٦	صح	ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب فهن جائزات عليه : الطلاق والعناق والنكاح	٣٦٠
١٩٧	صح	لا نكاح إلا بولي مرشد (وشاهدي عدل .) وزيادة شاهد عدل ضعيفة	٣٦١
١٩٧		إنه زوج اخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت ...	٣٦٢

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٩٨	صح	لا يحرم الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وقبل الفطام	٣٦٣
١٩٨	صح بخ	إن ابني مات في الثدي ، إن له مرضعاً في الجنة . . .	٣٦٤
١٩٨	صح	لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين	٣٦٥
١٩٨	صح	وما كان بعد الحولين فليس بشيء	٣٦٦
١٩٨		لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام	٣٦٧
١٩٨	صح	أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً فكان يدخل عليها	٣٦٨
١٩٩	صح فق	انظرون مَنْ إخوانكن فإنما الرضاعة من المجاعة . . .	٣٦٩
١٩٩	صح	من ملك ذا رحم محرم عتق عليه	٣٧٠
٢٠٠	صح	إن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها ،	٣٧١
٢٠٠	صح	انشهد أن رسول الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق	٣٧٢
٢٠٠	صح فق	لأنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت	٣٧٣
٢٠١	صح فق	إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون	٣٧٤
٢٠١	صح	لا تلبسوا علينا سنة نبينا ، عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها	٣٧٥
٢٠٢	صح فق	لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحتد على ميت فوق ثلاث	٣٧٦
٢٠٢	صح فق	إن امرأة قالت : يا رسول الله ، إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت	٣٧٧
٢٠٣	صح	فلماذا حلت فأذنبي ، فلما حلت ، خطب عليها أسامة بن زيد	٣٧٨
٢٠٥	ض	ولي عقدة النكاح الزوج	٣٧٩
٢٠٥		ليأتين على الناس زمان عضوض ، يعرض المؤمن على ما في يديه وينسى الفضل	٣٨٠

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٠٥	صح فق	سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة في وقتها قلت ...	٣٨١
٢٠٦	صح فق	شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ملأ الله قلوبهم .	٣٨٢
٢٠٦	صح	﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ وسماها لنا صلاة العصر ...	٣٨٣
٢٠٦		الصلاة الوسطى صلاة العصر ...	٣٨٤
٢٠٦		إن في الصلاة لشغلاً ...	٣٨٥
٢٠٦	صح م	إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح ...	٣٨٦
٢٠٦	صح	كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة ...	٣٨٧
٢٠٦	صح	كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، فمررت برسول الله فسلمت عليه ...	٣٨٨
٢٠٦	صح	قلت لبلال : كيف كان رسول الله ﷺ وآله يرد عليهم حين كانوا يسلمون عليه ...	٣٨٩
٢٠٧	صح غ	ان ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد ...	٣٩٠
٢٠٧	صح م	وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان ليقتله ...	٣٩١
٢٠٧	صح	فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين ...	٣٩٢
٢٠٧	صح	خرج النبي ﷺ إلى مسجد قباء يصلي فيه ، قال : فجاءته الأنصار ...	٣٩٣
٢٠٧	صح	وفيه يقول هكذا — وبسط كفه وبسط جعفر بن عون كفه ...	٣٩٤
٢٠٩	صح	إن الفريعه بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما جاءت ...	٣٩٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢١١	صح فق	ان عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ ،	
٣٩٦		لقيه أمراء الأجناد ...	
٢١١	صح	يا رسول الله وان الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال :	
٣٩٧		نعم يا أبا الدحداح ...	
٢١١		إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة .	٣٩٨
٢١٤	صح بخ	كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر	
٣٩٩		ثلاثمائة وبضعة عشر ...	
٢١٦	صح	لا تفضلوني على الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة	
٤٠٠		فأكون أول ...	
٢١٧	صح م	ان النبي ﷺ سأل : أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال :	
٤٠١		الله ورسوله أعلم ...	
٢١٧	صح م	أي ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : آية الكرسي : ﴿ الله لا	
٥٠٢		لا اله الا هو الحي القيوم ﴾ ...	
٢١٧	صح بخ	وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت	
٤٠٣		يحثو من الطعام ، فأخذته ...	
٢١٨	صح	اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث : البقرة	
٤٠٤		وآل عمران ، وطه ...	
٢١٨	صح	ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط	
٤٠٥		ويرفعه ...	
٢١٨	صح	أتى تحت العرش ساجداً ، فیدعني ما شاء ان يدعني ،	
٤٠٦		ثم يقال أرفع رأسك ...	
٢١٩	صح	ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد القيت بين	
٤٠٧		ظهراني فلاة الأرض ...	
٢١٩	صح	والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند	
٣٠٨		الكرسي ، الا كحلقة ...	
٢٢١	صح	عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل .	٤٠٩
٢٢١	صح فق	كنت في المسجد ، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع ،	
٤١٠		فصلى ركعتين ...	

٢٢٥	صح فق	نحن أحق بالشك من إبراهيم اذ قال : ﴿ رب أرني كيف	٤١١
		تحيي الموتى ، ... ﴿	
٢٠٧	صح م	لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة	٤١٢
٢٢٨	صح م	ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا	
		يزكّيهم ولهم عذاب أليم :	٤١٣
٢٢٨	صح فق	من صام رمضان إيماناً واحتساباً	٤١٤
٢٣١	صح	ان للشيطان أمةً بآدم ، وللملك أمةً فأما أمة الشيطان ،	
		فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وأما أمة الملك فإيعاد بالخير... ٤١٥	
٢٣١	صح	رأس الحكمة مخافة الله	٤١٦
٢٣٢	صح فق	لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله مالاً فسلطه على	
		هلكته في الحق... ٤١٧	
٢٣٢	صح	ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما	
		تنفق يمينه	٤١٨
٢٣٢	صح	الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسرّ بالقرآن كالمسرّ	
		بالصدقة	٤١٩
٢٣٣	صح	أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الاسلام حتى	
		نزلت هذه الآية :	٤٢٠
٢٣٢	صح فق	قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقة فوضعها	
		بيد زانية... ٤٢١	
٢٣٤	صح بخ	ليس المسكين بهذا الطواف الذي تردّه الثمرة والتمرتان . .	٤٢٢
٢٣٤		سرحني أُمي إلى رسول الله ﷺ أسأله فأتيته فقعدت ،	
		قال فاستقبلني... ٤٢٣	
٢٣٤	صح فق	ان المسلم اذا أففق على أهله نفقة يحبسها كانت له صدقه	٤٢٤
٢٣٥	صح بخ	فأتينا على نهر حسبت أنه يقول : احمر مثل الدم ، وإذا	
		في النهر سابح يسبح... ٤٢٥	
٢٣٦	صح	وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ، وأول	
		ربا ، أضع... ٤٢٦	

٢٣٦	صح	ان عائشة زوج النبي قالت لها ام بجنه ام ولد زيد بن	
٤٢٧		أرقم : يا أم المؤمنين :	
٢٣٦	صح م	من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله ...	٤٢٨
٢٣٦	صح فق	ان الحلال بيتن والحرام بيتن وبين ذلك أمور مشتهات. . .	٤٢٩
٢٣٧	صح	دع ما يريبك إلى ما لا يريبك	٤٣٠
٢٣٧	صح	الإثم ما حاك من القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن ...	٤٣١
٢٣٧	صح	يأتي على للناس زمان يأكلون فيه الربا « قال : قيل له	
٤٣٢		الناس كلهم ؟ قال	
٢٣٧	صح بخ	لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج	
٤٣٣		رسول الله ﷺ إلى المسجد	
٢٣٧	صح	لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكتابه.	٤٣٤
٢٣٧	صح	إن الربا وإن كثّر فإن عاقبته تصير إلى قل	٤٣٥
٣٧٨	صح	من تصدّق بعدل تمرة عن كسب طيب ، ولا يقبل الله الا	
٤٣٦		الطيب	
٢٣٨	صح	وقد ذكر زيد بن أسلم وغيره أن هذا السياق نزل في بني	
٤٣٧		عمر بن عمير من ثقيف	
٢٣٣	صح	من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسير على معسر	
٤٣٨		أو يضع عنه	
٢٣٩	صح	سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً فله بكل	
٤٣٩		يوم مثله صدقه «	
٢٣٩	صح بخ	كان تاجر يداين الناس فان رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا	
٤٤٠		عنه	
٢٤١	صح فق	من أسلف فليسلف من كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل	
٤٤١		معلوم	
٢٤١	صح	أن رجلاً من بني اسرائيل سأل بعض بني بعض بني	
٤٤٢		إسرائيل ان يسلفه الف دينار	
٢٤٢		إن من الصدقة أي تعين صانعاً أو تصنع لأخرق	٤٤٣

الصفحة درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٤٢ صح م	« يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار »	٤٤٤
٢٤٣ صح	ان النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه عن فرسه »	٤٤٥
٢٤٤ صح فق	أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقا »	٤٤٦
٢٤٥ صح	على اليد ما أخذت حتى تؤديه »	٤٤٧
٢٤٥ صح	لما نزلت على رسول الله ﷺ لله ما في السموات وما في الأرض »	٤٤٨
٢٤٦ صح م	فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »	٤٤٩
٢٤٦ صح بخ	« وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه » قال نسخها الآية التي بعدها »	٤٥٠
٢٤٦ صح فق	قال الله : إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها »	٤٥١
٢٤٦	. قال الله : إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة ، فإن عملها »	٤٥٢
٢٤٦ صح م	سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة فقال تلك صريح الإيمان »	٤٥٣
٢٤٧ صح فق	من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلته كفناه . . . »	٤٥٤
٢٤٧ صح م	اعطيت خواتيم سورة البقرة من كنزٍ تحت العرش ... »	٤٥٥
٢٤٧	إن الله كتب كتاباً قبل ان يخلق السموات والأرض بألفي عام »	٤٥٦
٢٤٧ صح	أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش ، والحفصل ناخلة »	٤٥٧
٢٤٨ صح	ويحق له أن يؤمن . . . »	٤٥٨
٢٤٨ صح	لما نزلت على رسول الله ﷺ « آمن الرسول - إلى قوله واليك المصير »	٤٥٩

رقمه	مطلع الحديث النبوي الشريف	الصفحة درجة الحديث
٤٦٠	أن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .	ص ٢٤٩
٤٦١	إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث : عن الخطأ والنسيان والاستكراه	ص ٢٤٩
٤٦٢	قال الله نعم	ص ٢٤٩ م
٤٦٣	قال الله قد فعلت	ص ٢٤٩
٤٦٤	بعثت بالحنيفة السمحة	ص ٢٤٩
	سورة آل عمران	
٤٦٥	فاذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم	ص ٢٥٣ فق
٤٦٦	﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ قال هم الخوارج	موقوف ٢٥٣
٤٦٧	لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ، أيامني على أهل الأرض ولا تأمنوني	ص ٢٥٣
٤٦٨	وستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الا واحدة	ص ٢٥٣
٤٦٩	ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به	ص ٢٥٤
٤٧٠	اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل	ص ٢٥٤
٤٧١	سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارءون	ص ٢٥٤
٤٧٢	كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك	ص ٢٥٤
٤٧٣	. ان رسول الله ﷺ قام ليلة منكم فقال : هل بلغت يقولها ثلاثاً	٢٥٥
٤٧٤	لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود	٢٥٦
٤٧٥	أن رسول الله ﷺ لما سأل العبد الأسود لبني الحجاج عن عدة قریش	ص ٢٥
٤٧٦	ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء	ص ٢٥٧

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٥٧	صح	الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها سرته	٤٧٧
٢٥٧	صح	تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة	٤٧٨
٢٥٧	صح	القنطار يعني ألف دينار	٤٧٩
٢٥٨	.	خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة	٤٨٠
٢٥٩	صح فق	ينزل تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير	٤٨١
٢٥٩	صح	كنا نؤمر إذا صلينا من الليل ان نستغفر في آخر السحر سبعين مرة	٤٨٢
٢٦٠	صح	قال سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية شهد الله لا اله الا هو والملائكة	٤٨٣
٢٦٠	صح	قال أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فلما كانت ليلة أردت	٤٨٤
٢٦١	صح م	والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني	٤٨٥
٢٦١	صح	بعثت إلى الأحمر والأسود	٤٨٦
٢٦١	صح	كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة	٤٨٧
٢٦١	صح فق	الكبر بطر الحق وغمط الناس	٤٨٨
٢٦١	صح	قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة قال رجل قتل نبياً	٤٨٩
٢٦٣	صح	اسم الله الأعظم الذي اذا دعي به أجاب	٤٩٠
٢٦٥	صح	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد	٤٩١
٢٦٦	صح	ولد لي الليلة ولدٌ سميته باسم أبي ابراهيم	٤٩٢
٢٦٦	صح	إن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ	٤٩٣
٢٦٦	صح	كل غلام مرتن بعقيقته يذبح عنه يوم السابع ويسمى ويحلفه رأسه	٤٩٤
٢٦٧	صح	ما من مولود يولد الا معه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً الا	٤٩٥

الصفحة درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٦٧	ص ٢٦٧ ... فاذا يبحي وعيسى وهما ابنا الحالة ...	٤٩٦
٢٦٩	ص ٢٦٩ حب إليّ من دنياكم ...	٤٩٧
٢٧٠	ص ٢٧٠ خير نساءها مريم بنت عمران وخير نساءها خديجة بنت خويلد ...	٤٩٨
٢٧٠	ص ٢٧٠ حسبك من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ...	٤٩٩
٢٧٠	ص ٢٧٠ تكمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ...	٥٠٠
٢٧٠	ص ٢٧٠ ويكمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ..	٥٠١
٢٧١	ص ٢٧١ لم يتكلم في المهد الا ثلاث : عيسى وصبيّ كان في زمن جريج وصبي آخر ...	٥٠٢
٢٧٤	ص ٢٧٤ لكل نبي حوارى وحوارى الزبير ...	٥٠٣
٢٧٥	ص ٢٧٥ الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور ...	٥٠٤
٢٧٨	ص ٢٧٨ فقال رسول الله ﷺ دعوهم ... فصلوا إلى المشرق ...	٥٠٥
٢٨٠	ص ٢٨٠ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ...	٥٠٦
٢٨١	ص ٢٨١ لكل نبي ولادة من النبيين ، وإن وليّ منهم أبى وخليل ربي .	٥٠٧
٢٨٤	ص ٢٨٤ لما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل ...	٥٠٨
٢٨٤	ص ٢٨٤ من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقنطع بها مال امرئ . .	٥٠٩
٢٨٥	ص ٢٨٥ خاصم رجل من كندة يقال له امرئ القيس بن عامر رجلاً ...	٥١٠
٢٨٦	ص ٢٨٦ إن عديّ بن حاتم قال يا رسول الله ما عبدوهم ...	٥١١
٢٨٧	ص ٢٨٧ جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني أمرت بأخ	٥١٢
٢٨٧	ص ٢٨٧ بأخ لي يهودي ... لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا ...	٥١٣

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٨٨	صح	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌ	٥١٤
٢٩٠	صح	ان قوماً أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا	٥١٥
٢٩٠	ضح	سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان وكان يقرى الضيف	٥١٦
٢٩٠	صح فق	يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت	٥١٧
٢٩٠	صح فق	يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفسي عندي	٥١٨
٢٩١		حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا	٥١٩
٢٩٣	صح فق	قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال المسجد الحرام	٥٢٠
٢٩٤	صح فق	لا هجرة ولكن جهاد ونيةٌ وإذا استنفرتم فانفروا	٥٢١
٢٩٤	صح فق	إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض	٥٢٢
٢٩٤	صح م	لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة	٥٢٣
٢٩٤	صح	والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله	٥٢٤
٢٩٥	صح م	أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا	٥٢٥
٢٩٥	صح فق	متعنا هذه لعامنا هذا ، أم للأبد ؟ قال : لا . بل للأبد	٥٢٦
٢٩٥	صح	قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال من الحاج يا رسول الله	٥٢٧
٢٩٥	صح م	أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله عز وجل من استطاع إليه سبيلاً	٥٢٨
٢٩٥	صح	تعجلوا إلى الحج - يعني الفريضة - فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له	٥٢٩
٢٩٥	صح	من أراد الحج فليتعجل	٥٣٠
٢٩٥	صح	لما نزلت ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه	٥٣١
٢٩٦	صح	أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ قالوا : الملائكة	٥٣٢
٢٩٧	صح	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	٥٣٣
٢٩٧	صح	من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة	٥٣٤
٢٩٨	صح	من كلام علي هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم	٥٣٥
٢٩٨		كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض	٥٣٦

٢٩٨	صح م	إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً : يرضى لكم : ٥٣٧
٢٩٨	صح	ان هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج ٥٣٨
٢٩٩	صح	قرأ رسول الله ﷺ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ... ٥٣٩
٢٩٩	صح م	من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ... ٥٤٠
٢٩٩	صح	وليس من وراء ذلك من حبة خردل ٥٤١
٢٩٩	صح	والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر . ٥٤٢
٣٠١	.	قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال : ٥٤٣
٣٠١	صح فق	سمعت رسول الله ﷺ يقول : يدخل الجنة من أمتي زمرة ٥٤٤
٣٠١	صح	إن ربي أعطاني سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ... ٥٤٥
٣٠١	صح م	يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب . . ٥٤٦
٣٠١	صح م	كنت عند أبي سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب البارحة ؟ ٥٤٧
٣٠٢	صح فق	« أما ترضون أن تكونوا ربيع أهل الجنة ؟ فكبرنا ، ٥٤٨
٣٠٢	صح	لما نزلت : ثلثة من الاولين وثلثة من الآخرين ٥٤٩
٣٠٢	صح	نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولا الجنة ... ٥٥٠
٣٠٦	صح بخ	ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له له بطاننان ٥٥١
٣٠٧	صح	ما ينبغي لنبى إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له . ٥٥٢
٣٠٧	صح	لا يقاتلن أحدٌ حتى تأمره بالقتال ٥٥٣
٣٠٧	صح	انضحوا الخيل عنّا ولا تؤثّين من قبلكم ... ٥٥٤
٣١٠	صح بخ	اللهم العن فلاناً وفلاناً ، اللهم العن الحارث بن هشام ... ٥٥٥
٣١١	صح	إذا سألتكم الله فأسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة ، ... ٥٥٦
٣١١	صح	ان هرقل كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرض ٥٥٧

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣١١	صح	جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال أرأيت قوله تعالى : ...	٥٥٨
٣١١	.	يقول الله تعالى : يا ابن آدم اذكرني اذا غضبت ، ...	٥٥٩
٣١٢	صح فق	ليس الشديد بالصرعه ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب	٥٦٠
٣١٢	صح	يا رسول الله قل لي قولاً ينفعني وأقلل عليّ لعلّي أعيه ...	٥٦١
٣١٢	صح	ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من نار ...	٥٦٢
٣١٢		إن النبي ﷺ قال : من تكظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه	٥٦٣
٣١٢	صح	ما تجرّع عبد من جرعة أفضل أجراً من جرعة غيظٍ ...	٥٦٤
٣١٢	صح	ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة	٥٦٥
٣١٢	صح فق	من سرّه أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات ...	٥٦٦
٣١٢	صح فق	« إن رجلاً أذنب ذنباً فقال : رب إني أذنبت ذنباً فأغفره لي	٥٦٧
٣١٣	صح	كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء منه	٥٦٨
٣١٣	صح فق	عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه انه توضأ لهم وضوءاً	٥٦٩
٣١٣	صح	قال إبليس : يا ربّ وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت	٥٧٠
٣١٣	صح	ان النبي ﷺ أتى بأسير فقال : اللهم أني أتوب إليك ...	٥٧١
٣١٤	صح	« ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » . . .	٥٧٢
٣١٥	صح فق	لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية	٥٧٣
٣١٩	صح فق	أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي	٥٧٤
٣١٩	صح	إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب	٥٧٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣١٩	صح بخ	لقبنا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة	٥٧٦
٣٢٠		إن النساء كن يوم أحد خلف المسلمين يجهزن على جرحى ...	٥٧٧
٣٢١	صح	إليَّ عباد الله إليَّ عباد الله	٥٧٨
٣٢١	.	لو قلت بسم الله وذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة ...	٥٧٩
٣٢٢	صح بخ	رأيت يد طلحة شلاء ، وقى بها النبي ﷺ - يعني يوم أحد	٥٨٠
٣٢٢	صح فق	لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال : إرم ...	٥٨١
٣٢٢	صح	إنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ قال سعد : فلقد رأيت	٥٨٢
٣٢٢	صح فق	رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب	٥٨٣
٣٢٢	صح	كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ، ليقتلن	٥٨٤
٣٢٢	صح بخ	اشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ بيده في سبيل الله	٥٨٥
٣٢٣	صح فق	اشتد غضب الله على قوم فعاوا برسول الله ﷺ وهو حينئذ يشير	٥٨٦
٣٢٣		ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص	٥٨٧
٣٢٧	صح	أشيروا عليَّ معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورموهم ...	٥٨٨
٣٢٧	صح	المستشار مؤتمن	٥٨٩
٣٢٧	صح	إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه	٥٩٠
٣٢٨	صح	أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين . .	٥٩١
٣٢٨	.	من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتحذ متزلاً ،	٥٩٢
٣٢٨	صح	استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية.	٥٩٣
٣٢٨	صح فق	ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي	٥٩٤

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٢٩	صح	ردوا الخياط والمخيط ، فان الغلول عارونار	٥٩٦
٣٢٩	صح	إن الحجر يرمى في جهنم فيهوى سبعين خريفاً ما يبلغ	
٣٢٩	صح	قعرها فان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمَةً أمر بلالاً فينادي	٥٩٧
٣٣٢	صح	بالناس قال حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول الله الذين	٥٩٨
٣٣٢	صح	أرسلهم نبيُّ الله إلى بئر معونة إن الله أنزل فيهم قرآنًا بلغوا عنا قومنا إننا قد لقينا ربنا	٥٩٩
٣٣٢	صح	فرضي عنا الشهداء . . . (أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة	٦٠٠
٣٣٢	صح	بالعرش ما من نفس تموت لها عند الله خير ، يسرها أن ترجع إلى	٦٠١
٣٣٢	صح	الدنيا إلا الشهيد . . .) إن أبا جابر هو عبد الله بن عمرو بن حرام الانصاري ...	٦٠٢
٣٣٣	صح	أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : تمنّ فقال له : أردّ إلى	٦٠٣
٣٣٣	صح	الدنيا سمعت جابراً قال : لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب	٦٠٤
٣٣٣	صح	عن وجهه لما أصيب لإخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف	٦٠٥
٣٣٣	صح	طير خضر نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى	٦٠٦
٣٣٤		جسده والذي نفسي بيده لقد سوّمت لهم حجارة لو أصبحوا بها	٦٠٧
٣٣٧	صح	لكانوا كأمس الذاهب من آتاه الله مالا فلم يؤدّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاع	٦٠٨
٣٣٩		أقرع موضع سوطٍ في الجنة خير من الدنيا وما فيها	٦٠٩
			٦١٠

٣٣٩	صح	والله ما الدنيا في الآخرة ، إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم	٦١١
٣٣٩	.	كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله	٦١٢
٣٤٠	صح	من سئل عن علم فكتمه ، ألبم يوم القيامة بلجام من نار .	٦١٣
٣٤٠	صح فق	من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة . . .	٦١٤
٣٤٠	صح فق	المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور	٦١٥
٣٤٠	صح بخ	إن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو	٦١٦
٣٤٠	.	يا رسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكت قال « لم ؟ قال نهى الله المرء أن يحب أن يحمد (...)	٦١٧
٣٤٢	صح فق	صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنبك . .	٦١٨
٣٤٣	صح بخ	كنت عند خالتي ميمونه فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل	٦١٩
٣٤٣	.	انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب	٦٢٠
٣٤٤	صح بخ	يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء ...	٦٢١
٣٤٤	صح فق	إن رجلاً قال : يا رسول الله ، أرايت إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً	٦٢٢
٣٤٥	.	إنما سموا الأبرار لأنهم برّوا الآباء والأبناء	٦٢٣
٣٤٦	صح	إن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما قرأ سورة كهيعص بحضرة النجاشي	٦٢٤
٣٤٦	صح فق	ان النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه	٦٢٥
٣٤٦	صح	لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ استغفروا لأخيكم ...	٦٢٦
٣٤٦	صح	قال لنا رسول الله ﷺ حين مات النجاشي « إن أخاكم أصحمة قد مات	٦٢٧
٣٤٧	.	قال رسول الله ﷺ : ثلاثة يأتون أجرهم مرتين	٦٢٨

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٤٧	صح م	ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ...	٦٢٩
٣٤٧	صح بخ	رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ...	٦٣٠
٣٤٨	صح م	رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ...	٦٣١
٣٤٨	صح	اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ...	٦٣٢
		سورة النساء	
٣٥٠	صح	إن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه ...	٦٣٣
٣٥٠	صح فق	أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ...	٦٣٤
٣٥٠	صح م	إن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك نفر من مضر وهم	
		مجتابو النمار ...	٦٣٥
٣٥١	صح	اغفر لنا حوبنا وخطايانا ...	٦٣٦
٣٥٢	صح	إن غيلان بن سلمة أسلم ومحته عشر نسوة فقال له النبي ﷺ	
		اختر منهن أربعاً ...	٦٣٧
٣٥٣	.	إن النساء سفهاء إلا التي أطاعت قيمها ...	٦٣٨
٣٥٣	صح فق	عن ابن عمر ، قال عرضتُ على النبي ﷺ يوم أحد وأنا	
		ابن أربع عشرة ...	٦٣٩
٣٥٤	.	كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ...	٦٤٠
٣٥٤	صح م	ان رسول الله ﷺ قال : يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني	
		أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي ...	٦٤١
٣٥٥	.	ما خالطت الصدقة مالاً إلا أفسدته .	٦٤٢
٣٥٦	صح فق	إن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعود	
		قال : يا رسول الله إني ذو مال ...	٦٤٣
٣٥٦	.	إن رسول الله ﷺ قال يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم	
		تأجج أفواههم ناراً ...	٦٤٤
٣٥٧	صح	العلم ثلاثة ، وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ،	
		أو سنة قائمة ...	٦٤٥
٣٥٧	صح فق	عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمه ماشيين ،	
		فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً ...	٦٤٦

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٥٧	صح	جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد ...	٦٤٧
٣٥٩	صح	إنكم تقرأون : (من بعد وصية يوصي بها أو دين) وان رسول الله ﷺ قضى بالدين ...	٦٤٨
٣٦١	ض	الإضرار في الوصية من الكبائر ...	٦٤٩
٣٦٢	صح	ان الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث ...	٦٥٠
٣٦٢	صح	إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ...	٦٥١
٣٦٣	صح	... خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً ، الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر ...	٦٥٢
٣٦٣	صح	... لا حبس بعد سورة النساء ...	٦٥٣
٣٦٤	صح	من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به	٦٥٤
٣٦٤	صح	إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ...	٦٥٥
٣٦٤	.	ما من عبد مؤمن يتوب قبل الموت ... إلا قبل منه ...	٦٥٦
٣٦٤	صح	أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ...	٦٥٧
٣٦٥	صح	إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر) ...	٦٥٨
٣٦٥	صح	... وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني ...	٦٥٩
٣٦٦	صح	... لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ، فترلت : (... ولا تعضلوهن ...) ...	٦٦٠
٣٦٦	صح	خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي ...	٦٦١
٣٦٧	صح فق	إن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما ...	٦٦٢
٣٦٧	صح	عن نضرة بن أبي نضرة (إنه تزوج امرأة بكرأ في خدرها فاذا هي حامل ...) ...	٦٦٣
٣٦٧	صح	أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمة الله ...	٦٦٤
٣٦٨	صح م	... واستوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ...	٦٦٥
٣٦٨	صح	مرّ بي عتي الحارث بن عمير ، ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ	٦٦٦
٣٦٩	صح فق	أن رسول الله ﷺ قال تحرم الرضاعة ما تحرم الولادة ...	٦٦٧
٣٦٩	صح م	يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب ...	٦٦٨

رقمه	مطلع الحديث النبوي الشريف	الصفحة درجة الحديث
٦٦٩	ان رسول الله ﷺ قال لا تحرم المصّة والمصتان «	صح ٣٧٠
٦٧٠	كان فيما أنزل من القرآن « عشر رضعات معلومات يحرمن »	صح م ٣٧٠
	إن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة	صح ٣٧٠
٦٧١	خمس رضعات	
٦٧٢	إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها	مراجعہ ٣٧١
	إن أم حبيبة قالت : يا رسول الله أنكح أختي بنت أبي	صح فق ٣٧١
٦٧٣	سفيان	
٦٧٤	إنها لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي	صح بخ ٣٧١
٦٧٥	يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب	صح ٣٧٢
	قدمت على رسول الله ﷺ وعندي أختان تزوجتهما في	صح ٣٧٢
٦٧٦	الجاهلية	
٦٧٧	إذا رجعت فطلق إحداهما	صح ٣٧٢
٦٧٨	طلق أيهما شئت	صح ٣٧٢
	أصبنا سبياً من سبي أوطاس ولهن أزواج فكرهنا أن تقع	صح م ٣٧٣
٦٧٩	عليهن	
	سمى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة ، وعن الحمر الاهليه	صح فق ٣٧٤
٦٨٠	يوم خيبر	
	أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال يا أيها الناس	صح م ٣٧٤
٦٨١	إني قد أذنت لكم في الاستمتاع	
٦٨٢	في حجة الوداع	صح م ٣٧٤
٦٨٣	أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر) اي زان . . .	صح ٣٧٥
	لا تزوج المرأة المرأة ، ولا المرأة نفسها ، فان الزانية هي	صح ٣٧٥
٦٨٤	التي تزوج نفسها	
٦٨٥	اقيموا الحد على إماءكم من أحصن منهن ومن لم يحصن ...	صح م ٣٧٦
٦٨٦	إذا زنت أمة أحدكم فتيين زناها ، فليجلدها الحد	صح ٣٧٦
٦٨٧	إذا زنت ثلاثاً فليبعها في الرابعة	صح م ٣٧٦
٦٨٨	أن رسول الله سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ؟	صح فق ٣٧٦
٦٨٩	ليس على أمة جلد حتى تحصن - يعني حتى تزوج	صح ٣٧٧

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٧٨	مرسل	البيع عن تراض والخيار بعد الصفقة ولا يحل لمسلم أن يغش مسلماً	٦٩٠
٣٧٨	صح فقي	البيعان بالخيار ما لم يتفرقا	٦٩١
٣٧٩	صح بخ	إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا ..	٦٩٢
٣٧٩	صح	لما بعته النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال : احتلمت في ليلة باردة	٦٩٣
٣٧٩	صح	من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يحأ بها بطنه يوم القيامة ...	٦٩٤
٣٨٠	صح	أتدري ما يوم الجمعة ؟ « قلت هو اليوم الذي جمع فيه أباكم	٦٩٥
٣٨٠	صح	خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال « والذي نفسي بيده » ثلاث مرات ثم اكب	٦٩٦
٣٨٠	صح فقي	« اجتنبوا السبع الموبقات » قيل يا رسول ما هن ؟ قال « الشرك بالله	٦٩٧
٣٨٢	صح	قالت أم سلمة يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزوا ...	٦٩٨
٣٨٢	صح	قالت أم سلمة يا رسول الله لا نقاتل فنستشهد ...	٦٩٩
٣٨٢	صح	لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على مكلته بالحق	٧٠٠
٣٨٢	.	سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل	٧٠١
٣٨٣	صح بخ	ولكل جعلنا موالى (أي ورثة	٧٠٢
٣٨٣	صح	كل حلف في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة	٧٠٣
٣٨٤	صح بخ	لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة	٧٠٤
٣٨٤	للنظر	أنى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة فقلعت يا رسول الله ان زوجها ...	٧٠٥
٣٨٤	صح	خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك	٧٠٦
٣٨٤	صح	لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها	٧٠٧

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٨٤	صح فق	إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة ...	٧٠٨
٣٨٥	صح	يا رسول الله ما حق امرأة أحد عليه قال : أن تطعمها إذا طعمت ...	٧٠٩
٣٨٥	صح م	واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان ...	٧١٠
٣٨٦	صح	أتدري ما حق الله على العباد؟ قال : الله ورسوله أعلم ...	٧١١
٣٨٧	صح	الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة	٧١٢
٣٨٧	صح فق	ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . . .	٧١٣
٣٨٧	.	خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران ...	٧١٤
٣٨٧	صح بخ	إن لي جارين فإلى أيهما أهدي ؟ قال : إلى أقربهما باباً «	٧١٥
٣٨٧	صح	الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم	٧١٦
٣٨٧	صح م	إن له قهرمان قال له : هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ ...	٧١٧
٣٨٧	صح	إياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة ...	٧١٨
٣٨٨		وأي داء أدوأ من البخل	٧١٩
٣٨٨	صح	إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة .	٧٢٠
٣٨٨	صح	إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه . .	٧٢١
٣٨٩	صح فق	فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ...	٧٢٢
٣٨٩		إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة ...	٧٢٣
٣٩٠	صح بخ	« إقرأ علي » فقلت يا رسول الله أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال نعم ...	٧٢٤
٣٩٠	صح	شاهد عليهم ما دمت فيهم فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم	٧٢٥
٣٩١	صح	لا يقربن الصلاة سكران	٧٢٦
٣٩١	صح م	نزلت في أربع آيات ، صنع رجل من الانصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين ...	٧٢٧
٣٩١	صح	صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر	٧٢٨
٣٩٢	صح بخ	إذا نعس أحدكم وهو يصلي فلينصرف وليتم حتى يعلم ما يقول	٧٢٩

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٩٢	صح	وفي بعض ألفاظه : فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه . . .	٧٣٠
٣٩٢	صح	ناولني الحمرة من المسجد فقلت : إني حائض فقال	
٧٣١		حيضتك ليست في يدك	
٣٩٢	صح	الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم تجد الماء عشر حجج ...	٧٣٢
٣٩٢	صح	رأيت رجلاً من الصحابة أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون	
٧٣٣		في المسجد وهم محبون	
٣٩٣	صح	واليد زناها اللبس	٧٣٤
٣٩٣	صح فق	إن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملابس	٧٣٥
٣٩٤	منقطع	أن رجلاً أصاب امرأة فعل معها كل شيء إلا الجماع فسأل	
٧٣٦		رسول الله ﷺ عن ذلك توضأ ثم صل	
٣٩٤	صح	ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر الله له	٧٣٧
٣٩٤	صح	كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ	٧٣٨
٣٩٤	صح	إن رسول الله ﷺ قبل بعض نسائه ولم يتوضأ ، قلت :	
٧٣٩		من هي إلا أنت فضحكت	
٤٩٤	صح	أن رسول الله ﷺ كان يقبلها ، هو صائم لا يفطر ولا	
٧٤٠		يحدث وضوء	
٣٩٤	صح	إنه كان يقبل ثم لا يصلي ولا يتوضأ	٧٤١
٣٩٥	صح م	فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف	
٧٤٢		الملائكة	
٣٩٥	صح	الصعيد الطيب طهور المسلم إن لم يجد الماء عشر حجج . .	٧٤٣
٣٩٥	صح	أن رجلاً أتى عمر ، فقال : إني أجنت فلم أجد ماء ...	٧٤٤
٣٩٥	صح	قال في التيمم « ضربة للوجه والكفين	٧٤٥
٣٩٥	صح فق	أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة	
٧٤٦		شهر ،	
٣٩٦	صح بخ	خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا	
٧٤٧		بالبدياء أو بذات الجيش انقطع عقد لي (حديث التيمم).	
٣٩٨	٧٤٨	الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفر الله ، وظلم يغفره الله و... .	٧٤٨

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٩٠	صح	إن رسول الله ﷺ قال ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك ، إلا دخل الجنة ...	٧٤٩
٣٩٩	صح	إن النبي ﷺ قال لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب	٧٥٠
٣٩٩	.	قال الله عز وجل : من علم إني ذو قوة على مغفرة الذنوب .	٧٥١
٣٩٩	صح	غفرت له ولا أبالي ...	٧٥٢
٣٩٩	صح فق	أقرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة ...	٧٥٣
٣٩٩	صح فق	قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال ان تجعل لله نداً وهو خلقك	٧٥٤
٣٩٩	.	ان رسول الله ﷺ قال : ألا أخبركم بأكبر الكبائر ، الإشراف بالله ...	٧٥٥
٤٠٠	صح م	أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب .	٧٥٦
٤٠٠	صح فق	ان رسول الله سمع رجلاً يثني على رجل فقال : ويحك قطعت عنق صاحبك ...	٧٥٧
٤٠٠	صح	من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ...	٧٥٨
٤٠١	صح	الطيرة والعيافة والطرق من الجبت ...	٧٥٩
٤٠١	صح	إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت ...	٧٦٠
٤٠٣	.	وقرأ رجل عند عمر هذه الآية فقال عمر أعيد لها علي فاعادها	٧٦١
٤٠٣	صح	إن في الجنة الشجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها — شجرة الخلد ...	٧٦٢
٤٠٣	صح	أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك ...	٧٦٣
٤٠٣	صح	أن رسول الله ﷺ قال : لتؤدّن الحقوق إلى أهلها حتى يقتصر للشاة الجماء من القرناء)	٧٦٤
٤٠٣	صح	لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ...	٧٦٥
٤٠٤	حسن	إن الله مع الحاكم ما لم يجز فإذا جار وكله إلى نفسه ...	٧٦٦
٤٠٤	صح	هكذا سمعت من رسول الله ﷺ يقرأها ويضع أصبعيه	٧٦٧
٤٠٤	صح بخ	نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية	٧٦٧

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٠٤	صح فق	بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء	٧٦٨
٤٠٥	صح فق	السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره	٧٦٩
٤٠٥	صح بخ	إسمعوا وأطيعوا وإن أمَرَ عليكم عبدٌ حبشيٌ كأن رأسه زبيبة (.)	٧٧٠
٤٠٥	صح	سليكم ولاية بعدي ، فيليكم البرُّ ببرِّه ، والفاجر بفجوره فاسمعوا لهم	٧٧١
٤٠٥	صح فق	من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر	٧٧٢
٤٠٥	صح فق	من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به	٧٧٣
٤٠٨	متكلم فيه	تبعاً لما جئت به	٧٧٤
٤٠٨	صح بخ	خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة ، فقال النبي ﷺ اسقه يا زبير ثم أرسل الماء	٧٧٥
٤٠٨	مرسل	قال نزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة	٧٧٦
٤٠٨	صح	إن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ ففضى للمحق على المبطل..	٧٧٧
٤٠٩	.	لما نزلت (ولو إنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية فقال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ لو فعل ربنا لفعلنا..	٧٧٨
٤٠٩		...لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل) يعني ابن رواحة	٧٧٩
٤١٠	صح بخ	سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من نبيٍّ يمرض إلا خسر بين الدنيا والآخرة (.)	٧٨٠
٤١٠	صح م	اللهم الرفيق الأعلى	٧٨١
٤١٠	صح	جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إنك لأحب إليَّ من نفسي	٧٨٢
٤١٠	صح	كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي « سل » قلت يا رسول الله مرافقتك في الجنة	٧٨٣
٤١١	صح فق	وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ...	٧٨٤
٤١٢	صح	إن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة وقالوا :	٧٨٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤١٤	صح	والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ولا نصب	
٧٨٦		حتى الشوكة ...	
٤١٤	صح فق	من أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني	٧٨٧
٤١٤	صح	من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله	
٧٨٨		فإنه لا يضر إلا نفسه ...	
٤١٥	صح	مهلاً يا قوم بهذا أهلكتم الأمم من قبلكم ، باختلافهم	
٧٨٩		على أنبيائهم ...	
٤١٦	صح م	كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع ...	٧٩٠
٤١٦	صح فق	بشس مطية الرجل زعموا ...	٧٩١
٤١٦	صح فق	إن عمر بن الخطاب بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه . .	٧٩٢
٤١٦	صح م	فقلت أطلقتهن ؟ فقال لا . . .	٧٩٣
٤١٧	صح	قلت للبراء الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده	
٧٩٤		إلى التهلكة ؟ ...	
٤١٧	صح	قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ...	٧٩٥
٤١٧	صح بخ	إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ...	
٧٩٦		اشفعوا تؤجروا ...	
٤١٧	صح	جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال السلام عليك يا رسول الله	
٧٩٧		فقال : « وعليك السلام ورحمة الله ... »	
٤١٨	صح	إذا سلم عليكم اليهود فلأنما يقول أحدهم : السام عليكم	
٧٩٨		فقل : وعليك ...	
٤١٨	.	قال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة	
٧٩٩		حتى تؤمنوا ...	
٤١٩	صح فق	أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس يخرجوا معه ..	٨٠٠
٤٢١	صح فق	لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله	
٨٠١		إلا بإحدى ثلاث : ...	
٤٢١	صح	أنه جاء بأمة سوداء فقال يا رسول الله إن علي عتق رقبة	
٨٠٢		مؤمنة ...	

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٢١	صح م	قال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ قالت . في السماء ...	٨٠٣
٤٢٢	صح فق	إقتلت امرأتان من هذيل . فرمت إحداهما الأخرى بحجر	
٤٢٣	صح	فقتلتها وما في بطنها ...	٨٠٤
٤٢٣	صح	قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض	
٤٢٣	صح	وعشرين بني مخاض و ...	٨٠٥
٤٢٣	صح	بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ،	
٤٢٣	صح فق	فدعاهم إلى الاسلام ...	٨٠٦
٤٢٣	صح فق	أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء ...	٨٠٧
٤٢٣	.	لا يزال المؤمن معتقاً صالحاً ما لم يصب دمًا حراماً ...	٨٠٨
٤٢٣	.	لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم —	
		لأكبهم الله في النار ...	٨٠٩
٤٢٣	صح	لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم ...	٨١٠
٤٢٤	صح فق	خبر الإسرائيلي الذي قتل مئة نفس ثم سأل عالماً هل لي من	
٤٢٤	صح	توبة ...	٨١١
٤٢٤	صح	يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان .	٨١٢
٤٢٤	صح	كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو	
٤٢٥		الرجل يقتل مؤمناً متعمداً ...	٨١٣
		إن صاحباً لنا قد أوجب قال : فليعتق رقبة يفدي الله بكل	
٤٢٦	صح	عضوٍ منها ..	٨١٤
٤٢٦	صح	مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ	
٤٢٦	صح يح	يرعى غنماً له فسلم عليهم ...	٨١٥
٤٢٦	صح يح	أسباب نزول قوله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم	
٤٢٦	صح يح	السلام ...	٨١٦
٤٢٦	صح يح	دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها ، فجاء ابن أم مكتوم	
٤٢٧	صح يح	فشكا ضرارته ...	٨١٧
		... أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد قال : فأقبلتُ حتى	
		جلستُ ...	٨١٨

رقمه	مطلع الحديث النبوي الشريف	الصفحة درجة الحديث
٨١٩	لا يستوي القاعدون من المؤمنين ... أسباب نزولها . . .	٤٢٧ صح
٨٢٠	إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من واد . . .	٤٢٧ صح
٨٢١	إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ...	٤٢٨ صح فق
	أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين	٤٢٨ صح بخ
٨٢٢	يكثر ون سوادهم ...	
٨٢٣	من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله	٤٢٨
	لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ للعباس	٤٢٨ صح
٨٢٤	« أفد نفسك ...	
٨٢٥	اللهم أنج عياش بن ربيعة ، اللهم انج سلمة بن هشام ، ...	٤٢٩ صح بخ
٨٢٦	إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى	٤٢٩ صح فق
٨٢٧	من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله ...	٤٣٠ صح
٨٢٨	خرج حمزة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق	٤٣٠ صح
٨٢٩	من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ..	٤٣١ غريب
٨٣٠	صدقة تصدق بها الله عليكم فاقبلوا صدقته	٤٣١ صح م
	صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون	٤٣١ صح
٨٣١	لا نخاف	
	خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي	٤٣١ صح بخ
٨٣٢	ركعتين	
٨٣٣	صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين	٤٣١ صح بخ
	صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين وأبي بكر وعمر وعثمان	٤٣١ صح فق
٨٣٤	صدراً من أمارته	
٨٣٥	فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر	٤٣١ صح فق
٨٣٦	صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان	٤٣٢ صح م
٨٣٧	فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ في الحضر أربعا	٤٣٢ صح م
٨٣٨	سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال ركعتان تمام غير قصر ..	٤٣٣ صح
٨٣٩	أسباب نزول الآية ﴿ وإذا ضربتم في الأرض ... ﴾	٤٣٤ غريب
	كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم	٤٣٤ صح
٨٤٠	خالد بن الوليد	

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٣٧	صح فق	ألا إنما أنا بشر وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، ...	٨٤١
٤٣٧	صح	إنما أقضي بينكما لرأي فيما لم ينزل علي فيه ...	٨٤٢
٤٣٨	صح	ألا إنما أنا بشر وإنما أمضى بنحو مما أسمع ، ولعل أحدكم	
٨٤٣		أن يكون ألحن بحجته ...	
٤٣٨	حسن	إنه أتاني آت من ربي فقال : إنه : من يعمل سوء ...	٨٤٤
٤٤٠	.	كلام ابن آدم كله عليه لاله ، إلا ذكر الله عز وجل ...	٨٤٥
٤٤٠	صح	« ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيمني خيراً ، ... »	٨٤٦
٤٤٠	حسن صح	« ألا أخبركم أفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ ... »	٨٤٧
٤٤٢	صح	لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمنمصات .	٨٤٨
٤٤٢	صح فق	كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ...	٨٤٩
٤٤٣	صح	إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ	٨٥٠
٤٤٣	صح	يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية ﴿ ليس بأمانيتكم ﴾	٨٥١
٤٤٤	صح	لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : جاءت قاصمة الظهر ...	٨٥٢
٤٤٤	صح م	لما نزلت الآية : (ومن يعمل سوء يجزّبه) شق ذلك على	
٨٥٣		المسلمين ...	
٤٤٥	صح فق	أما بعد ، أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض	
٨٥٤		خليلاً لاتخذت أبا بكر ...	٨٥٤
٤٤٥	صح	إن الله اتخذي خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ...	٨٥٥
٤٤٧	حسن غريب	خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ ...	٨٥٦
٤٤٧	صح فق	لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يوماً لعائشة ...	٨٥٧
٤٤٨	صح	ثم يقول « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما	
٨٥٨		تملك ولا أملك ...	٨٥٨
٤٤٨	صح	من كانت له امرأتان فمال إلى أحدهما ، جاء يوم القيامة	
٨٥٩		وأحد شقيه ساقط .	٨٥٩
٤٥٠	.	خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها .	٨٦٠
٤٥٢	.	من انتسب إلى تسعة أبناء كفار يريد بهم عزاً وفخراً ، فهو	
٨٦١		عاشرهم في النار .	٨٦١

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٥٢		من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر	٨٦٢
٤٥٤	صح	إن الله يأمر بالعبء إلى الجنة فيما يبدو للناس ويعدل به إلى النار	٨٦٣
٤٥٤	صح فق	أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر	٨٦٤
٤٥٤	صح	والذي نفسي بيده لو علم أحدهم أنه يجد عرقاً سمياً أو مرماتين	٨٦٥
٤٥٤	صح م	تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان	٨٦٦
٤٥٤	.	مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين	٨٦٧
٤٥٥	صح	أخلص دينك يكفك العمل القليل	٨٦٨
٤٥٦		لا تسبخي عنه	٨٦٩
٤٥٦	صح	أيما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً	٨٧٠
٤٥٦	صح	إن لي جاراً يؤذيني فقال له أخرج متاعك فضعه على الطريق	٨٧١
٤٥٧	صح	ما نقص مال من صدقه ، ولا زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً	٨٧٢
٤٦٣	صح بخ	والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً	٨٧٣
٤٦٣	صح بخ	يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، يقتل الدجال	٨٧٤
٤٦٤	صح م	ليهلن عيسى بن مريم بفتح الروحاء بالحج أو العمرة	٨٧٥
٤٦٤	صح بخ	(كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم وإمامكم منكم)	٨٧٦
٤٦٤	صح	الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد	٨٧٧
٤٦٤	صح م	ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع	٨٧٨
٤٦٦	صح	يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لد - أو جانب لد -	٨٧٩
٤٦٦	صح	أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة	٨٨٠
٤٦٦	صح	فقال أم شريك : يا رسول الله ، فأين العرب يومئذ ؟	٨٨١
		قال : هم قليل	٨٨١

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٦٧	صح	وأراني الله عند الكعبة في المنام ، وإذا رجل آدم كأحسن ما ترى	٨٨٢
٤٦٨	صح	إن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة	٨٨٣
٢٧٠	ص	إني لخاتم ألف نبي أو أكثر	٨٨٤
٤٧١		قلت يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير	٨٨٥
٤٧١	صح	إني خاتم الف نبي أو أكثر وما بعث نبي يتبع إلا وقد حذر امته منه - أي من الدجال	٨٨٦
٤٧١	صح	جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال سمعت رجلاً يقرأ « وكلم الله موسى تكليماً	٨٨٧
٤٧١	صح فق	لا أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن	٨٨٨
٤٧٣	.	دخل على رسول الله جماعة من اليهود فقال لهم : إني لأعلم والله أنكم لتعلمون أني رسول الله	٨٨٩
٤٧٤	صح بخ	لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم	٨٩٠
٤٧٤	صح	أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهويكنم الشيطان	٨٩١
٤٧٤	صح بخ	من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإن محمداً عبده ورسوله	٨٩٢
٤٧٥	صح فق	زاد : من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء	٨٩٣
٤٧٥	صح	فأدخل على ربي في داره	٨٩٤
٤٧٧	.	القرآن صراط الله المستقيم وحبل الله المتين	٨٩٥
٤٧٧	صح فق	دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل . قال :	
		قال : فتوضأ ثم صبّ عليّ	٨٩٦
٤٧٨	صح فق	ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله	٨٩٧
٤٧٩	صح	أنه سئل عن زوج ، وأخت وأب وأم . فأعطى الزوج النصف	٨٩٨
٤٧٩	صح بخ	قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف	٨٩٩
		للبنات	

٤٧٩	صح بخ	ألقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر	٩٠٠
-----	-------	--	-----

٤٧٩	صح فق	ألقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر	٩٠١
-----	-------	---	-----

انتهى المجلد الأول ويليه المجلد الثاني